

صِيْدُ الْخَطَايَا

للإمام ابن الجوزي

راجعه
عالي الطنطاوي

محققه
عالي الطنطاوي

دار الفكر دمشق

صِيْدُ الْخَطَايَا

للامام « ابن الجوزي »

محققه
ووضع فهرسه وعناوين فصوله
ناحي الطنطاوي

راجعه
ووضع مقدمته وعلق عليه
علي الطنطاوي

الجزء الأول

دار الفكر دمشق

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٦٠ - ١٣٨٠

مطابع دار المنير بدمشق

١١٠٤١ ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ونستعينه وتوكل عليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،
اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك ،
اللهم اني أسألك أن تنفع به ، وأن تشيبيني عليه ،
وصل اللهم على سيدنا محمد معلّم الخير وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسان .

المقدمة

كنت أعمل في بغداد نحو سنة (١٩٣٦) أدرس في كلية العلوم الشرعية في الاعظمية ، وأقيم فيها منفرداً ، فكنت اذا طال عليّ الليل ، وأوحشت الوحدة ، أفزع الى مكتبة الكلية ، أستعير منها الكتاب بعد الكتاب أنظر فيه ، فأطالع بعضها وأكتفي من بعضها بتصفح أوراقه ، والامام بموضوعاته ، وبعض أدرسه وأختصه ، وبعض أختار منه . وكان فيما استعرت منها ، كتاب بلغ من اعجابي به ان استبقيته عندي ، الى ان فارقت الكلية ، أقرأ فيه كل يوم ، فلا أملّ القراءة فيه ، ولا تخلو نظرة فيه من موعظة أتعظ بها ، او فائدة أستفيدها ، او طريقة آتس بها . وفيه فوق ذلك تحليل للنفس وفيه وصف للمجتمع . في أسلوب مبتكر ، وطريقة في التصنيف لا أعرفها لأحد من المصنفين .

وكان الكتاب « صيد الخاطر لابن الجوزي »

وفي هذا الاسم توفيق عجيب : ذلك ان الحواطر لاتقتأ

تمر على الذهن ، كأنها الطيور التي تجوز سماء الحقل ، تراها لحظة ثم تفتقدها ، فكأنك مارأيتهما ، فإذا انت اصطدتها وقيدتها ملكتها أبداً . لذلك جعل المؤلف هذا الكتاب « قيدا لصيد الخاطر » فكان الاسم نفسه نفحة من نفحات العبقريّة . وقد قلّده فيه (أحمد أمين) فسوّى ديوان مقالاته (فيض الخاطر) وشتان ما هما .

ولو أن كل عالم ، بل لو أن كل متعلم قيّد ما يمر بذهنه من الخواطر لكان من ذلك ثروة له وللناس : يعود هو بعد سنين الى ما كتب ، فيرى فيه تاريخ تفكيره ، ويجد فيه ما افتقد من نفسه . والانسان ابداً في تبدل ، يذهب منه (شخص) ويولد (شخص) وحينما تقرأ وأنت (شيخ) خواطرك التي سجلتها وأنت (شاب) تجد شيئاً غريباً عنك ، كأنك ما كنت انت صاحبه ، وكأنه خطر على بال غيرك . ثم انه ان كان عالماً او مفكراً ، كان من هذه الخواطر كتاب علم وأدب وفن ككتاب ابن الجوزي .

- ٣ -

فلما عدت الى دمشق ، فلتشت عن نسخة من الكتاب - وكانت نسخة نادرة من تلك الايام - حتى وجدتها ، فجعلت أنظر فيه دائماً ، وراة اخي ناجي (القاضي الشرعي) فأولع

به ، ولازم مطالعته ، حتى كاد يحفظه عن ظهر قلبه ، ووضع
العناوين لفصوله ، واتخذ له فهرس ، يصنع ذلك لنفسه لا يفكر
في طبعه ولا في نشره .

فلما رأيت ذلك ، ورأيت الكتاب جيداً جداً ، ونسخه
قليلة جداً ، فكرت في نشره ، وكان في الكتاب كثير من
التعريف والخطأ ، ففتشنا عن نسخ منه مخطوطة وأمدنا الصديق
الدكتور صلاح الدين المنجد (مدير معهد المخطوطات) بها ،
فاشغل اخي ناجي بمقابلة المطبوع عليها ، وحققه ما استطاع ،
وان لم يسلم من كثير من الغموض ، ومن آثار تحريف
الناسخ ، لانه لم يجد نسخة مخطوطة صحيحة يعتمد عليها .

وكان عملي فيه ان راجعته ، فرأيت المؤلف رحمه الله ،
يتبع في كل خاطرة (وحي الساعة) كما يقولون ، يسجل
ما يخطر على باله ، فيقع أحياناً في تناقض : يسوق الرأي قد
ساق من قبل ضده ، ويدم شيئاً كان قد وقع هو فيه ،
ويأتي بآراء لا يسلم له بها ، ولا يجوز السكوت عنها ، فكنت
أعلق على ذلك بما أيتن به الصواب الذي أعرفه ، وان
كنت لا أصلح تلميذاً لتلاميذ تلاميذه ، وأين انا من ابن
الجوزي ؟ ولكنه الواجب . والغلام ان عرف الحق في مسألة
ردة فيها على شيخ الاسلام ، وقد تلقى ابو حنيفة علمه (الذي

قاله هو ونسبه) من حجام في مكة ، وردت عجوز على مهر
وهو على المنبر ، فقبل منها ورجع الى رايها .

- ٤ -

وانا قديم التعظيم لابن الجوزي ، قديم الحب له ، ولقد
كان كتابه في سيرة عمر بن عبد العزيز الذي نشره خالي
الاستاذ محب الدين الخطيب سنة (١٣٣١) هـ من اوائل
ما قرأت من الكتب ، وقد خلف في نفسي أثراً لا يزول ،
وكان من أسباب الرشد لي والحمد لله ؛ ولرب كلمة يسمعها
الناشيء ، أو كتاب يقرؤه ، أو انسان يصعبه ، يكون
سبب دخوله الجنة أو دخوله النار ، ويكون بداية سيره في
طريق الخير أو في طريق الشر ، فلينبته الشبان لما يقرؤون ولمن
يصعبون ، ولينبته قبل ذلك آباؤهم ، فليختاروا لهم المدارس
التي تعلمهم ما ينفعهم ، وتثبت عليهم ايمانهم واخلاقهم ، ولا يكون
ذلك الا ان كان القائلون عليها ، والمدرسون فيها من اهل الدين
والتقوى والعلم بالشريعة والعمل بما يعلمونه منها .

- ٥ -

رايت ابن الجوزي في هذه السيرة مؤرخاً جامعاً ، واسع
الرواية ، ثم قرأت له « تليس ابليس » فوجدت فيه محدثاً
فقيهاً نافداً بصيراً ، يزن الناس بميزان السنة الصحيحة فيرفع من

يرجع في هذا الميزان ، ويخفف من يكون مرجوحاً ، لا يبالي في الحق كبيراً ولا صغيراً ، ولا ينجده عن حقيقة المرء سعة جاهه وشهرته بالصلاح ، ولقد كان هذا الكتاب أول ما نبهني الى انحرافات بعض الصوفية عن طريق السنة .

ثم قرأت له كتاب (الاذكياء) الذي جمع فيه من أخبار اذكياء الملوك والقضاة والاطباء كل معجب مطرب ، وقرأت له كتاباً في « اخبار الحكمى والمغفلين » فيه من النوادر والطرائف ما يضحك الحزين .

ولما أراد صديقنا (يومئذ) الاستاذ حسام الدين القدسي أن يطبع كتابه في « أخبار الطراف والمتاجنين » كلفني أن أقدم له بكلمة فكتبته ، وهذه المقدمة من آثار الشباب التي لا أرتضيها وقد كتبها سنة طبع الكتاب وهي سنة ١٣٤٧ هـ أي قبل ثلث قرن كامل .

- ٦ -

وعجبت من كثرة الموضوعات التي ألف فيها ، ثم رأيت كتاب « عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً أكثر » لجليل العظم ، وقد ذكر ابن الجوزي ، وعدّ من مؤلفاته مئة وتسعة وعشرين مؤلفاً ، فازداد عجبى منه وأعجابى به . وقرأت ترجمته في « البداية والنهاية » فرأيت يصفه بأنه

« أحد افراد العلماء برز في علوم كثيرة ، وانفرد بها عن غيره
 وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثائة مصنف ،
 وكتب بيده نحواً من مئتي مجلد ، وله في العلوم كلها اليد
 الطولى ، والمشاركات في سائر انواعها ، من التفسير والحديث
 والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة
 والنحو . وله من المصنفات في ذلك كله ما يضيئ هذا المكان
 عن تعدادها ، وحصر افرادها ، منها كتابه في التفسير المشهور
 بـ « زاد المسير » وله تفسير ايسر منه - أي أوسع -
 لكنه ليس بمشهور ، وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند
 أحمد وصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذي ، وله كتاب
 « المنتظم في تواريخ الامم من العرب والعجم » في عشرين
 مجلداً ، وقد اوردنا (يقول ابن كثير) في كتابنا هذا كثيراً من
 حوادثه وتراجمه ولم يزل يؤرخ اخبار العالم حتى صار هو تاريخاً :
 ما زلت تدأب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً ...

- V -

وقال ابن خلكان :

« انه كان علامة عصره ، وامام وقته ، في الحديث وصناعة
 الوعظ ، صنف في فنون كثيرة ، منها « زاد المسير في التفسير »
 أربعة اجزاء أتى فيه بأشياء غريبة ، وله في الحديث تصانيف

كثيرة ، وله « المنتظم » في التاريخ وهو كبير ، وله
 « الموضوعات » في اربعة اجزاء ذكر فيها كل حديث موضوع ،
 وله « تلخيص فهوم الاثر » على وضع كتاب المعارف لابن
 قتيبة - اي على طريقته ومنهاجه - وله « لقط المنافع »
 في الطب .

وبالجملة فكتبه اكثر من أن تعدّ ، وكتب بخطه شيئاً
 كثيراً ، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا إنه جمعت الكراريس
 التي كتبها وحسبت مدة عمره ، وقسمت الكراريس على المدة ،
 فكان ما خص كل يوم تسع كراريس .
 وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل .

ويقال : انه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله
 ﷺ فحصل منها شيء كثير ، أوصى ان يسخن به الماء الذي يغسل به بعد
 موته ، ففعل ذلك فكفت ،

وقال الحافظ الذهبي :

« ما علمت أن أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل »

وقال ابن تيسية :

« عدوت له اكثر من ألف مصنف ، ورأيت بعد ذلك ما لم أراه »^(١) ،

وقال الموفق المقدسي :

« كان ابن الجوزي امام اهل عصره في الوعظ ، وصنف في

فنون العلم تصانيف حسنة وكان صاحب فنون ، وكان يدرس الفقه ويصنف فيه ، الا اننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها ^(١) .

- ٨ -

ويقول ابن الجوزي نفسه في « لغة الكبد » :

« وقد علمت يابني أني صنفت مئة كتاب ، فمنها التفسير الكبير عشرون مجلداً ، والتاريخ عشرون مجلداً ، وتهذيب المسند عشرون مجلداً ، وباقي الكتب ما بين كبار وصغار يكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر »

وقال القطيعي :

« نازلي ابن الجوزي كتاباً بخطه فيه فهرست مؤلفاته كلها ^(٢) وقد عرض في « صيد الخاطر » لذكر طائفة من كتبه منها :
 لقط المنافع في الطب (ذكره في الفصل ٥٣) ذم الهوى (الفصل ٦٣) تلبس ابليس (الفصل ٧١ و ٢٤٧ و ٣٠٨ و ٣١٢)
 كتاب الاذكياء (الفصل ١٨٤) المنتظم (الفصل ٣٠٨) واخبار الحسن واخبار سفيان الثوري واخبار ابراهيم بن ادم واخبار بشر الحافي واخبار احمد بن حنبل واخبار معروف الكرخي ،
 و كتابه في أغاليط الغزالي في الإحياء (الفصل ٣٣٦)

(١) لم يرض عنه على رغم عصييته للعتابة وتحامله على الاشاعة ، فاذا (لعري) يقول عنه لو كان معتدلاً ؟
 (٢) وهذا الفهرست موجود في الذيل لابن رجب (١ : ٤١٦)

- ٩ -

وقد عابوا عليه أشياء^(١) : منها كثرة أغاليطه في تصانيفه ،
وعذره في هذا واضح ، وهو أنه كان مكثراً من التصانيف ،
فيصنف الكتاب ولا يعتبره بل يشغل بغيره . ولربما كتب في
الوقت الواحد تصانيف عديدة ، ولولا ذلك لم يجتمع له هذه
المصنفات الكثيرة . وقد ينقل من التصانيف في علم من غير أن
يكون متقناً لذلك العلم من جهة الشيوخ والبحث ، ولهذا نقل
عنه أنه قال : « أنا مرتب ولست بمصنف »

وكان إذا رأى تصنيفاً وأعجبه ، صنف مثله في الحال وإن
لم يكن قد تقدم له في ذلك الفن عمل ، لقوة فهمه وحدة ذهنه ،
فربما صنف لأجل ذلك الشيء ونقيضه بحسب ما يتفق له من
الوقوف على تصانيف من تقدمه .

- ١٠ -

أما منزلته في الوعظ فما اعرف من يدانيه فيها ، ولقد قرأت سير
عشرات من اساتذة الوعظ ، فما رأيت من أوتي من قوة العارضة ،
وحسن التصرف في فنون القول ، وشدة التأثير في الناس ،
مأوثيه . ابن الجوزي .

(١) الدليل لابن رجب

ولم يكن الوعظ في صدر الاسلام صناعة ، ولا كانت في الناس من ينقطع اليه ويعرف به ، ولم تكن تعقد له المجالس : ينصب للوعاظ فيها الكرامى ، ويجتمع فيها الآلاف من الناس ، بل كان الرجل يلقى العالم فيسأله الموعظة ، فيعظه بكلمة تخرج من القلب ، لا يعتمد فيها الى تجويد عبارة ، ولا الى تحسين لفظ .

ثم نشأت طبقة اتخذت الوعظ حرفة ، وعقدت له المجالس ، وغلطت فيه السنة الصحيحة بالامرائيليات ، والرواية بالخطائيات ، وكان هؤلاء الوعاظ يعرفون بـ « القصاص » (١)

فما كان عصر ابن الجوزي حتى صار الوعظ فنا له قواعده وله اصوله ، واتسعت مجالسه وارتفعت منزلة اهله ، حتى روي أنه حضر مجلس ابن الجوزي مئة الف ؟ ولست ادري كيف كانوا يسمعون صوته ويفهمون عنه !

- ١١ -

فلما كانت خلافة المستضيء قوي اتصال ابن الجوزي به ، وصنف له الكتاب الذي سماه « المصباح المضيء في دولة المستضيء » ، ولما خطب له بمصر وانقطع حكم العبيديين - الذين يدعون بالفاطيين - ألف

(١) وقد ظن شفيق جبري (من جهله بهذه العلوم) ان القصاص مثل اسكندر دوما وأضرابه ، فخطب في الكلام عنهم في كتابه عن (الاغاني) خطب أعشى في ليل بهم

كتاب «النصر على مصر» وحضر عنده وقرأه عليه .
ثم أذن له أن يجلس للوعظ في «باب بدر» في البلاط ، واعطاء مالا

- ١٢ -

وتحت أيدينا وثيقة نادرة المثال ، فيها وصف مجلس من مجالس وعظه ، حضره الرحالة النبيه الثقة ، وسجله في رحلته القيّمة ، هو ابن جبير الاندلسي الذي قدم بغداد سنة (٥٨٠) وحضر مجالس ابن الجوزي قبل وفاته بسبع عشرة سنة ، وقد كان عمره يومئذ سبعاً وسبعين سنة ، قال :

« ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس بباب بدر في ساحة قصر الخليفة ، ومناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع من حرم الخليفة ، وقد خصّ ابن الجوزي بالوصول اليه ، والتكلم فيه ، لیسعه من تلك المناظر ^(١) الخليفة نفسه والدقه ومن حضر من الحرم ، ثم يفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر ، وجلس ابن الجوزي بهذا الموضع كل يوم خميس .

فبكرنا لمشاهدته ، وقعدنا الى ان وصل هذا الحبيب المتكلم ، فصعد المنبر وأزاح طيلسانه عن رأسه متواضعاً لحرمه المكان ؛ وقد تسطرّ قرأ القرآن امامه على كرامى موضوعة ^(٢) ، فابتدروا القراءة

(١) أي النوازل والشرقات (٢) أي جلسوا صفوفاً كالاسطر

على الترتيب، فشوقوا ماشاؤوا وأطربوا ما ارادوا، وبادرت العيون
بارسال الدموع .

فلما فرغوا من القراءة ، وقد احصينا لهم تسع آيات من سور
مختلفات ، صدع ابن الجوزي بخطبه الزهراء ، واتى بأوائل الآيات في
اثنائها منتظماً ، ومشى في الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى ان
أكملها ، وكانت الآية د الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار
مبصراً ان الله لذو فضل على الناس ، فتأدى على هذا السين ، وحسن أي
تحسين فكان يومه هذا أعجب من أمسه ^(١) ، ثم اخذ في الثناء على الخليفة
والدعاء له ولوالديه وكنى عنها به والستر الاشرف والجناب الارأف ،

وكان الخليفة يومئذ الناصر الذي جدد شباب الخلافة العباسية
بعد المهرم ، ثم شرع يسلك سبيله في الوعظ ، كل ذلك بديهة لاروية ^(٢)
ويصل كلامه في ذلك بالآيات التي كان قرأها القراء من قبل في المجلس
فأرسلت وابلها العيون ، وأبدت النفوس مرّ شوقها المكنوث ،
وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ^(٣) وبالتوبة معلنين ، وطاشت
الالباب والعقول ، وكثر الوله والذهول . وصارت الناس لا تملك
تحصيلاً ، ولا تميز معقولاً ، ولا تجد للبصر سبيلاً .

(١) وكان قد وصف مجلسه الاول في رحلته (٢) اي ارجحاً لا إعداداً

(٣) الاعتراف من شاعر النمرانية . اما الاسلام فيرغب المذنب بستر الذنب

والتوبة منه لله وحده .

ثم في أثناء مجلسه كان ينشد أشعاراً من النسيب مبرّحة التشويق ،
 بديعة الترفيق تشعل القلوب وجداً ، ويعود موضعها الغزلي وجداً^(١)
 وكان آخر ما أنشده من ذلك :

أين فؤادي ؟ أذابه الوجدُ وأين قلبي ؟ فما صحاب بعدُ
 في أبيات ، لم يزل يرددها ، والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد
 تمنع خروج الكلام من فيه ، الى ان خاف الافعام ، فابتدر للقيام
 ونزل عن المنبر عجلًا ، وقد اطار القلوب وجلاً ، وترك الناس على
 أحر من الجمر ، يشيّعونه بالمدامع الجمر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن
 متعفّر بالتواب ، فياله من مشهد ما أهول مرآه ، وما أسعد من رآه ،
 قال : « وما كنا نحسب ان متكلماً في الدنيا يعطى من امتلاك النفوس
 والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل » .

- ١٣ -

وهذا وصف لمجلس آخر من مجالسه ، كتبه ابن الجوزي
 بقله ، قال :

« وسألني أهل الحربية^(٢) أن أعقد عندهم مجلساً لا وعظ ليلية ،
 فوعدتهم ليلة الجمعة سادس ربيع الاول^(٣) وانتقلت بغداد ، وعبر
 أهلها عبوراً زاد على نصف شعبان^(٤) زيادة كبيرة ، فعبرت الى باب

(١) الوعظ في سنة الاسلام بالآيات والاحاديث لا بأشعار الغرام .

(٢) ضاحية في بغداد (٣) أي سنة ٥٦٩

(٤) الاحتفال بنصف شعبان والدعاء فيه بدعة مالها اصل م - ٢

البصرة^(١) ، فدخلتها بعد المغرب ، فتلقاني أهلها بالشعوع الكثيرة ، وصحبني منها خلق عظيم ، فلما خرجت من باب البصرة ، رأيت أهل الحربية قد أقبلوا بشعوع لا يمكن احصاؤها ، فأضيفت الى شعوع أهل باب البصرة ، فحزرت بألف شمعة ، وما رأيت البرية إلا مملوءة بالاضواء ، وخرج أهل الحال والنساء والصبيان ينظرون ، وكانت الزحام كالزحام بسوق الثلاثاء ، فدخلت الحربية وقد امتلأ الشارع وأكربت الرواشين^(٢) من وقت الضحى ، ولو قيل : ان الذين خرجوا يطلبون المجلس وسعوا في الصحراء بين باب البصرة والحربية مع المجتمعين في المجلس كانوا ثلاثمائة ألف ما بعد القائل .

وهذا وصف مجلس ثالث :

قال ابن الجوزي : « تكلمت يوم الخميس ، خامس رجب من هذه السنة^(٣) في قصر الخليفة ، بعد العصر ، وحضر السلطان ، واخذ الناس أماكنهم من بعد صلاة الفجر ، وأكربت دكاكين ، فكان كل موضع رجل بغيراط ، حتى أنه اكثري دكان لثمانية عشر رجلاً بثانية عشر قيراطاً ، ثم جاء رجل فأعطاهم ستة قراريط حتى جلس معهم ، وكان الناس يقفون يوم مجلسي من باب بدر^(٤) الى باب النوري كأنه العيد .

ثم ذكر مجالسه سنة احدى وسبعين بباب بدر ، وحضور الخليفة

(٢) جمع روشن وهو خص النافذة

(٤) من ابواب قصر الخليفة

(١) وهو من ابواب بغداد

(٣) اي سنة ٥٦٩

عنده غير مرة وازدحام الناس من نصف الليل ، وكانت يعظ هو
 وأبو الخير القزويني . قال :

« وكنت أتكلم اسبوعاً ، وأبو الخير القزويني اسبوعاً ، وجمعي
 عظيم ، وعنده عدد يسير ؛ ثم شاع أن أمير المؤمنين لا يحضر إلا
 مجلسي » . قال :

« وبعت إلي بعض الامراء من اقارب أمير المؤمنين : (والله
 ما احضر انا ولا أمير المؤمنين غير مجلسك ، وانما قلنا نحن مجلس غيرك
 يوماً وبعض يوم آخر)

وحدثني بعض خدام الخليفة أن الخليفة حضر يوماً المجلس متعاملاً
 لمرض حصل له - (قال) ولولا شدة محبتك لما حضر ، لما كان اعتراؤه من الألم .
 وتكلمت يوم عرفة بباب بدر فكان مجلساً عظيماً ، تاب فيه خلق
 كثير ، وقطعت شعور كثيرة ، وكان السلطان حاضراً .

ثم في يوم عاشوراء سنة اثنتين وسبعين تكلمت بباب بدر ، وامتلاء
 المكان من السحر ، وطلع الفجر وليس لاحد طريق ، فرجع الناس ،
 وامتألت الطرق بالناس قياماً يتأسفون على فوت الحضور .

وكان يوم المجلس تغلق ابواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام ،
 فاذا جئت بعد العصر فتتح لي ، وزاحم معي من يمكنه ان يزاحم ،
 حتى قال أمير المؤمنين : ما هذا الرجل آدمي ، لما يقدر عليه من الكلام .

- ١٥ -

قال ابن رجب :

« قرأت بخط ناصح الدين الحنبلي الواعظ ، انه اجتمع في ابن الجوزي من العلوم ما لم يجتمع في غيره ، وكانت مجالسه الوعظية جامعة للحسن والاحسان باجتماع الظراف في بغداد ونظام الناس ، وحسن الكلمات المسبحة ، والمعاني المودعة في الالفاظ الرائجة ، وقراءة القرآن بالاصوات المرجعة ، والنفحات المطربة ، وصيحات الواجدين ^(١) ودعوات الخاشعين ، واثابة النادمين ، وذل التائبين ، ووعظوه ابن عشرين الى ان مات ، ولم يشغله عن الاشتغال بالعلم شاغل ، ولا لعب ولاها ، ولا سافر الا الى مكة ، ولقد كان فيه جمال لاهل بغداد خاصة والمسلمين عامة »

- ١٦ -

واعانه على ذلك انه كان - كما قال الموفق - لطيف الصوت ، حلو الشائل ، رخم النغمة ، موزون الحركات ، لذيق المفاكة .

قال ابن كثير :

« وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والامراء والعلماء والفقراء ، ومن سائر صنوف بني آدم ، وأقل ما كان يجتمع فيه

(١) وهذا كله يخالف لطريقة السلف ، لم يعرفه خير القرون .

عشرة آلاف ، وربما اجتمع فيه مئة ألف ^(١) وربما تكلم من خاطره على البدية نظاماً ونثراً .

وكان يسمع وعظه مرة الخليفة المستضيء العباسي ، فالتفت الى ناحيته وهو في الوعظ وقال : يا أمير المؤمنين ، إن تكلمت خفت منك ، وإن سكت خفت عليك ، وإن قول القائل لك : اتق الله ، خير من قوله لكم : انكم أهل بيت مغفور لكم ، وكان عمر بن الخطاب يقول : إذا بلغني عن عامل أنه ظلم فلم أعيره فانا الظالم ، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول : فرقر أو لا تفرقر ، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميناً حتى يخصب الناس ^(٢)

فبكى المستضيء ، وتصدق بمال كثير ، وأطلق المحبوسين وكسا خالقاً من الفقراء ،

- ١٧ -

قال ابن الجوزي في « لفته الكبد » :

ولقد وضع الله لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد ، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته ، وقد اسلم على يدي نحو مئتين من أهل الذمة ، ولقد تاب في مجالسي أكثر من مئة ألف ، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف بما يتعانه الجهال ^(٣)

(١) يعني تقديراً لا تحقيقاً (٢) انظر كتابنا (اخبار عمر)

(٣) أي كما يصنع الخشنون اليوم من ترجيل الشمر وتجبيده وتلبينه وتطيره ، وحمل المشط ، والتشبه في ذلك بالنساء .

- ١٨ -

وكان سرُّ نجاحه في قوة بديته ، وسرعة بادرته ، وحضور ذهنه ،
ونوادر أجوبته ، مع كثرة محفوظه ، وسعة روايته .

ومن اندر الاجوبة أنه وقع النزاع على عهده في المفاضلة بين ابي
بكر وعلي ، بين اهل السنة والشيعة ، ورضوا فيما بينهم بما يجيب به
الشيخ ابو الفرج ، فأقاموا له رجلاً وسط المجلس ، فسأله عن ذلك ،
فقال على الفور :

« أفضلها من كانت ابنته تحته »

ونزل في الحال حتى لايراجع . فقالت الشيعة : يريد علياً ، لأن
بنت النبي ﷺ تحته . وقال اهل السنة : يريد ابا بكر ، لان ابنته تحته
النبي ﷺ .

قال ابن خلكان : « ولو جاء هذا الجواب بعد الفكر التام ،
وامعان النظر ، لكان في غاية الحسن ، فكيف وهو على البدية ؟ »

ومن اجوبته ان رجلاً سأله : أيها افضل ، أسبح أو استغفر ؟

فقال : الثوب الوسخ احوج الى الصابون منه الى البخور

وسئل عمن أوصى وهو في النزاع فقال : هذا رجل طين سطحه في كانون

ومن قوله : « شهوات الدنيا انموزج يعرض ولا يقبض » اي

لأنها انموزج Echantillon للذات في الآخرة ، يراها المرء معروضة في

الدنيا ، ليختار منها ما يريد اقتنائه فيها ، يقدم ثمنها عملاً صالحاً يشتريها

به من اسواق الجنة .

وقال في حديث « اعمار امي ما بين الستين الى السبعين » : انها طالت اعمار الاوائل لطول البادية ، فلما شارف الركب بلد الاقامة قيل : حنوا المطي

ومن كلامه : من قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيبه .
ومن مناجاته : « الهى لاتعذب لسانا يخبر عنك ، ولا عيناً تنظر الى علوم قدلّ عليك ، ولا قدماً تمتي الى خدمتك ، ولا يداً تكتب حديث رسولك ، فبعزتك لاتدخلني النار ، فقد علم اهلها اني كنت اذب عن دينك »

- ١٩ -

وابن الجوزي عربي قرشي قيمي ، يتصل نسبه بابي بكر الصديق ابوه علي بن محمد (بن علي بن عبيد الله ^(١)) بن عبد الله بن حمادي بن احمد بن محمد بن جعفر ، وجعفر هذا هو الذي لقب بـ « الجوزي » نسبة الى مشرعة الجوز ، وهي فرضة ^(٢) نهر البصرة ، وقيل بل نسبة الى جوزة كانت في داره بواسط لم يكن بواسط جوزة غيرها ، وتوارث ابناؤه هذا اللقب .

وجعفر هذا هو ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق . وكان اهل تجاراً بالبحاس ^(٣) لم يشتغل منهم بالعلم غيره ، قال في

(١) الزيادة من ذيل الطبقات لابن رجب (٢) الفرضة المرفأ

(٣) البداية والنهاية وذيل الطبقات

« لفته الكبد » : « واعلم يا بني أننا من اولاد أبي بكر الصديق ، ثم تشاغل سلفنا بالتجارة والبيع والشراء فما كان من المتأخرين من رزق همه في طلب العلم غيري .

وقد صرح في مواضع من « صيد الخاطر » بأن أباه توفي وهو صغير ، وكان موسراً ، وقد خلف أموالاً كثيرة ، فما اعطوه منها الا عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا له : هذا نصيبك من ارث ابيك ، فاشترى بذلك كتباً . وان امه اهملته وانصرفت عنه ^(١) .

وذكر ابن كثير ان عمته رعته وأخذته لما أدرك الى مسجد محمد بن ناصر الحافظ ، فاعتنى به واسمعه الحديث وحفظه القرآن .

وفي شذرات الذهب : ان محمد بن ناصر خاله ^(٢) . وكان مولده في بغداد وقال : لا أحقق تاريخ مولدي غير أنه مات والدي سنة أربع عشرة ، وقالت الوالدة : كان لك من العمر ثلاث سنين .

وقد اتفق كل من ترجم له على أنه لم يكن في صغره يألف الصبيان او يلعب لعبهم وأنه نشأ على العقاف والصلاح .

قال في « لفته الكبد » : اذكر نفسي ولي همه عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلاً وافرأ في الضفر ، يزيد على عقل الشيوخ فما اذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط ، ولا ضحكت ضحكاً عالياً ، حتى أني ولي سبع

(١) قال ابن رجب : لما مات أبوه كفلته امه وعمته .

(٢) واخوته وهما من صاحب الشذرات

سنين او نحوها أحضر رجة الجامع ، فأطلب المحدث يتحدث فأحفظ
جميع ما أسمع ، واذهب الى البيت واكتبه ، ولقد وفق لي شيخنا
أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله ، وكان يحملني الى الشيوخ ، فأسمعني
المسند وغيره من الكتب الكبار ، وأنا لا اعلم ما يراد مني ، وضبط
لي مسوعاتي الى ان بلغت ، فتناولني ثبتها ^(١) ولازمته الى ان توفي
رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث والنقل . ولقد كان الصبيان
ينزلون الى دجلة ويتفرجون على الجسر ، وأنا في زمن الصغر آخذ
جزءاً واقعد حجرة من الناس ^(٢) فأتشغل بالعلم .

- ٢٠ -

وأبو الفضل محمد بن ناصر ، هو الحافظ الثقة البغدادي ، فقيه كان
شافعياً ثم مال الى مذهب الحنابلة ، وعني بالحديث فبرع فيه ، وصار
شيخ المحدثين ، وكان ديناً فقيراً متعففاً نظيفاً ، وقف كتبه على طلب العلم .
ووصفه ابن الجوزي بأنه كان حافظاً ضابطاً متفناً ثقة من أهل
السنة لا مغز فيه ، وكان كثير الذكر مربع الدقة . (قال) :
وهو الذي تولى تسميعي الحديث ، وعنه أخذت ما أخذت من علم
الحديث ، قرأت عليه ثلاثين سنة ، ولم استفد من أحد استفادني منه .
قال ابن الجوزي : وحملني ابن ناصر الى أبي القاسم المروزي في
سنة عشرين فلقنني كلمات من الوعظ ، وجلس لوداع أهل بغداد

مستنداً الى الرباط الذي عند السور في الحلبة ، ورقّاني يومئذ المنبر ،
فقلت الكلمات ، وقُدّر الجمع يومئذ بخمسين ألفاً .

- ٢١ -

ثم صحب أبا الحسن - ابن الزاغوني - ولازمه . قال ابن الجوزي :
كان له في كل فن من العلم حظ وافر ، ووغظ مدة طويلة ، وصحبته
زماناً فسمعت منه الحديث ، وعلقت عنه من الفقه والوعظ ، وكانت
له حلقة بجامع المنصور ينظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة ، ثم يعظ فيها
بعد الصلاة ، ويجلس يوم السبت ايضاً .

وشهد ابن ناصر للزاغوني أنه كان فقيه الوقت ^(١) وأنه كان
مشهوراً بالصلاح والديانة ، والورع والصيانة .

وتوفي ابن الزاغوني حين بلغ ابن الجوزي سنّ الحلم ^(٢) فطلب
ابن الجوزي خلفته ^(٣) فلم يُعط ذلك لصغره ، وأعطيت الخلفة لابي
علي الرضائي ، فذهب ابن الجوزي الى الوزير ، فألقى بين يديه فصلاً
في المواعظ ، فأذن له بالوعظ في جامع المنصور (قال) فتكلمت فيه
فحضر مجلسي أول يوم جماعة من اصحابنا الكبار من الفقهاء ، منهم
عبد الواحد بن شعيب ، وابو علي بن القاضي ، وابو بكر بن عيسى
وغيرهم ، ثم تكلمت في مسجد معروف ^(٤) ، وفي باب البصرة ، ونهر

(١) اي في المذهب الحنبلي (٢) سنة ٥٢٨ هـ
(٣) اي ان يحلّ عليه (٤) اي الكرخي

المعلی ، فاتصلت المجالس ، واشتد الزحام ، وقوي اشتغالي بفنون العلم ، وانقطعت مجالس أبي علي الرضائي .

- ٢٢ -

وقرأ بعد ابن الزاغوني الفقه والخلاف والجدل والاصول على أبي بكر الدينوري والقاضي أبي يعلى .

وتتبع مشايخ الحديث والفقه ، فكان منهم القاضي أبو بكر الانصاري ، وأبو القاسم الحريري ، وأبو السعادات المتوكلي ، وأخوه يحيى ، وأبو عبد الله البار ، وأبو الحسن علي بن أحمد الموحد ، وأبو غالب الماوردي ، وأبو منصور بن خيرون ، وأبو القاسم السمرقندي ، وعبد الوهاب الاغاطي ، وعبد الملك الكرخوي ، وأبو سعد الزوزني ، وأبو سعد البغدادي ، ويحيى بن الطراح ، واسماعيل بن أبي صالح المؤذن ، وأبو القاسم علي المروزي الواعظ ، وأبو منصور القزاز ، وعبد الجبار بن منده ، (قال) « ولم اقع بفن واحد ، بل كنت أسمع الفقه والحديث وأتبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة ، ولم أترك احداً ممن يروي ويعظ ، ولا غربياً يقدم إلا واحضره واتخير الفضائل ، ولقد كنت ادور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لئلا اسبق ، وكنت اصبح وليس لي مأكل ، وأمسي وليس لي مأكل ، ما أذلي الله لخلق قط ، ولو شرحت احوالي لطال الشرح . » وهو يصف شيوخه في الفصل (٩٤) بأن منهم من لم يكن يتخرج

من الغيبة وأن منهم من يأخذ على التحديث اجرة ، وأن منهم من يسرع بالجواب لئلا ينقص جاهه ، وأن منهم من كان على نهج السلف كعبد الوهاب الانطاقي وابي منصور الجواليقي ، وأنه لذلك انتفع بهما أكثر من انتفاعه بغيرهما .

- ٢٣ -

والانطاقي هو المحدث الحافظ ، الفقيه الحنبلي ، كان واسع الرواية ، دائم البشر ، سريع الدمعة عند الذكر ، حسن المعاشرة ، جمع الفوائد ، وخرج التخاريج ، كان بقية الشيوخ . ذكره ابن الجوزي في عدة مواضع من كتبه كمشيخته وطبقات الاصحاب المختصرة والتاريخ^(١) وصفوة الصفوة وصيد الخاطر وأثنى عليه كثيراً ، وما قاله عنه :

« انه كان ثقة ثبتاً ، ذا دين وورع ، كنت اقرأ عليه الحديث وهو ييكمني ، فاستفدت ببيكائه أكثر من استفادتي بروايته ، دخلت عليه في مرضه ، وقدمت عليه وذبح لحمه ، فقال : ان الله عز وجل لا يتهم في قضائه . وما رأينا في مشايخ الحديث أكثر سماعاً منه ، ولا أكثر كتابة للحديث منه مع المعرفة به ، ولا أصبر على الاقراء ، ولا أكثر دعة وبكاء مع دوام البشر ، وحسن اللقاء ، ولا يغتاب عنده أحد^(٢) »

(١) ابن رجب (٢) وكان على ذلك الشيخ بدر الدين الحسني حدث الشام في القرن الرابع عشر

وكان سهلاً في إغارة الأجزاء، وكنا ننتظره يوم الجمعة بجامع المنصور،
فلا يجيء من قنطرة باب البصرة، وإنما يجيء من القنطرة العتيقة،
فسأله عن هذا فقال: تلك دار ابن معروف القاضي، فلما غضب عليه
السلطان أخذها وبني عليها القنطرة. قال لنا: وصفت أن ابن معروف
أحل^(١) كل من يمر عليها، إلا أني لا أفعل. توفي يوم الخميس (١١) المحرم ٥٨٣
والجواليقي أستاذ عصره في علوم العربية، وكان مدرساً في
المدرسة النظامية^(٢) وكان إمام الخليفة المقتفي، كان متديناً ثقة
ورعاً، غزير الفضل، كامل العقل، ملبح الخط كثير الضبط، له
التصانيف الكثيرة.

قال ابن الجوزي: «قرأت عليه كتابه المعرب، وغيره من
تصانيفه» وكان من تلقى عنه ابن فاصر، وله قصة طريفة مع ابن
التليذ النصراني طبيب المقتفي، مروية في الشذرات^(٣) توفي يوم
الأحد ١٥ المحرم ٥٤٠

- ٢٤ -

وهو يكثر الكلام عن نفسه في «صيد الخاطر» فيبين أنه نشأ
في النعيم، وربي على الدلال، وأنه قد حُبب إليه العلم من زمن
الطفولة، ولم يرغب في فن واحد من فنونه، بل رغب في كل فن،

(١) أي سامح

(٢) وهي أول جامعة في الدنيا (٣) ٤ : ١٢٧

وأنه يتروّد أبداً بين الزهد والعبادة ، وبين العلم والبحث ^(١) وأن من لداته وأصحابه من أنفق عمره في اكتساب الدنيا ، ثم لم ينل منها ما ناله هو ، وأن عيشه ألين من عيشهم ، وجاهه أعلى من جباههم ^(٢) ويتن كيف كان ، في زمن الطلب ، يأخذ معه أرغفة يابسة ويخرج في طلب الحديث ، فيقعّد على نمر عيسى ، لا يقدر على أكل هذا الخبز اليابس إلاّ عند الماء ، كلما أكل لقمة شرب عليها شربة ، وأنه وجد مع ذلك من لذة العلم وحلاوة الايمان ، ما يخاف على نفسه العجب ان شرّحه ^(٣) ويتن أنه سلك في أول أمره طريق الزهاد ، وأنه برع في الوعظ حتى اتصل به هذه البراعة بالسلطان ففقد بصحبته ما كان يجد في قلبه من النور ^(٤) ووصف علوه وحمته وطموحه ^(٥) .

- ٢٥ -

قال ابن العباد :

وكان يراعي حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوةً وذهنه حدةً ، لباسه الابيض الناعم المطيب ، وله مجون لطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفك من جارية حسناء ، وما تناول مالا من جهة لا يتيقن حلّها ، ولا ذلّ لأحد ، قال في «لغة الكبد» مخاطب ولده : « وما ذلّ أبوك في طلب العلم قط ، ولا خرج يطوف في البلدان

(٢) الفصل ١٦٧

(٤) الفصل ٤٦

(١) الفصل ٢١

(٣) الفصل ١٦٧ ايضاً

(٥) الفصل ١٧٨

كثيره من الوعاظ ، ولا بعث رقعة الى أحد يطلب منه شيئاً . ،
وكانت لحيته قصيرة جداً ، وقد ذكروا أنه شرب دحب البلاد^(١) ،
فسقطت لحيته وكان يخضبها بالسواد الى أن مات ، وصنف في جواز
الخضاب بالسواد مجلداً .

- ٢٦ -

قال ابن كثير :

وكان فيه بهاء وترفع واعجاب بنفسه ، وسموها أكثر من
مقامها ، وذلك ظاهر في كلامه ، في نثره ونظمه ، فمن ذلك قوله :

مازلت أدرك ماغلا بل ماعلا	وأكابد النهج العسير الاطولا
تجري بي الآمال في حلباته	جرني السعيد الى مدى ما أملا
أفنى بي التوفيق فيه الى الذي	أعيا سواي توصلاً وتغفلاً
لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً	وسأله: هل زارني؟ قال لا

قال ابن رجب : بما عيب عليه ما يوجد في كلامه من التفاء على
نفسه ، والترفع والتعظيم وكثرة الدعاوى ، ولا ريب أنه كان
عنده من ذلك طرف ، سامحه الله .

- ٢٧ -

كان الوزير ابن يونس الحنبلي قد عقد مجلساً للركن عبد السلام

(١) هو حب البلاد (بالذال) واسمه العلمي باللاتينية :

ابن عبد القادر الجيلي^(١) ، وأحرقت كتبه ، وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ، ورأي الاوائل شيء كثير ، وذلك بمحض من ابن الجوزي وغيره من العلماء ، وانتزع الوزير منه مدرسة جدّه وسلسها الى ابن الجوزي .

فلما ولي الوزارة ابن القصاب - وكان رافضياً خبيثاً - سعى في القبض على ابن يونس ، وتتبّع أصحابه ، فقال له الركن : أين أنت عن ابن الجوزي ؟ فانه ناصبي ومن أولاد أبي بكر ، فهو من اكبر أصحاب ابن يونس ، وأعطاه مدرسة جدي ، وأحرقت كتبي بمشورته . فكتب ابن القصاب الى الخليفة الناصر ، وكان الناصر له ميل الى الشيعة ، ولم يكن له ميل آخر أباه الى الشيخ أبي الفرج ، بل قد قيل انه كان يقصد أذاه ، وقيل ان الشيخ ربما كان يعرض في مجالسه بدم الناصر ، فأمر بتسليمه الى الركن عبد السلام فجاء الى دار الشيخ وشبهه واغلظ عليه ، وختم على كتبه وداره ، وشئت عياله .

فلما كان في أول الليل ، حمل في سفينة وليس معه الا عدوه الركن ، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل ، وعلى رأسه تحفيفة ، فأحدر الى واسط ، وكان ناظرها شيعياً فقال له الركن : مكنتني من عدوتي لأرميه في المطبورة ، فزبره ، فقال : يا زنديق ارميه بقولك ؟ هات خط الخليفة ، والله ، لو كان من اهل مذهبي لبذلت روحي ، ومالي ، في خدمته ، فعاد الركن الى بغداد .

(١) هو عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجليلي

قال أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ،
رحمة الله تعالى عليه :

الحمد لله حمداً يبلغ رضاه ، وعلى الله عني انصرف من
اجتهاده ، وعلى من صاحبه ووالاه ، وسلم تسليماً لا يدرك
منتهاه .

لا كانت الحواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها ،
ثم تعرض عنها فتذهب ، كانت من أولى الأمور حفظ ما يخطر
لكيلا ينسى . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « قيدوا العلم
بالكتابة » (١) وكم قد خطر لي شيء ، فانشأغل عن إثباته
فيذهب ، فأتأسف عليه . ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت
بصر التفكير ، منح له من عجائب الغيب ، ما لم يكن في حساب
فاتتال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه ، فجعلت
هذا الكتاب قيداً ، لصيد الحاطر . والله ولي النفع إنه
قريب مجيب .

(١) قال الشيخ فامر الألباني : الحديث موقوف على أس

١ - في أثر الموعدة

قد يعرض عند سماع المواعظ السامع يقظة ، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة . فتدبر السبب في ذلك فعرفته . ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك ، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفته من اليقظة عند سماع الموعدة بعدها لسببين :

أحدهما ، أن المواعظ كالسياط ، والسيات لا تؤلم بعد انقضائها ،
إيلامها وقت وقوعها .

والثاني ، أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاج العلة^(١) ، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا ، وأنصت بحضور قلبه ، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبه بآفاتهما ، فكيف يصح أن يكون كما كان ؟

وهذه حالة تعم الخلق ، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر ، فمنهم من يعزم بلا تردد ، ويمضي من غير التفات ، فلو

(١) أزاح علته أي هبأه الأسباب ولم يترك له ما يتمل به ، ومزاج العلة هنا أي خال من الشواغل . انظر الفصل (٣٣) .

توقف بهم وكتب الطبع لضجّوا ، كما قال حنظلة عن نفسه :
 « تافق حنظلة » . ومنهم أقوام يميل بهم الطبع الى الغفلة أحيانا ،
 ويدعوم ما تقدم من المواعظ الى العمل أحيانا ، فهم كالسنبلة
 تميلها الرياح ، وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه ، كما دحرجته
 على صفوان^(١) .

٢- في جواذب الدنيا

جواذب الطبع الى الدنيا كثيرة ، ثم هي من داخل ، وذكر
 الآخرة أمر خارج عن الطبع ، ثم هو من خارج ، وربما ظن من
 لا علم له أن جواذب الآخرة أقوى ، لما يسمع من الوعيد في
 القرآن ، وليس كذلك ، لأن مثل الطبع في ميله الى الدنيا ،
 كالماء الجاري فانه يطلب المهبوط ، وإنما دفعه الى فوق يحتاج الى
 للتكلف ، ولهذا أجاب معاون الشرع بالترغيب والترهيب يقوى
 جند العقل ، فأما الطبع فجواذبه كثيرة ، وليس العجب أن
 يغلب ، وإنما العجب أن يغلب .

٣- في لذة المعصية وتعب الطاعة

من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها ، قال خيرها ،

(١) الصفاة والمروة والصفوان والمروان الصخر .

ونجاً من شرها ، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحس ، فعاد عليه
بالألم ما^(١) طلب منه السلامة ، وبالنصب ما رجا منه الراحة .
وبيان هذا في السبيل بتبين بذكر الماضي ، وهو أنك لا تجلو ،
أن تكون عصيت الله في حرك ، أو أطعته ، فأين لذة معصيتك ؟
وأين نعب طاعتك ؟

ميت رحل كل بما فيه ! فليت الذنوب إذ تخلت تخلت !
وازيدك في هذا بياناً مثل ساعة الموت ، وانظر إلى مرارة
الحسرات على التفريط ، ولا أقول كيف تغلب حلاوة الذات ،
لأن حلاوة الذات استحالت حنظلاً ، فبقيت مرارة الأسى
بلا مقادير .

أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه ؟ فراقب العواقب تسلم ، ولا تغل
مع هوى الحس تندم .

٤ — في التفكير في الموت

من تفكر في عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول
الطريق تأهب للسفر .
ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه ، ويتعقني ضرر حال

(١) ما ، غافل عاد .

ثم يغشاه ، وتغشى النازل والله أحنى أن يغشاه .

تطلبك نفسك على ما نظن ، ولا تغلبها على ما تستيقن .

أعجب العجائب ، سرورك بغرورك ، وسهوك في كهوك مما
قد خبيء لك .

تفتقر بصحتك وتنتسى دنو السقم ، وتفرح بإفاقيتك عافلاً عن
قرب الألم ، لقد أراك مطرّع غيورك مصرّعك ، وأبدى مضجع
سواك قبل الممات مضجعك ، وقد شغلك نيل لذاتك ، عن ذكر
خراب ذاتك :

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم ترفى الباقيين ما يصنع الدهر
فان كنت لا تدري فتلك ديارهم يحاها بحال الريح بعدك والقبر

كم رأيت صاحب منزل ما تزل لحده ، حتى تزل (١) ؟ وكـ
شاهدت والي قصر وليه عدوه لما عزل ، فيا من كل لحظة الى
هذا يسري ، وفعله فعل من لا يتهم ولا يدري :

وكيف تنام العين وهي قريبة ؟ ولم تدور من أي الحنين لتزل ؟

٥ — في الابتعاد عن الفتنة

من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة ، ومن ادعى الصبر وكل الى نفسه . ورب نظرة لم تناظر^(١) ، وأحق الاشياء بالضبط والقهر اللسان والعين ، فلايك إياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى ، مع مقاربة الفتنة ، فان الهوى مكائد ، وكمن شجاع في صف الحرب اغتيل ، فأناه ما لم يحتسب بمن يأنف النظر اليه ، واذكر حمزة مع وحشي :

فتبصر ولا تَشم كل برق رب برق فيه صواعق حَين^(٢)
واغضض الطرف تسترخ من غرام تكتسي فيه ثوب ذل وشين
فبلاء الفتى موافقة النفس وبدء الهوى طموح العين

٦ — في عقوبة العلماء

أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة ، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة ، كالفرح بالمال الحرام ، والتمكن من الذنوب . ومن هذه حاله لا يفوز بطاعة .

(١) أي لم تمهل .

(٢) شام البرق يشبهه نظر اليه يرى أين يحترق ، والحين الملاك

ولاني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين فرأيتهم في عقوبات
لا يحسون بها ، ومعظمها من قبل طلبهم للرياسة . فالعالم منهم
يغضب ان يُرد عليه خطؤه ، والواعظ متصنع بوعظه ، والمتزهـد
مناقض أو مرء . فأول عقوباتهم ، إعراضهم عن الحق شغلا
بالخلق ، ومن خفيّ عقوباتهم سلبُ حلاوة المناجاة ،
ولذة التعبد .

إلا رجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات ، يحفظ الله بهم الأرض ،
بواطنهم كظواهرهم بل أجلى ، وسرائرهم كعلانياتهم بل أحلى ،
ومهم عند الثريا بل أعلى ، إن عرفوا تنكروا ، وإن وثبت لهم
كرامة أنكروا . فالتاس في غفلاتهم ، وهم في قطع فلاتهم ، تحجبهم
بقاع الأرض ، وتفرح بهم أملاك السماء . نسأل الله عز وجل
التوفيق لاتباعهم ، وأن يجعلنا من أتباعهم .

٧ — في علو الهمة

من علامة كمال العقل ، علو الهمة والراضي بالدون ديني :
ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادريين على التمام

٨ — في أجاب الله

سبحان من سبقت محبته لأجابه ، فمدحهم على ما وهب لهم ،

واشتد منهم ما أعطاهم ، وقدم المتأخر من أوصافهم ، لموضع
إيتارهم ، فباض بهم في صومهم ، وأحب خلوف أفواههم . يالها
من حالة مصونة لا يقدر عليها كل طالب ، ولا يبلغ كنه وصفها
كل خاطب .

٩ — في الاستعداد للموت

الواجب على العاقل أخذ الغدة لرحيله ، فانه لا يعلم متى
يقبضه أمر ربه ، ولا يدري متى يستدعى ، وانى رأيت
خلقا كثيراً غرم الشباب ونسوا فقد الاقارب ، وأهملوا
طول الأمل . وربما قال العالم المحض لنفسه : « اشتغل بالعلم
ثم اعمل به » فيتساهل في الزمان بحجة الراحة ، ويؤخر
الرجاء لتحقيق التوبة ، ولا يتعاضى من غيبة أول سماحتها ،
ومن كذب شبهة يأمل أن يعوها بالودع ، وينسى ان
الموت قد ينفذ .

فالعاقل من اعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه ،
فان بقتة الموت وثني مستعداً ، وان قال الأمل ازداد خيراً .

١٠ — في ان الشدائد لتمحيص الذنوب

خطرت لي فكرة فيما يجري على كثير من العالم من

المصائب الشديدة ، والبلايا العظيمة ، التي تنتهي إلى نهاية الضموبة فقلت : سبحان الله . إن الله أكرم الأكرمين ، والكريم يوجب المساحة فما وجه هذه المعاقبة ؟

فنفكرت ، فرأيت كثيراً من الناس في وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة الوحدانية ، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى ونواهيه ، بل يجرون على عادتهم كالبهائم ، فإن وافق الشرع مرادهم ، وإلا فعموتهم على أغراضهم . وبعد الحصول على الدينار ، لا يبالون أمن حلال كان أم من حرام . وإن سهلت عليهم الصلاة فعلوها ، وإن لم تسهل تركوها ، وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة ، مع نوع معرفة المناهي ، وربما قويت معرفة عالم منهم ، وتفاقت ذنوبه ، فعلت أن العقوبات ، وإن عظمت دون اجرامهم ، فإذا وقعت عقوبة لتخص ذنباً ، صاح مستغيثهم : ترى هذا بأي ذنب ؟ وينسى ما قد كان ، بما تنزل الأرض لبعضه . وقد كان الشيخ في كبره ، حتى ترحه القلوب ، ولا يدري أن ذلك لإهماله حق الله تعالى في شبابه ، فمضى رأيت معاقبا ، فاعلم أنه للذنوب .

١١ — في علماء الدنيا والآخرة

تأملت التعاسد بين العلماء ، فرأيت منشأ من حب

للدنيا ، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتعاسدون ، كما قال عز وجل « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » وقال تعالى : « والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا » وقد كانت أبو الدرداء يدعو كل ليلة لجماعة من اخوانه . وقال الامام أحمد بن حنبل لولد الشافعي : « أبوك من السنة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر » .

والأمر الفارق بين الفئتين : أن علماء الدنيا ، ينظرون الى الرياسة فيها ، ويحبون كثرة الجمع والثناء ؛ وعلماء الآخرة ، يعمزل من ايثار ذلك ، وقد كانوا يتخوفونه ، ويرحمون من بلي به .

وكان النخعي لا يستند إلى سارية . وقال علقمة (١) : « أكره أن يوطأ عقي (٢) » ، وكان بعضهم إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام عنهم . وكانوا يتدافعون الفتوى ، ويحبون التحول ، ومثل القوم ، كمثل راكب البحر ، وقد خب (٣) ،

(١) علقمة النخعي تابعي جليل توفي سنة ٦٢ واخذ عنه ابراهيم النخعي واشتهر من قبيلة النخع جماعة ولكن اذا اطلق النخعي كان المقصود به ابراهيم ، واذا اطلق اسم ابراهيم كان هو المقصود .

(٢) أي أن يمتي الناس خلفي .

(٣) أي اضطرب وهاج .

فغندته شغل إلى أن يوقن بالنجاة ، وإنما كانت بعضهم يدعو لبعض ، ويستفيد منه ، لأنهم ركب تصاحبوا فتوادوا ، فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة .

١٢ - في أن تصفية الاحوال بتصفية الاعمال

من أحب تصفية الاحوال^(١) ، فليجتهد في تصفية الاعمال . قال عز وجل : « وأن لو استقاموا على الطريقة ، لاستبقيناهم ماءً غدقاً » وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل : « لو أن عبادي أطاعوني لستفيمهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم اسمعهم صوت الرعد » . وقال صلى الله عليه وسلم : البر لا يبلى ، والاثم لا ينسى والديان لا ينام^(٢) وكما تدين تدان .

وقال أبو سليمان الداراني^(٣) : « من صفى صفى له ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله » . وكان شيخ يدور في المجالس ويقول : « من سره أن

(١) اصطلاح صوفي بمعنى (حالات النفس) .

(٢) وفي رواية : والديان لا يموتن عمل ما شئت كما تدين تدان .

(٣) هو عبد الرحمن بن عطية ونسبته الى قرية داريا من قرى دمشق صوفي

تدوم له العافية ، فليقل الله عز وجل ، ، وكان الفضيل بن
عياض ، يقول : « الي لأعصي الله ، فأعرف ذلك في خلق
دأبتي ، وجاريتي » .

واعلم وفقك الله - انه لا يحس بضربة مبتج ، وإنما
يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه ، ومتى رأيت
تكديراً في حال فاذكر نعمة ما شكرت ، أو زلة قد
لعلت ، واحذر من نفاق النعم ، ومفاجأة النقم ، ولا تغتر
بسعة بساط الحلم ، فربما عجل انقباضه . وقد قال الله عز وجل :
« وإن الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وكان
أبو علي الروضباري^(١) يقول : من الاعتار أن نسيء ، فيحسن
إليك ، فترك التوبة ، توهماً أنك تسامح في المفوات .

١٣ - في التكليف

تفكرت يوماً في التكليف ، فرايته ينقسم إلى سهل
وصعب ، فاما السهل فهو أعمال الجوارح ، إلا أن بعضاً منها هو
أصعب من بعض ، فالوضوء والصلاة أسهل من الصوم ،
والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة ، وأما الصعب

(١) أحمد بن محمد ، هو من ذرية كسرى ، بغدادي سكن مصر وتوفي بها
سنة ٣٢٢ . كان من تلاميذ الجليلي .

فبتفاوت ، فبعضها أصعب من بعض ، فمن المستصعب النظر والاستدلال الموصول إلى معرفة الخالق ، فهذا صعب عند من غلبت عليه أمور الحس ، سهل عند أهل العقل ، ومن المستصعب غلبة الهوى وقهر النفوس ، وكف أكف الطبع عن التصرف فيما يؤثره ، وكل هذا يسيل على العاقل للنظر في ثوابه ورجاء عاقبته ، وإن شق عاجلا ، وإنما أصعب التكاليف وأعجبها ، أنه قد ثبتت حكمة الخالق عند العقل ، ثم تراه يفقر المتشاغل بالعلم ، المقل على العبادة حتى يعرضه الفقر بناجديه ، فيذل للجاهل في طلب للقوت ، ويخفي الفاسق مع الجهل ، حتى تفيض الدنيا عليه ، وتراه ينشئ الأجسام ويحكمها ، ثم ينقض بناء الشباب في مبدأ أمره ، وعند استكمال بنيانه فإذا به قد عاد هشيا ، وتراه يؤلم الاطفال ، حتى يرحمهم كل طبع ، ثم يقال له : «إياك أن تشك في أنه أرحم الراحمين» ، ويسمع بإرسال موسى إلى فرعون ، ويقال له : اعتمد أنت الله تعالى اضل فرعون ، واعلم أنه ما كان لآدم بدء من أكل الشجرة ، وقد وبع بقوله : «وعصى آدم ربه» وفي مثل هذه الاشياء تغير خلق ، حتى خرجوا إلى الكفر والتكذيب ، ولو قسوا على سر هذه الاشياء ، لعلوا أن تسلم هذه الامور ، تكليف العقل ليدعين ، وهذا أصل إذا فهم جعل منه

السلامة والتسليم . نسال الله عز وجل أن يكشف لنا الغوامض ، التي حيرت من خلل إنه قريب مجيب .

١٤ — قيمة الوقت

ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه ، وقدر وقته ، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة ، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل . ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور ، بما لا يعجز عنه البدن من العمل ، كما جاء في الحديث : نية المؤمن خير من عمله^(١) . وقد كان جماعة من السلف يبادرون الملاحظات . فنقل عن عامر بن عبد قيس^(٢) : أن رجلاً قال له : « كلني » ، فقال له : « امسك الشمس » وقال ابن ثابت البناني^(٣) : ذهبت ألغن أبي ، فقال : « يا بني دعني » ، فاني في وردي السادس . ودخلوا على بعض السلف عند موته ، وهو يصلي ، ف قيل له ، فقال : « الآن تطوى صحتي » . فاذا علم الانسان وإن بالغ في الجد بان الموت يقطعه عن

(١) في الجامع الصغير : رواه الطبراني ، وضعفه العراقي .

(٢) عامر بن عبد الله من عباد التابعين أخذ عن أبي موسى الأشعري

توفي سنة ٥٥ هـ

(٣) ثابت البناني من اعلام التابعين توفي سنة ١٢٧ هـ .

للعمل ، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته ، فإن كان له شيء من الدنيا ، وقف وقفاً ، وغرس غرساً ، وأجرى نهراً ، وبسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له ، أو أن يصنف كتاباً من العلم ، فإن تصنيف العالم ولده المخلد^(١) ، وأن يكون عاملاً بالخير ، عالماً فيه ، فينقل من فعله ما يقتدي الغير به ، فذلك الذي لم يموت :

قد مات قوم وهم في الناس أحياء

١٥ — من حيل الشيطان

رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره ، أن يخبط أرباب الأموال بالآمال ، والتشاغل بالذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها ، فإذا شغلهم بالمال تحريضاً على جمعه ، وحناً على تحصيله ، أمرهم بحراسته بخلاً به ، فذلك من مئين حيله ، وقوى مكره . ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الحفية ، أن خوف من جمعه المؤمنين ، فتفرط طالب الآخرة منه ، وبادر التائب بأن يخرج مافي يده ، ولا يزال الشيطان يحرضه على الزهد ، ويأمره بالتكسب ، ويخوفه من طرق الكسب ، اظهراً لنصحه وحفظ دينه . وفي خفايا ذلك عجائب من مكره ، وربما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدى بهم التائب ، فيقول له . اخرج من مالك وادخل في

(١) أي كتبه هي أولاده .

زمرة الزهاد ومن كان له عداء أو عشاء ، فليست من أهل الزهد ،
 ولا قتال مراتب العزم ، وربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن
 الصحة والواردة على سبب ولمعنى ، فإذا أخرج ما في يده ، وتعمل
 عن مكاسبه ، عاد يعلق طمعه بصلة الإخوان ، أو يحسن عنده صحة
 السلطان ، لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أياما ، ثم
 يعود الطبع فيقتاض مطالباته ، فيقع في أقبح مما فر منه ، ويبدل
 أول السلع في التحصيل دينه وعرضه ، ويصير متندلا به ^(١) ، ويقف
 في مقام اليد السفلى . ولو أنه نظر في سير الرجال ونبلاتهم وتأمل
 صحاح الأحاديث عن رؤسائهم ، لعلم أن الخليل عليه الصلاة والسلام
 كان كثير المال ، حتى ضاقت بلدته بمواشيه ، وكذلك لوط عليه
 الصلاة والسلام ، وكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والجم
 الفقير من الصحابة ، وإنما صبروا عند العدم ، ولم يمتنعوا من كسب
 ما يصلحهم ، ولا من تناول المباح عند الوجود . وكان أبو بكر
 رضي الله عنه يخرج للتجارة والرسول صلى الله عليه وسلم حي .
 وكان أكثرهم يخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال ، ويسلم من
 ذل الحاجة إلى الإخوان . وقد كانت ابن عمر : لا يرد شيئا ،
 ولا يسأل .

(١) أي أخذ الدين والمرض مسحة (مندبلا) يقال : تندل بالندبل وتندل .

ولم تأملت أكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال ، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم ، فلما احتاجوا إلى نفوسهم ذلوا ، وهم أحق بالعرز ، وقد كانوا قديماً يكفيم من بيت المال فضلات الاخوان ، فلما عدمت في هذا الأوان ، لم يقدر متدين على شيء إلا ببذل شيء من دينه ، وليته قدر ، فربما تلقى الدين ولم يحصل له شيء . فالواجب على العاقل أن يحفظ ماله معه ، وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم ، أو مداينة جاهل ، ولا يلتفت إلى ترهات المتصوفة ، الذين يدعون في الفقر ما يدعون . فما الفقر إلا مرض العجزة ، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض . اللهم إلا أن يكون جباناً عن التصرف ، مقتنعاً بالكفاف ، فليس ذلك من مراتب الابطال ، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد ، وأما المكاسب ليكون المعطي لا المعطى ، والمتصدق لا المتصدق عليه ، فهي من مراتب الشجعان للفضلاء . ومن تأمل هذا علم شرف الفنى ومخاطرة الفقر .

١٦ - لا تأسف على ما فات

تأملت أحوال الفضلاء ، فوجدتهم في الاغلب قد نجسوا من حظوظ الدنيا ، ورأيت الدنيا غالباً في أيدي أهل النقائص ،

فنظرت في الفضلاء ، فإذا هم يتأسفون على ما فاتهم بما ناله الو
 النقص ، وربما تقطع بعضهم أسفاً على ذلك ، فخطبت بعض
 المتأسفين فقلت له : « ويحك تدبر أمرك ، فأنت غالط من وجوه
 أحدها ، انه إن كانت لك همه في طلب الدنيا ، فاجتهد في طلبها
 تريح التأسف على فوتها ، فان قعودك متأسفاً على ما ناله غيرك ،
 مع قصور اجتهادك غاية العجز . والثاني ، إن الدنيا إنما تراد لتعبر
 لا لتعمر ، وهذا هو الذي يدلك عليه علمك ويبلغه فهمك ، وما يناله
 أهل النقص من فضولها يؤذي أبدانهم وأديانهم ، فاذا عرفت ذلك
 ثم تأسفت على فقد ما فقدته أصلح لك ، كان تأسفك عقوبة لتأسفك
 على ما تعلم المصلحة في بعده ، فاقنع بذلك عذاباً عاجلاً ، إن سلمت
 من العذاب الآجل . والثالث ، انك قد علمت بحس حظ الآدمي
 في الجملة ، من مطاعم الدنيا ولذاتها بالاضافة إلى الحيوان البهيم ، لانه
 ينال ذلك أكثر مقداراً مع أمن ، وأنت تناله مع خوف وقلة
 مقدار ، فاذا ضوعف حظك من ذلك لجنسك كان لاحقاً بالحيوان
 البهيم من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل الفضائل ، وتخفيف المؤن
 يحث صاحبه على نيل المراتب ، فاذا آثرت مع قلة الفضول
 الفضول ، عدت على ما علمت بالازراء فشنت علمك^(١) ودلت على
 اختلاط رأيك .

(١) أي ان علمك هذا أزرى على علمك وشانه .

١٧ - عصيان العلماء

تأملت أقدام العلماء بالعقاب^(١) على شهوات النفس المنهي عنها ،
 فرأيتها مرتبة تزاخم الكفر لولا تلوّح معني ، وهو أن الناس عند
 مواجهة المحذور ينقسمون ، فمنهم جاهل بالمحذور أنه محذور ،
 فهذا نوع عذر ، ومنهم من يظن المحذور مكروهاً لا محرماً فهذا
 قريب من الاول ، وربما دخل في هذا القسم آدم عليه السلام ،
 ومنهم من يتأول فيغلط ، كما يقال إن آدم عليه الصلاة والسلام
 نهي عن شجرة بعينها ، فأكل من جنسها لا من عينها^(٢) ،
 ومنهم من يعلم التحريم ، غير أن غلبات الشهوة أنسته تذكر
 ذاك فشغله ما رأى عما يعلم ، ولهذا لا يذكر السارق القطع
 بل يغيب بكليته في نيل الحظ ، ولا يذكر راكب الفاحشة
 الفضيحة ولا الحد ، لأن ما يرى يذهله عما يعلم . ومنهم من
 يعلم الخطر ويذكره ،^(٣) غير أن الاخذ بالخزم أولى بالعاقل ،
 كيف وقد علم أن هذا الملك الحكيم قطع اليد في ربع دينار ،

(١) الجار والمجرور متعلقان بـ (العلماء) أي أقدام العالمين بعقاب الشهوة .

(٢) على هامش النسخة الخطية : لعل هنا سقطاً وتقديره : ومنهم من يعلم
 الخطر ويذكره غير أنه يفتقر بالحلم والنفوس . وهذا وإن كان صحيحاً غير أن
 الاخذ بالخزم أكمل .

(٣) لعل هاهنا كلاماً ناقصاً .

وهدم بناء الجسم المحكم بالرجم بالحجارة ، لالتذاف ساعة .
وخسف . ومسح . وأغرق .

١٨ - الله يهمل ولا يهمل

من قائل أفعال الباري سبحانه ، وآها على قانون العدل ،
وشاهد الجزاء مرصداً للجزاء ، ولو بعد حين . فلا ينبغي
أن يغتر مسامح ، فالجزاء قد يتأخر . ومن أقبح الذنوب
التي قد أعد لها الجزاء العظيم الاصرار على الذنب ، ثم يصانع
صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد ، وعنده ان المصانعة تنفع .
وأعظم الخلق اغتراراً من أتى ما يكرهه الله ، وطلب منه
ما يحبه هو ، كما روي في الحديث : « والعاجز من اتبع نفسه
هواها وتمنى على الله الاماني » . وما ينبغي للعاقل أن يترصده ،
وقوع الجزاء ، فان ابن سيرين^(١) قال : عيرت رجلاً فقلت :
يا مقلس ، فأفليت بعد أربعين سنة . وقال ابن الجلاء^(٢) :
« رأني شيخ لي وأنا أنظر إلى أمره ، فقال : « ما هذا ؟
لتجدن غيبا » فنسيت القرآن بعد أربعين سنة . وبالضد

(١) محمد بن سيرين من أعلام التابعين كان عالماً البصرة في أيامه وكان من العباد
لوفي سنة ١١٠

(٢) أبو عبد الله أحمد بن يحيى ، بغدادى سكن الشام ، من تلاميذ ذي النون
وأي تراب ، صوفي من القرن الثالث .

من هذا كل من عمل خيراً أو صمغ نية ، فليتنظر جزاءها الحسن ، وإن امتدت المدة . قال الله عز وجل : « لأنه من ينشق وبصره فإن الله لا يضع أجر المحسنين » وقال عليه الصلاة والسلام : « من غص بصره عن محاسن امرأة أتاه الله إيماناً ، يجد حلاوته في قلبه » . فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يحايي .

١٩ - انحراف الصوفية

تأملت أحوال الصوفية والزهاد ، فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة ، بين جهل بالشرع ، وابتداع بالرأي ، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها ، وبأحاديث لها أسباب ، وجمهورها لا يثبت . فمن ذلك ، أنهم سمعوا في القرآن العزيز : « وما الحياة الدنيا إلا مناع العرور » . « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة » ثم سمعوا في الحديث : « للدنيا أهون على الله من شاة ميتة على أهلها » ، فبالعوا في مخرجها من غير بحث عن حقيقتها ، وذلك أنه ما لم يعرف حقيقة الشيء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم . فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرض البسيطة^(١) التي جعلت قراوئع الخلق ، يخرج منها أفراقتهم ، ويدفن فيها أفواتهم . ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه . ورأينا ما عليها من ماء ، وذرع ، وحيوان ،

(١) البسيطة أي الواضحة لا أنها ليست كروية ، فان علماء المخطئين يقولون بكروية الأرض من قبل المؤلف بقرون .

كله لمصالح الآدمي ، وفيه حفظ لسبب بقائه ، ورأينا بقاء
الآدمي سبباً لمعرفة ربه ، وطاعته وإياه وخدمته ، وما كان سبباً
لبقاء العارف العابد بمدح ولا يذم . فبان لنا أن الذم إنما هو لأفعال
الجاهل ، أو العاصي في الدنيا ، فانه إذا اقتنى المال المباح ، وأدى
زكاته ، لم يلم ، فقد علم ما خلف الزبير ، وابن عوف وغيرهما ،
وبلغت صدقة علي رضي الله عنه أربعين ألفاً . وخلف ابن مسعود
تسعين ألفاً ، وكان الليث بن سعد يستغل كل سنة عشرين ألفاً .
وكان سفيان^(١) يتجر بمال ، وكان ابن مهدي يستغل كل سنة ألفي
دينار . وإن أكثر من النكاح والسراري كان بمدوحاً لا ملوماً ،
فقد كان للنبي ﷺ زوجات ، ومراري . وجمهور الصحابة ،
كانوا على الاكثار من ذلك ، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه
أربع حرائر ، وسبع عشرة أمة ، وتزوج ولده الحسن نحواً من
أربعمئة . فان طلب التزوج للأولاد ، فهو الغاية في التعبد ،
وإن أراد التلذذ فمباح ، يندرج فيه من التعبد ما لا يحصى ، من
إعفاف نفسه والمرأة ، إلى غير ذلك . وقد أنفق موسى عليه السلام
من عمره الشريف عشر سنين في مهر بنت شعيب ، فلو لا أن النكاح
من أفضل الاشياء ، لما ذهب كثير من زمان الانبياء فيه ، وقد قال

(١) هما سفيانان : الثوري وابن عينة وكلاهما من الاعلام ، والمراد
الاول عند الإطلاق لانه أكبر وأشهر .

ابن عباس رضي الله عنهما : « خيار هذه الامة أكثرها نساء » ،
 وكان يطأ جارية له ويُنزل في أخرى . وقالت سرية الربيع بن
 خثيم : كان الربيع يعزل . وأما المطعم فالمراد منه تقوية هذا البدن
 لخدمة الله عز وجل ، وحق على ذي الناقة أن يكرمها لتحمله ،
 وقد كان النبي ﷺ يأكل ما وجد ، فان وجد اللحم أكله ، ويأكل
 لحم الدجاج ، وأحب الأشياء اليه الحلوى والعسل . وما نقل عنه
 أنه امتنع من مباح . وحيء علي رضي الله عنه بفالودج فأكل منه ،
 وقال : ما هذا ؟ قالوا : يوم النوروز ، فقال : نورزونا كل
 يوم . وإنما يكره الاكل فوق الشبع ، واللبس على وجه الاختيال
 والبطر . وقد اقتنع أقوام بالدون من ذلك ، لان الخلل الصافي
 لا يكاد يمكن فيه تحصيل المراد ، وإلا فقد لبس النبي ﷺ حلة
 اشترى له بسبعة وعشرين بعيرا . وكانت تميم الداري (١) حلة
 اشترى بألف درهم ، يصلي فيها بالليل . فجاء أقوام ، فأظهروا
 التزهد ، وابتكروا طريقة زينها لهم الهوى ، ثم تطلبوا لها
 الدليل ، وإنما ينبغي للانسان أن يتبع الدليل لا أن يتبع طريقاً
 ويطلب دليلها ، ثم انقسموا : فمنهم متصنع في الظاهر ، ليث الثرى
 في الباطن ، يتناول في خلواته الشهوات ، ويعكف على اللذات .
 ويرى الناس بزيه أنه متصوف متزهد ، وما تزهد إلا القبيص .

وإذا نظر إلى أحواله فعنده كبر فرعون . ومنهم سليم الباطن ،
 إلا أنه بالشرع جاهل . ومنهم من تصدر وصف فاقدي به
 الجاهلون في هذه الطريقة ، وكانوا كعمي اتبعوا أعمى ، ولو أنهم
 تلمحوا للأمر الأول ، الذي كان عليه الرسول ﷺ والصحابه
 رضي الله عنهم ، لما زاغوا . ولقد كان جماعة من المحققين ،
 لا يبالون بمعظم في النفوس إذا حاد عن الشريعة ، بل يوسعونه
 لوماً . فنقل عن أحد أنه قال له المروزي : ما تقول في النكاح؟
 فقال سنة النبي ﷺ ، قال : قد قال إبراهيم ^(١) . قال : فصاح
 بي وقال جئتكم ببنيات الطريق ! وقيل له أن سرياً السقطي قال :
 لما خلق الله تعالى الحروف ، وقفت الالف وسجدت الباء ، فقال :
 نفروا الناس عنه . واعلم أن المحقق لا يهوله اسم معظم ، كما قاله
 وجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أظن أنا نظن أن طلعة
 والزيير ، كانا على الباطل ؟ فقال له : « إن الحق لا يعرف
 بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » . ولعمري أنه قد وفر في
 النفوس تعظيم أقوام ، فإذا نقل عنهم شيء فسمعه جاهل بالشرع
 قبله لتعظيمهم في نفسه كما ينقل عن أبي يزيد رضي الله عنه ، أنه
 قال : تراعت على نفسي فحلفت لا أشرب الماء سنة . وهذا إذا
 صبح عنه ، كان خطأ قبيحاً ، وزلة فاحشة ، لأن الماء ينقذ

«١» يريد أن يحذره عن إبراهيم بن آدم فتركه يوم حفته .

الاعذية إلى البدن ، ولا يقوم مقامه شيء ، فإذا لم يشرب فقد
سعى في أذى بدنه ، وقد كان يستعذب الماء لرسول الله ﷺ ،
أفتوى هذا فعل من يعلم أن نفسه ليست له ، وأنه لا يجوز
التصرف فيها إلا عن إذن مالِكها ؟ وكذلك ينقلون عن بعض
الصوفية ، أنه قال : سرت إلى مكة على طريق التوكل حائلاً ،
فكانت الشوكة تدخل في رجلي فأحكما بالأرض ولا أرفعها ، وكان
عليّ مسح ، فكانت عيني إذا ألمتني أذلكها بالمسح فذهبت إحدى
عيني . وأمثال هذا كثير وربما حملها القصاص على الكرامات ،
وعظموها عند العوام ، فيخايل لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من
الشافعي ، وأحمد . ولعمري إن هذا من أعظم الذنوب وأقبح
العيوب ، لأن الله تعالى قال : « ولا تقتلوا أنفسكم » وقال النبي
ﷺ : إن لنفسك عليك حقاً . وقد طلب أبو بكر رضي الله عنه ،
في طريق الهجرة للنبي ﷺ ، ظلاً حتى رأى صخرة ففرش له في
ظلها . وقد نقل عن قدماء هذه الأمة بدايات هذا التلريط ، وكان
سببه ، من وجهين . أحدهما الجهل بالعلم ، والثاني : قرب العهد
بالرهبانية ، وقد كان الحسن يعيب فرقداً السبغي^(١) ، ومالك بن

(١) في الأصل المطبوع والنخط وفي طبقات الشرائع وفي كثير من الكتب
السبغي بنون وجم وهو السبغي بناء وخاء نسبة للسبغة من نواحي البصرة .

دينار^(١) ، في زهدهما ، فرثي عنده طعام فيه لحم ، فقال : لا رغبي مالك ، ولا صحنا فرقد . ورأى على فرقد كساء ، فقال : يا فرقد ان أكثر أهل النار أصحاب الأكسية . وكم قد زوق قاص مجلته بذكر أقوام خرجوا الى السياحة بلا زاد ولا ماء ، وهو لا يعلم أن هذا من أقبح الأفعال ، وأن الله تعالى لا يجرب عليه ، فربما سمعه جاهل من التائبين ، فخرج فمات في الطريق ، فصار للقاتل نصيب من إثمه . وكم يروون عن ذي النون : أنه لقي امرأة في السياحة فكلتها وكلته ، وينسون الأحاديث الصحاح : لا يحل لامرأة أن تسافر يوماً وليلة إلا بمحرم ! وكم ينقلون : أن أقواماً مشوا على الماء وقد قال إبراهيم الحري^(٢) : لا يصح أن أحداً مشى على الماء قط^(٣) !

فاذا سمعوا هذا قالوا : أنكروا كرامات الأولياء الصالحين؟

(١) اذا اطلق الحسن فهو البصري سيد التائبين وفرقد السبخي ومالك بن دينار من عباد المحدثين ماتا كلاهما سنة ١٣١ .

(٢) من أعلام المحدثين كان من تلاميذ أحمد بن حنبل توفي سنة ٢٨٥ .

(٣) وقولهم « كل ما جاز أن يكون معجزة لني جاز أن يكون كرامة لولي » غير مسلم . راجع بحث الاستاذ السيد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق في « رسائل الإصلاح » ومنظومة الوهبانية في الفقه الحنفي وشرحها وفيها أن من ادعى لولي طي الأرض جاهل وقيل بكفره . راجع « الوهبانية » و « البرازية » .

فنقول : لسنا من المتكرين لها ، بل نتبع ما صح ، والصالحون هم الذين يتبعون الشرع ، ولا يتعبدون بأرائهم . وفي الحديث : ان بني اسرائيل شددوا ، فشدد الله عليهم . وكم يحشون على الفقر حتى حملوا خلقاً على اخراج أموالهم ، ثم آل بهم الامر إما الى التسخط عند الحاجة ، وإما الى التعرض بسؤال الناس . وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل ، وقد قال النبي ﷺ : « ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفس » ، فما قنعوا حتى امروا بالمبالغة في التقلل . فحكى أبو طالب المكي^(١) في قوت القلوب : ان فيهم من كان يزن قوته بكرربة^(٢) رطبة ، ففي كل ليلة يذهب من رطوبتها قليل ، وكنت أنا ممن اقتدي بقوله في الصبا ، فضاقت البعني وأوجب ذلك مرض سنين . أفترى هذا شيء تقتضيه الحكمة أو ندب إليه الشرع ؟ وإنما مطيعة الآدمي قواه ، فإذا سعى في تقليلها ضعف عن العبادة . فانا لو دخلنا ديار الروم ، فوجدنا ثمان الخمر واجرة الفجور ، كان لنا حللاً بوصف الغنية . أفترى حلالاً على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل مذ خرجت من المعدن ، على وجه لا يجوز ! فهذا شيء لم ينظر فيه رسول الله ﷺ . أوليس قد سمعت أن الصدقة عليه حرام ، فلما تصدق على

(١) محمد بن علي من مشايخ الصوفية سكن بغداد وتوفي بها سنة ٣٨٦ .

(٢) وهي كربة النخل والطري منها يؤكل اليوم في العراق .

بريرة بلعم فاهله ، جازله أكل تلك العين لتغير الوصف .
وقد قال أحمد بن حنبل : أكره التثقل من الطعام ، فان أقراماً
قلوه فبجزوا عن الفرائض ، وهذا صحيح . فان التثقل لا يزال
يتثقل ، الى أن يجز عن التوافل ثم عن الفرائض ، ثم يجز عن
مباشرة أهله وإعفافهم ، وعن بذل القوى في الكسب لهم ، وعن
فعل خير قد كان يفعله ، ولا يوثك ما تسعه من الأخاديد ،
التي تحت على الجوع ، فان المراد بها إما الحث على الصوم ، وإما
التمني عن مقاومة الشبع . فأما تنقيص الطعام على الدوام ، فمؤثر
في القوى ، فلا يجوز . ثم في هؤلاء المذمومين من يرى هجر
العلم ، والنبي ﷺ كان يود أن يأكله كل يوم ، واسمع مني بلا
محاباة ، لا تحتجن عليّ بأبناء الرجال ، فتقول قد قال بشر^(١) وقال
إبراهيم ابن آدم ، وان من احتج بالرسول ﷺ وأصحابه رضوان
الله عليهم أقوى حجة ، على أن لافعال أولئك وجوهاً نجملها عليها
بحسن الظن . ولقد ذكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة
من السادات ، أنهم دفنوا كتبهم ، فقلت له : ما وجه هذا ؟
فقال : أحسن ما نقول أن نسكت ، يشير الى أن هذا جهل من
فعله ، وتأولت أنا لهم فقلت : لعل ما دفنوا من كتبهم ما فيه شيء
من الرأي ، فأرأوا أن يعمل الناس به ، ولقد رويناه في الحديث

عن أحمد بن أبي الحواري^(١) : أنه أخذ كتبه فرمى بها في البحر وقال : نعم الدليل كنت ، ولا حاجة لنا إلى الدليل ، بعد الوصول إلى المدلول . وهذا إذا أحسننا به الظن ، قلنا كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه ، فاما إذا كانت علوماً صحيحة ، كان هذا من أفحش الإضاعة وأنا وإن تأولت لهم هذا ، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم ، لأننا قد روينا عن سفيان الثوري : أنه قد أوصى بدفن كتبه ، وكان ندم على أشياء كتبها ، عن قوم ، وقال : حملني شهوة الحديث (وهذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين) فكأنه لما عسر عليه التمييز ، أوصى بدفن الكل . وكذلك من كان له رأي من كلامه ثم رجع عنه ، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك ، فهذا وجه التأويل للعلماء ، فاما المتزهدون ، الذين رأوا صورة فعل العلماء ، ودفنوا كتباً صالحة لئلا تشغلهم عن التعبد ، فإنه جهل منهم ، لأنهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم ، مع الإقدام على تضييع مال لا يحل . ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم ، يوسف بن أسباط ثم لم يصبر عن التحديث فخلط فعد في الضعفاء . أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك ، قال أخبرنا محمد بن مظفر الشامي ، قال أخبرنا أحمد بن محمد العتيقي ، قال حدثنا يوسف بن أحمد ، قال حدثنا محمد بن عمرو العجلي ، قال حدثنا

محمد بن عيسى ، قال أخبرنا أحمد بن خالد الحلال . قال : سمعت
شعيب بن حرب يقول : قلت ليوسف بن أسباط^(١) كيف صنعت
بكتبك ؟ قال : جئت الى الجزيرة ، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء
الماء عليها ، فذهبت . قلت : ما حملك على ذلك ؟ قال : أردت أن
يكون المم همأ واحداً . قال العقيلي : وحدثني آدم ، قال سمعت
البخاري قال قال صدقة^(٢) : دفن يوسف بن أسباط كتبه ، وكان
بعد يغلب عليه^(٣) ، فلا يجيء كما ينبغي ، وقال المؤلف قلت : الظاهر
أن هذه كتب علم ينفع ، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط ،
الذي قصد به الخير ، وهو شر . فلو كانت كتبه من جنس كتب
الثوري ، فإن فيها عن ضعفاء ولم يصح له التمييز قرب الحال . إنما
تعليه بجمع المم ، هو الدليل على أنها ليست كذلك ، فانظر الى
قلة العلم ، ماذا تؤثر مع أهل الخير . ولقد بلغنا في الحديث عن بعض
من نعظه وتزوره ، انه كان على ساطيء دجلة ، فبال ثم تيسم ،
ف قيل له الماء قريب منك ، فقال خفت أن لا أبلغه ، وهذا وإن كان
يدل على قصر الامل ، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا مثل هذا الحديث
تلاعبوا به ، من جهة أن التيسم ، إنما يصح عند عدم الماء . فاذا كان

(١) العالم الزاهد المجاهد المتوفي سنة ١٩٠

(٢) صدقة بن الحسين الناسخ راجع الفصل (٢١١) .

(٣) أي يضطر الى التحديث بلا كتاب .

الماء موجوداً ، كان تحريك اليدين بالتيمع عبثاً . وليس من ضرورة وجود الماء ان يكون الى جانب المحدث ، بل لو كان على أذرع كثيرة ، كان موجوداً ، فلا فعل للتيمع ، ولا أثر حينئذ . ومن تأمل هذه الاشياء ، علم أن فقيهاً واحداً ، وإن قل اتباعه ، وخفّت اذامات أشياعه ، أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبركاً ، ويشيع جنازهم ما لا يحصى . وهل الناس إلا صاحب أثر يتبعه ، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويبقى به ؟ نعوذ بالله من الجهل ، وتعظيم الاسلاف تقليداً لهم بغير دليل ! فان من ورد المشرب الاول رأى سائر المشارب كدرة ، والمحنة العظمى مدائح العوام . فكم غرت كما قال علي رضي الله عنه : « ما أبقي خلق التعال وراء الحمقى ، من عقولهم شيئاً » . ولقد رأينا وسمعنا من العوام ، أنهم يمدحون الشخص ، فيقولون : لاينام الليل ، ولا يفطر النهار ، ولا يعرف زوجة ، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئاً ، قد نخل جسمه ، ودق عظمه ، حتى أنه يصلي قاعداً ، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويستمتعون . ذلك مبلغهم من العلم ، ولو علموا أن الدنيا كلها لو اجتمعت في لقمة فتناولها عالم يبقي عن الله ، ويجبر بشريعته ، كانت فتوى واحدة منه يرشد بها الى الله تعالى خيراً وأفضل من عبادة ذلك العابد باقي عمره ! وقد قال ابن عباس رضي الله عنها : فقيه واحد أشد على

لأجل من ألف عابد . ومن سمع هذا الكلام فلا يظن أنني أمدح
من لا يعمل بعلمه ، وإنما أمدح العاملين بالعلم ، وهم أعلم بمصالح
أنفسهم ، فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش ، كأحمد بن
حنبل ، وكان فيهم من يستعمل رقيق العيش ، كسفیان الثوري
مع ورعه ، ومالك مع تدينه ، والشافعي مع قوة فقهه ،
ولا ينبغي أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيره ، فيضعف هو
عنه ، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه . وقد قالت رابعة :
إن كان صلاح قلبك في الفالودج فكله ، ولا تكونن أيها السامع
ممن يرى صور الزهد ، فرب متنعماً لا يريد التمتع ، وإنما يقصد
المصلحة . وليس كل بدن يقوى على الحشوة خصوصاً من قد
لاقى الكد وأجهده الفكر ، أو عضه الفقر ، فإنه إن لم يرفق
بنفسه ، يترك واجباً عليه من الرفق . فهذه جملة لو شرحناها بذكر
الآخبار والمنقولات لطالت ، غير أنني سطرناها على عجل حين جالت
في خاطري ؛ والله ولي النفع برحمته .

٢٠ — النفس والروح

قد أشكل على الناس أمر النفس وماهيتها ، مع إجماعهم على
وجودها ، ولا يضر الجهل بذاتها مع إثباتها ؛ ثم أشكل عليهم
مصيرها بعد الموت ؛ ومذهب أهل الحق أن لها وجوداً بعد

موتها ، وانما تنعم وتعذب ، قال أحمد بن حنبل : أرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكفار في النار^(١) ، وقد جاء في أحاديث الشهداء : أنها في حواصل طير خضر تعلق^(٢) من شجر الجنة . وقد أخذ بعض الجهة بظواهر أحاديث النعم ، فقالوا : ان الموتى يأكلون في القبور ، وينكحون ، والصواب من ذلك ، ان النفس تخرج بعد الموت الى نعم أو عذاب ، وانما تجد ذلك الى يوم القيامة ، فاذا كانت القيامة ، أعيدت الى الجسد ليكمل لها التنعم بالوسائل . وقوله (في حواصل طير خضر) دليل على ان النفوس لا تنال لذة الا بواسطة ، ان كانت تلك لذة مطعم أو مشرب ، فأما لذات المغارف والعلوم فيجوز أن تنالها بذاتها ، مع عدم الوسائل . والمقصود من هذا المذكور أني رأيت بعض الاتزعاج من الموت ، وملاحظة النفس بعين العدم عنده ، فقلت لها : ان كنت مصدقة للشرعية فقد أخبرت بما تعرفين ، ولاوجه للإنكار ، وان كان هناك

(١) وما يقال في استحضار الأرواح لادليل له من النقل ولا من العقل . على ان حضور أرواح المؤمنين ممكن لانها طليقة ؛ وان كان ليس قطبياً لاحتمال ان يكون التكلم على لسانها جفياً او شيطاناً وان يكون الامر كله من قبيل الوهم . اما استحضار أرواح الكفار فغير ممكن لانها مسجونة مقيدة وما يدعى منه باطل قطعاً . واوسع مرجع في امر الروح كتاب ابن القيم وليس كل ما فيه مسلماً له .
(٢) أي تأكل

وريب في اخبار الشريعة ، صار الكلام في بيان صحة الشريعة
 وقالت : لاريب عندي ، قلت ، فاجتهدي في تصحيح الايمان ،
 وتحقيق التقوى ، وأبشري حينئذ بالراحة من ضاعة الموت ،
 فاني لا اخاف عليك الا من التقصير في العمل ، واعلمي أن
 تفاوت النعيم بمقدار درجات الفضائل فارتفعي باجتماع الجد الى
 اعلا أبراجها ، واحذري من قانس هوى ، أو شرك غرة ،
 والله الموفق .

٢١ — بين العلم والعمل

قلت يوماً في مجلسي : لو أن الجبال حملت ما حملت لعجزت ،
 فلما عدت الى منزلي ، قالت لي النفس : كيف قلت هذا ،
 وربما أوم الناس أن بك بلاء وأنت في عافية في نفسك وأهلك ؟
 وهل الذي حملت الا التكليف الذي يحمله الخلق كلهم ؟ فما
 وجه هذه الشكوى . فأجبته أني لما عجزت عما حملت ، قلت
 هذه الكلمة لا على سبيل الشكوى ، ولكن للاسترواح ، وقد
 قال كثير من الصحابة والتابعين قبلي : ليتنا لم نخلق ! وما ذاك
 الا لاثقال عجزوا عنها ، ثم من ظن أن التكليف سهلة فما
 عرفها ؛ أتري يظن الظان أن التكليف غسل الاعضاء برطل من
 الماء ، أو الوقوف في محراب ، لاداء ركعتين ؟ هيأت ! هذا
 أسهل التكليف ، وإن التكليف هو الذي عجزت عنه

الجبال ، ومن جملة : أني اذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه
 العقل ، ألزمت العقل الاذعان للمقدر ، فكأن من أصعب
 التكليف ، وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه كإبلام الأطفال ،
 وذبح الحيوان ، مع الاعتقاد بأن المقدر لذلك والآمر به
 أرحم الراحمين . فهذا بما يتعير العقل فيه ، فيكون تكليف
 التسليم ، وترك الاعتراض . فكم بين تكليف البدن
 وتكليف العقل ! ولو شرحت هذا طال ؛ غير اني أعذر عما
 قلته ، فاقول عن نفسي ، وما يلزمني حال غيبي : لاني رجل
 حبيب اليّ العلم من زمن الطفولة فتشأغلت به ، ثم لم يحبب
 اليّ فن واحد منه ، بل فنونه ، ثم لا تقتصر همتي في فن على
 بعضه ، بل أروم استقصاءه ، والزمان لا يسع ، والعمر أضيق ،
 والشوق يقوى ، والعجز يقعد ، فيبقى وقوف بعض المطالبات
 حشرات ، ثم إن العلم دلني على معرفة المعبود ، وحشني على
 خدمته ، ثم صاحت بي الأدلة عليه اليه ، فوقفت بين يديه ،
 فرأيت في نعمته وعرفته بصفاته ، وعانيت بصيرتي من أظافه
 ما دعاني الى الميئان في محبته ، وحركني الى التغلي لخدمته ،
 وصار يملكني أمر كالوجد كلما ذكرته ، فعادت خلوتي في
 خدمتي له ، أحلى عندي من كل حلاوة ، فكلمها ملت الى
 الانقطاع عن الشواغل والى الخلوة ، صاح بي العلم : أين تمضي ؟
 أتعرض عني وأنا سبب معرفتك ؟ فاقول له : انما كنت دليلاً
 وبعد الوصول يستغنى عن الدليل ، قال : هيات ! كلما زدت ،

زادت معرفتك بحبوبيك ، وفهمت كيف القرب منه ، ودليل
هذا ، انك تعلم غداً ، انك اليوم في نقصان ، أو مامتته
يقول لنبه ﷺ . « وقل رب زدني علماً » . ثم ألت تبغي
القرب منه ؟ فاستغل بدلالة عباده عليه ، فهي حالات الانبياء
عليهم الصلاة والسلام . أما علمت أنهم أثروا تعليم الخلق ،
على خلوات التعبد ، لعلمهم أن ذلك أثر عند حبيهم ؟ أما قال
الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه : لأن يهدي الله بك رجلاً ،
خير لك من حمر النعم ؟ فلما فهمت صدق هذه المقالة ،
نهوت على تلك الحالة ، وكلما تشاغل بجمع الناس عليّ ،
تفرق همي ، وإذا وجدت مرادي من نفهم ، ضعت أنا ،
فأبقى في حيز التخيير متروداً ، لا أدري على أي القدمين
اعتمد ، فاذا وقفت متحيراً صاح العلم ، قم لكسب العيال ،
وادأب في تحصيل ولد يذكر الله ، فاذا شرعت في ذلك
قلص خزع الدنيا وقت الحلب ، ورأيت باب المعاش مسدوداً
في وجهي ، لان صناعة العلم شغلتني عن تعلم صناعة ، فاذا
التفت الى أبناء الدنيا ، رأيتهم لا يبيعون شيئاً من سلعها
الا بدين المشتري وليت من نافقهم أو راياهم ^(١) قال من
دينام . بل ربما ذهب دينه ولم يحصل مراده ، فان قال الضجر :
اهرب . قال الشرع : كفى بالمرء إثماً ان يضع من يقوت .
وان قال العزم : انفرذ . قال : فكيف بمن تعول ؟ فغاية

الامر التي أشرع في التخلل من الدنيا ، وقد ربيت في نعيتها ،
وغذيت بلبانها ، ولطف مزاجي فوق لطف وضعه بالعادة .
فاذا غيرت لباسي وخشنت مطعمي ، لأن القوت لا يجتنب
الانبساط نفر الطبع لفراق العادة ، فعل المرض فقطع عن
واجبات ، ووقع في آفات . ومعلوم ان لب اللثة بعد
التحصيل من الوجوه المستطابة وتخشينها لمن لم يألّف سعي في
تلف النفس ، فأقول : كيف أضع وما الذي أفعل ؟ وأخلو
بنفسي في خلواتي وأترّب من البكاء على نقص حالاتي . وأقول :
أصف حال العلماء وجسمي يضعف عن عادة العلم ، وحال
الزهاد ، وبدني لا يقوى على الزهد ، وحال المحبين ، ومخالطة
الخلق تشلت همي ، وتفتش صور الهجوبات من الهوى في نفسي .
فتصدأ مرآة قلبي ، وشجرة المحبة تحتاج الى تربة في تربة طيبة ،
لتسقى ماء الخلوة ، من دولاب الفكرة ، وان آثرت النكسب
لم أطق ، وان تعرضت لابناء الدنيا مع أن طبعي الأنفة من
الذل ، وتدينني بمنعني ، فلا يبقى الليل مع هذين الجاذبين أثر ،
ومخالطة الخلق تؤذى النفس مع الانقاس ، فلا تحقيق التوبة
أقدر عليه ، ولانيل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يصح لي .
فاذا رأيتني كما قال القائل :

القاه في الماء مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء
نحيرت في أمري ، وبكيت على عمري ، وأفادي في فلواتي

خلواتي بما سمعته من بعض العوام^(١) وكأنه وصف حالي :
واحسرتني كم أداري فيك تعثيري مثل الاسير بلا حيل ولا سيوري
ما حيلتي في الهوى قد ضاع تدييري لما شككت جناحي قلت لي طيري

٢٢ - دواء لترقيق القلب

تأملت أمر الدنيا والآخرة فوجدت حوادث الدنيا حسية طبيعية ، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية . والحسيات أقوى جذباً لمن لم يقو علمه ويقينه . والحوادث إنما تبقى بكثرة اسبابها فمخالطة الناس ، ورؤية المستحسنات ، والتعرض بالمذوذات ، يقوي حوادث الحس والعزلة والفكر ، والنظر في العلم يقوي حوادث الآخرة . ويبين هذا بأن الانسان اذا خرج يمشي في الاسواق ويبصر زينة الدنيا، ثم دخل الى المقابر فتفكر ورق قلبه ، فانه يحس بين الحالتين فرقاً بيناً ، وسبب ذلك التعرض بأسباب الحوادث ، فعليك بالعزلة والذكر والنظر في العلم ، فان العزلة حمية والفكر والعلم أدوية . والدواء مع التخليط لا ينفع ، وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق ، والتخليط في الافعال . فليس لك دواء إلا ما وصفت لك ، فأما اذا خالطت الخلق وتعرضت للشهوات ، ثم رمت صلاح القلب رمت المستمع .

(١) من المواليا وهو نوع من الشعر العامي

٢٣ - في ان الممنوع مطلوب

تأملت حرص النفس على مامنت منه ، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع ، ورأيت في الشرب الاول^(١) أن آدم عليه السلام لما نهى عن الشجرة حرص عليها مع كثرة الاشجار المغنية عنها وفي الامثال : المرء حريص على مامنع ، وتواق الى ما لم ينل . ويقال : لو أمر الناس بالجوع لصبروا ، ولو نهوا عن تقتيت البعر لرغبوا فيه ، وقالوا مانهنا عنه إلا شيء . وقد قيل :

أحب شيء الى الانسان مامنعا

فلما بحثت عن سبب ذلك وجدت سببين ، أحدهما : ان النفس لا تنصبر على الحصر فانه يكفي حصرها في البدن صورة فاذا حصرت في المعنى (بمنع) زاد طيشها ولهذا لو فقد الانسان في بيته شهراً لم يصعب عليه ، ولو قيل له : لا تخرج من بيتك يوماً طال عليه . والثاني : انها يشق عليها الدخول تحت حكم ، ولهذا تستلذ الحرام ، ولا تكاد تستطيب المباح . ولذلك يسهل عليها التعبد على ماترى وتؤثر ، لا على مايؤثر^(٢)

(١) الشرب جمع شارب كركب .

(٢) أي على ماترى وتؤثر هي لا على مايؤثر الشرع

٢٤- في العزلة

ما زالت نفسي تنازعني بما يوجب مجلس الوعظ ، وتوبة
 التائبين ، ورؤية الزاهدين ، الى الزهد والانقطاع عن الخلق
 والافراد بالآخرة ، فتأملت ذلك فوجدت حمومه من الشيطان ،
 فان الشيطان يرى انه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون ،
 سيكون ويندبون على ذنوبهم ، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون
 ويقطعون شعور الصبا ، وربما بلغوا خمسين ومئة . ولقد تاب
 عندي في بعض الايام اكثر من مئة ، وعمومهم صيانت قد
 نشأوا على اللعب والانهاك في المعاصي . فكان الشيطان لبعد
 غوره في الشر رأني أجتذب إليّ من أجتذب منه ، فأراد ان
 يشغلي عن ذلك بما يزخره ليخلو هو بمن أجتذبه من يده ،
 ولقد حسن الي الانقطاع عن المجالس وقال : لا يخلو من
 تصنع للخلق .

فقلت : اما زخرفة الالفاظ وتزيينها ، واخراج المعنى
 من مستحسن العبارة ففضيلة لازدية ، واما ان اقصد الناس
 بما لا يجوز في الشرع فعاذ الله ، ثم رأيت يربني في التزهد قطع
 اسباب ، ظاهرها الاباحة من الاكتساب . فقلت له : فإن

طالب في الزهد ، وعكنت من العزلة ، فنقد ما بيدي أو
احتاج بعض عائلتي ، ألسنت أعود التفرق ؟ فدعني اجمع مايسد
خلفي ويصونني عن مسألة الناس ، فان مد عمري ، كان نعم
السبب ، وإلا كان للعائلة ، ولا اكون كراكب أراق مائه
لروبه سراب ، فلما ندم وقت الفوات لم يلتفع بالندم ، وإنما
الصواب توطئة المضجع قبل النوم ، وجمع المال الساد لليلة
قبل الكبر ، اخذاً بالحزم ، وقد قال الرسول ﷺ : « لأن
تترك ورثتك أغنياء خير لك من ان تتركهم عالة يتكففون الناس . »
وقال « نعم المال الصالح ، للرجل الصالح . »

وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن
الخير ، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال . وأما تعليم
للطالين وهداية المريدين ، فإنه عبادة العالم . وان من تغفل
بعض العلماء بإثارة للتنفل بالصلاة والصوم ، عن تصنيف كتاب
أو تعليم علم ينفع لأن ذلك بذر يكثر ريعه ، ويمتد زمان
نفعه . وإنما قيل النفس الى ما يزخره الشيطان من ذلك لمعنيين :
أحدهما : حب البطالة لأن الانقطاع عندها اسهل .

والثاني : لحب المدحة فانها اذا توسمت بالزهد كان ميل
العوام اليها اكثر ، فعليك بالنظر في الشرب الاول ، فكن
مع الشرب المقدم . وهم الرسول ﷺ واصحابه ، رضي الله
تعالى عنهم ، فهل نقل عن احد منهم ما ابتدعه جهة المتزهدين

والتصوفة ، من الانقطاع عن العلم ، والانفراد عن الخلق ؟ وهل كان مثل الانبياء الامعانة الخلق ، وحشم على الخير ونهيم عن الشر ؟ إلا ان ينقطع من لبس بعالم يقصد الكف عن الشر ، فذاك في مرتبة المحتسبي يخاف شر التخليط . فأما للطبيب العالم بما يتناول فانه ينتفع بما يناله .

٢٥ - المراد من الخلق

تأملت المراد من الخلق فإذا هو الذل واعتقاد التقصير والعجز ، ومثلت العلماء والزهاد العاملين صنفين ، فأتمت في صف العلماء مالكا وسفيان وأبا حنيفة والشافعي واحمد ، وفي صف العباد مالك بن دينار ورابعة ومعروفا الكرخي وبشر ابن الحارث .

فكلما جد العباد في العبادة وصاح بهم لسان الحال : عباداتكم لا يتعداكم نفعها ، وانما يتعدى نفع العلماء وهم ورثة الانبياء ، وخلفاء الله في الارض وهم الذين عليهم المعول ، ولهم الفضل ، اذا أطرقوا وانكسروا ، وعلّموا صدق تلك الحال . وجاء مالك بن دينار الى الحسن يتعلم منه ويقول : الحسن استاذنا .

واذا رأى العلماء لهم بالعلم فضلا ، صاح لسان الحال بالعلماء : وهل المراد من العلم إلا العمل ؟

وقال احمد بن حنبل : وهل يراد العلم إلا لما وصل إليه معروف ؟

وصح عن سفیان الثوري قال : وددت ان يدي قطعت ولم اكتب الحديث .

وقالت أم الدرداء لرجل : هل علمت بما علمت ؟ قال : لا . قالت : فلم تستكثر من حجة الله عليك ؟

وقال ابو الدرداء : ويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة ، وويل لمن علم ولم يعمل سبعين مرة ،

وقال الفضيل : يغفر للجاهل سبعون ذنباً . قبل ان يغفر للعالم ذنب واحد ، فما يبلغ من الكل قوله تعالى : « آمنم يعلم كمن لا يعلم ^(١) » . وجاء سفیان الى رابعة : فجلس بين يديها ينتفع بكلامها .

فدل العلماء العلم على ان المقصود منه العمل به وانه آلة فانكسروا واعترفوا بالتقصير . فحصل الكل على الاعتراف والذل ، فاستخرجت المعرفة منهم حقيقة العبودية باعترافهم ، فذلك هو المقصود من التكليف .

(١) الآية : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفي التنزيل (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ ولعل المؤلف التبس عليه الامر بينها .

٢٦ - حب الله

تأملت قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » ، فإذا النفس تأبى
 اثبات محبة الغالب توجب قلقاً^(١) ، وقالت : محبته طاعته ، فتدبر ذلك
 فإذا بها قد جهلت ذلك لغلبة الحس . وبيان هذا ، ان محبة
 الحس لا تتمدى الصور الذاتية ، ومحبة العلم والعمل ترى الصور
 المعنوية فتحبها . فلما نرى خلقاً يحبون أبا بكر رضي الله عنه ،
 وخلقاً يحبون علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وقوماً
 ينصبون لأحمد بن حنبل ، وقوماً للاشعري ، فيقتلون ويبدلون
 النفوس في ذلك . وليسوا بمن رأى صور القوم ، ولا صور
 القوم توجب المحبة . ولكن لما تصوّرت لهم المعاني فدلتهم
 على كمال القوم في العلوم ، وقع الحب لتلك الصور التي
 شوهدت بأعين البصائر ، فكيف بمن ضيع تلك الصور المعنوية
 وابتدأها ؟ وكيف لا أحب من وهب لي ملذوذات حسي ،
 وعرفني ملذوذات علمي ، فإن التذاذي بالعلم وادراك العلوم
 أولى من جميع الذات الحسية ، فهو الذي علمني وخلق لي
 إدراكاً وهداني الى ما أدركته . ثم انه يتجلى لي في كل لحظة
 في مخلوق جديد أراه فيه بانقاس ذلك الصنع وحسن ذلك
 المصنوع . فكل محبوباتي منه وعنه وبه : الحسية والمعنوية ،
 وتسهيل سبل الادراك به ، والمدرجات منه ، والله من كل

(١) يريد بالقلق مانسية نحن « الانفعال النفسي »

لذة عرفاني له ، فلو لا تعليمه ، ما عرفته ، وكيف لا أحب من
 أتاه ، وبقيائي منه ، وتديري بيده ، ورجوعي إليه ، وكل
 مستحسن محبوب هو صنعه وحسنه وزينه وعطف النفوس
 إليه ، فكذلك الكامل القدرة أحسن من المقدور ، والعجيب
 الصنعة أكمل من المصنوع ، ومعنى الإدراك احلي عرفاناً من
 المذكر ، ولو اتنا رأينا نقشاً عجيباً لاستغرقنا تعظيم
 النقاش وتمويل شأنه وظريف حكمته عن حب النقوش ، وهذا
 بما ترقى إليه الافكار الصافية ، اذا خرق نظرها الحيات
 ونفذ الى ما وراءها ، فحينئذ تقع حجة الخالق ضرورة ، وعلى
 قدر روية الصانع في المصنوع يقع الحب له ، فإت قوي
 أوجب قلقاً وشوقاً ، وإن مال بالعارف الى مقام الهيبة أوجب
 خوفاً ، وإن انخرق به الى تلح الكرم أوجب رجاء قريباً ،
 وقد علم كل ائاس مشربهم .

٢٧- التسليم أولى

تأملت حالاً عجيبه ، وهي ان الله سبحانه وتعالى قد بني
 هذه الاجسام متقنة على قانون الحكمة ، فدلّ بذلك المصنوع
 على كمال قدرته ، ولطيف حكمته . ثم عاد فنقضا فتحيوت
 المعقول بعد اذعانها له بالحكمة في سر ذلك الفعل . فأعلنت
 أنها ستعاد للمعاد ، وإن هذه البنية لم تخلق إلا لتجوز في مجاز

المعرفة وتجبر في موسم المعاملة ، فسكنت العقول لذلك . ثم رأت أشياء من هذا الجنس أظرف منه ، مثل اختتام شاب ما بلغ بعض المقصود بنيانه ، وأعجب من ذلك أخذ طفل من أكف أبويه يتسللان ولا يظهر سر سلبه . والله الغني عن أخذه ، وهما أشد الخلق فقراً الى بقاءه . وأظرف^(١) منه إبقاء هرم لا يدري معنى البقاء ، وليس له فيه إلا مجرد أذى . ومن هذا الجنس تقتير الرزق على المؤمن الحكيم ، وتوسعته على الكافر اللاحق ، في نظائر لهذه المذكورات يتخير العقل في تعليلها ، فيبقى مهوئاً . فلم أزل أتلمح جملة التكاليف ، فاذا عجزت قوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك وقد ثبت لها حكمة الفاعل علمت قصورها عن درك جميع المطلوب فأذعنت مقرة بالعجز وبذلك يؤدي مفروض تكليفها ، فلو قيل للعقل : قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بني أفيجوز ان ينقذ في حكمته أنه نقض ؟ فقال : إني عرفت بالبرهان أنه حكيم ، وأنا أعجز عن ادراك علل حكمته ، فأسلمت على رضي مقرأ بعجز^(٢)ي .

٢٨ - في الحب والزواج

تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه . فرأيت ان الأصل الأكبر في وضعه وجود النسل ، لأن هذا الحيوان

(١) اي اعجب

(٢) هذا هو الحق وقد اخذه كانت الفيلسوف الالمانى الاشهر فقهه بعد قرون طوال

لا يزال يتحلل ثم يُخْلَف المتحللَ الغذاء ، ثم يتحلل من الاجزاء
الاصلية مالا يُخْلَفه شيء ، فاذا لم يكن بدّ من فناءه وكان المراد
امتداد أزمان الدنيا جعل النسل خلفاً عن الاصل ، ولما كانت
صورة النكاح تأباه النفوس الشريفة من كشف العورة وملافة
مالا يستحسن لنفسه ، جعلت الشهوة تحتّ ليحصل المقصود .

ثم رأيت هذا المقصود الاصلي يتبعه شيء آخر ، وهو
استفراغ هذا الماء الذي يؤدي دوام احتوائه ، فان المنى
ينفصل من الهضم الرابع فهو أصفى جوهر الغذاء وأجوده ، ثم
يجمع ، فهو احد الذخائر للنفس فانها تدخر لبقائها وقوتها
الدم ، ثم المنى ، فاذا زاد اجتماع المنى اقلق على قدر اطلاق
البول للعاقن ، إلا أن اطلاقه من حيث المعنى اكثر من اطلاق
البول من حيث الصورة ، فتوجب كثرة اجتماعه ، وطول
احتباسه ، أمراضاً صعبة ، لأنه يترقى من بخاره الى الدماغ
فيؤدي ، وربما أحدثُ سُمِيَّة ، ومتى كان المزاج سليماً فالطبع
يطلب بروز المنى اذا اجتمع ، كما يطلب بروز البول ، وقد
تنحرف بعض الامزجة فيقلل اجتماعه عنده فيندر طلبه لإخراجه .
وانما تتكلم عن الزواج الصحيح ، فأقول :

قد بينت انه اذا وقع به احتباسه أوجب أمراضاً ووجد
أفكاراً رديئة ، وجلب العشق والوسوسة الى غير ذلك من

الآفات . وقد نجد صحيح المزاج يخرج ذلك اذا اجتمع وهو بعد متقلل ، فكأنه الأكل الذي لا يشبع ، فبحث عن ذلك فرأيت وقوع الحلل في المنكوح إما لدمايته ، وقيح منظره ، أو لآفة فيه ، أو لأنه غير مطلوب للنفس ، فحينئذ يخرج منه ويبقى بعضه ؛ فاذا أردت معرفة ما يدلك على ذلك فقس مقدار خروج المنى في الحلل المشتبه ، وفي الحلل الذي هو دونه ، كالوطء بين الفخذين بالإضافة الى الوطء في محل النكاح ، وكوطء البكر بالإضافة الى وطء الثيب ، فعمل حينئذ ان تختبر المنكوح يستعصي فضول المنى ، فيحصل للنفس كمال اللذة ، لموضع كمال بروز الفضول . ثم قد يؤثر هذا في الولد أيضاً ، فإنه اذا كان (أي الولد) من شابين قد حبا انفسهما عن النكاح مدبنة كان الولد أقوى منه من غيرهما ، أو من المدمن على النكاح في الاغلب ، ولهذا كره نكاح الاقارب لأنه بما يقبض النفس عن انبساطها ، فيتغفل الانسان أنه ينكح بعضه ، ومدح نكاح الغرائب لهذا المعنى ، ومن هذا الفن يحصل كثير من التصود من دفع هذه الفضول المؤذية بمنكوح مستبعد وان كان مستحب الصورة مالا يحصل به في العادة .

ومثال هذا ان الطاعم اذا امتلأ خبزاً ولحماً حيث لم يبق فيه فضل لتناول لقمة ، قدمت إليه الحلوى فيتناول ، فلو

قدم اعجب منها لتناول لأن الجدة لها معنى عجيب .
 وذلك أن النفس لا تقبل الى ما الفت ، وتطلب غير ما عرفت ،
 ويتخايل لها في الجديد نوع مراد ، فاذا لم تجد مرادها صرفت الى
 جديد آخر ، فكانها قد علمت وجود غرض تام بلا كدر ، وهي
 تتخايله فيما تراه^(١) . وفي هذا المعنى دليل مدفون على البعث لأن
 خلق من همته متعلقة بلا متعلق نوع عبث^(٢) . فافهم هذا ،
 فاذا رأت النفس عيوب ما خالطت في الدنيا عادت
 تطلب جديداً .

ولذلك قال الحكماء : المشق العمى عن عيوب المحبوب .
 فمن تأمل عيوبه سلا ، ولذلك يستعجب للمرأة أن لا تبعد عن
 زوجها بعد أن ينسبه إياها ، ولا تقرب منه قريباً يله ، وكذلك
 يستعجب له ، لئلا يله أو يظهر لديه مكنونات عيوبها ، وينبغي له
 أن لا يطلع منها على عورة ، ويحتد في أن لا يشم منها إلا طيب
 ريح ، الى غير ذلك من الحاصل التي تستعملها النساء الحكيمات ،
 فانهن يعلمن ذلك بفطرهن من غير احتياج (الى تعليم) .

فاما الجاهلات فانهن لا ينتظرن في هذا فيتعجل التفات الأزواج
 عنهن . فمن أراد نجابة الولد وقضاء الوطر فليتخير المنكوح إن

(١) في هذا اشارة الى نظرية افلاطون في المثل العليا .

(٢) اي ان الانسان كلما نال لذة في الدنيا طمع باخرى فلا يقنه الا لذة

ليست في الدنيا وهي لذات الجنة .

كان زوجة فليَنظر إليها فإذا وقعت في نفسه فليَتزوجها ، وليَنظر في كيفية وقوعها في نفسه . فان علامة تعلق حبها بالقلب انه لا يكاد يصرف الطرف عنه ، فاذا انصرف الطرف قلق القلب بتقاضى النظرة^(١) ، فهذا الغاية . ودونه مراتب ، على مقاديرها يكون بلوغ الاغراض ، وإن كان جارية تشتري فليَنظر إليها أبلغ من ذلك النظر ، ومن قدر على مناطق المرأة أو مكانها بما يوجب التنبيه ثم ايرى ذلك منها فان الحُسن في الغم وفي العيين . وقد نص أحمد على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التي يريد نكاحها بما هو عورة ، يشير الى ما يزيد على الوجه^(٢) ، ومن أمكنه أن يؤخر العقد أو ثراء الجارية لينظر كيف توقان قلبه ، فانه لا يخفى على العاقل توقان النفس لأجل المستجد ، وتوقانها لأجل الحب ، فاذا رأى قلق الحب أقدم . فانه قد أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزاز قال أخبرنا حمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا عبد الجبار بن أبي عامر ، قال حدثني أبي ، قال حدثني خالد بن سلام ، قال حدثنا عطاء الجراساني قال : مكتوب

(١) أي اشتغل بطلب نظرة أخرى .

(٢) ليس في المعروف من ذهب أحمد جواز ذلك .

في التوراة كل تزويج على غير هوى^(١) حسة وندامة الى يوم القيامة .

ثم ينبغي للتخير أن يتفرس الأخلاق فانها من الحقى فان الصورة اذا خلعت من المعنى كالت كخفـ وراء الدمن ، فان نجابة الولد مقصودة ، وفراغ النفس من الاهتمام أصل عظيم يوجب اقبال القلب على المهمات . ومن فرغ من المهمات للعارضة أقبل على المهمات الأصلية . ولهذا جاء في الحديث : لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان . و اذا وضع العشاء وحضرت العشاء فابدؤوا بالعشاء . فمن قدر على امرأة سالحة في الصورة والمعنى فليغض عن عيوبها ، ولتجند هي في مرضيه من غير قرب ميل ، ولا بعدئني ، وتقدم على التصنع له يحصل الغرض منها : الولد وقضاء الوطر ، مع الاحتراز الذي أوصيت به ، تدوم الصحة ويحصل الغناء بها عن غيرها . فان قدر على الاستكثار فأضاف اليها سواها عالماً انه يبلغ الغرض الذي يفرغ قلبه زيادة تفريغ كان أفضل لحاله ، فان خاف من وجود الفيرة ما يشغل القلب الذي قد اهتمنا بجمع منه ، أو خاف وجود مستحسن يشغل قلبه عن ذكر الآخرة ، أو يطلب منه ما يوجب خروجه

(١) اي ميل من القلب لا الهوى بمنى المشق ، على ان ذلك لا اصل له وليس في التوراة ، ولو كان فيها لا اخذه به لاله مخالف لما عندنا .

عن الورع ، ويدخل فيما أوصيت به انه « يبتعد في المستحسّنات العفاف » ، فليبالغ الواحد لمن في حفظهن وسترهن ، فان وجد ما لا يرضيه عجل الاستبدال فانه سبب السوء ، فان قدر على الاقتصار فان الاقتصار على الواحدة أولى . فان كانت على الغرض قنع ، وإن لم تكن استبدل .

ونكاح المرأة المحبوبة يستفرغ الماء المجتمع ، فيوجب نجاسة الولد ونمائه ، وقضاء الوطر بكماله ، ومن خاف وجود الفيرة فعليه بالسرايري فانهم أقل غيرة ، والاستظراف لمن أمكن من استظراف الزوجات ، وقد كان جماعة يمكنهم الجمع وكان النساء يصبرن فكان لداود عليه الصلاة والسلام مئة امرأة ، وسليمان عليه الصلاة والسلام ألف امرأة ، وقد علم حال نبيينا ﷺ وأصحابه ، وقد كان لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أربع حرائر ، وسبع عشرة سرية . وتزوج ابنه الحسن رضي الله عنه بنحو من أربعين^(١) الى غير هذا مما يطول ذكره . فافهم ما أشرت اليه تفز به ان شاء الله تعالى .

(١) ما رواه عن داود وسليمان من الاسرائيليات التي لم تصح وما فعله الحسن انكره عليه ابو .

٢٩ — كل ذنب له عقوبة

كل شيء خلق الله تعالى في الدنيا فهو أنموذج في الآخرة ، وكل شيء يجري فيها أنموذج ما يجري في الآخرة . فأما المخلوق منها فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء . وهذا لأن الله تعالى شوق بنعيم إلى نعيم ، وخوف بعذاب من عذاب ، فأما ما يجري في الدنيا فكل ظالم معاقب في العاجل على ظله قبل الآجل وكل مذنب ذنباً ، وهو معنى قوله تعالى : « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة ، وغفلت عما عوقب به عقوبة ، وقد قال الحكماء : « المعصية بعد المعصية عقاب المعصية ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة » ، وربما كان العقاب للعاجل معنوياً كما قال بعض أحبار بني إسرائيل : « يارب كم أعضيك ولا تعاقبني » فقبل له : « كم أعاقبك ولا تدري ، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي ؟ » .

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد ، حتى قال وهب بن الورد : وقد سئل أئيد لذة الطاعة من يعصي ؟ فقال : « ولا من هم »^(١) .

فرب شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته ، أو لسانه

(١) يردّ هذا ، ثم يوسف ، وقصة الثلاثة الذين أغلق عليهم الفار ، وحديث السبعة الذين هم في ظل العرش .

حرم صفاء قلبه ، أو أثر شبهة في مطعمه فأظلم مِرته ، وحرم قيام الليل ، وحلاوة المناجاة ، إلى غير ذلك . وهذا أمر يعرفه أهل خانبة النفوس ، وعلى خذه يجد من يقرب الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلا ، كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ يقول الله تعالى : « النظر إلى المرأة منهم مسوم من سهام الشيطان ، فمن تركه ابتغاء مرضاتي آتيته إيماناً يجد حلاوته في قلبه^(١) » ، فهذه نبذة من هذا المجلس تنبه على مغفلها .

فاما المقابلة الصريحة في الظاهر فقل أن تحتبس ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : « الشبهة^(٢) تمنع الرزق » ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب بصيبه . وقد روى المفسرون : أن كل شخص من الأسباط جاء باثني عشر ولداً وجاء يوسف بأحد عشر بالهنة^(٣) . ومثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة رأى الجزاء وفهم ، كما قال الفضيل : إلى لا عطي الله عز وجل فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي ، وعن أبي عثمان النيسابوري^(٤) أنه انقطع شمع نعله في مضيه إلى الجنة فتمرق لأصلاحه ساعة ، ثم قال : إنما انقطع لاني ما اغتسلت

(١) قال الشيخ طاهر الالباني : هذا الحديث ضعيف .

(٢) الصبغة نوم التمتع . قال الشيخ طاهر : صبغة .

(٣) يشير إلى قصته مع امرأة العزيز . انظر الفصل ١٢٩٥
والتعليق عليه .

(٤) شيخ الصوفية في نيسابور توفي سنة ٢٩٨ .

غسل الجعة . ومن عجائب الجواز في الدنيا أنه لما امتدت أيدي
الظلم من أخوة يوسف وشروءه بثمن بحس امتدت أسكهم بين
يديه بالطلب ، يقولون : « وتصدق علينا » ، ولما صبر هو يوم
الحمة تلك المرأة حلالا ، ولما بثت عليه بدعواها : « فاجزاء
من أراد بأمك سوءاً » ، أنطقها الحق بقولها : « أنا راودته » ولو
أن شخصاً ترك معصية لاجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك ، وكذلك إذا
فعل طاعة . وفي الحديث : « إذا أملكتم فتاجروا الله بالصدقة »
أي عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة .

ولقد رأيتنا من سامع نفسه بما يجمع منه الشرع ، طلباً للراحة
العاجلة ، فانقلبت أحواله إلى التنقض العاجل ، وعكست
عليه المقاصد .

حكى بعض المشايخ : أنه اشترى في زمن شبابه جارية ،
قال : فلما ملكتها تأت نفسي إليها فما زلت أسأل الفقهاء لعل مخلوقاً
يؤخس لي . فكلهم قال : لا يجوز النظر إليها بشهوة ، ولا لمسها ،
ولا جماعها إلا بعد حيضها .

قال : فسألها فأخبرتني أنها استربت وهي حائض . فقلت :
قرب الامر .

فسألت الفقهاء فقالوا : لا يبعد بهذه الحيضة حتى تحيض
في ملكه .

قال : فقلت لنفسي وهي شديدة التوقان لقوة الشهوة ،
 وتمكن القدرة ، وقرب المصاقبة : ما تقولين ؟
 فقالت : الايمان بالصبر على الجمر شئت أو أبيت .
 فصبرت الى أن حان ذلك فأثابني الله تعالى على ذلك الصبر نيل
 ما هو أعلى منها وأرفع .

٣٠ - من دلائل الوجدانية

نظرت في الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من
 الرمل ، ورأيت من أعجبا ان الانسان قد يخفي ما لا يرضاه
 الله عز وجل ، فيظهره الله سبحانه عليه ولو بعد حين ، وينطق
 الألسنة به وان لم يشاهده الناس . وربما أوقع صاحبه في آفة
 يفضعه بها بين الخلق فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب ،
 وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازي على الزلل ، ولا ينفع
 من قدره وقدرته حجاب ولا استتار ، ولا يضاع لديه عمل .
 وكذلك يخفي الانسان الطاعة فتظهر عليه ويتحدث الناس بها
 وبأكثر منها ، حتى أنهم لا يعرفون له ذنباً ولا يذكرونه
 إلا بالחסن ، ليعلم أن هنالك رباً لا يضيع عمل عامل ، وأن
 قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه أو تأباه ، وتذمه أو

تدحه ، وربما لم يتحقق ما بينه وبين الله تعالى فانه يكفيه كل هم ،
ويدفع عنه كل شر ، وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون الحق ،
إلا انعكس مقصوده وعاد حامده ذاماً .

٣١ — طبقات الغافلين

تأملت الارض ومن عليها بعين فكري ، فرأيت خرابها أكثر
من عمرانها ، ثم نظرت في المعبور منها ، فوجدت الكفار
مستولين على أكثره ، ووجدت أهل الاسلام في الارض قليلا
بالإضافة الى الكفار ، ثم تأملت المسلمين فرأيت الأكثاب قد
شغلت جمهورهم عن الرزاق ، وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه .
فالسلطان مشغول بالأمر والنهي واللذات العارضة له ، ومياه
أغراضه جارية لاسكر^(١) لها ، ولا يتلقاه أحد بموعظة بل بالمدحة التي
تقوي هوى النفس ، ولما ينبغي أن تقاوم الأمراض باضدادها .
كما قال عمر بن المهاجر ، قال لي عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتني
قد حدثت عن الحق فخذ بشيائي وهزني ، وقل : مالك يا عمر ؟
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رحم الله من أهدى
لينا عيوبنا .

فأخرج الخلق الى النصائح والمواظ على السلطان . وأما جنوده
فجمهورهم في سكر الهوى ، وزينة الدنيا ، وقد انضاف الى

(١) السكر : سد المياه وهو من عامي الشام الدصيح .

ذلك الجبل ، وعدم العلم ، فلا يؤاخذون ذنب ، ولا ينزعجون من
لبس حرير ، أو شرب خمر ، حتى ربما قال بعضهم : ايش يعمل
الجندي ، ألبس القطن ؟ ثم أخذهم للاشياء من غير وجهها ، فالظلم
معهم كالطبع .

وأبواب البرادي وأهل القرى قد غرهم الجبل فلذلك كان تعليمهم
في الأنجاس ، والتموين لأمر الصلوات ، وربما صلت المرأة
كلهن قاعدة .

ثم نظرت في التجار فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص ، حتى لا يرون
سوى وجوه الكسب كيف كانت ، وصار الربا في معاملاتهم
قاسياً ، فلا يبالي أحدهم من أين حصلت له الدنيا ، وهم في
باب الزكاة مفرطون ، ولا يستوحشون من تركها إلا من
عزم الله .

ثم نظرت في أبواب المعاش ، فوجدت الغش في معاملاتهم
عاماً ، والتطيف والبغس ، وهم مع هذا مغمودون بالجهل .

ورأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هذه الاشغال طلباً للكسب
قبل أن يعرف ما يجب عليه وما يتأدب به .

ثم نظرت في النساء : فرأيتهن قليلات الدين ، عظيمات الجهل ،
ما عندهن من الآخرة خبر إلا من عظم الله .

قلت : واعظيأ فرج بقى خدمة الله عز وجل ومعرفة ؛
 فظنرت فاذا العلماء ، والمتعلمون ، والعباد ، والمتهذون .
 فقامت العباد والمتزهدين ، فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم ، ويألسن
 الى تعظيمه ، وتقييل يده ، وكثرة أتباعه ، حتى أن أحدهم لو
 اضطر الى أن يشك في حاجته من السوق لم يفعل ، لتلاينكسوا
 جاحه ، ثم تترقى بهم رتبة الناموس الى أن لا يعودوا مريضاً ،
 ولا يشهدوا جنازة ، إلا أن يكون عظيم القدر عندهم ،
 ولا يتزاودون ، بل ربما ظن بعضهم على بعض ، فقد حارت
 النواميس كالآوثان يعبدونها ولا يطمون . وفهم من يقدم على الفتوى
 يجمل لتلا يخل بناموس التصدر ، ثم يعيبون العلماء لحرصهم
 على الدنيا ولا يطمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه ،
 لا تناول المباحات .

ثم تأملت العلماء والمتعلمين ، فرأيت القليل من المتعلمين ممن
 عليه أمانة النجاة ، لأن أمانة النجاة طلب العلم للقل به ،
 وجمهورهم يطلب ما يصيره شبكة للكسب ، إما ليأخذ قطاة
 مكان أو ليصير قاضي بلد ، أو قدور ما يتبرر به عن أبناء
 جنته ثم يكفني .

ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الموتى ويستغلونه ،
 فهو يؤثر ما يصدده العلم عنه ، ويقبل على ما ينهيه ، ولا يكاد يجد

فوق معاملة الله سبحانه ، وإنا همته أن يقول : ألا إن الله لا يخلي الأرض من قائم له بالحجة ، جامع بين العلم والعمل ، عارف بحقوق الله تعالى ، خائف منه . فذلك قطب الدنيا ، ومتى مات أخلف الله عوضه ، وربما لم يميت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه في كل نائبة . ومثل هذا لا تخلو الأرض منه ، فهو في مقام النبي في الأمة ، وهذا الذي أصفه يكون قائماً بالاصول ، حافظاً للحدود ، وربما قل عليه أو قلت معاملته . فأما السكاملون في جميع الادوات فيندر وجودهم ، فيكون في الزمان البعيد منهم واحد . ولقد سبوت السلف كلهم فاردت أن استخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين ، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين ، فلم أر أكثر من ثلاثة : أولهم الحسن البصري ، وثانيهم سفيان الثوري ، وثالثهم أحمد بن حنبل^(١) ، وقد أفردت لأخبار كل واحد منهم كتاباً ، وما انكر على من ربيعهم سعيد بن المسيب ، وإن كان في السلف سادات ، إلا أن أكثرهم غلب عليه فن ، فنقص من الآخر ، فمنهم من غلب عليه العلم ،

(١) لقد جبر المؤلف وأسماء وإلا فإين أبو حنيفة وإين ابن المبارك وإين الازاعي وإين المثات من أمثالهم ممن كانوا في العلم مقصد الطالبين ، وكانوا في العبادة والورع أئمة المتقين ، إن طالب العلم يستطيع أن يعد منهم عشرات من غير (سبر ولا استقصاء) . وانظر شهادته للائمة الاربعة جميعاً بالعبادة في الفصل (٤٠) .

وممنهم من غلب عليه العمل ، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم ، والتصيب الأوفى من المعاملة والمعرفة ، ولا يؤيس من وجود من يحدو حدوهم ، وإن كان الفضل بالسبق لهم . فقد أطلع الله عز وجل الخضر على ما خفي عن موسى عليها السلام . فخرائن الله بملوءة وعطاؤه لا يقف على شخص . ولقد حكى لي عن ابن عقيل انه كان يقول عن نفسه : أنا نمت في قارب ثم كسر . وهذا غلط . فمن أين له ؟

فكم معجب بنفسه كشف له من غيره ما عاد يحتقر نفسه على ذلك ، وكم من متأخر سبق متقدما ، وقد قيل :
ان الليالي والايام حاملة وليس يعلم غير الله ما تلد

٣٢ — محاورة النفس

وأيت ميل النفس الى الشهوات زائداً في المقدار حتى انها اذا مالت مالت بالقلب والعقل والذهن ، فلا يكاد ينتفع بشيء من البدن . فصحت بها يوماً وقد مالت بكليتها الى شهوة : ويحك فني لحظة أكلمك كلمات ثم افعلي ما بدا لك .
قالت : قل أسمع .

قلت : قد تقررة ميلك الى المباحات من الشهوات ، وإن

جل ميلك الى المحرمات ، فانا اكشف لك عن الامرين ، وربما رأيت
الحلوين مرين .

أما المباحات من الشهوات فمطلقة لك ولكن طريقها صعب ،
لان المال قد يعجز عنها ، والكسب قد لا يحصل معظمها ، والوقت
الشريف يذهب بذلك ، ثم شغل القلب بها وقت التحصيل ، وفي
حالة الحصول ، ويجذب الفوات . ثم ينقصها من النقص ما لا يخفى
على عيز .

إن كان مطعماً فالشبع يحدث آفات ، وإن كان شغصاً فللملل
أو الفراق ، أو سوء الخلق . ثم أذا النكاح أكثره إلهاماً للبدن ،
الى غير ذلك مما يطول شرحه .

وأما المحرمات ، فتشتمل على ما اشرنا اليه من المباحات ، وتزيد
عليه خوف عقاب الدنيا وفضيحتها ، ووعيد الآخرة ، ثم الجزع
كلما ذكرها التائب ، وفي قوة قهر الهوى لذة تربد على كل لذة .
ألا ترى الى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلاً ، لأنه قهر ،
بخلاف غالب الهوى فإنه يكون قوي القلب عزيزاً لأنه قهر ، فالجذر
الجذر من رؤية المشتبه بعين الحسن ، كما يرى اللص لذة أخذ المال
من الخزانة ، ولا يرى بعين فكره القطع ، وليفتح عين البصيرة
لتأمل العواقب واستحالة الاذة نغصة ، واتقلابها عن كونها لذة إما
للمل أو لغيره من الآفات ، أو لانقطاعها باصتناع الحبيب ، فتكون

المعصية الأولى كلمة تناولها جانح ، فما ردت كَلَب الجوع ،
بل شئت الطعام . ولينذكر الانسان لذة قهر الهوى
مع تأمل فوائد الصبر عنه ، فمن وفق لذلك كانت سلامته
قريبة منه .

٣٣ — الشواغل عن الله

خطر لي خاطر والمجلس^(١) قد طاب ، والقلوب قد حضرت ،
والصيون جارية ، والرؤوس مطرقة ، والنفوس قد ندمت على
تفريطها ، والعزائم قد نهضت لاصلاح شؤونها ، والسنة اليوم تعمل
في الباطن على تضييع الحزم وترك الحذر ، فقلت لنفسي : ما بال
هذه اليقظة لاندوم ، فاني أرى ان النفس واليقظة في المجلس
متصافيان متصادقان ، فاذا قمنا عن هذه التوبة ، وقعت الغربة ،
فتأملت ذلك فرأيت ان النفس ما تزال متيقظة ، والقلب ما يزال
عارفاً ، غير ان القواطع كثيرة ، والفكر الذي ينبغي استعماله
في مهرة الله سبحانه وتعالى قد كل بما يستعمل في اجتلاب الدنيا ،
وتحصيل حوائج النفوس ، والقلب منغمس في ذلك ، والبدن
أمير مستخدم ، بينما للفكر يحول في اجتلاب الطعام والشراب

(١) بني مجلس وعظه . انظر الفصل (١) .

والكسوة ، وينظر في صدد ذلك ، وما يدخره لغده وسنته ،
اهتم بخروج الحدث وتشاغل بالطهارة ، ثم اهتم بخروج الفضلات
المؤذية ، ومنها المني ، فاحتاج الى النكاح ، فعلم انه لا يصح
إلا باكتساب كسب الدنيا ، فتفكر في ذلك وعمل بمقتضاه ، ثم
جاء الولد فاهتم به وله ، وإذا الفكر عامل في أصول الدنيا
وفروعها ، فإذا حضر الانسان المجلس فانه لا يحضر جائعاً ،
ولا حافئاً ، بل يحضر جامعاً لهمة ناسياً ما كان من الدنيا على
ذكره ، فيخلو الوعظ بالقلب فيذكره بما ألت ، ويجذبه بما
عرف ، فينض عمال القلب في زوارق عرفانه ، فيحضر
النفس الى باب المطالبة بالتقريب ، ويؤاخذون الحس بما مضى من
العيوب ، فتجري عيون الندم ، وتنقذ عزائم الاستدراك .
ولو أن هذه النفس خلت عن المعهودات التي وصفها ، لتشاغلت
بخدمة بارها ، ولو وقعت في سورة حبه ، لاستوحشت عن الكل
شغلاً بقربه . ولهذا اعتمد الزهاد الخلوات ، وتشاغلوا بقطع
المعوقات ، وعلى قدر مجاهدتهم في ذلك نالوا من الخدمة مرادهم ،
كما أن الحصاد على مقدار البذر . غير اني تلمعت في هذه الحالة
دقيقة : وهي أن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت
ما فاتها ، وهو العُجب بحالها ، والاحتقار لجنسها ، وربما توقت
بقوة علمها وعرفانها ، الى دعوى : « لي ، وعندي ، وأستحق » ،

فتركها في حومة ذنوبها تتخبط ، فاذا وقفت على الشاطئ وقامت
بحق ذلة العبودية أولى لها . هذا حكم الغالب من الخلق ، ولذلك
شغلوا عن هذا المقام . فمن بذر فصلح له فلا بد له من هفوة يراقبها
عين الخوف من عقابها رفقا بها ، تصح له عبوديته ، وتسلم له عبادته ،
والى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح : « لو لم تذبذبا لذهب الله بكم
وجاء يقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

٣٤ - في المال

تفكرت فرايت أن حفظ المال من التبعين ، وما يسميه جملة
المتزهدين توكلاً من إخراج ما في اليد ليس بالمشروع . فان
النبي ﷺ قال لكعب بن مالك : « أمسك عليك بعض مالك » ،
أو كما قال له . وقال لسعد : « لأن تترك ورثتك أغنياء خير
من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » . فإن اعترض جاهل فقال :
فقد جاء أبو بكر رضي الله عنه بكل ماله . فالجواب : أن أبا بكر
صاحب معاش وتجارة ، فاذا أخرج الكل أمكنه أن يستدين عليه
فيتعيش . فمن كان على هذه الصفة لا أذم إخراجه لماله ، وإنما
الذم منطرق الى من يخرج ماله وليس من أبواب المعاش او يكون
من أولئك إلا أنه ينقطع عن المعاش فيبقى كلاً على الناس ،
يستعطيهم ويعتقد أنه على الفتوح ، وقلبه متعلق بالخلق ،

وطمعه ناسب فيهم . ومنى حرك بابه نهض قلبه . وقال :
رزق قد جاء .

وهذا أمر قبيح بمن يقدر على المعاش ، وإن لم يقدر كان
إخراج ما يملك أقبح ، لانه يتعلق قلبه بما في أيدي الناس ، وربما
ذل لبعضهم ، أو تزين له بالزهد . وأقل أحواله أن يزاحم الفقراء
والمكافيف والزمنى^(١) في الزكاة . فعليك بالشرب^(٢) الاول ،
فانظر هل فيهم من فعل ما يفعله جملة المتزهدين . وقد أشرت في
أول هذا الى أنهم كسبوا وخلفوا الاموال ، فرد المشرب الاول
الذي لم يطرّق فانه الصافي ، واحذر من المشاريع الطروقة بالآراء
الفاصلة الخارجة في المعنى كالكمين على الشريعة ، مذعنة بلسان حالها
أن الشرع ناقص يحتاج الى ما يتم به .

واعلم وفقك الله تعالى ان البدن كالمطية ، ولا بد من علف
المطية ، والاهتمام بها . فاذا أهملت ذلك كان سبباً لوقوفك عن
السير . وقد رثي سلمان رضي الله عنه يحمل طعاماً على عاتقه فقيل
له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ ؟ فقال : ان
النفس اذا أحرزت قوتها اطمأنت . وقال سفيان الثوري : اذا حصلت
قوت شهر فتعبد .

(١) أصحاب الامراض المزمنة .

(٢) جمع شارب مثل ركب جمع راكب والمراد السلف .

وقد جاء أقوام ليس عندهم سوى الدعاوى فقالوا : هذا شك
في الرأى والثقة به أولى . فإياك وإياهم . وربما ورد مثل هذا
عن بعض صدور الزهاد من السلف فلا يعول عليه ، ولا يعولك
خلافهم . فقد قال أبو بكر المروزي : سمعت أحمد بن حنبل
يرغب في النكاح ، فقلت له : قال ابن آدم فما تركني أتم حتى
صاح علي وقال : أذكر لك حال رسول الله ﷺ وأصحابه ،
وثابني ببنيات الطريق^(١) .

واعلم وفقك الله ، انه لو رفض الاسباب شخص يدعي التزه
وقال : لا آكل ولا أشرب ، ولا أقوم من الشمس في الحر ،
ولا أستدفئ من البرد ، كان عاصياً بالاجماع . وكذلك لو قال
وله عائلة : لا أكتسب ورزقهم على الله تعالى ، فأصاهم أذى كان
آثماً . كما قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع
من يقوت » . واعلم أن الاهتمام بالكسب يجمع المهم ، ويفرغ
القلب ، ويقطع الطمع في الخلق ، فان الطمع له حق يتقاضاه .
وقد بين الشرع ذلك فقال : « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لعينك
عليك حقاً » . ومثال الطمع مع المريد السالك ، كمثل كلب
لا يعرف الطارق ، فكل من وآه يمشي نبح عليه ، فان ألقى اليه

(١) تقدم في الفصل ١٩ وبنيات الطريق ، الاذقة المتفرعة عن الجادة العامة
والثال مقتبس من الحديث المشهور .

كسرة سكت عنه . فالمراد من الاهتمام بذلك جمع المهم لا غير
غافهم هذه الاصول فان فهمها مهم .

٣٥ — الشهوات مصايد

تأملت في شهوات الدنيا فرأيتها مصايد هلاك ، وفُخْوَخَ
تَلَفَ ، فمن قوي عقله على طبعه وحكم عليه يَسَلَّمَ ، ومن غلب
طبعه فيا سرعة هلكته . ولقد رأيت بعض أبناء الدنيا كان يتوق
الى التَّسَرُّي ، ثم يستعمل الحارارات المهيجة للباه ، فما لبث أن
اغتلت حرارته الغريزية وتلف . ولم أر في شهوات النفس أسرع
هلاكا من هذه الشهوة ، فانه كلما مال الانسان الى شخص مستحسن
أوجب ذلك حركة الباه زائداً عن العادة ، وإذا رأى أحسن منه
زادت الحركة وكثر خروج المني زائداً عن الاول ، فيفنى جوهر
الحياة أسرع شيء ، وبالعكس من هذا أن تكون المرأة مستقبحة
فلا يوجب نكاحها خروج الفضلة المؤذية كما ينبغي ، فيقع التأذي
بالاحتباس وقوة الشوق الى منكوح .

وكذلك المفرط في الاكل فانه يجني على نفسه كثيراً من
الجنائيات ، والمقصر في مقدار القوت كذلك . فعلت أن أفضل
الامور أوساطها ، والدنيا مفازة فينبغي أن يكون السابق فيها

العقل ، فمن سَكَمَ زمام راحلته الى طبعه وهواه ، فيا عجلة تلفه . هذا فيما يتعلق بالبدن والدنيا ، ففس عليه أمر الآخرة . فافهم .

٣٦ — زهد السلف

بلغني عن بعض زهاد زماننا انه قدم اليه طعام فقال : لا آكل . فقيل له : لم ؟ قال : لان نفسي تشتهي ، وأنا منذ سنين ما بلغت نفسي ما تشتهي .

فقلت : لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين ، وسبب خفائهما عدم العلم .

أما الوجه الاول : فان النبي ﷺ لم يكن على هذا ولا أصحابه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجاج ، ويجب الحلوى والعسل ، ودخل فرقد السبخي على الحسن وهو يأكل الفالودج . فقال : يا فرقد ما تقول في هذا ؟ فقال : لا آكله ولا أحب من أكله . فقال الحسن : لعاب النمل . بلباب البر . مع سمن البقر . هل يعييه مسلم ؟

وجاء رجل الى الحسن فقال : ان لي جاراً لا يأكل الفالودج . فقال : ولم ؟ قال ، يقول لا أؤدي شكره ، فقال : ان جارك جاهل وهل يؤدي شكر الماء البارد ؟

وكان سفيان الثوري يحمل في سفره القالودج ، والحمل المشوي .
ويقول : ان الدابة اذا احسن اليها عملت .

وما حدث في الزهاد بعدم من أمور هذا الفن مسروقة من
الرهبانية وأنا خائف عليهم من قوله تعالى : « لا تحرموا طيبات
ما أحل الله لكم » . « ولا تعتدوا » . ولا يحفظ عن أحد من
السلف الاول من الصحابة من هذا الفن شيء إلا أن يكون ذلك
لعارض ، وسبب ما يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه انتهى
شيئاً فآثر به فقيراً ، وأعتق جاريته رمينة^(١) ، وقال : انها أحب
الخلق اليّ ، فهذا وأمثاله حسن ، لانه إشار بما هو أجود عند
النفس من غيره ، وأكثر لها من سواء ، فاذا وقع في بعض
الافوات ، كسرت بذلك الفعل سورة هواها أن تطفى بنيل كل
ما تريد ، فأما من دام على مخالفتها على الاطلاق ، فانه يُعصي
قلبا ، ويبلى خواطرها ، ويشتت عزائمها ، فيؤذيها أكثر مما
ينفعها ، وقد قال ابراهيم بن آدم : إن القلب اذا أكره عبي ،
وتحت مقالته سر لطيف ، وهو أن الله عز وجل قد وضع طبيعة
الآدمي على معنى عجيب ، وهو انها تختار الشيء من الشهوات بما
يصلحها ، فتعلم باختيارها له صلاحه ، وصلاحها به . وقد قال

حكما الطب : ينبغي أن يفسح للنفس فيما تشتهي من الطعام ، وإن كان فيه نوع ضرر ، لأنها إما تختار ما يلائمها ، فإذا قمعها الزاهد في مثل هذا عاد على بدنه بالضرر ، ولولا جواذب في الباطن من الطبيعة ما بقي البدن ، فإن الشهوة للطعام تنبور ، فإذا وقعت الغنية بما يتناول كفت الشهوة ، فالشهوة مريد ورائد ، ونعم الباعث على مصلحة البدن ، غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى ، ومتى منعت ما تريد على الإطلاق مع الأمن من فساد العاقبة عاد ذلك بفساد أحوال النفس ، ووهن الجسم ، واختلاف السقم ، الذي تتداعى به الجملة ، مثل أن يمنعها الماء عند اشتداد العطش ، والغذاء عند الجوع ، والجماع عند قوة الشهوة ، والنوم عند غلبته ، حتى أن المغتصم إذا لم يتروح بالشكوى قتله الكمد .

فهذا أصل إذا فهمه هذا الزاهد علم أنه قد خالف طريق الرسول ﷺ وأصحابه ، من حيث النقل ، وخالف الموضوع في الحكمة ، ولا يلزم على هذا قول القائل : فمن أين يصفو المطعم ؟ لأنه إذا لم يصف كان الترك ورعاً ، وإلما الكلام في المطعم الذي ليس فيه ما يؤذي في باب الورع ، وكان ماشرحته جواباً للقائل : ما بلغ نفسي شهوة على الإطلاق .

والوجه الثاني : أني أخاف على الزاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى الترك فصار يشتهي أن لا يتناول ، وللنفس في هذا مكر

خفي ، ورياء دقيق ، فان سلمت من الرياء للخلق ، كانت الآفة من جهة تعلقها بمثل هذا الفعل ، وادلاها في الباطن به ، فهذه مخاطرة وغلط ، وربما قال بعض الجهال : هذا صدق عن الخير والزهد . وليس كذلك ، فان الحديث قد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » ، ولا ينبغي أن يغتر بعبادة جريح ، ولا بتقوى ذي الحويصرة ، ولقد دخل المتزهدون في طرق لم يسلكها الرسول ﷺ ، ولا أصحابه ، من إظهار التخشع الزائد في الحد ، والتشويق في تخشين الملبس ، وأشباه صار العوام يستحسنونها ، وصارت لاقوام كالمعاش يجتنون من أرباحها تقيل اليد ، وتوفير التوفير ، وحراسة الناموس ، وأكثرهم في خلوته على غير حالته في جلوته ، وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة ، وإذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية .

فَسأَل الله تعالى علماً فانعاً فهو الاصل ، فمَنْ حصل أوجب معرفة المعبود عز وجل ، وحرك الى خدمته بمقتضى ما شرعه وأحبه ، وسلك بصاحبه طريق الاخلاص ، وأصل الاصول العلم ، وأنفع العلوم النظر في سير الرسول ﷺ وأصحابه . « أولئك الذين هدى الله فبهم اهتد » .

٣٧ - جهاد النفس

تأملت جهاد النفس فرأيت أعظم الجهاد ، ورأيت خلقاً من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه ، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق ، وذلك غلط من وجهين ، أحدهما : أنه رب مانع لها شهوة ، أعطاها بالمنع أوفي منها ، مثل أن يمنعها مباحاً فيشتهر بمنعه إياها ذلك فيرضي النفس بالمنع لأنها قد استبدلت به المدح ، وأخفى من ذلك أن يرى (بمنعه إياها ما منعه) أنه قد فضل سواء ممن لم يمنعها ذلك ، وهذه دفائن تحتاج إلى مناقش^(١) فهم بخلصها .

والوجه الثاني : أننا قد كلفنا حفظها ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيها ، فلا بد من إعطائها ما يقيها ، وأكثر ذلك أكله ما تشتهيه ، ونحن كالوكلاء في حفظها . لأنها ليست لنا بل هي وديعة عندنا ، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر ، ثم رب شد أوجب استرخاء ، ورب مضيق على نفسه فرّت منه فصعب عليه تلافيا ، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل ، يحملها على مكروها في تناول ما ترجو به العافية ، ويدوّب في المراتة

(١) أي ملط دقيق .

قليلا من الحلاوة ، ويتناول من الاغذية مقدار ما يصفه الطبيب .
ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرّ جوعاً ،
ومن لقمة ربما حرمت لقمات ، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك
لجامها ، ولا يهمل مقودها ، بل يرخي لها في وقت والطول^(١)
بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها ، فاذا
رآها قد مالت ردها باللفظ ، فان وَنَتْ وَأَبَتْ فبالعنف ،
ومحبسها في مقام المداراة ، كالزوجة التي مبني عقلها على الضعف
والقلة ، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ ، فان لم تصلح فبالهجر ،
فان لم تستقم فبالضرب . وليس في سياط التأديب أجود من
سوط عزم .

هذه مجاهدة من حيث العمل ، فاما من حيث وعظها وتأنيدها،
فينبغي لمن رآها تسكن للخلق ، وتعرض بالدناءة من الاخلاق أن
يعرفها تعظيم خالقها لها فيقول : ألسنت التي قال فيك: خلقتك بيدي،
وأسجدت لك ملائكتي ، وارتضاك للخلافة في أرضه ، وراسلك ،
واقترض منك^(٢) واشترى^(٣) ؟

(١) الطول الزمام قال لبيد : (كالطول المرخي وثنياء في اليد) .

(٢) إشارة الى من يقرض الله قرضاً حسناً .

(٣) ان الله اشترى من المؤمنين - الآية .

فإن رأها تتكبر ، قال لها : هل أنت إلا قطرة من ماء مهين ،
تقتلك شرقة ، وتؤلمك بقية . وإن رأى تقصيرها عرفها حق
الموالي علي العبيد ، وإن ومنت في العمل ، حدثها بجزيل الأجر .
وإن مالت الى الهوى ، خوفها عظيم الوزر . ثم يحذر لها عاجل
العقوبة الحسية ، كقوله تعالى : « قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم
وأبصاركم » . والمعنوية كقوله تعالى : « ما صرف عن آياتي الذين
يتكبرون في الأرض بغير الحق » فهذا جهاد بالقول ، وذلك
جهاد بالفعل .

٣٨ — في الدعاء

وأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يجاب ، فيكرر الدعاء
وتطول المدة ولا يرى أثراً للإجابة ، فينبغي له أن يعلم أن هذا
من البلاء الذي يحتاج الى الصبر ، وما يعرض للنفس من الوسواس
في تأخير الجواب مرض يحتاج الى طب ، ولقد عرض لي شيء من
هذا الجنس ، فانه نزلت بي نازلة ، فدعوت وبالغت ، فلم
أر الإجابة ، فأخذ إبليس يحول في حلبات كيده ، فتارة
يقول : الكرم واسع والبخل معدوم ، فما فائدة تأخير
الجواب ؟

فقلت له : اخسأ بالعين ، فما أحتاج الى تقاضٍ ، ولا أرضاك وكيلا .

ثم عدت الى نفسي فقلت : إياك ومساكنة وسوسته ، فانه لو لم يكن في تأخير الاجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو لكفى في الحكمة .

قالت : فلسني عن تأخير الاجابة في مثل هذه النازلة .
فقلت : قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك ، والمالك التصرف بالمنع والعطاء ، فلا وجه للاعتراض عليه .

والثاني : انه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة ، فربما رأيت الشيء مصلحة والحكمة لا تقتضيه ، وقد يخفى في الحكمة فيما يفعله الطبيب ، من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة ، فلعل هذا من ذاك .

والثالث : انه قد يكون التأخير مصلحة ، والاستعجال مضره ، وقد قال النبي ﷺ : « لا يزال العبد يخير ما لم يستعجل » ، يقول : دعوت فلم يستجب لي » .

والرابع . انه قد يكون امتناع الاجابة لآفة فيك فربما يكون في مأكولك شبهة ، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة ، أو تراد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ماصدت في التوبة منه ،

فابحسني عن بعض هذه الأسباب لملك تقعي بالمقصود ، كما روي عن أبي يزيد رضي الله عنه : انه نزل بعض الأعاجم في داره ، فجاء فرآه ، فوقف بباب الدار ، وأمر بعض أصحابه فدخل ، فقلع طيناً جديداً قد طيئته ، فقام الاعجمي وخرج ، فسئل أبو يزيد عن ذلك فقال : هذا الطين من وجه فيه شبهة ، فلما زالت الشبهة زال صاحبها . وعن ابراهيم الخواص رحمة الله عليه : انه خرج لانكار منكر ، فنبهه كلب له فمنعه أن يمضي ، فعاد ودخل المسجد ، وصلى ثم خرج ، فبصص الكلب له فمضى وأنكر فزال المنكر ، فسئل عن تلك الحال فقال : كان عندي منكر ، فمنعني الكلب ، فلما عدت ثبت من ذلك ، فكان ما رأيتم .

والخامس : انه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب ، فربما كان في حصوله زيادة إثم ، أو تأخير عن مرتبة خير ، فكان المنع أصح ، وقد روي عن بعض السلف انه كان يسأل الله الغزو ، فهتف به هاتف : إنك إن غزوت أسرت ، وإن أسرت تنصرت .

والسادس : انه ربما كان فقد ما فقدته سبباً للوقوف على الباب والسيج^(١) وحصوله سبباً للاشتغال به عن المسؤول ، وهذا الظاهر

(١) الحج مصدر لجأ وهو على وزن منع يمنع منعا .

بدليل انه لولا هذه النازلة ما رأيناك على باب السج ، فالحق عز وجل علم من الخلق استغلامهم بالبر عنه ، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم الى بابه ، يستغيثون به ، فهذا من النعم في طي البلاء ، وإنما البلاء المحض ، ما يشغلك عنه ، فأما ما يقيمك بين يديه ، فبهِ جمالك . وقد حكى عن يحيى البكاء انه رأى ربه عز وجل في المنام ، فقال : يا رب كم أدعوك ولا تجيبني . فقال : يا يحيى إني أحب أن أسمع صوتك .

وإذا تدبرت هذه الاشياء تشاغل بما هو أنفع لك ، من حصول ما فاتك من دفع خلل ، أو اعتذار من زلل ، أو وقوف على الباب الى رب الارباب .

٣٩ — تهوين المصيبة

من نزلت به بلية ، فاراد تحقيقها ، فليصورها أكثر مما هي تن ، وليتخايل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها ، يوى الربح في الاقتصار عليها ، وليتلح سرعة زوالها ، فانه لولا كرب الشدة ، ما رحبت ساعة الراحة ، ولعلم أن مدة مقامها عنده ، كمدة مقام الضيف فليتققد حوائجه في كل لحظة ، فبإسرة انقضاء مقامه ، وبإلذة مدايمه وبشره في المحافل ، ووصف المضيف بالكرم . فكذاك الشدة ، ينبغي أن تراعى الساعات ، ويتققد فيها أحوال

النفس ، ويتلمح الجوارح ، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة ، أو من القلب تسخط ، فكأن قد لاح فجر الأجر ، فأنجاب ليل البلاء ، ومدح الساري بقطع الدجى ، فما طلعت شمس الجزاء ، إلا وقد وصل منزل السلامة .

٤٠ - في الخوف

لما رأيت رأي نفسي في العلم حسناً ، فهمي تقدمه على كل شيء ، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل ، وتقول ، أقوى دليل لي على فضله على النوافل ، اني رأيت كثيراً ممن شغلهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم ، عاد ذلك عليهم بالقدح في الاصول ، فرأيتها في هذا على الجادة السهلة والرأي الصحيح ، إلا اني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم ، فصحت بها : فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟ أو ما سمعت بأخبار أخبار الأحرار في تعبدهم واجتهادهم ؟ أما كان الرسول ﷺ سيد الكل ، ثم انه قام حتى ورمت قدماءه ؟ أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجي النسيج ، كثير البكاء ؟ أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطاط من آثار الدموع ؟ أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة ؟ (١)

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف بهذا ؟

أما كان علي رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحية بالدموع ، ويقول : يا دنيا غري غيوري ؟ أما كان الحسن البصري على قوة القلب ؟ أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة ؟ أما صام الاسود بن يزيد^(١) حتى اخضر واصفر ؟ أما قالت بنت الربيع بن خيثم^(٢) له : مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فقال : إن أباك يخاف البيات ؟ أما كان أبو مسلم الحولاني^(٣) يعلق سوطاً في المسجد يؤدب نفسه إذا فتر ؟ أما صام يزيد الرقاشي^(٤) أربعين سنة ، وكان يقول : والمفاه سبقتي العابدون ، وقطع بي ؟ أما صام منصور بن المعتمر^(٥) أربعين سنة ؟ أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف^(٦) ؟ أما كان

(١) الاسود بن يزيد بن قيس النخعي من التابعين ، وقد نشأ من قبيلة النخع جلة من الاعلام أشهرهم ابراهيم ، وقد أخذ عن الاسود ، ومنهم علقمة وشريك القاضي ، توفي الاسود سنة ٧٥ .

(٢) تابعي متعبد أخذ عنه الشعبي و ابراهيم النخعي ، توفي سنة ٦٤ .
(٣) أبو مسلم الحولاني البجلي الزاهد ، هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يدركه ، نزل الشام ، توفي سنة ٦٢ .

(٤) يزيد بن ابان الرقاشي المحدث البصري الزاهد ضعفه ابن معين .
(٥) السلمي الكوفي أحد الاعلام ، من تلاميذ ابراهيم (واذا أطلق اسم ابراهيم فهو النخعي) ثقة متعبد توفي سنة ١٣٢ .

(٦) المؤلف نفسه في هذا الكتاب وفي (منهاج القاصدين) وفي (تلبس إبليس) أكثر اللوم على مثل هذا ، ويدعو الى اتباع السنة ، والقصد في العبادة .

ابراهيم بن آدم^(١) يبول الدم من الحرف ؟ أما تعلين أخبار الأئمة
الاربعة في زهدهم وتعبدهم ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ،
واحمد ؟ فاحذري من الاخلاص الى صورة العلم ، مع ترك العمل
به ، فانها حالة الكسالى الزمنى :

وخذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لم يسدبر
وخف هجمة لا تقيل العنا ووطوي الورود على المصدر
ومثل لنفسك أي الرعي لن يضمك في حلبة المحسر

٤١ - العلم والعبادة

بما يزيد العلم عندي فضلا ، أن قوما تشاغلوا بالتعبد عن العلم .
خوفتموا عن الوصول الى حقائق الطلب ، فروي عن بعض القدماء
أنه قال لرجل : « يا أبا الوليد ، ان كنت أبا الوليد » يتورع
أن يكنيه ولا ولد له . ولو أوغل هذا في العلم لعلم أن النبي
ﷺ كنى صهيباً أبا يحيى ، وكفى طفلاً فقال : يا أبا عمير ،
ما فعل النغير^(٢) . وقال بعض المترهدين : قبل لي يوماً ، كل
من هذا اللبن . فقلت : هذا يضربي . ثم وقفت بعد مدة عند
الكعبة فقلت : اللهم انك تعلم اني ما شركت بك طريقة عين ،

(١) الزاهد المشهور المتوفى سنة ١٦١ .

(٢) هو طائر . اسمه النفر والنغير على التصغير

فهنف بي هائف : ولايوم اللبني ؟ وهذا لوصح جاز أن يكون
تأديباً له ، لئلا يقف مع الاسباب ناسياً للسبب ، والا فالرسول
ﷺ قد قال : مازالت أكلة خبير تعاودني حتى قطعت
أبهري (١) . وقال : مانفعني مال كمال أبي بكر .

ومن المتزهدين أقوام يرون التوكل قطع الاسباب كلها ،
وهذا جهل بالعلم . فان النبي ﷺ : دخل الغار ، وشاور
الطبيب ، ولبس الدرع ، وحفر الخندق ، ودخل مكة في
جوار المطعم بن عدي وكان كافراً ، وقال لسعد : لأن تدع
ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ،
فالوقوف مع الاسباب مع نسيان المسبب غلط ، وكل هذه الظلمات
انما تقطع بمصباح العلم ، ولقد ضل من مشى في ظلمة الجهل أو
في زقاق الهوى .

٤٢ - الملائكة والشر

مازال أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الانبياء
والاولياء . فان كان التفضيل بالصور ، فصورة الآدمي أعجب
من ذوي أجنحة ، وان تركت صورة الآدمي لاجل اوساخها
المنوطة بها فالصورة ليست الآدمي ، انما هي قالب . ثم قد

استحسن منها ما يستقبح في العبادة ، مثل خلوف فم الصائم ،
 ودم الشهداء ، والنوم في الصلاة ، فبقيت صورة معبودة ،
 وصار الحكم للمعنى . أكلم مرتبة يحجم^(١) ، أو فضيلة يباهي بهم
 وكيف دار الامر فقد سجدوا لنا . وهو صريح في تفضيلنا
 عليهم ، فان كانت الفضيلة بالعلم فقد علمت القصة ، يوم « لا علم لنا »
 « يا آدم أنبئهم » . وان فضلت الملائكة بجوهريه ذواتهم
 فجوهريه أرواحنا من ذلك الجنس ، وعليها انقال أعباء الجسم ،
 بالله لولا احتياج الراكب الى الناقة فهو يتوقف لطلب علقها
 ويرفق في السير بها لطرق أرض متى قبل العشر^(٢) . واعجبا
 اتفضل الملائكة بكثرة التعبدا فما كنتم صعاد^(٣) ، أو يتعجب
 من الماء اذا جرى ، أو من منحدر يسرع ؟ انما العجب من
 مصاعد ؟ بلى قد يتصور منهم الخلاف ، ودعوى الالهية .
 لقدرتهم على ذلك الصخور ، وشق الارض لذلك توعدهوا :
 « ومن يقل منهم اني آله من دونه فذلك نجزيه جهنم » ،
 لكنهم يعلمون عقوبة الحق فيحذرونه . فأما بعدنا عن المعرفة
 الحقيقية وضعف يقيننا بالناهي ، وغلبة شهوتنا مع الغفلة ، يحتاج

(١) كذا في الاصل (٢) اي قبل عشر ذي الحجة

(٣) لم اجد « صعاد » بمعنى « صعود » وهي في بعض النسخ « صاد » ويستقيم
 بها المعنى ، ولكن يأتي بعدها « مصاعد » فلا تخلو الجملة في الحالين من اضطراب
 له من تحريفات النسخ .

الى جهاد أعظم من جهادم ، تالله لو ابتلي احد المقربين بما ابتلينا
به ، لم يقدر على التماسك ، يصبح احدنا وخطاب الشرع يقول
له : اكسب لعائلتك ، واحذر في كسبك . وقد تمكن
منه ما ليس من فعله ، كعجب الاهل ، وعلوق الولد بنياط
القلب ، واحتياج بدنه الى مالا بد منه ، فتارة يقال للخليل
عليه السلام : اذبح ولدك بيدك ، واقطع ثمرة فؤادك بكفك
ثم قم الى المنجنيق لترمي في النار . وتارة يقال لموسى عليه
السلام : صم شهراً ليلاً ونهاراً ، ثم يقال للفضبان : اكظم ،
وللبصير : اغضض ، ولذي المقول : اصمت ، ولستذ النوم : تجمد
ولمن مات حبيب : اصبر ، ولمن أصيب في بدنه : اشكر ، وللواقف
في الجهاد بين اثنين : لا يحل ان تفر . ثم اعلم ان الموت يأتي
باصعب المرات فيزوع الروح عن البدن ، فاذا نزل فاثبت ،
واعلم أنك بمزق في القبر فلا تتسخط لأنه مما يجري به القدر
وان وقع بك مرض فلا تشك الى الخلق ، فهل للملائكة
من هذه الاشياء شيء ؟ وهل ثم لإعبادة ساذجة ليس فيها
مقاومة طبع ، ولارد هوى ، وهل هي لإعبادة صورية بين
ركوع وسجود وتسبيح ، فإن عبادتهم المعنوية من عبادتنا ؟
ثم اكثرهم في خدمتنا بين كتبة علينا ، ودافعين عنا ، ومسخرين
لارسال الريح والمطر ، واكبر وظائفهم الاستغفار لنا ، فكيف

بفضلون علينا بلا علة ظاهرة ، أما حُكَّتْ على محك التجارب
ومنها هاروت وماروت ، فخرجوا أقيع من بهرج^(١) ، ولاتظن
أني أعتقد في تعبد الملائكة نوع تقصير ، لأنهم شديدو
الاشفاق والخوف ، لعلمهم بعظمة الخالق ، لكن طمأنينة من
لم يخطئ تقوي نفسه ، وانزعاج الغائص في الزلل يرقى روحه
إلى التراقي ، فاعرفوا اخواني شرف أقداركم وصونوا جواهركم
عن تدنيسها بلوم الذنوب ، فأنتم معرض الفضل على الملائكة
فاحذروا أن تحطكم الذنوب إلى حضيض البهائم ، ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٤٣ - النجاة في التسليم

رأيت كثيراً من الخلق وعالمًا من العلماء ، لا ينتمون
عن البحث عن أصول الأشياء التي أمروا بعلم جلها ، ومن غير
بحث عن حقائقها ، كالروح مثلاً ؛ فأنه تعالى سترها بقوله :
« قل الروح من أمر ربي ، فلم يفتنوا » . وأخذوا يبحثون

(١) هاروت وماروت عند كثير من المفسرين لم يكونا من الملائكة ، يؤيد هذا
قراءة «الملكين» بكسر اللام . وما ادري كيف يصفهم المؤلف بمثل هذا والله يصفهم
بأنهم عباد مكرمون ؟ وهذه أمور شعبة لا مجال للعمل فيها ولم يرد فيها نص صريح ،
والسكوت عن الكلام فيها أولى .

عن ماهيتها ولايقعون بشيء ، ولايثبت لأحد منهم برهان على مايدعيه ، وكذلك العقل . فانه موجود بلا شك ، كما أن الروح موجودة بلا شك ، كلاهما يعرف بآثاره لاجقيقة ذاته فان قال قائل : فما السر في كتم هذه الاشياء ؟ قلت : لان النفس ماتزال تترقى من حالة الى حالة فلو اطلعت على هذه الاشياء لتوفت الى خالقها ، فكان ستر مادونه زيادة في تعظيمه ، لانه اذا كان بعض مخلوقاته يعلم جملة فهو أجل وأعلى ، ولو قال قائل : ما الصواعق ؟ وما البرق ؟ وما الزلازل ؟ قلنا : شيء مزعج وبكفي . والسر في ستر هذا أنه لو كشفت حقائقه خف مقدار تعظيمه ، ومن تلعب هذا الفصل علم أنه فصل عزيز فاذا ثبت هذا في المخلوقات ، فالخالق أجل وأعلى .

فينبغي أن يوقف في اثباته على دليل وجوده ، ثم يستدل على جواز بعثه رسله ، ثم تتلقى أوصافه من كتبه ورسله ، ولايزاد على ذلك . ولقد بحث خلق كثير عن صفاته بآرائهم فغاد وبال ذلك عليهم ، واذا قلنا ، انه موجود ، وعلمنا من كلامه أنه سميع ، بصير ، حي ، قادر ، كفانا هذا في صفاته ، ولاغوض في شيء آخر . وكذلك نقول : متكلم والقرآن كلامه ، ولا نتكلف ما فوق ذلك ، ولم يقل السلف تلاوة وملتو ، وقراءة ومقرؤه ، ولا قالوا استوى على العرش

بذاته ، ولا قالوا ينزل بذاته (١) ، بل أطلقوا ماورد من غير زيادة . وهذه كلمات كالتال فقس عليها جميع الصفات ، تفز سلباً من تعطيل ، متخلصاً من تشبيه .

٤٤ - غفلة الخلق

رأيت اكثر الخلق في وجودهم كالمعدومين ، ففهم من لا يعرف الخالق ، ومنهم من يشبه على مقتضى حسه ، ومنهم من لا يفهم المقصود من التكليف . فترى المتوسمين بالزهد يدأبون في القيام والقعود ، ويتركون الشهوات ، وينسون ما قد أنسوا به من شهوة الشهرة ، وتقبل الابادي . ولو كلم أحدهم لقال : « ألملي يقال هذا ؟ ومن فلان الفاسق ؟ » فهؤلاء لا يفهمون المقصود . وكذلك كثير من العلماء ، في احتقارهم غيرهم ، والتكبر في نفوسهم ، فتعجبت كيف يصلح هؤلاء لمجاورة الحق ، وسكنى الجنة ؟ فرأيت ان الفائدة في وجودهم في الدنيا ، تجانس الفائدة في دخولهم الجنة ، فانهم في الدنيا بين معتبر به ، يعرف عارف الله سبحانه نعمة الله عليه ، بما كشف له مما غطي عن ذلك ، ويتم النظام بالاقتداء . تصور اولئك ، فان العارف لا يتسع وقته لمخالطة من يقف

(١) هذا هو الحق ، ومن اراد اتباع السلف آمن بما جاء من عند الله على مراد الله لقول ، وأول ما لا يهتبه الرعي الا مؤولاً .

مع الصورة ، فالزاهد كراعي البهم . والعالم ككاذب الصيدان ،
والعارف ملقن الحكمة ، ولولا نفاط (١) الملك وحارسه ،
ووقاد أتونه ، ماتم عيشه ، فمن تمام عيش العارف استعمال
أولئك بحسبهم ، فاذا وصلوا اليه حرر مانعهم ، وفهم من
لا يصل اليه ، فيكون وجود أولئك كزيادة (لا) في الكلام
هي حشو ، وهي مؤكدة ، فان قال قائل : فب هذا
يصح في الدنيا ، فكيف في الجنة ؟ والجواب . ان الانس
بالجوان مطلوب ، ورؤية القاصر من تمام لذة الكامل ، ولكل
شرب . ومن تأمل ما اشترت اليه كفاف رمز لفظي عن
تطويل الشرح (٢)

٤٥ - معرفة الله

لما تلمعت تدبير الصانع في شوق رزقي بتسخير السحاب ،
وانزال المطر برفق ، والبذر تحت الارض كالموتى ، قد غفن
ينتظر نفخة من صور الحياة ، فاذا به اهتز خضراً ، وانقطع
عنه الماء ، مديد الطلب يستعطي ، وأمال رأسه خاضعاً ،
ولبس حلل التغير ، فهو محتاج الى ما أنا محتاج اليه من
حرارة الشمس ، وبرودة الماء ، ولطف النسيم ، وتربية الارض

(١) اي الموكل بالنفط

(٢) تأملت فرائد ان هذا الرمز لم يكف وكان خيراً لو عمد الى تطويل التبرج

فسبحان من أراني فيها يوتيبي به ، كيف توتيبي في الاصل
 فيا أينما النفس التي قد اطلعت على بعض حكمه ، قبيح
 بك والله الاقبال على غيره ، ثم العجب كيف تقبلين على فقير
 مثلك ، يناديني لسان حاله : « بي مثل ما بك ، يا حامي ! »
 فارجمي الى الاصل الاول ، واطلبي من المسبب ، وياطوي
 لك أن عرفتيه ، فان عرفانه ملك الدنيا والآخرة .

٤٦ - تحذير الاخوات

كنت في بداية الصبوة . قد ألهمت ملوك طريق الزهاد ،
 بإدامة الصوم والصلاة ، وحببت اليّ الخلوة . فكنت أجد قلباً
 طيباً . وكانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف على لحظة
 تمضي في غير طاعة ، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات ، ولي
 نوع انس وحلاوة مناجاة . فأنتمى الامر الى أن صار بعض
 ولاية الامور يستحسن كلامي ، فأمالني اليه فقال الطبع .
 ففقدت تلك الحلاوة ، ثم استألني آخر ، فكنت اتقي مخالطته
 ومطامحه ، لحوف الشهوات ، وكانت حالي قريية ، ثم جاء
 التأويل فانبسطت فيها يباح ، فعدم ما كنت أجد ، وصارت
 المحالطة توجب ظلمة في القلب الى ان عدم النور كله ، فكان
 حنيني ال ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس ، فيتمويرون
 ويصلحون . واخرج مفلساً فيها بيني وبين حالي . وكثر

ضجيجي من مرضي ، وعجزت عن طب نفسي ، فلجأت الى
قبور الصالحين ^(١) ، وتوسلت في صلاحي فاجتذبتني لطف مولاي
بي الى الخلوة على كراهة مني ، ورد قلبي علي بعد نفوره مني ،
وأراني عيب ما كنت اؤثره ، فافقت من مرض غفلتي !
وقلت في مناجاة خلوتي : سيدي كيف اقدر على شكرك ؟
وبأي لسان انطق بمدحك ؟ اذ لم تؤاخذني على غفلتي ،
ونبهتني من رقدتي ، واصلحت حالي على كره من طبعي ،
فما اربحني فيما سلب مني اذ كانت ثمرته اللجا اليك ، وما أوفر
جمعي اذ ثمرته اقبالي على الخلوة بك ، وما اغناني اذ أفقرتني
اليك ، وما آنسني اذ أوحشتني من خلقك ، آه على زمان
خاع في غير خدمتك ! أسفا لوقت مضى في غير طاعتك !
قد كنت اذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلني نومي طول الليل ،
واذا انسأخ عني النهار لا يوجعني ضياع ذلك اليوم ، وماءملت
ان عدم الاحساس لقوة المرض . فالآن قد هبت نسائم
العافية ، فاحسست بالآلم فاستدلت على الصحة . فياعظم
الانعام ثم لي العافية ، آه من ~~سكّر~~ لم يعلم قدر عربدته
الا في وقت الافاقة ؟ لقد قتقت ما يصعب رتقه . فوا اسفا
على بضاعة ضاعت ، وعلى ملاّح تعب في موج الشمال مضاعداً

(١) أي لزيارتها الزبارة المشروعة والاعتبار بها .

مدة ثم غلبه النوم فرد الى مكانه الاول .

بامن يقرأ تحذيري من التخليط . فاني وان كنت خنت نفسي بالفعل ، نصبح لاخواني بالقول ، احذروا اخواني من الترخيص فيها لايؤمن فساد ، فان الشيطان يزين المباح في أول مرتبة . ثم يجر الى الجناح . فتلهعوا المال ، وافهموا الحال ، وربما أراكم الغاية الصالحة ، وكان في الطريق اليها نوع مخالفة ، فيكفي الاعتبار في تلك الحال بآيسكم : وهل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ، ؟ انما تأمل آدم الغاية وهي الخلد . ولكنه غلط في الطريق .

وهذا أعجب مصايد إبليس يصيد بها العلماء ، يتأولون لعواقب المصالح ، فيستعجلون ضرر المفسد . مثاله أن يقول للعالم ادخل على هذا الظالم فاشفع في مظلوم ، فيستعجل الداخر وؤبة المنكرات ، ويتزلزل دينه . وربما وقع في شرك صار به أظلم من ذلك الظالم ، فمن لم يثق بدينه فليحذر من المصائد ، فانها خفية . وأسلم ما للجان العزلة ، خصوصاً في زمان قد مات فيه المعروف ، وعاش المنكر ، ولم يبق لاهل العلم وقع عند الولاة ، فمن داخلهم دخل معهم فيها لايجوز ، ولم يقدر على جذبهم بما هم فيه .

ثم من تأمل العلماء الذين يعملون لهم في الولايات يرأى منسلخين من نفع العلم قد صاروا كالشرط . فليس الا العزلة

عن الخلق ، والاعراض عن كل تأويل فاسد في الحالطة ،
ولأن أنفع نفسي وحدي ، خير لي من أن أنفع غيري
وانضرر ، فالحذر الحذر من خوادع التأويلات ، وفواسد
الفتاوى ، والصبر الصبر على ماتوجه العزلة ^(١) فانه ان انفردت بمولاك
فتح لك باب معرفته . فبان كل صعب ، وطاب كل مر ،
وتيسر كل عسر ، وحصلت كل مطلوب ، والله الموفق بفضل
ولا حول ولا قوة إلا به .

٤٧ - في الورع

تأملت على نفسي تأويلاً في مباح اتال به شيئاً من الدنيا
إلا أنه في باب الورع كدر ، فرايته أولاً قد احتلب دَرَّ
الدين فذهبت حلاوة المعاملة لله تعالى ، ثم عماد فقلص خرع
حلي له فوقع الفقد الحالين ، فقلت لنفسي : مامثلك إلا كمثل
وال ظالم جمع من غير حله ، فصور ، فأخذ منه الذي جمع
واللزم مالم يجمع . فالحذر الحذر من فساد التأويل ، فان
الله تعالى لا يخادع ، ولا ينال ما عنده بمعصيته .

(١) الحق في امر العزلة ما جاء في الاحياء وما ذكره المؤلف في الكتاب الذي
اختصره فيه وهو « منهاج القاصدين » وقد تكون العزلة مطلوبة لناس دون ناس
وفي زمان دون زمان وانظر الفصل « ٢٤ » و « ٤٨ » و « ٨٢ » و « ٩١ »
من هذا الكتاب

٤٨ - من حديث النفس

رأيت نفسي كلما صفا فكرها ، أو اتعظت بدارج ، أو
 زارت قبور الصالحين ، تتحرك همها في طلب العزلة ، والاقبال
 على معاملة الله تعالى . فقلت لها يوماً ، وقد كلمتني في ذلك :
 حديثي مامقصودك ؟ وما نهاية مطلوبك ؟ أتراك تريدني أن
 أسكن قفراً لا أنيس به فتفتوتني صلاة الجماعة . ويضيع مني
 ما قد علمته لقد من أعلمه ، وإن آكل الجشِبَ ^(١) الذي لم
 أتعوده ، فيقع نضوى طلحا ^(٢) في يومين . وإن ألبس الحشن
 الذي لأطيقه . فلا أدري من كرب محولي أين أنا ؟ وإن
 أتشاغل عن طلب ذرية تتعبد بعدي مع بقاء القدرة على الطلب
 بالله ! ما نفعتني العلم الذي بذلت فيه عمري إن وافقتك ؟ .
 وأنا أعرفك غلط ما وقع لك بالعلم . اعلمي أن البدن مطية ،
 والمطية إذا لم يرفق بها لم تصل براكبها إلى المنزل ، وليس
 مرادي بالرفق الاكثار من الشهوات ، وإنما أعني اخذ البلغة
 الصالحة للبدن ، فحينئذ يصفو الفكر ، ويصح العقل ، ويقوى
 الذهن ألا ترى إلى تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله عليه

(١) أي الخلط من الطعام

(٢) طلع البعير فهو طلع أي أعيا وتعب والنضو المزول .

الصلاة والسلام : « لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان » ،
وقاس العلماء على ذلك الجوع وما يجري مجراه من كونه حاقناً
أو حاقباً (١) . وهل الطبع الاككل يشغل الأكل ، فإذا
رمى له ما يشتغل به طاب له الأكل . فاما الانفراد والعزلة
فمن الشر لاعتن الخير ، ولو كان فيها لك وقع خير لنقل عن
رسول الله ﷺ وعن اصحابه رضي الله عنهم . هيات لقد
عرفت ان اقواماً دام بهم التقل واليبس الى ان تغير فكرهم
وقوي الخلط السوداءوي عليهم ، فاستوحشوا من الناس .

وممن اجتمعت له من المآكل الرديّة اخلاط سبعة ،
فبقي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل وهو يظن ذلك من
امداد اللطف ، واذا به من سوء الهضم . وفيهم من ترقى
به الخلط الى رؤية الاشباح فيظنها الملائكة ، فالله الله في العلم
والله الله في العقل ، فان نور العقل لا ينبغي ان يتعرض باطفائه ،
والعلم لا يجوز الميل الى تنقيصه ، فاذا حفظاً حفظاً وظائف الزمان
ودفعاً ما يؤذي ، وجلباً ما يصلح ، وصارت القوانين مستقيمة
في المطعم والمشرب والمخالطة .

فقال لي النفس : فوظف لي وظيفة واحسبني مريضاً قد
كتبت له شربة . فقات لها قد دلتك على العلم وهو طيب

(١) الحاقن بالبول والحاقب بالغائط .

ملازم ، يصف كل لحظة لكل داء يعرض ، دواء يلائم .
وفي الجملة ينبغي لك ملازمة تقوى الله عز وجل في المنطق
والنظر ، وجميع الجوارح ، وتحقق الحلال في المطعم ، وإبداع
كل لحظة ما يصلح لها من الخير ، ومناهضة الزمان في الأفضل
ومجانبة ما يؤذي الى ما يؤذي من نقص ربح أو وقوع خسران
ولانعملي عملا إلا بعد تقديم النية ، وتأهبي لمزعج الموت فكان
قد ^(١) وما عندك من مجيئه في أي وقت يكون ، ولا تتعرضي
لمصالح البدن ، بل وفريها عليه وناوليه اياها على قانون الصواب
لاعلى مقتضى الهوى ، فان اصلاح البدن سبب لاصلاح الدين .
ودعي الرعونة التي يدل عليها الجهل لا العلم ، من قول النفس
فلان يأكل الحل والبقل ، وفلان لا ينام الليل ، فاحلي
ماتطيقين ^(٢) . وما قد علمت قوة البدن عليه فان البهيمه إذا
أقبلت الى نهر او ساقية فضربت لتقفز لم تفعل حتى تزن نفسها
فان علمت فيها قوة الطفر ^(٣) طفرت ، وان علمت أنها لا تطيق
لم تفعل ولو قتلت . وليس كل الابدان تتساوى في الاطاقة
ونقد حمل اقوام من المجاهدات في بداياتهم اشياء أوجبت

(١) اي فكانه قد جاء

(٢) هذا هو الحق لا ما جر اليه القلم في الفصل « ٤٠ »

(٣) اي الوئب .

امراضاً قطعتم عن خير ، وتسخط قلوبهم بوقوعها ، فعليك بالعلم فإنه شفاء من كل داء والله الموفق .

٤٩ - الرد على المشبهة

عجبت من اقوام يدعون العلم ، ويميلون الى التشبيه بحملهم الاحاديث على ظواهرها ، فلو أنهم أمرّوها كما جاءت سلموا . لأن من أمرّ ماجاء من غير اعتراض ولا تعرض ، فما قال شيئاً لاله ولا عليه ، ولكن اقواما قصرت غلوهم ، فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل ، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا . ومأمم الا بنبأ قول الحجاج لكتابه وقد مدحته الحنساء فقالت :

إذا هبط الحجاج ارضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاهما
شفاهها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة شفاهما
فلما أتمت القصيدة قال لكتابه : اقطع لسانها . فجاء ذلك الكاتب المغفل بالموسى . فقالت له : ويلك انما قال اجزل لها العطاء . ثم ذهبت الى الحجاج فقالت : كاد والله يقطع مقولي . فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم ، فإنه من قرأ الآيات والاحاديث ولم يزد لم آله . وهذه طريقة السلف . فأما من قال : الحديث يقتضي كذا ، ويحمل على كذا ، مثل أن

يقول استوى على العرش بذاته ، وينزل الى السماء الدنيا بذاته فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لامن النقل ، ولقد عجت لرجل أندلسي يقال له ابن عبد البر صنف كتاب التمهيد فذكر فيه حديث النزول الى السماء الدنيا فقال : هذا يدل على أن الله تعالى على العرش لانه لولا ذلك لما كان لقوله ينزل معنى وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل ، لأن هذا استسلف من حبه ما يعرفه من نزول الاجسام فقام صفة الحق عليه .
فأين هؤلاء واتباع الاثر ، ولقد تكلموا بأقبح ما يتكلم به المتأولون ، ثم عابوا المتكلمين .

واعلم أيها الطالب للرشد . انه قد سبق اليها من العقل والنقل أصلان راسخان . عليهما مر الاحاديث كلها^(١) ، أما النقل فقوله سبحانه وتعالى : « ليس كمثله شيء » . ومن فهم هذا لم يحمل وصفا له على ما يوجب الحس . وأما العقل فانه قد علم مباينة الصانع للمصنوعات ، واستدل على حدوثها بتغيرها ، ودخول الانفعال عليها ، فثبت له قدم الصانع ، واعجبا كل العجب من راد لم يفهم ؟ أليس في الحديث الصحيح أن الموت يذبح بين الجنة والنار ، أو ليس العقل اذا استغنى في هذا صرف الامر عن حقيقته لما ثبت عند من يفهم ماهية الموت فقال : الموت عرض يوجب بطلان الحياة . فكيف يات الموت ؟

(١) لا تثبت العقيدة الا بالدليل القطعي : بالآية او الحديث المتواتر تواترا حقيقيا ، ان كان هذا الدليل لا يحتل التأويل .

فاذا قيل له : فما تصنع بالحديث؟ . قال : هذا ضرب مثلاً باقامة صورة ليُعلم بتلك الصورة الحسية فوات ذلك المعنى . قلنا له : فقد روي في الصحيح « تأتي البقرة وآل عمران كأنها غمامتان ، فقال : الكلام لا يكون غمامة ، ولا يتشبه بها ، قلنا له : أفتعطل النقل ، قال : لا ، ولكن يأتي ثوابها ، قلنا : فما الدليل الضارف لك عن هذه الحقائق . فقال : علمي : بان الكلام لا يتشبه بالاجسام ، والموت لا يذبح ذبيح الانعام ، ولقد علمت سعة لغة العرب . ما ضاقت اعطانكم من سماع مثل هذا ، فقال العلماء : صدقت . هكذا نقول في تفسير مجيء البقرة ، وفي ذبيح الموت ، فقال : واعجبنا لكم صرفتم عن الموت والكلام ما لا يليق بهما ، حفظاً لما علمتم من حقايقها فكيف لم تعرفوا عن الآله القديم ما يوجب التشبيه له بحقيقته ^(١) ، بما قد دل الدليل على تنزيهه عنه ، فما زال يعادل الخصوم بهذه الادلة ، ويقول : لا أقطع حتى أقطع ، فما قطع حتى قُطع .

(١) كقوله تعالى « وجاء ربك » وقوله « انا نسينام » و« الله يستهزي بهم » فان العربي الذي نزل القرآن بلغته لا يفهم الا مؤولا صروفا عن ظاهره . وثلاثا « يد الله فوق ايديهم » وآية الاستواء على العرش فان قيل ان الله اثبت لنفسه يدين بقوله « بل يدها مبسوطتان » قلنا : وفي القرآن : (بين يدي رحمة) و (بين يدي عذاب شديد) فهل للرحمة والمذاب يدان ؟ لا وانما هو تمثيل يفهم العربي ، هذا مع العلم ان اتباع السلف في السكوت عن الخوض في هذا كله وتفويض امره الى الله احسن .

٥٠ - السر في حذف آية الرجم من القرآن لفظاً

تفكرت في السر الذي أوجب حذف آية الرجم (١) من القرآن لفظاً . مع ثبوت حكمها إجماعاً ، فوجدت لذلك معنيين . أحدهما : لطف الله تعالى بعباده في أنه لا يواجههم بأعظم المشاق ، بل ذكر الجلد وسقر الرجم ، ومن هذا المعنى قال بعض العلماء : ان الله تعالى قال في المكروهات « كتب عليكم الصيام » . على لفظ لم يسم فاعله ، وان كان قد علم أنه هو الكاتب ، فلما جاء الى ما يوجب الراحة قال « كتب على نفسه الرخصة » والوجه الثاني : أنه يبين بذلك فضل الامة في بذلها النفوس فتوعاً ببعض الادلة فان الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم كان دليلاً . الا أنه ليس كالدليل المتفق لاجله ، ومن هذا الجنس شروع الخليل عليه الصلاة والسلام ، في ذبح ولده بمنام ، وان كان الوحي في اليقظة أكد .

٥١ - الاسباب التي تنافي التوكل

عرضت لي حالة لجأت فيها بقلبي الى الله تعالى وحده ، علماً بأنه لا يقدر على جلب نفسي ودفع ضري سواء ، ثم قمت أتعرض بالاسباب . فأنكر عليّ يقيني . وقال : هذا قدح في

(١) نسخ آية بلفظها كما يروى في آية الرجم لم يثبت بدليل يقيد العلم .

التوكل ، فقلت : ليس كذلك . فان الله تعالى وضع من
الحِكم ، وكان معنى حالي ان ما وضعت لا يفيد وان وجوده
كالعدم^(١) . وما زالت الاسباب في الشرع^(٢) كقوله تعالى : « وإذا
كنت فيهم فاقم لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا
أسلحتهم » . وقال تعالى : « فذروه في سبيله » وقد ظاهر
النبي ﷺ بين درعين ، وشاور طيبين ، ولما خرج الى الطائف
لم يقدر على دخول مكة حتى بعث الى المطعم بن عدي فقال : أدخل
في جوارك ، وقد كان يمكنه أن يدخل متوكلاً بلا سبب . فاذا
جعل الشرع الامور منوطة بالاسباب ، كان إعراضي عن الاسباب
دفعاً للحكمة ، ولهذا أرى أن التداوي مندوب اليه ، وقد ذهب
صاحب مذهبي^(٣) الى أن ترك التداوي أفضل ، ومنعني الدليل من
اتباعه في هذا ، فان الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : ما أنزل
الله داء إلا وأنزل له دواء فتداؤوا . ومرتبة هذه اللفظة الأمر ،
والامر إما أن يكون واجباً ، أو ندباً ولم يسبقه حظر فيقال ،
هو أمر إباحة ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : تعلمت الطب
من كثرة أمراض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ينعت له .

(١) يوجز المؤلف أحياناً حتى يغيب المعنى ، وهو يريد ان يقول هنا ان الحكم
والاسباب من خلق الله ، فان كان الاخذ بها لا يفيد كان وجودها كعدمها .

(٢) أي مازالت موجودة معتزلاً بها (٣) يعني به الامام احمد بن حنبل .

وقال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « كل من هذا فانه أوفق لك من هذا ، ومن ذهب الى أن تركه أفضل احتج بقوله عليه الصلاة والسلام : « يدخل الجنة سبعون ألفاً بلا حساب » ثم وصفهم فقال : « لا يكتون ، ولا يستقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون ، وهذا لا ينافي التداوي ، لانه قد كان أقوام يكتون لثلا يمرضوا ويستقون لثلا تصيبهم نكبة ، وقد كوى عليه الصلاة والسلام سعد بن زرارة ، ورخص في الرقية في الحديث الصحيح ، فعلمنا ان المراد ما أشرنا اليه .

وإذا عرفت الحاجة الى اسهال الطبع ، رأيت أن أكل البلوط بما يمنع منه علمي ، وشرب ماء النمر هندي أوفق ، وهذا طب ، فإذا لم أشرب ما يوافقني ، ثم قلت : اللهم عافني ، قالت لي الحكمة : أما سمعت : « اعقلها وتوكل ؟ » اشرب وقل عافني ، ولا تكن كمن بين زرعه وبين النهر كف من تراب ، تكاسل أن يرفعه بيده ، ثم قام يصلي صلاة الاستسقاء ، وما هذه الحالة إلا كحال من سافر على التجريد^(١) ، وإنما سافر على التجريد لانه يجرب بربه عز وجل

(١) أي بلا زاد ولا رفقة ، وهذا السفر مصيبة لانه مخالف السنة والمدار في الطاعات كلها على الاتباع واقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا خيراً في مخالف السنة . انظر (الفصل ١٤٠) .

هل يرزقه أو لا ، وقد تقدم الأمر إليه : « وتزودوا » فقال : لا تزود . فهذا هالك قبل أن يهلكه ، ولو جاء وقت صلاة وليس معه ماء لم على تقريظه ، وقيل له : هلا استصعبت الماء قبل المغازة ، فاحذر الحذر من أفعال أقوام دققوا فسرّقوا عن الأوضاع الدينية ، وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع ، والمخالفة للأوضاع ، ولولا قوة العلم والرسوخ فيه ، لما قدرت على شرح هذا ولا عرفته . فافهم ما أشرت إليه ، فهو أنفع لك من كراريس تسعها ، ولكن مع أهل المعاني لا مع أهل الحشو .

٥٢ - النظافة

قلبت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم ، فمنهم من لا ينظف فمه بالحلال بعد الأكل ، ومنهم من لا ينقي يديه في غسلها من الزهم ، ومنهم من لا يكاد يستاك ، وفيهم من لا يكتحل ، وفيهم من لا يراعي الإبط إلى غير ذلك . فيعود هذا الإهمال بالحلل في الدين والدنيا ، أما الذين فانه قد أمر المؤمن بالتنظف والاعتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس ، ونهي عن دخول المسجد إذا أكل الثوم ، وأمر الشرع بتنقية الجراجم^(١) ، وقص الأظفار . والسلوك والاستعداد^(٢) ، وغير ذلك من الآداب ، فإذا أهمل ذلك ترك

(١) مفاصل الأصابع (٢) يريد التطهر والتطيب .

مسنون الشرع . وربما تعدى بعض ذلك الى فساد العبادة ، مثل أن يمل أظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع الماء في الوضوء أن يصل ، وأما الدنيا فاني رأيت جماعة من المسلمين أنفسهم ، يتقدمون الى السرار^(١) والغفلة التي أوجبت اهمالهم أنفسهم ، أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم . فاذا أخذوا في مناجاة السر ، لم يمكن أن أحذف عنهم ، لأنهم يقصدون السر ، فألقى الشدائد من ربيع أفواههم ، ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمر أصبعه على أسنانه ، ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة ، وقد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل ، فيشر ذلك التفاتها عنه .

وقد كان ابن عباس رضي الله عنها يقول : إني لأحب أن أتزين للمرأة ، كما أحب أن تتزين لي ، وفي الناس من يقول : هذا تصنع وليس بشيء ، فإن الله تعالى زيننا لما خلقنا ، لأن العين حظاً في النظر ، ومن تأمل أهداب العين والحاجبين ، وحسن ترتيب الحلقة ، علم أن الله تعالى زين الآدمي ، وقد كانت النبي ﷺ أنظف الناس وأطيب الناس . وفي الحديث عنه ﷺ برفع يديه ، حتى تبين عفرة إبطيه ، وكانت ساقه ربما انكشفت فكانها "ججارة"^(٢) ، وكان لا يفارقه السواك ، وكان يكره أن يشم منه ربح

(١) أي يدنو منك ليكلمك سراً فيؤذيك بربحه .

(٢) جارة النظة باطن جذعها ، وهو يؤكل اليوم غصاً في العراق .

ليست طيبة . وفي حديث أنس الصحيح : ما سأنه الله ببيضاء^(١) .
وقد قالت الحكماء : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب وجهه
زاد عقله ، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « ما لكم
تدخلون عليّ قلحاً^(٢) » . استاكوا ، وقد فضلت الصلاة بالسواك ،
على الصلاة بغير سواك ، فالمتنظف ينعم نفسه ، ويرفع منها عتدها ،
وقد قالت الحكماء : من طال ظفره قصرت يده . ثم إنه يقرب
من قلوب الخلق ، وتحبه النفوس ، لتنظافته وطيبه ، وقد كان
النبي ﷺ يحب الطيب ، ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال ، فإن
النساء شقائق الرجال ، فكما أنه يكره الشيء منها فكذلك هي
تكرهه ، وربما صبر هو على ما يكره وهي لا تصبر ، وقد رأيت
جماعة يزعمون أنهم زهاد ، وهم من أقذر الناس ، وذلك أنهم
ما قوتهم العلم ، وأما ما يحكى عن داود الطائي : أنه قيل له
لو صرحت لحبتك ، فقال : إني عنها مشغول ، فهذا قول معتذر
عن العمل بالسنة ، والاختبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه من
الآخرة ، ولو كان مقيقاً لذلك لم يتركه ، فلا يحتج بحال المغلوبين ،
ومن تأمل خصائص الرسول ﷺ رأى كاملاً في العلم والعمل ، فبه
يكون الاقتداء وهو الحجة على الخلق .

(١) أي أنه لم يشب . والحديث في مسلم .

(٢) القلحة صفة الاسنان .

٥٣ — خطأ المبالغة في اتقاء الحر والبرد

تأملت مبالغة أرباب الدنيا في اتقاء الحر والبرد . فرأيتهما
تعكس المقصود في باب الحكمة . وإنما تحصل مجرد لذة ولا خير
في لذة تعقب الماء . فأما الحر فأنهم يشربون الماء المتلوج ، وذلك
على غاية في الضرر ، وأهل الطب يقولون : انه يحدث أمراضاً
صعبة يظهر أثرها في وقت الشيخوخة . ويصنعون الحيش^(١)
المضاعفة ، وفي البرد يصنعون اللبود المانعة للبرد ، وهذا من حيث
الحكمة يضاف ما وضعه الله تعالى . فانه جعل الحر لتحلل الأخلاط ،
والبرد لجمودها ، فيجعلون هم جميع السنة ربيعاً ، فتعكس الحكمة
التي وضع الحر والبرد لها ، ويرجع الأذى على الأبدان ، ولا يظن
سامع هذا أني أمره بملاقة الحر والبرد وإنما أقول له : لا يفرط في
التوقي ، ويعرض في الحر لما يحلل بعض الأخلاط ، الى حد
لا يؤثر في القوة ، وفي البرد بأن يصيبك منه الأمر القريب
لا المؤذي ، فان الحر والبرد لمصالح البدن . وقد كانت بعض
الامراء يصون نفسه من الحر والبرد أصلاً فمات عاجلاً ، وقد ذكرت
قصته في كتاب لقط المنافع في علم الطب .

(١) عادة عراقية باقية الى الآن هي وضع الحيش على التوافل ورشه بالماء
باستمرار لترطيب الجو في حرارة الصيف .

٥٤ — الصبر على القضاء

ليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء ، ولا فيه أفضل
 من الرضى به ، فأما الصبر فهو فرض ، وأما الرضا فهو فضل ،
 وإنما أصعب الصبر لأن القدر يجري في الاغلب بمكروه النفس ،
 وليس بمكروه النفس يقف على المرض والاذى في البدن ، بل هو
 يتنوع ، حتى يتحير العقل في جريان القدر ، فمن ذلك : أنك إذا
 رأيت مغبوراً بالدنيا قد سالت له أوديتها حتى لا يدري ما يصنع
 بالمال ، فهو يصوغه أو اني يستعملها ، ومعلوم أن البلور والعقيق
 والشبّة ، قد يكون أحسن منها صورة ، غير أن قلة مبالاته
 بالثريّة جعلت عنده وجود النهي كعدمه ، ويلبس الحرير ،
 ويظلم الناس ، والدنيا منصبة عليه ، ثم يرى خلقاً من أهل الدين ،
 وطلاب العلم ، مغبورين بالفقر والبلاء ، مقهورين تحت ولاية
 ذلك الظالم ، فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسواس ، ويتقدي
 بالقدح في حكمة القدر ، فيحتاج المؤمن الى الصبر على ما يلقي من
 الضر في الدنيا ، وعلى جدال إبليس في ذلك ، وكذلك في
 تسليط الكفار على المسلمين والفساق على أهل الدين . وأبلغ من
 هذا إبلام الحيوان ، وتعذيب الاطفال ، ففي مثل هذه المواطن
 يتمحض الايمان ، وما يقوي الصبر على الحالتين النقل والعقل : أما
 النقل فالقرآن والسنة .

أما القرآن فنقسم الى قسمين : أحدهما بيان سبب إعطاء
 الكافر والمعاصي ، فمن ذلك قوله تعالى : « إنا غي لهم ليزدادوا
 لغاً » ، « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ، لجعلنا لمن
 يكفر بالرحمن ليوثهم سفكاً من فضة » ، « وإذا أردنا أن
 نهلك قرية أمرنا مترفياً ففسقوا فيها » . وفي القرآن من
 هذا كثير .

والقسم الثاني : ابتلاء المؤمن بما يلقى كقوله تعالى : « أم حسبكم
 أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » ،
 « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم
 مستهم البأساء والضراء وزلزلوا » ، « أم حسبكم أن تتركوا ولما
 يعلم الله الذين جاهدوا منكم » . وفي القرآن من هذا كثير .

وأما السنة فتنقسم الى قول وحال . أما الحال : فانه عليه السلام
 كان يتقلب على رؤمال حصير تؤثر في جنبه ، فبكى عمر رضي الله عنه .
 وقال : كسرى وقيصر في الحرير والديباج ، فقال له عليه السلام :
 « أفى شك أنت يا عمر ؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم
 الدنيا ؟ » ، وأما القول فكقوله عليه الصلاة والسلام :
 « لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها
 شربة ماء » .

وأما العقل : فانه يقوي عساكر الصبر بمنوده ، منها أن يقول :

قد ثبتت عندي الادلة القاطعة على حكمة المقدر ، فلا أتروك الاصل
الثابت لما يظنه الجاهل خلا .

ومنها أن يقول : ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يد
العاصي هي قبض في المعنى ، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع
بسط في المعنى ، لان ذلك البسط يوجب عقابا طويلا ، وهذا
القبض يؤثر انبساطاً في الاجر جزيل ، فزمان الرجلين
يتقضي عن قريب ، والمراحل تطوى ، والركبان في الحثيث .

ومنها أن يقول : قد ثبت أن المؤمن بالله كالاجير ، وأن
زمن التكليف كيباض نهار ، ولا ينبغي للمستعمل في الطين أن
يلبس نظيف الثياب ، بل ينبغي أن يصابر ساعات العمل ، فاذا
فرغ تنظفت ولبس أجود ثيابه . فمن ترفه وقت العمل ندم وقت
تفريق الاجرة ، وعوقب على التواني فيما كلف ، فهذه التبدد تقوي
أزر الصبر ، وأزيدها بسطاً فأقول : أترى إذا أريد اتخاذ
شهداء ، فكيف لا يخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين ،
أفيجوز أن يفتك بعمر إلا مثل أبي لؤلؤة ؟ وبعليّ إلا مثل
ابن ملجم ؟ أفيصح أن يقتل يحيى بن زكريا إلا جبار كافر ؟ ولو
أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا لرات المسبب لا الاسباب ،
والمقدر لا الاقدار ، فصبرت على بلاته ، إيتاراً لما يريد ، ومن

ههنا ينشأ الرضى ، كما قيل لبعض أهل البلاء : ادع الله بالعافية ،
فقال : أحبّه إليّ أحبّه الى الله عز وجل .

ان كان رضاكم في سهرى فسلام الله على وسنى

٥٥ — درجات الرضى بالقضاء

لما أنهيت كتابة الفصل المتقدم ، هتف بي هاتف من باطني :
«عني من شرح الصبر على الاقدار ، فاني قد اكتفيت بالتوفج
ما شرحت ، وصف حال الرضا فاني أجد نسباً من ذكره فيه
روح للروح ، فقلت : أيها الهاتف اسمع الجواب ، وافهم
الصواب . إن الرضى من جملة ثمرات المعرفة ، فاذا عرفته وضيت
بقضائه ، وقد يجري في ضمن القضاء مرارات ، يجد بعض طعمها
الراضي ، أما العارف فتقل عنده المرارة لقوة حلاوة المعرفة ،
فاذا ترقى بالمعرفة الى المحبة ، صارت مرارة الاقدار ، حلاوة
كما قال القائل :

عذابه فيك عذب	وبُعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي	بل أنت منها أحب
حسي من الحب أني	لما تحب أحب

وقال بعض المحبين في هذا المعنى :

ويقبج من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

فصاح بي الهاتف : خدثني بماذا أَرْضِي ؟ قدر الي أَرْضِي في
أقداره بالمرض والفقير ، أفأَرْضِي بالكسل عن خدمته ، والبعد
عن أهل جنته ؟ فين لي ما الذي يدخل تحت الرضا ، بما لا يدخل ،
فقلت له : نعم ما سألت ، فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع
وهو شهيد ، أرض بما كان منه ، فأما الكسل والتخلف فذاك
منسوب اليك ، فلا ترض به من فعلك ، وكن مستوفياً حقه
عليك ، مناقشاً نفسك فيما يقربك منه ، غير راض منها بالتواني
في المجاهدة ، فأما ما يصدر من أفضيته المجردة التي لا كسب لك
فيها ، فكن راضياً بها ، كما قالت رابعة راحة الله عليها ، وقد ذكر
عندها رجل من العباد يلتقط من مزلة فيأكل ، فقيل : هلا سأل
الله تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا ؟ فقالت : ان الراضي
لا يتخير ومن ذاق طعم المعرفة ، وجد فيه طعم المحبة ، فوقع
الرضا عنده ضرورة^(١) ، فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة ،
ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجهد في الخدمة ، لعل ذلك يورث المحبة ،
فقد قال سبحانه وتعالى (أي في الحديث القدسي) : « لا يزال
العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه » ، فإذا أحببته كنت سمعه

(١) هذا اذا بذل الجهد في اتخاذ الاسباب للوصول الى أطيب من هذا الطعم
وصلك كل طريق حلال يوصل اليه ، وسأل الله خيراً منه ، ثم لم يجد غيره ، أما
من غير سعي ولا عمل فلا .

الذي يسع به ، وبصره الذي يبصر به ، . فذلك الغنى
الأكبر ، وواقراء .

٥٦ - حاجة طالب العلم الى المعاش

رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم في زمن الصبا عن
المعاش ، فيحتاجون الى ما لا بد منه ، فلا يصلهم من بيت المال
شيء ، ولا من صلات الاخوان ما يكفي ، فيحتاجون الى
التعرض بالاذلال ، فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سبين ،
أحدهما : قمع إعجابهم بهذا الاذلال ، والثاني : نفع اولئك
بنواهم ، ثم أمعنت الفكر فتلمعت نكتة لطيفة ، وهو أن النفس
الاية إذا رأت حال الدنيا كذلك لم تساكنها بالقلب ، وثبتت
عنها بالعزم ، ورأت اقرب الاشياء شياً بها مزيةً عليها الكلاب ،
أو غائطاً يؤتى لضرورة ، فاذا نزل الموت بالرحلة عن
مثل هذه الدار ، لم يكن للقلب بها متعلق متسكن
فتون حينئذ .

٥٧ - وجوب التلطف بالبدن والرد على المتزهدين

ما زال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء إذا
انبطوا في مباحات ، والذي يحملهم على هذا الجهل ، فلو

كان عندهم فضل علم ما عابوهم ، وهذا لان الطباع لا تتساوى ،
فرب شخص يصلح على خشونة العيش ، وآخر لا يصلح على ذلك ،
ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو ، إن لنا ضابطاً
هو الشرع ، فيه الرخصة وفيه العزيمة ، فلا ينبغي أن يلام من
حصر نفسه في ذلك الضابط ، ورب رخصة كانت أفضل من عزائم ،
لتأثير نفعها ، ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى ،
فتنبت القلوب من خوفه ، وتنحل الأجسام للحذر منه فوجب
التلطف بالأجسام حفظاً لقوة الراحة ، ولأن آلة العلم والحفظ ،
القلب والفكر ، فإذا رففت الآلة جاد العمل ، وهذا أمر
لا يعلم إلا بالعلم ، فلجعل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا ،
وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان ، وانضاء الرواحل ، وما علموا أن
الخوف المضي يحتاج الى راحة مقاومة ، كما قال القائل : روحوا
القلوب نعي الذكر .

٥٨ — علم الورق وعلم الخرق

ليس في الوجود شيء أشرف من العلم ، كيف لا وهو الدليل ،
فاذا عدم وقع الضلال ، وإن من خفي مكائد الشيطان أن يزين في
نفس الانسان التعبد ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم ، حتى إنه
زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر ، وهذا

قد ورد عن جماعة ، وأحسن ظني بهم أن أقول : كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشاره ، وإلا فني كان فيما علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه ، كان رصمها إضاعة للمال لا ليجل ، وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل الحابر تلامذتهم ، حتى قال جعفر الخلافي : لو تركني الصوفية جشك بأستاذ الدنيا . كتبت مجلساً عن أبي العباس الدوري فلقيني بعض الصوفية فقال : دع علم الورق ، وعليك بعلم الحرق . ورأيت محبرة مع بعض الصوفية ، فقال له صوفي : استر عورتك .

وقد أنشدوا للشبلي :

إذا طالبوني بعلم الورق يوزن عليهم بعلم الحرق
وعذا من خفي حيل إبليس ، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ،
وإنما فعل وزينه عندهم لسبيين ، أحدهما : أنه أرادهم يمشون في الظلمة ،
والثاني : أن تصفح العلم كل يوم يزيد في العالم ، ويكشف له ما كان خفي عنه ،
ويقوي إيمانه ومعرفة ، ويريد عيب كثير من فسلكه ،
إذا تصفح مناج الرسول ﷺ والصحابه ، فأراد إبليس مد تلك الطرق بأخفى حيلة ، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه ، وخفي على المهدوع أن العلم عمل وأي عمل ،

فاحذر من هذه الحديعة الخفية ، فان العلم هو الاحمل الأعظم ،
والنور الاكبر ، وربما كان تقليب الاوراق افضل من الصوم
والصلاة والحج والغزو ، وكم من معرض عن العلم يخوض في
عذاب من الهوى في تعبده ، ويضيع كثيراً من الفرض
بالنفل ، ويشغل بما يزهيه الافضل عن الواجب ، ولو كانت
عنده شعلة من نور العلم لاهتدى ، فتأمل ما ذكرت لك ترشد
إن شاء الله تعالى .

٥٩ — وجوب تعليل النفس لتصبر على ما حُمِلت

مرّ بي حمالان تحت جذع ثقل وهما يتجاوبان بانشاد التنغم ،
وكلمات الاستراحة ، فأحدهما يصفى الى ما يقوله الآخر ، ثم يعيده
أو يجيئه بمنله ، والآخر همه مثل ذلك ، فرأيت انها لو لم يفعلا
هذا زادت المشقة عليهما ، وثقل الامر ، وكلما فعلا هذا هان
الامر ، فتأملت السبب في ذلك ، فاذا به تعليق فكر كل واحد
منهما بما يقوله الآخر ، وطربه به ، واحالة فكره في الجواب
بمثل ذلك ، فينقطع الطريق ، وينسى ثقل المحمول ، فأخذت
من هذا اشارة عجيبة ، ورأيت الانسان قد حمل من التكليف أموراً
صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصبر عما
تحب ، وعلى ما تكره ، فرأيت الصواب قطع طريق الصبر

بالتسليّة والتلطّف للنفس ، كما قال الشاعر :

فان تشكت فعلها المجرة من ضوء الصباح وعدّها بالرواح ضحي
ومن هذا ما يحكى أن بشراً خافى رحمة الله عليه سار ومعه
رجل في طريق فعطش صاحبه فقال له : أنشرب من هذه البئر ؟
فقال بشر : اصبر إلى البئر الأخرى ، فلما وصلا إليها ، قال له :
البئر الأخرى . فما زال يعلّله . ثم التفت إليه فقال له : هكذا
تنقطع الدنيا .

ومن فهم هذا الأصل علل النفس وتلطّف بها ووعدّها الجليل
لتصبر على ما قد حملت ، كما كان بعض السلف يقول لنفسه :
والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الاستفاق عليك .

وقال أبو يزيد رحمه الله عليه : ما زلت أسوق نفسي إلى الله
تعالى وهي تبكي ، حتى سقتها وهي تضعك ، واعلم أن مداراة النفس
والتلطّف بها لازم ، وبذلك ينقطع الطريق فهذا رمز إلى الإشارة .
وشرحه يطول .

٦٠ — المنكرات في مجالس الصوفية والوعاظ

تأملت أشياء تجري في مجالس الوعظ يعتقدّها العوام وجهال
العلماء قربة وهي منكر وبُعد ، وذلك أن المقرئ يطرب

ويخرج الاغانى الى الغناء ، والواظ ينشد بتطريب اشعار المجنون
 ولى ، فيصق هذا ، ويحرق ثوبه هذا ، ويمتد أن ذلك
 خربة ومعلوم أن هذه الاغانى كالموسيقى ، يوجب طرباً للنفوس ،
 فالتعرض بما يوجب الفساد غلط عظيم . وينبغي الاحتساب على
 الواظ في هذا (١) ، وكذلك المقايرون منهم ، فانهم يهيجون الاحزان
 ليكثر بكاء النساء ، فيعطون على ذلك الاجرة ، ولو أنهم أمروا
 بالصبر لم ترد النسوة ذلك ، وهذه أضرار للشرع ، قال ابن
 عقيل : حضرتا عزاء رجل قد مات له ولد ، فقرأ المرقى :
 يا أسنى على يوسف ، فقلت له : هذه نياحة بالقرآن .

وفي الواظ من يتكلم على طريق الموفة والمحبة ، فتوى
 الحائك والسوقى الذى لا يعرف فرائض تلك الصلاة يمزق أثوابه
 دعوى لمحبة الله تعالى ، والصافى حالاً منهم وهو أصلحهم يتخايل
 بوجه شخصاً هو الخالق ، فيبكيه شوقه إليه لما يسع من عظمت
 ورحمته وجماله ، وليس ما يتخايلونه المعبود ، لأن المعبود لا يقع
 في خيال ، وبعد هذا فالتعقيق مع العوام صعب ، ولا يتكادون
 يتفقهون بحر الحق ، إلا أن الواظ مأمور بان لا يتعدى الصواب ،
 ولا يتعرض لا يفسد ، بل يجذبهم الى ما يصلح بالطف وجه ،
 وهذا يحتاج الى صناعة ، فارت من العوام من يعطيه حسن
 اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشارة ، ومنهم من ينقاد ببسيت من

(١) أي ينبغي للمحسب ان يتهم منه . وقد بطلت الآن وظيفة الخشب ،
 وانظر الكلام عنها في كتاب (الاحكام السلطانية) .

الشعر ، وأخرج الناس الى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ ، قدر الملح في الطعام ، ثم يحثهم الى الغرائم ، ويعرفهم للطريق الحق .

وقد حضر أحمد بن حنبل فسمع كلام الحارث الهاسبي فبكى . ثم قال : لا يعجبني الحضور . وإنما بكى لان الحال أوجبت البكاء ، وقد كان جماعة من السلف يرون تخطيط القصص^(١) فيهنون عن الحضور عندم ، وهذا على الاطلاق لا يحسن اليوم ، لانه كان للناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم ، فأروا حضور القصص صادأ لهم ، واليوم كثر الاعراض عن العلم ، فانقطع ما للعلمي مجلس الوعظ ، يردده عن ذنب ، ويحركه الى توبة ، وإنما الحلل في القاص . فليبق الله عز وجل .

٦١ - الرد على المتأولين

من أضر الاشياء على العوام كلام المتأولين والفتنة للصفات والاضافات ، فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام بالغوا في الاثبات ليتقرر في أنفس العوام وجود الخالق ، فإن النفوس تأنس بالاثبات

(١) القصص في الاصطلاح القديم الوعاظ . وقد غلط من لاقه له ولا علم عنده فحسبهم مثل اهل القصص من أدباء العرب - من ذلك ما كتب شفيق جبري في كتابه الذي درس فيه الاغانى لأبي الفرج وهو كتاب فيه دعوى عريضة وجعل بين

فإذا سمع العامي ما يوجب النفي طرد عن قلبه الاثبات ، فكان
 أعظم ضرر عليه ، وكان هذا المنزلة من العلماء على زعمه ، مقاوماً
 لاثبات الانبياء عليهم الصلاة والسلام بالحجج ، وشارعاً في إبطال
 ما يفتون به ، وبيان هذا أن الله تعالى أخبر باستوائه على العرش ،
 فأثبت النفوس الى اثبات الاله ووجوده ، قال تعالى : « ويبقى
 وجه ربك » وقال تعالى : « بل يداء مبسوطان » وقال : « غضب
 الله عليهم » و « رضي الله عنهم » . وأخبر أنه ينزل الى السماء
 الدنيا وقال : « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقال
 كتب التوراة بيده ، وكتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، الى
 غير ذلك مما يطول ذكره . فإذا امتلأ العامي والصبي من الاثبات ،
 وكاد يأنس من الاوصاف بما يفهمه الحسن قيل له : « ليس كمثل
 شيء » فمضى من قلبه ما نقشه الخيال ، وتبقى ألفاظ الاثبات
 متمكنة ، ولهذا أقر الشرع على مثل هذا ، فسمع منشداً يقول :
 وفوق العرش رب العالمينا ، فضحك وقال له آخر : أو يضحك
 ربنا ؟ فقال نعم ، وقال : إنه على عرشه هكذا ، كل هذا يقرر
 الاثبات في النفوس ، وأكثر الخلق لا يعرفون الاثبات إلا على
 ما يعلون من الشاهد ، فيقنع منهم بذلك الى أن يفهموا التنزيه ،
 فأما إذا ابتدأ بالعامي الفارغ من فهم الاثبات . فقلنا : ليس في
 السماء ، ولا على العرش ، ولا يوصف بيد ، وكلامه صفة قائمة

بذاته ، وليس عندنا منه شيء ، ولا يتصور نزوله ، امتعى من قلبه
تعظيم المصحف ، ولم يتحقق في مره اثبات إله .

وهذه جناية عظيمة على الانبياء ، توجب نقض ماتعبوا في بيانه ،
ولا يجوز لعالم أن يأتي الى عقيدة عامي قد أنس بالاثبات فيموشها ،
فانه يفسده ويصعب صلاحه ، فأما العالم فنا قد أمناه ، لانه لا يخفى
عليه استحالة تجدد صفة الله تعالى ، وأنه لا يجوز أن يكون استوى
كما يعلم ، ولا يجوز أن يكون محولا ، ولا أن يوصف بملاصة
ومس ، ولا أن ينتقل ، ولا يخفى عليه أن المراد بتقليب القلوب بين
أصبعين الاعلام بالتحكم في القلوب ، فان ما يدبره الانسان بين أصبعين
هو متحكم فيه الى الغاية .

ولا يحتاج الى تأويل من قال الاصبغ الاثر الحسن ، فالقلوب
بين أثين من آثار الربوبية ، وهما : الاقامة والازاعة . ولا الى
تأويل من قال : يدها نعمناه ، لانه اذا فهم أن المقصود الاثبات .
وقد حدثنا بما نعقل ، وضربت لنا الامثال بما نعلم ، وقد ثبت عندنا
بالاصل المقطوع به أنه لا يجوز عليه ما يعرفه الحس ، علمنا المقصود
بذكر ذلك .

وأصلح ما نقول للموام : أمرنا هذه الاشياء كما جاءت ،
ولا تتعرضوا لتأويلها ، وكل ذلك يقصد به حفظ الاثبات ، وهذا
الذي قصده السلف . وكان أحمد يمنع من أن يقال : لفظي بالقرآن

مخلوق أو غير مخلوق ، كل ذلك ليحصل على الاتباع ، وتبقى الفاظ
الاثبات على حالها ، وأجمل الناس من جاء الى ما قصد النبي ﷺ
تعطيه ، فأضعف في النفوس قوى التعظيم ، قال النبي ﷺ :
لا تسافروا بالقرآن الى أرض العدو ، يشير الى المصنف . ومنع
الشافعي أن يحمله المحدث بعلاقته تعطيا له ، فاذا جاء متحدثا
فقال : الكلام صفة قائمة بذات المتكلم ، فمعنى قوله هذا ان
ما هنا شيء يحترم ، فهذا قد ضاؤ بما أتى به مقصود الشرع ، وينبغي
أن يفهم أوضاع الشرع ومقاصد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد
منعوا من كشف ما قد قنع الشرع ، فهي رسول الله ﷺ عن
الكلام في القدر ، ونهى عن الاختلاف ، لان هذه الاشياء تخرج
الى ما يؤذي ، فان الباحث عن القدر اذا بلغ فيه الى أن يقول :
قضى وعاقب تزلزل إيمانه بالعدل ، وإن قال : لم يقدر ولم يقض
تزلزل إيمانه بالقدر والملك ، فكان الاولى ترك الحوض في
هذه الاشياء ، ولعل قائل يقول : هذا منع لنا عن الاطلاع على
الحقائق ، وأمر بالوقوف مع التقليد .

فأقول : لا . إنما أعلمك أن المراد منك الايمان بالجلل ، وما
أمرت بالتغيير ، مع أن قوى فهمك تعجز عن ادراك الحقائق ،
فان الخليل عليه الصلاة والسلام قال : أرني كيف نحبي ، فأراه
مبتأ حبي ، ولم يره كيف أحياء . لان قواه تعجز عن ادراك

ذلك . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم الذي بُعث لينبئ
الناس ما نزل الله ، يتنعم من الناس بنفس الاقرار
واعتقاد الجليل .

وكذلك كانت للصعابة ، فما نقل عنهم أنهم تسككوا في تلاوة
ومتلو ، وقراءة ومقروء ، ولا أنهم قالوا لستوى بمعنى استولى
وينزله بمعنى يرحم ، بل قنعوا بلبثات الجمل التي تثبت التعظيم عند
النفوس ، وكفوا كفاً خيالياً بقوله : « ليس كقله شيء » . ثم
هذا منكر ونكير ، إنما يسألان عن الاصول المهمة فيقولان :
من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ ومن فهم هذا الفصل
سلم من تشبيه الجسة ، وتعطيل المعطة ، ووقف على جادة
السلف الاول ، والله الموفق .

٦٢ - فوائد السمع والبصر

قرأت هذه الآية : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم
وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به » ، فلاحظ لي منها إشارة
كدت أطلش منها ، وذلك أنه ان كان عني بالآية نفس السمع
والبصر فان السمع آلة لادراك المسروع ، والبصر آلة لادراك
المبهرات ، فهما يعرضان ذلك على القلب ، فيتدبر ويعتبر ، فإذا
عرضت المخلوقات على السمع والبصر ، أو صلا إلى القلب أخبارها

من أنها تدل على الخالق ، وتحمل على طاعة الصانع ، وتحذر من
بطشه عند مخالفته ، وان عني معنى السمع والبصر ، فذلك يكون
بذهولها عن حقائق ما أدركا ، شغلا بالهوى ، فيعاقب الانسان
بسلب معاني تلك الآلات ، فيرى وكأنه ما رأى ، ويسمع وكأنه
ما سمع ، والقلب ذاهل عما يتأدى به ، لا يدري ما يراد به ،
لا يؤثر عنده أنه يبلى ، ولا تنفعه موعظة تجلى ، ولا يدري أين
هو ، ولا المراد منه ، ولا الى أين يحمل ، وإنما يلاحظ
بالطبع مصالح عاجلته ولا يتفكر في خسران آجلته ،
لا يعتبر برفيقه ، ولا يتمتع بصديقه ، ولا يتروذ لطريقه كما
قال الشاعر :

الناس في غفلة والموت يوقظهم وما يفيقون حتى ينقد العمر
يشيعون أهالهم يجمعهم وينظرون الى ما فيه قد قبروا
ويرجعون الى أحلام غفلتهم كأنهم مارأوا شيئاً ولا نظروا
وهذه حالة أكثر الناس ، فتعوز بالله من سلب فوائد الآلات ،
فإنها أفتيح الحالات .

٦٣ — في العشق

نظرت فيما تكلم به الحكماء في العشق وأسبابه وأدويته وصنفت
في ذلك كتاباً سميته بـ (ذم الهوى) ، وذكرت فيه عن الحكماء أنهم

قالوا : سبب العشق حركة نفس فارغة ، وأنهم اختلفوا ، فقال قوم منهم : لا يعرض العشق إلا لظراف الناس . وقال آخرون : بل لاهل الغفلة منهم عن تأمل الحقائق .

إلا أنه خطر لي بعد ذلك معنى عجيب أشرحه هنا : وهو أنه لا يتمكن العشق إلا مع واقف جامد ، فاما أرباب صعود المهمل فانها كلما تخايكت ما توجهه المحبة فلاحت عيوبه لها ، إما بالفكر فيه أو بالمخالطة له ، تسكت وتعلقت بمطلوب آخر ، فلا يقف على درجة العشق الموجب للتمسك بتلك الصورة ، العامي عن عيوبها ، إلا جامد واقف ، وأما أرباب الانفة من النقائص ، فانهم أبداً في التوقي ، لا يصدم صادم ، فاذا علقت الطباع بحبة شخص لم يبلغوا مرتبة العشق المستأنز ، بل ربما مالوا ميلاً شديداً ، اما في البداية لقة التفكير أو لقة المخالطة والاطلاع على العيوب ، واما لتشتت بعض الحلال المدوحة بالنفوس من جهة مناسبة وقعت بين الشخصين ، كالتطريف مع الظريف ، والفتن مع الفطن ، فيوجب ذلك المحبة ، فاما العشق فلا . فهم أبداً في السير ، فلا يوقف وابل الطبع يتبع حادي الفهم ، فان للطبع متعلقاً لا يجده في الدنيا ، لانه يروم ما لا يصح وجوده من الكمال في الاشخاص ، فاذا تلمح عيوبها نفر ، وأما متعلق القلوب من محبة الخلق البارئ ، فهو مانع لها من الوقوف مع سواء ، وان كانت محبته لا تجانس

حجة المخالفين ، غير أن أرباب المعرفة والسياسة ، قد شغلهم عنه عن حب
غيره ، وصارت الطباع مستغرقة لقوة معرفة القلوب ومجتمعاتها
قالت رابعة :

أحب حبيباً لا أعاب بحبه وأحببتُ من في هواه عيوب

ولقد روي عن بعض فقهاء الزهاد أنه مر بإمرأة فأعجبته ،
فخطبها إلى أبيها ، فزوجها وجاء به إلى المنزل ولبسه غير خلقانه ،
فلما جن الليل صاح الفقير : ثيابي ثيالي ، فقدت ما كنت أجده .
فهذه عثرة في طريق هذا الفقير دلته على أنه منصرف عن الجاهة ،
ولما تمعري هذه الحالات أرباب المعرفة بالله عز وجل وأهل الانفة
من الرذائل . وقد قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة
فليترك مآثها .

ومثال هذه الحال أن العقل يغيب عند استعلاء تناول المشهي
من الطعام ، عن التفكير في تقليب في الفم وبلعه ، ويذهل عند
الجماع عن ملاقة القاذورات لقوة غلبة الشهوة ، وينسى عند بلع
الخباب استعلائه عن الغذاء ، وفي نقطة تلك الأحوال مصالح ،
إلا أن أرباب اليقظة يعترجم من غير طلب لها في غالب أحوالهم ،
فينقص عنهم لذيذ العيش ، ويوجب الانفة من رذالة الهوى ،
وعلى قدر النظر في العواقب يخف العشق عن قلب العاشق ، وعلى

عذر جمود الذهن بقوى الفلق ، قال المستحي (١) :

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبه لم يسبه
ومجموع ما أردت شرحه ، أن طباع المتيقظين ترقى فلا تنف
مع شخص مستحسن ، وسبب ترقيا التفكير في نقص ذلك الشخص
وعيوبه ، أو في طلب ما هو أهم منه ، وقلوب العارفين ترقى
إلى معروفها ، فيعتبر في معبر الاعتبار ، فاما أهل الغفلة
فعبودهم في الحالتين ، وغفلتهم عن المقامين ، يوجب أسرهم
وقسرهم وحيوتهم .

٦٤ - بين الخوف والرجاء

عرض لي أمر يحتاج إلى سؤال الله عز وجل ودعائه ، فدعوت
وصالت ، فأخذ بعض أهل الخير يدعو معي ، قرأت نوعاً من
أثر الإجابة ، فقالت لي نفسي : هذا سؤال ذلك العبد
لا بسؤالك ، فقلت لها : أما أنا فاني أعرف من نفسي من الذنوب
والتقصير ما يوجب منع الجواب ، غير أنه يجوز أن يكون أنا
الذي أجيب ، لأن هذا الداعي الصالح سليم بما أظنه من نفسي ،
إذ معي انكسار تقصيري ومعها الفرح بمعاملته ، وربما كان

(١) من قصيدته التي يترجم بها عن الدولة بعثته .

الاعتراف بالتقصير أنجح في الحوائج ، على أنني أنا وهو نطلب من
الفضل لا بأمالنا ، فإذا وقفت أنا على قدم الانكسار معترفاً بذنوبي ،
وقلت : أعطوني بفضلكم ، فإني في سؤالي شيء أمتّ به ، وربما
تلح ذلك حسن عمله وكان صادراً له ، فلا تكسريني أيتها النفس
فيكفيني كسر علمي بي لي ، ومعني من العلم الموجب للأدب ،
والاعتراف بالتقصير ، وشدة الفقر الى ما سألت ، وبقيني بفضل
المطلوب عنه ، ما ليس مع ذلك العابد ، فبارك الله في عبادته ، وربما
كان اعترافي بتقصيري أوفى .

٦٥ - اختلاف الأفهام

قرأت من غرائب العلم ، وعجائب الحكم ، على بعض من
يدعي العلم ، فرأيت يتلوى من سماع ذلك ، ولا يطلع على غوره ،
ولا يشرب الى ما يأتي ، فصدفت عن إسماعه شيئاً آخر وقلت :
إنما يصلح مثل هذا الذي لب يتلقاه تلقي العطشان الماء ، ثم أخذت
من هذا إشارة هي أن لو كان هذا يفهم ما جرى ، ومدّحتني لحسن
ما صنعت لعظم قدره عندي ، ولأريته محاسن مجموعاتي وكلامي ،
ولكنه لما لم أره أهلاً صرفتها عنه ، وصدفت بنظري اليه ، وكانت
الإشارة أن الله عز وجل قد صنف هذه المخلوقات فأحسن التركيب ،
وأحكم الترتيب ، ثم عرضها على الالباب ، فأني لب أوغل في

النظر مدح على قدر فهمه فأحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن
 يحتوي على عجائب الحكم ، فمن فقهه بيد الفهم ، وحادثه في
 خلوة الفكر ، استجلب رضى المتكلم به وحطى الزلقى لديه ،
 ومن كان ذهنه مستغرق الفهم بالحسيات ، صرف عن ذلك المقام ،
 قال الله عز وجل : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض
 بغير الحق » .

٦٦ - زيادة عمر المؤمن خير

دموت يوماً فقلت اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل ، وأطل
 عمري لأبلغ ما أحب من ذلك ، فعارضني وسواس من
 ابليس ، فقال : ثم ماذا ؟ أليس الموت ؟ فما الذي ينفع
 طول الحياة ؟

فقلت له : يا أبله . لو فهمت ما نحت سؤالي علمت أنه ليس
 بعيب ، أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي ، فتكثر ثمار غرمي
 يوم حصادي ؟ أليس في أنني مت منذ عشرين سنة ، لا والله ؟
 لأنني ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتي به اليوم وكل ذلك ثمرة
 الحياة التي فيها اجتنبت أدلة الوجدانية ، وارتقيت عن حضيض التقليد
 إلى ارتفاع البصيرة ، واطلعت على علوم زاد بها قدرتي ،

وَتَجَوَّهَرَتْ بِهَا نَفْسِي ، ثُمَّ زَادَ غَرَمِي لِأَخْرَجِي ، وَقَوَّيْتُ
تَجَارِقِي فِي انْقِاذِ الْمُبَاضِعِينَ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِسَيِّدِ
الْمُرْسَلِينَ : « وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْمًا » . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :
« لَا يُزِيدُ الْمُؤْمِنَ عَمْرَهُ إِلَّا خَيْرًا » . وَفِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ مِنْ
السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عَمْرُ الْعَبْدِ وَيَرْزُقَهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ الْإِنَابَةُ » .
فَيَا لَيْتَنِي قَدَّرْتَ عَلَيَّ عَمْرَ نُوْحٍ ، فَإِنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ ، وَكَلِمَاتُهَا حَصْلٌ مِنْهُ
حَاصِلٌ رَفَعٌ وَنَفْعٌ .

٦٧ - العارفون واتخاذ الأسباب

قلوب العارفين يغار عليها من الأسباب وإن كانت لا تساكنها لأنها لما انفردت لمعرفة انفرادها بتولي أمورهما ، فإذا عرضت بالأسباب محي أثر الأسباب : « ويوم حين إذ أعجبتمكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً » . وتأمل في حال يعقوب وحذره على يوسف عليها السلام . حتى قال : أخاف أن يأكله الذئب . فقالوا : « أكله الذئب » فلما جاء أوان الفرج ، خرج يهوذا بالقيص فسبقته الريح « إني لأجد ريح يوسف » وكذلك قول يوسف عليه السلام للساقى : « اذكرني عند ربك » فعوقب بأن لبث سبع سنين ، وإن كان يوسف عليه السلام يعلم أنه لا خلاص إلا بأذن الله ، وأن التعرض بالأسباب مشروع ، غير أن الغيرة أثرت في العقوبة ، ومن هذا قصة مريم عليها السلام « وكفلها زكريا » فقار المسبب من مساكنة الأسباب : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » ومن هذا القليل ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب » .

والاسباب طريق ، ولا بد من سلوكها ، والعارف لا يساكنها
غير أنه^(١) يحلى له أمرها ما لا يحلى لغيره من أنها لا تساكُن ، وربما
عرفت أن مال الهيا وان كان ميله لا يقبله ، غير أنه أقل المفوات
يوجب الادب^(٢) لأطوفن الليلة على مئة امرأة ،
تلد كل واحدة منهن غلاما . ولم يقل ان شاء الله ، فما حملت
إلا واحدة جاءت بشق غلام ، ولقد طرقتني حالة أوجبت النشبت
ببعض الاسباب ، إلا أنه كان من ضرورة ذلك لقاء بعض الظلمة ،
ومداراته بكلمة ، فبينما أنا أفكر في تلك الحال دخل عليّ قاري
فاستفتح ، فتفاهلت بما يقرأ فقرأ : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا
فتمسك النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .
فبغت من إجابتي على خاطري ، وقلت لنفسي : اسمعي فإني طلبت
النصر في هذه المداراة فأعلمني القرآن أنني إذا ركنت إلى ظالم فإني
ماركنت لأجله من النصر ، فباطوني لمن عرف المسبب وتعلق به ،
فإنها الغاية القصوى ، فنسأل الله أن يرزقنا .

٦٨ - درجات قوة الايمان

المؤمن لا يبالغ في الذنوب وإنما يقوى الهوى وتتوقد نيران

(١) ما يلي من الكلام مضطرب ولعل تحريفاً عراه من النسخ أو شيئاً سقط

منه ولم نهند لوجه اصلاحه .

(٢) يياض في الأصل .

الشهوة فينحدر وله مداد ، لا يعزم المؤمن على موافقته ، ولا على العود
 بعد فراغه ، ولا يستقصي في الانتقام ان غضب ، وينوي التوبة
 قبل الزلل ، وتأمل إخوة يوسف عليهم السلام ، فانهم عزموا
 على التوبة قبل إبعاد يوسف فقالوا : « اقتلوا يوسف » ثم زاد ذلك
 تعظيماً فقالوا : « أو اطرحوه أرضاً » . ثم عزموا على الإثابة
 فقالوا : « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . فلما خرجوا
 به الى الصحراء هموا بقتله بمقتضى ما في القلوب من الحسد ، فقال
 كبيرهم : « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب » ولم يرد
 أن يموت بل يلتقطه بعض السيارة ، فأجابوا الى ذلك ، والسبب
 في هذه الاحوال أن الايمان على حسب قوته ، فتارة يردّها عند
 الهم ، وتارة يضعف فيردّها عند العزم ، وتارة عند بعض الفعل ،
 فاذا غلبت الغفلة ، وواقع الذنب ، فتر الطبع ، فنهض الايمان ،
 فينقش بالندم أضعاف ما التذ .

٦٩ - إذا عظم العالم نفسه خفيت عليه أخطاؤه

أفضل الاشياء التزيد من العلم ، فانه من اقتصر على ما يعلمه
 فظنه كافياً استبد برأيه ، وصار تعظيحه لنفسه مانعاً له من
 الاستفادة ، والمذاكرة تبين له خطأه ، وربما كان معظماً في
 النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه ، ولو أنه أظهر الاستفادة

لأهديت إليه مساوية فماد عنها ، ولقد حكى ابن عليل عن أبي المعالي الجويني أنه قال : ان الله تعالى يعلم جل الاشياء ولا يعلم التفاصيل ^(١) ، ولا أدري أي شبهة وقعت في وجه هذا المسكين حتى قال هذا ، وكذلك أبو حامد حين قال : النزول التنقل ، والاستواء بماسة . وكيف أصف هذا باللقه والزهد وهو لا يدري ما يجوز على الله بما لا يجوز ^(٢) ، ولو أنه ترك تعظيم نفسه لرد صبيان الكتاب رأيه عليه ، فبان له صدقهم . ومن هذا الفن أبو بكر بن مقسم : فانه عمل كتاب الاحتجاج للقراء ، فأتى فيه بفوائد ، إلا أنه أفسد علمه بأجازته أن يقرأ بما لم يقرأ به ، ثم تقافم ذلك منه حتى أجاز ما يفسد المعنى ، مثل قوله تعالى : « فلما استياسوا منه خلصوا » . فقال : يصلح أن يقال هنا نجياً أي خلصوا كراماً براء من السرقة ، وهذا سوء فهم للقصة ، فان الذي نسب الى السرقة فظهرت معه ما خلص ، فما الذي ينفع خلاصهم ، ولما سبقت القصة ليبين أنهم انفردوا وتشاوروا فيما يصنعون ، وكيف يرجعون الى أبيهم وقد احتبس أخوهم ، فأى وجه للنجاة ها هنا ، ومن تأمل كتابه رأى فيه من هذا الجنس ما يزيد على الاحصاء أكثر من هذا الفن القبيح ، ولو

(١) أعوذ بالله ، انه لا يمكن أن يقولها ، وهذه كنية وهذه مباحته ،
(تبيينوا عسى أن تصيبوا قوماً) .

(٢) متى قال هذا ؟ وأين ؟ وإذا لم يوصف للنزالي باللقه والزهد فن لعري
يوصف بها بعده ؟

أنه أصغى الى علماء وقته ، وترك تعظيم نفسه لبان له الصواب ،
غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية للنفس حبس من
إدراك الصواب ، نعوذ بالله من ذلك .

٧٠ - إذا عملت خيراً فاحمد الله

تأملت قوله عز وجل : « يمتنون عليك أن أسلموا ، قل لا تتنوا
عليّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » . فرأيت
فيه معنى عجيباً ، وهو أنهم لما وهبت لهم العقول فتدبروا بها
عيب الأصنام ، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة ، فوجهوا العبادة
الى من فطر الأشياء ، كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب لهم
الذي به باينوا البهائم ، فاذا آمنوا بفعلهم الذي ندب اليه العقل
الموهوب ، فقد جهلوا قدر الموهوب ، وغفلوا عن من وهب ،
وأى شيء لهم في الثمرة والشجرة ليست ملكاً لهم ^(١) ، فعلى هذا
كل متعبد ومجتهد في علم وعمل إنما رأى بنور اليقظة ، وقوة الفهم
والعقل ، حجاباً ، فوقع على المطلوب . فينبغي أن يوجه الشكر
الى من بعث له في ظلام الطبع النفس . ومن هذا الفن حديث
الثلاثة الذين دخلوا الغار ، فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار ،

(١) أي انه مادام العقل نفسه من خلق الله ، وهو ملك له ، فليس لصاحب
العقل شيء يدعيه لنفسه ويفتخر به .

فقالوا : تعالوا نتوصل بصالح أعمالنا ، فقال كل منهم : فعلت
 كذا وكذا ، وهؤلاء ان كانوا لاحظوا نعمة الواهب للمعصية عن
 الخطأ فتوسلوا بانعامه عليهم الذي أوجب تخصيصهم بتلك النعمة عن
 أبناء جنسهم ، فبه توسلوا اليه ، وان كانوا لاحظوا أفعالهم
 فلمحوا جزاءها ظناً منهم أنهم هم الذين فعلوا فهم أهل غيبة لاحضور ،
 ويكون جواب مسألتهم لقطع منهم الدائرة . ومثل هذا رؤية
 المتقي تقواه حتى انه يرى انه أفضل من كثير من الخلق ، وربما
 احتقر أهل المعاصي وشتم عليهم ، وهذه غفلة عن طريق السلوك ،
 ربما اخرجت ، ولا أقول لك خالط الفساق احتقاراً لنفسك ،
 بل اغضب عليهم في الباطن وأعرض عنهم في الظاهر وتلمح جريات
 الأقدار عليهم في الباطن فأكثرهم لا يعرف من عصي ، وجمهورهم
 لا يقصد العصيان ، بل يريد موافقة هواه ، وعزيز عليه أن
 يعصي ، وفيهم من غلب عليه تلمح العفو والحلم فاحتقر ما يأتي لقوة
 يقينه بالعفو ، وهذه كلها ليست بأعذار لهم ، ولكن تلمحه أنت
 يا صاحب التقوى ، واعلم أن الحجة عليك اوفى من الحجة عليهم ،
 لأنك تعرف من تعصي ، وتعلم ما تأتي ، بل انظر الى
 قلبك القلوب بين اصبعين فرما دارت الدائرة فصرت المنقطع ،
 ووصل المقطوع ، فاعجب بمن يُدَلّ بخير عمله ، وينسى من
 أنعم ووفق .

٧١ - الرد على المبتدعة والمشبهة

اعلم ان شرعنا مضبوط الاصول ، محروس القواعد ، لا خلل فيه ولا دخل ، وكذلك كل الشرائع ، إنما الآفة من المبتدعين في الدين أو الجبال ، مثل ما أثر عن النصارى حين رأوا إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام ، فتأملوا الفعل الخارق للعادة الذي لا يصلح للبشر ، فنسبوا الفاعل الى الآلهية ، ولو تأملوا ذاته لعلموا أنها مركبة على النقائص والحاجات ، وهذا القدر يكفي في عدم صلاح السبته ، فيعلم حينئذ أن ما جرى على يديه فعل غيره ، وقد يؤثر ذلك في الفروع ، مثل ما دروي انه فرض على النصارى صوم شهر فزادوا عشرين يوماً ، ثم جعلوه في فصل من السنة بأراهم . ومن هذا الجنس تخييط اليهود في الاصول والفروع ، وقد قارب الضلال في أمتنا هذه المسالك ، وان كان مومهم قد حفظ من الشرك والشك والخلاف الظاهر الشنيع ، لأنهم أعقل الأمم وأفهمها ، غير أن الشيطان قارب بهم ولم يطمع في إغراقهم ، وإن كان قد أغرق بعضهم في بحار الضلال . فمن ذلك أن الرسول ﷺ جاء بكتاب عزيز من الله عز وجل قيل في حقيقته : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، وبين ما عساه يشكل مما يحتاج الى بيانه بسنته كما قيل له : « لتبين للناس

ما 'نزل اليهم' ، فقال بعد البيان : تركتكم على بيضاء نقية ،
فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه ، ولم يرضوا بطريقة أصحابه ،
فبعثوا ثم انفسوا ، فمنهم من تعرض لما تعب الشرع في إثباته
في القلوب فجاء منها ، فان القرآن والحديث يشبان الإله
عز وجل بأوصاف تقرر وجوده في النفوس ، كقوله تعالى :
« ثم استوى على العرش » وقوله تعالى « بل يده مبسوطتان »
وقوله تعالى « ولتصنع على عيني » ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم :
ينزل الله الى السماء الدنيا ويبسط يده لسمي الليل^(١) والنهار ،
ويضعك ويفضب ، وكل هذه الأشياء وإن كان ظاهرها يوجب
تخايل التشبيه ، فالمراد منها إثبات موجود ، فلما علم الشرع
ما يطرق القلوب من التوهّمات عند سماعها قطع ذلك بقوله :
« ليس كمثله شيء » . ثم إن هؤلاء القوم عادوا الى القرآن
الذي هو المعجز الأكبر . وقد قصد الشرع تقرير وجوده فقال :
« إنا أنزلناه » « نزل به الروح الأمين » « فذرني ومن يكذب
بهذا الحديث » « وهذا كتاب أنزلناه » . واثبت في القلوب بقوله
تعالى : « في صدور الذين أوتوا العلم » وفي المصاحف بقوله تعالى :
« في لوح محفوظ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تأسفوا

بالقرآن الى أرض العدو ، فقال قوم من هؤلاء : « مخلوق » فأسقطوا
 حرمة من النفوس ، وقالوا : لم ينزل ولا يتصور نزوله ، وكيف
 تنفصل الصفة عن الموصوف ، وليس في المصحف إلا خبر وورق ،
 فعادوا على ما تعب الشارع في إثباته بالهجو ، كما قالوا : إن الله
 عز وجل ليس في السماء ، ولا يقال استوى على العرش ، ولا ينزل
 الى السماء الدنيا ، بل ذاك رحمة ، فمحوا من القلوب ما أريد
 إثباته فيها ، وليس هذا مراد الشارع . وجاء آخرون فلم يقفوا
 على ما حده الشرع ، بل عملوا فيه بآرائهم فقالوا : الله على العرش ،
 ولم يقتنعوا بقوله : « ثم استوى على العرش » ، ودفن لهم أقوام
 من سلفهم دفائن ، ووضعت لهم الملاحظة أحاديث ، فلم يعلموا
 ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فأثبتوا بها صفاته . وجمهور الصحيح
 منها آت على توسع العرب فأخذوه هم على الظاهر ، فكانوا في
 ضرب المثل كجحا ، فان أمه قالت له : احفظ الباب ، فقلعه
 ومشى به ، فأخذ ما في الدار ، فلامته أمه فقال : إنما قلت احفظ
 الباب ، وما قلت احفظ الدار ، ولما تخابوا صورة عظمة على
 العرش ، أخذوا يتأولون ما ينافي وجودها على العرش ، مثل
 قوله : « ومن أظني يمشي أثبته هرولة » . فقالوا : ليس المراد
 به دنو الباب ، وإنما المراد قرب المنزل والحظ ، وقالوا في
 قوله تعالى : « إلا أن يأتيهم الله في ظلل » ، هو محمول على

ظاهرها في مجيء الذات ، فهم يحملونه عاماً ويحرمونه عاماً ،
 ويسمون الاضافات الى الله تعالى صفات ، فانه قد أضاف اليه التنفخ
 والروح . وأثبتوا خلقه باليد ، فلو قالوا خلقه لم يمكن انكار
 هذا بل قالوا هي صفة تولى بها خلق آدم دون غيره ، فأبي مزية
 كانت تكون لآدم ؟ فشغلهم النظر في فضيلة آدم ، عن النظر الى
 ما هو يليق بالحق بما لا يليق به ، فانه لا يجوز عليه المس ، ولا
 العمل بالآلات ، وإنما آدم أضافه اليه . فقالوا : نطلق على الله
 تعالى اسم الصورة لقوله : «خلق آدم على صورته» وفهموا هذا
 الحديث وهو قوله عليه السلام : إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه ،
 ولا يقل قبّح الله وجهك ولا وجهاً أشبه وجهك ، فان الله خلق
 آدم على صورته . فلو كان المراد به الله عز وجل لكان وجه الله
 سبحانه يشبه وجه هذا المخاصم لان الحديث كذا جاء ، ولا وجهاً
 أشبه وجهك ، ورووا حديث خولة بنت حكيم : «وان آخروطنة
 وطئها الله بوج» وما علموا النقل ولا السير وقول الرسول صلى الله
 عليه وسلم : «اللهم اشدد وطأنك على مضر» ، وان المراد به آخر
 وقعة قاتل فيها المسلمون بوج ، وهي غزاة حنين . فقالوا :
 نحمل الخبر على ظاهره وان الله وطئ ذلك المكان ، ولا شك ان
 عندهم أن الله تعالى كان في الارض ثم صعد الى السماء ، وكذلك
 قالوا في قوله : « ان الله لا يمل حتى تملوا » ، قالوا : يجوز

أن الله يوصف بالملل فجهلوا اللغة وما علموا أنه لو كانت حتى ههنا
تغاية لم تكن بمدح . لأنه إذا مل حين غل فأبي مدح . وإنما هو
كقول الشاعر :

جلبت في هذيل مخرق لاقل الشر حتى يلوا
والعنى لا يل وإن ملوا ، وقالوا في قوله عليه الصلاة والسلام :
الرحم شجرة من الرحمن تتعلق بمحوي الرحمن . فقالوا : الحق ،
حقة ذات وذكروا أحاديث لو رويت في نقض الوضوء ما قبلت
وهومها وضعته الملاحدة ، كما يروى عن عبد الله بن عمرو . قال :
خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر . فقالوا : ثبت هذا
على ظاهره . ثم أرضوا العوام بقولهم ولا ثبت جوارح ،
فكانهم يقولون فلان قائم وما هو قائم ، فاختلف قولهم هل يطلق
على الله عز وجل أنه جالس أو قائم كقوله تعالى : « قائماً بالقسط »
وهؤلاء أخس فهماً من جعاً لأن قوله قائماً بالقسط لا يراد به القيام
وإنما هو كما يقال الأمير قائم بالعدل . وإنما ذكرت بعض أقوالهم
لتلا بسكن إلى شيء منها فالخدر من هؤلاء عبادة . وإنما الطريق
طريق السلف على أنني أقول لك قد قال أحمد بن حنبل رحمه الله
عليه : من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال ، فلا ينبغي
أن تسمع من معظم في النفوس شيئاً في الأصول فتقلده فيه ، ولو
سمعت عن أحد ما لا يوافق الأصول الصحيحة فقل هذا من الراوي

لانه قد ثبت عن ذلك الامام انه يقول بشيء من رأيه . فلو قدرنا صحته عنه فانه لا يقد في الاصول ، ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما ، فهذا أصل يجب البناء عليه فلا يهولنك ذكر معظم في النفوس ، وكان المقصود من شرح هذا أن ديننا سليم ، وإنما أدخل أقوام فيه ما تاذيناه ، ولقد أدخل المتزهدون في الدين ما ينفر الناس ، حتى أنهم يرون أفعالهم فيستبعدون الطريق ، وأكثر أدلة هذه الطريق القصاص ، فان العامي اذا دخل الى مجلسهم وهو لا يحسن الرضوء كلموه بدقائق الجنيد ، واسارات الشبلي ، فرأى ذلك العامي أن الطريق الواضح لزوم زاوية وترك الكسب للعائلة ومناجاة الحق في خلوة على زعمه ، مع كونه لا يعرف أركان الصلاة ولا أدبه العلم ، ولا قوّم أخلاقه مخالطة العلماء ، فلا يستفيد من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الاصطبل . فان امتد عليه الزمان في ثقله زاد يسه فرجاً خايلت له المالبخوليا أشباحاً يظنهم الملائكة ثم يطأطأ رأسه ، ويمد يده للتقيل ، فكم قد رأينا من أكتار ترك الزرع وقعد في زاوية فصار الى هذه الحالة فاستراح من تعب ، فلو قيل له عد مربضاً . قال : مالي عادة . فلعن الله عادة تخالف الشريعة ، فيرى العامي بما يورده القصاص طريق الشرع هذه لا التي عليها الفقهاء ، فيقعون في الضلال .

ومن المتهدين من لا يبالي عمل بالشرع أم لا، ثم تتفاوت جهالهم،
فمنهم من سلك مذهب الاباحة ويقول: «الشيخ لا يعارض»، وينهك
في المعاصي .

ومنهم من يحفظ ناموسه فيفتي بغير علم ، لئلا يقال : الشيخ
لا يدري . ولقد حدثني الشيخ أبو حكيم رحمه الله عليه : أن
الشريف الدحائي وكان يقصد فيزار ويتبرك به حضر عنده يوماً
فستل أبو حكيم : هل تحمل المطلقة ثلاثاً اذا ولدت ذكراً ؟ قال :
فقلت لا والله . فقال لي الشريف : اسكت فوالله لقد أفتيت الناس
بأنها تحمل من هنا الى البصرة .

وحكى لي الشيخ أبو حكيم أن جد آذاد الحداد وكان يتوهم
بالعلم جاءت اليه امرأة فزوجها من رجل ولم يسأل عن انقضاء
العدة ، فاعترضها الحاكم وفرق بينها وبين الزوج ، وأنكر علي
المزوج ، فلقيته المرأة ، فقالت : يا سيدي أنا امرأة لا أعلم
فكيف زوجتني ؟ فقال : دعي حديثهم ما أنت إلا طاهرة
مطهرة .

وحدثني بعض الفقهاء عن رجل من العباد أنه كان
يسجد للسهرتين ، ويقول : والله ما سهوت ولكن أفعله
احترازاً ، فقال له الفقيه : قد بطلت صلاتك كلها لأنك زدت
سجوداً غير مشروع .

ثم من الدّخل الذي دَخَلَ في ديننا طريق المتصوفة ، فانهم
 سلكوا طرقاً أكثرها يتنافى الشريعة . وأهل الدين منهم يتقنون
 ويتخففون ، وهذا ليس بشرع حتى أن رجلاً كان قريباً من زمانه
 يقال له كثير دخل الى جامع المنصور وقال : عاهدت الله عهداً
 ونقضته ، فقد ألزمت نفسي أن لا تأكل أربعين يوماً ، فحدثني من
 رآه أنه بقي عشرة أيام ثم في العشر الرابع أشرف على الموت ، قال :
 فما انقضت حتى تفرغ ، فصب في حلقه ماء فسمعنا له نشيئاً كفضش
 المقلاة ثم مات بعد أيام .

فانظروا الى هذا المسكين وما فعله به جهله .

ومنهم من فسح لنفسه في كل ما يجب من التمتع والذات
 واقتنع من التصوف بالقبيص والفوطه والعمامة اللطيفة ، ولم
 ينظر من أين يأكل ولا من أين يشرب ، وخالط الأمراء
 من أرباب الدنيا وللباس الحرير ، وشرب الخمر ، حفظاً
 لئلا وجاهه .

ومنهم أقوام عملوا سنناً لهم تلقوها من كلمات أكثرها
 لا يثبت .

ومنهم من أكب على مماع الغناء والرقص واللعب ثم انقسموا
 فمنهم من يدعي العشق فيه ، ومنهم من يقول بالحلول ، ومنهم

بسمع على وجه الهوى واللعب . وكلا الطريقتين يفسد العوام
الفساد العام .

وهذا الشرح بطول ، وقد صفت كتباً ترى فيها البسط الحسن
ان شاء الله تعالى . منها (تلبیس ابلیس) ، والمقصود أن تعلم أن
الشرع تام كامل فان رزقت فهماً له فأنت تتبع الرسول ﷺ
وأصحابه ، وتترك بنيات الطريق ولا تتلد في دينك الرجال ،
فان فعلت فانك لا تحتاج الى وصية أخرى ، واحذر جمود
الثقل ، وانبساط المتسككين ، وجموع المتزهدين ، وشره أهل
الهوى ، ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل ، وعمل
المتعبدین بغير علم ، ومن أیده الله تعالى باطفه ورزقه الفهم ،
وأخرجه عن ربة التقليد ، وجعله أمة وحده في زمانه ، لا يبالي
بمن عبث ولا يلتفت الى من لام ، قد سلم زمامه الى دليله في
واضح السبيل ، عصمنا الله وإياكم من تقليد المعظمين ، وألمعنا
اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه درة الوجود ، ومقصود
الكون^(١) صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأتباعه ورزقنا
اتباعه مع أتباعه .

(١) ما معنى (مقصود الكون) ؟ ان الكون بمعنى الخلق ، والله بين
انه انما خلق الجن والانس لعبادته ، وليس في النقل ولا في العقل ان مقصود
الكون محمد صلى الله عليه وسلم .

٧٢ - التقوى أصل السلامة

اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل : د وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، ، فتارة فقر وتارة غنى ، وتارة عز وتارة ذل ، وتارة يفرح الموالي وتارة يشمت الأعداء ، فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال ، وهو تقوى الله عز وجل ، فإنه ان استغنى زانته ، وان افتقر فتحت له أبواب الصبر ، وان عوفي تمت النعمة عليه ، وان ابتلي حملته ، ولا يضره ان نزل به الزمان أو صعد ، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه ، لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير ، والتقوى أصل السلامة حارس لابنام ، يأخذ باليد عند المنة ، ويواقف على الحدود ، والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى فإنها ستحول وتخليه خامراً ، ولازم التقوى في كل حال فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة ، وفي المرض إلا العافية ، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم .

٧٣ - قوة الإيمان

تأملت أمراً عجيباً ، وأصلاً ظريفاً ، وهو انهيار الابتلاء على المؤمن ، وعرض صور الاذات عليه مع قدرته على نیلها ، وخصوصاً ما كان في غير كلفة من تحصيله كمحبوب موافق في خلوة

حصينة . فقلت : سبحان الله ههنا يبين اثر الايمان لا في حلة
 ركعتين ، والله ماصعد يوسف عليه السلام ولا سعد الا في مثل
 ذلك المقام ، فبالله عليكم يا اخواني تأملوا حاله لو كان وافق
 هواه من كان يكون . وقيسوا بين تلك الحالة وحالة آدم
 عليه السلام ، ثم زنوا بميزان العقل عقي تلك الخطيئة ، وغرة
 هذا الصبر . واجعلوا فهم الحال عدة لكم عند كل مشتهى ،
 وان اللذات لتعرض على المؤمن فتى لقيها في صف حربه وقد
 تأخر عنه عسكر التدبير للمواقب هزم ، وكأني أرى الواقع في
 بعض اشراكها ولسان الحال يقول له : قف مكانك ، أنت
 وما اخترت لنفسك ، فغاية أمره الندم والبكاء فان أمن
 اخراجه من تلك الهوة لم يخرج إلا موهونا بالخدوش ، وكم
 من شخص زلت قدمه فما ارتفعت بعدها . ومن تأمل ذل
 اخوة يوسف عليهم السلام يوم : « وتصدق علينا » عرف مؤثم
 الزلل ، ومن تدبر أحوالهم قاس ما بينهم وبين أخيم من
 الفروق ، وان كانت توبتهم قبلت ، لانه ليس من رقع وخط
 لمن توبه صحيح ، ورب عظم هيض لم ينبجر ، فان جبر فعلى
 وهى . فتنبطوا اخواني لعرض المشتبهات على النفوس ،
 واستوثقوا من لجم الحيل ، وانتبهوا للغم إذا تراكم بالصعود
 الى تلة فربما مد الوادي فراح بالركب .

٧٤ - تأخر إجابة الدعاء

تأملت حالة عجيبة وهي أن المؤمن تنزل به النازلة فيدعو ويبالغ فلا يرى أثراً للإجابة ، فإذا قارب اليأس نظر حينئذ إلى قلبه فإن كان راضياً بالأقدار غير قنوط من فضل الله عز وجل فالغالب تعجيل الإجابة حينئذ لأن هناك يصلح الإيمان ويهزم الشيطان^(١) ، وهناك تبين مقادير الرجال ، وقد أشير إلى هذا في قوله تعالى : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ » . وكذلك جرى ليعقوب عليه السلام فإنه لما فقد ولداً وطال الأمر عليه لم ييأس من الفرج فأخذ ولده الآخر ولم ينقطع أمله من فضل ربه « أن يأتيهم جميعاً » . وكذلك قال زكريا عليه السلام « ولم أكن بدعائك رب شقياً » فأياك أن تستطيل مدة الإجابة . وكن ناظراً إلى أنه المالك ، وإلى أنه الحكيم في التدبير ، والعالم بالمصالح ، وإلى أنه يريد اختبارك ليلو أسرارك ، وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك ، وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك ، إلى غير ذلك . وإلى أنه يبتليك بالتأخير لتعارب وسوسة إبليس ، وكل واحدة من هذه الأشياء تقوي

(١) على هامش النسخة الخطية : لله وتبعد وسوسة الشيطان .

الظن في فضله ، وتوجب الشكر له إذ أهلك بالبلاء للالتفات
إلى سؤاله ، والفقر المضطر إلى اللجوء إليه غنى كله .

٧٥ - اللذة والمنفعة

لما كان بدن الآدمي لا يقوم إلا باجتلاب المصالح ودفع
المؤذي ، ركب فيه الهوى ليكون سبباً لجلب النافع ، والغضب
ليكون سبباً لدفع المؤذي ، ولولا الهوى في الطعام ، ماتناول
الطعام فلم يقم بدنه ، فجعل له اليه ميل وتوق . فإذا حصل له
قدر ما يقيم بدنه زال التوق ، وكذلك في المشرب والملبس
والمسكن . وفائدة المنكح من وجهين . أحدهما : إبقاء الجنس
وهو معظم المقصودين . والثاني : دفع الفضلة المحتقة المؤذي
احتقانها ، ولولا تركيب الهوى المائل بصاحبه إلى النكاح ما طلبه
أحد ، ففات النسل وآذى المحتقن . فأما العارفون فانهم فهموا
المقصود ، وأما الجاهلون فانهم مالوا مع الشهوة والهوى ولم
يفهموا مقصود وضعها فضاع زمانهم فيما لا طائل فيه ، وفاتهم
ما خلقوا لأجله وأخرجهم هوام إلى فساد المال وذهاب العرض
والدين ، ثم أدام إلى التلف . ولم قد رأينا من متنعم ببالغ
في شراء الجوارى ليحرك طبعه بالمستجد فما كان بأسرع من أن
وهنت قواه الأصلية فتعجل تلفه . وكذلك رأينا من زاد غضبه
فخرج عن الحد ففتك بنفسه وبمن يحبه . فمن علم أن هذه

الاشياء إنما خلقت اعانة للبدن على قطع مراحل الدنيا ، ولم
تخلق لنفس الالتذاذ وإنما جعلت اللذة فيها كالحيلة في إيصال
النفع بها ، إذ لو كان المقصود التمتع بها لما جعلت الحيوانات
البهيمة أوفى حظاً من الآدمي منها ، فطوبى لمن فهم حقاً اتق
الوضع ، ولم يمل به الهوى عن فهم حكم المخلوقات .

٧٦ - المعاصي

من تأمل عواقب المعاصي وآما قبيحة ، ولقد تفكرت في
أقوام أعرفهم يقرّون بالزنا وغيره ، فأرى من تعثرهم في الدنيا
مع جلادتهم مالا يقف عند حد ، وكأنهم قد البسوا ظلمة ،
فالقلوب تنفر عنهم . فإن اتسع عليهم شيء فأكثره من مال
الغير^(١) ، وإن ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القدر ، هذا
وقد شغلوا بهذه الاوساخ عن ذكر الآخرة ، ثم عكست
فتفكرت في أقوام صابروا الهوى ، وتركوا مالا يجل . فمنهم
من قد أينعت له ثمرات الدنيا من قوت مستلذ ، ومهاد
مستطاب ، وعيش لذيد ، وجاء عريض ، فإن ضاق بهم أمر
وسعه الصبر ، وطيبه الرضا ، ففهمت بالحال معنى قوله تعالى :
« انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » .

(١) غير لا تعرف ولا يقال فيها « الغير » لأنها ابلغ الالفاظ في التنكير ، وربما
الحق « كل » و « بعض » فع انه يقال « الكل » و « البعض »

٧٧ - الأنس بالله

ينبغي للعاقل أن يلزم باب مولاه على كل حال ، وإن
يتعلق بذيل فضله أن عصي وإن أطاع ، وليكن له انس في
خلوته به ، فإن وقعت وحشة فليجهد في رفع الوحش ، كما
قال الشاعر :

أستوحش أنت بما جئدت فاحسن إذا شئت واستأنس
فإن رأى نفسه مائلا إلى الدنيا طلبها منه ، أو إلى الآخرة
سأله التوفيق للعمل لها ، فإن خاف ضرر ما يرومه من الدنيا
سأل الله إصلاح قلبه ، وطب مرضه ، فإنه إذا صلح لم يطلب
ما يؤذيه . ومن كان هكذا كان في العيش الرغد غير أن من
ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى ، فإنه لا يصلح الانس إلا
بها ، وقد كان أبواب التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن
السنج والسؤال ، وفي الخبر ، أن قتيبة بن مسلم لما صاف^(١) الترك
هاله أمرهم فقال : أين محمد بن واسع ؟ ف قيل هو في أقصى
المينة جانح على سيرة قومه يرمي بإصبعه نحو السماء ، فقال
قتيبة : تلك الإصبع الفاردة ، أحب إلي من مائة ألف سيف
شهير ، وسنان طرير . فلما فتح عليهم قال له : ما كنت تصنع ؟
قال : آخذ لك بجميع الطرق .

(١) أي لما وقف جياهم في الحرب .

٧٨ - كتمان الامور

ينبغي لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه ان يظهر منها مايبين أثرها ، ولايكشف جملتها ، وهذا من أعظم لذات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها ، فان العين حق . واني تفقدت النعم فرأيت إظهارها حلواً عند النفس إلا أنها ان أظهرت لوديد لم يؤمن تشعت باطنه بالغيظ ، وان أظهرت لعدو فالظاهر إصابته بالعين لموضع الحسد ، إلا أنني رأيت بُعد الحسود كاللازم ، فانه في حال البلاء يتشفى ، وفي حال النعم يصيب بالعين ولعمري إن النعم عليه يشتهي غيظ حسوده ، ولكنه لا يؤمن ان يخاطر بنعمته ، فان الغالب اصابة الحاسد لها بالعين ، فلا يساوي الالتذاذ باظهار ماغيظ به مافسدت عينه باصابتها ، وكتمان الامور في كل حال فعل الحازم ، فانه ان كشف مقدار سنة استهزموه ان كان كبيراً ، واحتقروه ان كان صغيراً ، وان كشف مايعتقده ناصبه الاضداد بالعداوة ، وان كشف قدر ماله استهقروه ان كان قليلا ، وحسدوه ان كان كثيراً ، وفي هذه الثلاثة يقول الشاعر :

احفظ لسانك لاتبع بثلاثة سن ومال مااستطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبلى بثلاثة بموه ومخروق ومكذب

وقس على ما ذكرت مالم اذكره ، ولا تكن من المذاييع
 الغر الذين لا يحملون أسرارهم حتى يفشوها إلى من لا يصلح ،
 ورب كلمة جرى بها اللسان ، هلك بها الانسان .

٧٩ - عبرة العثرة

رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت إلى
 ما عثر به ، فينظر إليه ، طبعاً موضوعاً في الخلق ، إما ليحذر
 منه إن جاز عليه مرة أخرى من مثله ، أو لينظر مع احتوازه
 وفهمه كيف فاتته التحرز من مثل هذا ، فاخذت من ذلك
 إشارة وقلت : يا من عثر مراراً هلاً أبصرت ما الذي عثرك
 فاحتوت من مثله ، أو قبحت لنفسك مع حزمها تلك الواقعة ،
 فإن الغالب ممن يلتفت أن معنى التفاته : كيف عثر مثلي مع
 احتوازه بمثل ما أرى ؟ فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب
 الفلاني والذنب الفلاني ؟ كيف غرك زخرف تعلم بعقلك باطنه ،
 وترى بعين فكرك مآله ؟ كيف آثرت فانياً على باق ؟ كيف
 بعث بوكس^(١) ؟ كيف اخترت لذة رقدة على انتباه معاملة ؟
 آه لك لقد استريت بما بعث أحمال ندم لا يقبلها ظهر^(٢) ، وتنكس
 رأس أمسى بعيد الرفع ، ودموع حزن على قبج فعل الممدده
 انقطاع ، واقع الكل أن يقال لك : بماذا ؟ ومن أجل ماذا ؟

(١) اي ببين (٢) لي لا تحملها دابة .

وهذا على ماذا ؟ يا من قلب الغرور عليه الصنبة ، ووزن له والميزان راكب ^(١) .

٨٠ - اتباع القرآن والسنة

تأملت قوله تعالى : « فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى » قال المفسرون : هداي رسول الله ﷺ وكتابي . فوجدته على الحقيقة أن كل من تبع القرآن والسنة وعمل بما فيها ، فقد سلم من الضلال بلا شك . وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك ، اذا مات على ذلك . وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلاً . وبين هذا قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . فان رأيت في شدة فله من اليقين بالجزاء ما يصير الصاب ^(٢) عنده عسلاً ، والا غلب طيب العيش في كل حال ، والغالب أنه لا يتزل به شدة الا اذا انخرق عن جادة التقوى . فاما الملازم لطريق التقوى فلا آفة تطرقه ، ولا بلية تنزل به ، هذا هو الاغلب . فان ندر من تطرقه البلاء مع التقوى فذاك في الاغلب لتقدم ذنب يجازى عليه ، فان قدرنا عدم الذنب ، فذاك لادخال ذهب صبره كيو البلاء حتى يخرج تبرأً أحمر فهو يرى عذوبة العذاب ، لانه يشاهد المبلى في البلاء الآلم . قال الشبلي : أحبك الناس لنعمائك ، وانا أحبك لبلائك .

(١) الصنبة ما يوزن به ، والميزان راكب ، اي متعلق لا يتحرك ولا يزن .

(٢) الصاب : المر كالمقم والصبر .

٨١ - لذة المعصية ساعة

لا ينال لذة المعاصي الا سكران الغفلة ، فاما المؤمن فانه لا يلتذ لأنه عند التذاذة يقف بازائه علم التحريم ، وحذر العقوبة فان قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي ، فيتنقص عيشه في حال التذاذة ، فان غلب سكر الهوى كان القلب متنفساً بهذه المراقبات ، وان كان الطبع في شهوته وما هي الا لحظة ، ثم خذ من غريم قدم ملازم ، وبكاء متواصل ، واسف على ما كان مع طول الزمان ، حتى أنه لو ثيقن العفو وقف بازائه حذار العتاب ، فأف للذنوب ما أقبح آثارها ، وما أسوأ أخبارها ، ولا كانت شهوة لا تنال الا بمقدار قوة الغفلة .

٨٢ - حق البدن

بكرت يوماً أطلب الخلوة الى جامع الرصافة . فجمعت اجول وحدي وأفكر في ذلك المكان ومن كان به من العلماء والصالحين ، ورأيت أقواماً قد جاؤوا فيه فسألت أحدهم : منذ كم أنت هاهنا ؟ فأوما الى قريب من أربعين سنة ، فرأيت في بيت كثير الدرن والوسخ وجعلت أفكر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدة . فأخذت النفس نحسن ذلك ، وتقدم

للدنيا والاعتقار بها ، فأقبل العلم ينكر على النفس ، ونهض
 الفهم لحقائق الامور ، وموضوع الشرع يقوي ما قال العلم فيجعل
 من ذلك أن قلت للنفس : اعلمي أن هؤلاء على ضربين : منهم
 من يجاهد نفسه في الصبر على هذه الاحوال فتقوته فضائل المحالطة
 لاهل العلم والعمل وطلب الولد ، ونفع الخلق ، وانتفاع نفسه
 بمجالسة اهل الفهم ، فيحدث له من نفسه حالة تشابه فيم الوحش ، فيؤثر
 الانفراد لنفس الانفراد وربما حبس الطبع ، وساء الخلق ، وربما حدث من
 حبس مائه المحتقن سبيته أفسدت بدنه وعقله ، وربما أورثته الخلو وسوسة ،
 وربما ظن أنه من الاولياء واستغنى بما يعرفه ، وربما خيل له الشيطان
 أشياء من الحبالات وهو بعدها كرامات ، وربما ظن أن
 الذي هو فيه الغاية ولا يدري أنه الى الكراهة اقرب ، فان
 رسول الله ﷺ : نهى أن يبيت الرجل وحده ، وهؤلاء كل
 منهم يبيت وحده ، ونهى عن التبتل وهذا تبتل ، ونهى عن
 الرهبانية وهذا من خفي خدع ابليس التي يقع بها في ورطت
 الضلال بالطف وجه وأخفاء .

والضرب الثاني : مشايخ قد فنوا فانقطعوا ضرورة ، اذ
 ليس لاحد منهم ما رأى فهم في مقام الزماني ، وإن كان الضرب
 الاول قطعوا حبل نفوسهم في العلم والعمل والكسب وتعلقت

مهمهم بفتوح^(١) يطرق عليهم الباب ، فرضوا بالعي بعد البصر ، وبالزمن^(٢) بعد الاطلاق .

فقلت لي النفس : لا أرضى هذا الذي تقول ، فانك انما تميل الى ايثار نكاح المستحسنات والمطاعم والمشتريات ، فاذا لم تكن من أهل التعبد فلا تطعن فيهم .

فقلت لها : ان فهمت حدثتك ، وان كنت تقلدين صور الاحوال فلا فهم لك .

أما المستحسنات فان المقصود من النكاح اشياء منها طلب الولد ، ومنها شفاء النفس باخراج الفضلة المؤذية^(٣) ، وكال خروجها لا يكون الا بوجود المستحسن . واعتبر هذا بالوطء دون الفرج فانه يخرج من الفضلات ما لا يخرج بالوطء في الفرج وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن شواغلها ، فتدري أين هي ، كما نأمر القاضي بالاكل قبل الحكم ، وننهائ عن الحكم وهو غضبان أو ساقن . وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد لتمام النطفة التي تخلق منها ، ثم للنفس حظ فهو يستوفيه استيفاء النفاقة حظها من العلف في السفر ، وذلك يعين على سيرها .

(١) أي بشيء يفتح به عليهم : عطية أو هدية

(٢) أي الزمنة : المرض الزمن القصد (٣) تقدم هذا المعنى مراراً

واما المطاعم فالجاهل من يطلبها لذاتها أو لنفس لذاتها .
 وإنما المراد إصلاح عدم الناقصة بجمعهما ، ونيل مرادها من
 غرضها الصارف لها عن الفكر في هواها .

وإذا تأملت حال الشرب الاول وأيت من هذا عجباً ،
 فإن النبي ﷺ اختار لنفسه عائشة رضي الله عنها وكانت
 مستحسنة ، ورأى زينب فاستحسنها فتزوجها ، وكذلك اختار
 صفية (١) وكان إذا وصفت له امرأة بمثل بخطبها (٢) .

وكان لعلي رضي الله عنه أربع حرائر . وسبع عشرة سارية
 مات عنهن ، وقبل هذه الامة فقد كان لداود عليه السلام مائة
 امرأة وسليمان عليه السلام ألف امرأة . فمن ادعى خلا في
 هذه الطرق ، أو أن هؤلاء آثروا هواهم ، وانفقوا بضائع
 العمر في هذه الاغراض وغيرها أفضل ، فقد ادعى على الكاملين
 النقصان وإنما هو الناقص فيه لاهم ؟

وقد كان سفيان الثوري إذا سافر ففي سفرته حل مشوي
 وقالودج ، وكان حسن المطعم ، وكان يقول إن الدابة إذا لم

(١) كلا ، ولكن اختيار عائشة لمكالة أبي بكر ، وزينب امتثالاً للامر ،
 وصفية لصحة سياسية . ولو كان قصده الجمال ما كانت زوجاته الباقيات كلهن
 كبيرات ثيبات ، ولا رضي وهو في ثرخ الشباب ، وهو قبل النوبة بخديجة وهي
 اكبر منه ولم يحجم معها غيرها على ان ابتغاء الجمال في الزواج مطلوب شرعاً وهو
 من السنة ، وهو ادعى للالفة والاحسان . (٢) متى كان ذلك ؟

تحسن اليها لم تعمل ، وهذه الفنون التي أشرت اليها ان قصدت
 للحاجة اليها ، أو لقضاء وطر النفس منها ، أو لبلوغ الاغراض
 الدينية والدينية منها ، فكله قصد صحيح لا يعكر عليه حاله .
 ومن يقوم ويقعد في ركعات لا يفهم معناها ، وفي تسيبحات
 أكثر الفاظها ردية ^(١) ، كلا ليس الا العلم الذي هو أفضل
 للصفات ، وأشرف العبادات ، وهو الأمر بالمصالح ، والنطاق
 بالنصائح ، ثم منفعة العلم معروفة ، وزهد الزاهد لا يتعدي عتبة
 بابه ، وقد قال ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك
 مما طلعت عليه الشمس . »

ثم اعتبر فضل الرسل على الانبياء عليهم الصلاة والسلام ،
 والجوارح ^(٢) على التي لا تصيد ، والطين الذي يعمل منه ما ينفع
 به على الطين في المقلع ، وغاية العلماء تصرفهم بالعلم في المباح ،
 وأكثر المتزهدين جهة يستعبدون لتقيل اليد لأجل تركهم
 ما أبيح ، فكيف فوت العزلة علماً يصلح به أهل الدين . وكما
 أوقعت في بلية هلك بها الدين ، وأما عزلة العالم عن الشر
 فحسب ^(٣) ، والله الموفق .

(١) لم يرد في المخطوط ولا المطبوع خبر المبتدأ ، وتكدره ظاهر

(٢) أي الطيور التي كانوا يدربونها ويصطادون بها كالبازي والصقر ،

انظر كتاب (البيزرة) . وكتاب (حياة الحيوان لدميري) .

(٣) انظر الفصل « ٤٦ »

٨٣ - لا تغتر بحلم الله

ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي .
 فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم ، وإنما
 هو قائم بالقسط ، حاكم بالعدل ، وإن كان حلمه يسع
 الذنوب ، إلا أنه إذا شاء عفا فعفا عن كل كثيف من
 الذنوب ، وإذا شاء أخذ باليسير ، فاحذر الحذر . ولقد رأيت
 أقواماً من التوفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي باطنة
 وظاهرة ، فتعبوا من حيث لم يحتسبوا ، فقلعت أصولهم ،
 ونقص ما بنوا من قواعد أحكموها لذرائعهم ، وما كان ذلك
 إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل ، وظنوا أن ما يفعلونه
 من خير يقاوم ما يجري من شر ، فمات سفينة ظنونهم ،
 فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم .

ورأيت أقواماً من المنتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق
 عز وجل في الخلوات ، فمعا محاسن ذكركم في الجلوات
 فكانوا موجودين كالعدومين ، لا حلاوة لروايتهم ، ولا قلب
 يحسن إلى لقائهم .

فأفاه الله في مراقبة الحق عز وجل ، فإن ميزان عدله
 يبين فيه الذرة ، وجزاؤه مرصده للمخطيء ولو بعد حين ،

وربما ظن أنه العفو وإنما هو إهمال ، وللذنوب عواقب سيئة ،
 قاله الله . الخلوات الخلوات . البواطن البواطن . النيات
 النيات . فإن عليكم من الله عيناً فاطرة ، وإياكم والاعتذار
 بحله وكرمه ، فكم قد استدرج .

وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين في محوها ، وما شيء
 ينفع كالترضع مع الحمية عن الخطايا فلعنته !

وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه ، ولقد قال
 بعض المراقبين لله تعالى : قدرت على لذة وليست بكبيرة ،
 ففازتني نفسي إليها اعتماداً على صغرها ، وعظم فضل الله تعالى
 وكرمه . فقلت لنفسي : ان غلبت هذه فأنت أنت ، وإذا
 أثبتت هذه فمن أنت ؟ وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون
 لأنفسهم في مسامحة كيف انطوت أذكارهم ، وتمكنت عقوبة
 الأعراض منهم ، فارغوت ورجعت عما همت به والله الموفق .

٨٤ - لا تستصغر الذنوب

كثير من الناس يتساحون في أمور يظنونها قريبة ، وهي
 تقدر في الأصول ، كاستعارة طلاب العلم جزءاً لا يردونه ،
 وقصد الدخول على من يأكل ليؤكل معه ، والتسامح بعرض
 العدو التذاذاً بذلك ، واستصغاراً لمثل هذا الذنب ، وإطلاق

البصر استهانة بتلك الخطيئة ، وفتوى من لا يعلم لثلا يقال هو جاهل ، ونحو ذلك بما يظن صغيراً وهو عظيم ، وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه ان يحطه من مرتبة التمييز بين الناس ، ومن مقام رفعة القدر عند الحق ، وربما قيل له بلسان الحال : يا من اؤمن على امر يسير فغان ، قال بعض السلف : تساحت بلقمة فتناولتها فأنا اليوم اربعين سنة الى خلف ، فإله الله ! اسمعوا من قد جرب ، كونوا على مراقبة ، وانظروا في العواقب ، واعرفوا عظمة الناهي ، واحذروا من نفخة نحتقر ، وشررة تستصغر فربما أحرقت بلداً .

وهذا الذي أشرت إليه يسير يدل على كثير ، وأنموذج يعرف باقي المحقرات من الذنوب ، والعلم والمراقبة يعرفانك ما أخلفت بذكره ، ويعلمانك ان تلمحت بعين البصيرة أثر شؤم فعله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٨٥ - وجوب التوبة

رأيت من نفسي عجباً تسأل الله عز وجل حاجاتها ، وتنسى جناباتها ، فقلت : يا نفس السوء أو مثلك ينطق ؟ فان نطق فينبغي ان يكون السؤال المقور فحسب .
فقلت : فمن أطلب مراداتي ؟

قلت : ما امنعك من طلب المراد ، انما اقول حقيقي التوبة
وانطلي ، كما تقول في القاصي بغيره اذا اضطر الى الميتة
لا يجوز له ان يأكل ، فإن قيل لنا : أفيوت ؟
قلنا لا بل يتوب ويأكل ؟

فانه الله من جراحة على طلب الاعراض مع نسيان ما تقدم
من الذنوب التي توجب تكبير الرأس ، ولقد تشاغل
بإصلاح ماضي والتندم عليه جائتك مراداتك ، كما دوى :
ومن كان شغله فكري عن مسألتي اعطينه أفضل ما اعطيه
السائلين ، وقد كان بشر الحافي ييسط يديه للسؤال ثم يسلبها
ويقول : متي لا يسأل ، ما أبقت الذنوب لي وجها .

وهذا يختص ببشر لقوة معرفته . كان وقت السؤال كالمخاطب
كفاحاً فاستنجا للزلل ، فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد .

فإنهم ما ذكرته وتشاغل بالتوبة من الزلل . ثم العجب
من سؤالاتك فإنك لا تسأل مسألة من الدنيا ، بل فضول
العيش ، ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ما تسأل صلاح
الدنيا ، فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف
وليكن حزنك على زلاتك شاغلاً لك عن مراداتك ، فقد كان
الحسن البصري شديد الخوف ، فلما قيل له في ذلك قال :
وما يؤمنني أن يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال اذهب لا غفرت لك .

٨٦- من عرف الله خافه

أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان بالله ،
 حافره إلا من خاف منه ، فاما المطنن فليس من أهل
 المعرفة ، وفي المتزهدين أهل تغفيل يكاد أحدهم يوقن أنه ولي
 محبوب ومقبول ، وربما توالى عليه أُلطاف ظنها كرامات ،
 ونسي الاستدراج الذي لقت مساكنته الأُلطاف ، وربما
 احتقر غيره وظن أن محله محفوظة به . تغره رُكِيَعَات
 ينتصب فيها ، أو عبادة ينتصب بها ، وربما ظن أنه قطب
 الأرض وأنه لا ينال مقامه بعده أحد . وكأنه ما علم أنه بينا
 موسى مكالم نبيّه يوشع ، وبيننا زكريا عليه السلام بحجاب
 نشر بالمنشار ، وبيننا يحيى عليه السلام يوصف بأنه سيدسلط عليه
 كافر احتز رأسه ، وبيننا بلعام معه الاسم الأعظم صار مشه
 كمثل الكلب ، وبيننا الشريعة يعمل بها نسخت وبطل حكمها ،
 وبيننا البدن معصور خرب وسلط البلى عليه ، وبيننا العالم
 يداب حتى ينال مرتبة يعتقدها ، نشأ طفل في زمان ترقى الى
 سبر عيوبه وغلظه ، وكَم من متكلم يقول : ما مثلي لو عاش
 فسمع ما حدث بعده من الفصاحة عد نفسه أخرس هذا وعظ
 ابن السماك ، وابن عمار ، وابن سمعون ، لا يصلح لبعض

تلامذتنا ولا يرضاه (١) ، فكيف يعجب من ينفق (٢) شيئاً ؟ وربما
أتى بعدنا من لا يعدنا .

فإن الله من مساكنة مسكن ، ومخالفة مقام . ولكن
المتيقظ على انزعاج محترماً للكثير من طاعاته ، خائفاً على نفسه
من تقلباته ، ونفوذ الاقدار فيه . واعلم ان تلح هذه الاشياء
التي أشرت اليها يضرب عنق العجب ، ويذهب كبر الكبر (٣) .

٨٧- اذكر ربك في زمن البلاء

من عاش مع الله عز وجل طيب العيش في زمن السلامة
خفت عليه في زمن البلاء ، فهناك المحك . ان الملك عز
وجل ينابينا ببني نقض ، وبيننا يعطي سلب ، فطيب العيش
والرضى هناك بين ، فاما من تواصلت لديه النعم فانه يكون
طيب القلب لتواصلها ، فاذا مسته نعمة من البلاء فبعيد ثباته .
قال الحسن البصري : كانوا يتساوون في وقت النعم فإذا
نزل البلاء تباينوا .

فالعاقل من أعد ذخراً ، وحصل زاداً ، وازداد من العدد

(١) ان لم اكد اسم كلاماً لواعظ اعلى طبقة من كلام ابن السكيت وهو ابلغ
من كل من قرأت له من الامة الترسل واساندة البيان .

(٢) أي ينفق سؤفه ، من التفاق « بفتح التون »

(٣) أي جه ومظلمه قال تعالى (والذي تول كبره)

لقضاء حرب البلاء ، ولا بد من لقاء البلاء ، ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت ، فانها إن نزلت والعباد بالله فلم تجد معرفة توجب الرضى أو الصبر ، اخرجت الى الكفر ، ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير وهو يقول في ليالي موته : ربي هو ذا يظلمني . فلم أزل منزعاً مهتماً بتحصيل عدة ألقى بها ذلك القرن . كيف وقد روي أن الشيطان يقول لأعدائه في تلك الساعة : عليكم بهذا ، فان فاتكم لم تقدروا عليه . وأي قلب يثبت عند امساك النفس ، والاخذ بالكظم ونزع النفس والعلم بفارقة المحبوبات الى ما لا يدوي ماهر ، وليس في ظاهره الا القبر والبلاء .

فنسأل الله عز وجل يقيناً يقيناً شر ذلك اليوم ، لعلنا نصبر لقضاء ، أو نرضى به ، ونرغب الى مالك الامور في أن يهب لنا من فواضل نعمه على أحبائه ، حتى يكون لقاءه أحب اليينا من بقائنا ، وتفويضنا الى تقديره أشهى لنا من اختيارنا ، ونعوذ بالله من اعتقاد الكمال لتدبيرنا ، حتى إذا انعكس علينا امر عدنا الى القدر بالتسخط . وهذا هو الجهل المحض ، والخذلان الصريح أعادنا الله منه .

٨٨ — صفة العارف بالله

ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عبثاً من العارفين بالله

عز وجل ، فان العارف به مستأنس به في خلوته ، فان صمت
 نفعه علم من أهداها ، وان صرّ صرّ حلا مذاقه في فيه ،
 لمعرفة الميتلي . وان سأل فتعوق مقصوده ، صار مراده
 ماجرى به القدر علماً منه بالمصلحة بعد يقينه بالحكمة ، وثقته
 بحسن التدبير . وصفة العارف أن قلبه مراقب لمعرفه (١) ،
 قائم بين يديه ، ناظر بعين اليقين اليه ، فقد مرى من بركة
 معرفته الى الجوارح ماعذبها :

فان تكلمت لم انطق بغيركم . وان سكنت فانتهم عقد إضماري
 إذا تسلط على العارف أذى أعرض نظره عن السبب ،
 ولم يرموى السبب ، فهو في أطيب عيش معه ، ان سكنت
 تفكر في اقامة حقه ، وان نطق تكلم بما يرضيه (٢) لايسكن
 قلبه الى زوجة ولا الى ولد ، ولا ينشئ بذيل محبة احد ،
 وانما يعاشر الخلق بيدنه وروحه عند مالك روحه . فهذا
 الذي لاهم عليه في الدنيا ولاغم عند وقت الرحيل عنها ، ولا
 وحشة له في القبر ولا خوف عليه يوم المحشر .

فاما من عدم المعرفة فانه معتر لايزال يضج من البلاء لانه
 لايعرف الميتلي ويستوحش لفقد غرضه لأنه لايعرف المصلحة ،
 ويستأنس بنفسه لانه لا معرفة بينه وبين ربه ، ويخاف من الرحيل
 لانه لا زاد له ولا معرفة بالطريق .

وكم من عالم وزاهد لم يرزقا من المعرفة الا مارزقه العامي
البطال ، وربما زاد عليها !.

وكم من عامي رزق منها مالم يرزقه مع اجتهادهما ، وانما
هي مواهب وأقسام^(١) . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٨٩ - الصبر على التقوى

بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى لا تبغ عزها بذل
المعاصي ، وصبر عطش الهوى في مجير المشتبه وان امض
وأرمرض ، فاذا بلغت النهاية من الصبر فاحتكم وقل . فهو
مقام من لواقسام على الله لا يره .

قاله لولا صبر عمر ما انبسط يده بضرب الارض بالذرة ،
ولولا جِد انس بن النضر في ترك هواه . وقد سمعت من آثار
عزمته : لئن اشهدني الله مشهداً ليوين الله ما اصنع ،
فاقبل يوم أحد يقاتل حتى قتل فلم يعرف الا
بينائه . فلولا هذا العزم ما كانت للانبياس ، يوم « والله
لانكسر من الربيع^(٢) » وجهه ، بالله عليك تذوق حلاوة كَف
الكِف عن المنهي ، فانها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف

(١) الاقسام جمع قسم وهو التصيب

(٢) راجع القصة في حيرة ابن هشام

الآخرة ، ومنى اشتد عطشك الى مائهوى قابسط أتاامل الرجاء
الى من عنده الريّ الكامل ، وقل قد عيّل صبر الطبع في
سنيه العجاف ، فعجل لي العام ^(١) الذي فيه اغاث وأعصر .
بالله عليك تفكر فيمن قطع أكثر العمر في التقوى والطاعة
ثم عرضت له فتنة في الاخير ، كيف نطح مركبه الجرف
ففرق وقت الصعود .

أف والله للدنيا لابل للجنة إن أوجب نيلها اعراض
الحبيب ! انما نسب العامي باسمه وامم آييه ، فاما ذوو الاقدار
فالالقاء قبل الانساب .

قل لي من أنت وما عملك والى أي مقام ارتفع قدرك ،
يا من لا يصبر لحظة عمايشته . بالله عليك أتدري من الرجل ؟
الرجل والله من اذا خلا بما يحب من المحرم وقدر عليه
وتقلقل عطشاً اليه فَنَظَرَ الى نَظَرَ الحق اليه فاستحي من
اجالة همه فيما يكرهه ، فذهب العطش .

كأنك لا تترك لنا الا ما لا تشتهي ؟ أو ما لاتصدق الشهوة فيه ؟
أو ما لاتقدر عليه ؟ كذا والله عادتك إذا تصدقت اعطيت
كسرة لاتصلح لك ، أو في جماعة يمدحونك ؟ ههيات والله
لأنك ولايتنا حتى تكون معاملتك لنا خالصة . تبذل
اطاييك ، وتترك مشتياتك ، وتصبر على مكروهاتك ،

(١) السنة لا يام الجذب ومن ذلك قوله « است القوم » و« اصابتهم السنة »
والعام لا ياب الحصب ، اذكر آيات سورة يوسف .

مطأاً منك ان كنت معاملاً بأنك اجبر وماغربت الشمس (١).
 فان كنت غيباً رأيت ذلك قليلاً في جنب رضا حبيبك عنك ،
 وما كلاً منافع الثالث (٢).

٩٠ - إذا عليك بالتسليم

رأيت في العقل نوع منازعة لتطلع الى جميع حكم الحق
 عز وجل في حكمه ، فربما لم يتبين له بعضها مثل النقص بعد
 البناء ، فيقف متعبراً وربما انتهر الشيطان تلك الفرصة ،
 فوسوس اليه : أين الحكمة من هذا ؟

قلت له : احذر أن تخدع بامسكين ، فانه قد ثبت عندك
 بالدليل القاطع لما رأيت من اتقان الصانع حكمة الصانع ، فان
 خفى عليك بعض الحكم فلضعف ادراكك . ثم مازالت الملوك
 اسرار ، فمن انت حتى تطلع بضعفك على جميع حكمه .
 يكفيك الجمل (٣) وإياك إياك أن تتعرض لما يخفى عليك . فانك
 بعض موضوعاته وذرة من مصنوعاته . فكيف تتحكم على من
 صدرت عنه ، ثم قد ثبتت عندك حكمته في حكمه ومملكه ؟

(١) أي لم يته يوم العمل

(٢) أي الذي لا يرى نفسه عبد الله اجبراً . ولا عباً له مطلباً .

(٣) أي فهم جهة الامر . وقد تقدم هذا المعنى مراراً . وهو الطريق الآمن
 لمن يريد الوصول الى حقيقة الايمان بالقضاء والقدر .

خامل آلتك على قدر قوتك في مطالعة ما يمكن من الحكم ، فانه
سيورثك الدمش . وغض عما يخفي عليك فمقيق بذي البصر
الضعيف ألا يقاري (١) نور الشمس !

٩١ - مجاهدة النفس

أعجب الاشياء مجاهدة النفس ، لأنها تحتاج الى صناعة
عجيبه ، فان أقواماً اطلقوها فيما تحب ، فافقعتهم فيما كرهوا
وإن أقواماً بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها ، وظلموها .
وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم . فمنهم من أساء غذاءها فأثر ذلك ضعف
بدنها عن اقامة واجبها ، ومنهم من افردوها في خلوة أثمرت
الوحشة من الناس ، وآلت الى ترك فرض أو فضل من عبادة
مريض ، أو بر والدته ، وانما الحازم من تعلم منه نفسه الجد
وحفظ الاصول ، فإذا فسح لها في مباح لم تتعاسر أن تتعداه
فيكون معها كالمالك اذا مازح بعض جنده ، فانه لا ينبسط اليه
الغلام ، فان انبسط ذكر هبة السلطنة . فكذلك الحق يعطيها
حظها ويستوفي منها ما عليها .

٩٢ - لاتضيع ساعات العمر

رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً . إن طال

(١) أي يسألها بقوله . ووزن (فاعلة) بهذا المعنى قياسي ، يقال :
جاريته أي ساجته في الجري وكاتبته أي سابقتها في الكتابة . ورأيتني أي
سابقتها في الرمي .

الليل فيحديث لاينفع ، أو بقراءة كتاب فيه غزاةوسمر ، وان طال
النهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الاسواق
فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم ، وما عندهم خبر .
ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم في نعية الزاد
والتأهب للرحيل ، الا أنهم يتفاوتون ، وسبب تفاوتهم قلة
العلم وكثرته بما يمتفق في بلد الإقامة ^(١) ، فالمتيقظون منهم
يتطلعون الى الاخبار بالناق هناك ، فيستكثرون منه فيزيد
رجهم . والغافلون منهم يحملون ما اتفق ، وربما خرجوا لا مع
خفي ^(٢) . فكم من قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلساً .

فأله الله في مواسم العمر ، والبدارَ البدارَ قبل القوات ،
واستشهدوا العلم ، واستدلوا الحكمة ، وناقسوا الزمان ،
وناقشوا النفوس ، واستظهروا بالزاد . فكان قد جدا الحادي
فلم يفهم صوته من وقع دمع الندم .

٩٣ - تخليط العلماء والزهاد

أضر ما على المريض التخليط ، وما من أحد الا وهو

(١) يريد ببلد الإقامة الدار الآخرة ، اما الدنيا فهي دار ممر اليها .

(٢) بلا خفي ، اي انفردوا بانفسهم فتمرضوا للهالك يريد بذلك من لا يمشي
على هدى الشرع .

مريض بالهوى ، والحية عن رأس الدواء ، والتخليط بدم
المرض . وتخليط أرباب الآخرة على ضربين :

أحدهما تخليط العلماء ، وهو إما مخالطة الأضداد كالسلاطين
فانهم يضعفون قوى يقينهم كلما زادت المخالطة ، ويقدمون
دليلهم عند المريدن . فاني اذا رأيت طبيباً يخلط ويحميني
شككت أو وقت .

والثاني تخليط الزهاد ، وقد يكون بمخالطة أرباب الدنيا .
وقد يكون بحفظ التاموس في اظهار التوسع ، لاجتلاب محبة
العوام . فانه الله فان ناقد الجزاء بصير ، والاخلاص في
الباطن ، والصدق في القلب ، ونعم طريق السلامة ستر الحال .

٩٤ - يصف بعض شيوخه

لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة ، يتفاوتون في مقاديرهم في
العلم ، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه ، وان
كان غيره أعلم منه .

ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم
كانوا يتساعون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل . ويأخذون
على قراءة الحديث أجرة ^(١) ، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر

(١) فكيف ين يأخذ الاجرة على تلاوة القرآن ، ويتخذ ذلك مهنة يعيش
منها ، وقد نص ابن عابدين واقام الدليل على ان ذلك حرام . كما ان قراءة
القرآن بأنعام الفناء كما يقرأ اليوم لاجور ، نص على ذلك فقهاؤنا .

الجلاء وان وقع خطأ . ولقيت عبد الوهاب الانطاقي فكانت
على قانون السلف لم يسع في مجلسه غيبة ، ولا كان يطلب
اجراً على سماع الحديث ، وكنت اذا قرأت عليه أحاديث
الرفائق (١) بكى واتصل بكأوه ، فكنت وانا صغير السن
حيثئذ يعمل بكأوه في قلبي ، ويبنى قواعد . وكان على سمع
المشايع الذين سمعنا أوصافهم في النقل ، ولقيت الشيخ أبا
منصور الجواليقي ، فكان كثير الصمت ، شديد التحري
فيا يقول ، متقناً محققاً ، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر
بجوابها بعض علمائه فيتوقف فيها حتى يتيقن ، وكان كثير الصوم
والصمت . فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما
ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل
بالقول ، ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاج ،
فراحوا عن القلوب ، وبدد تبديدهم ما جمعوا من العلم ، فقل
الانتفاع لهم في حياتهم ، ونسوا بعد مماتهم ، فلا يكاد احد
أن يلتفت الى مصنفاتهم .

فأفقه الله في العلم بالعمل فإنه الاصل الاكبر والمسكين كل المسكين
من ضاع عمره في علم لم يعمل به ، ففاته لذات الدنيا وخيرات
الآخرة ، فقدم مقلساً على قوة الحجة عليه .

(١) هي ما يرقى القلب من الاخبار .

٩٥ - الخالق يميل ولا يميل

سبحان الملك العظيم الذي من عرفه خافه ، وما أمن
مكروه قط من عرفه .

لقد تأملت أمراً عظيماً أنه عز وجل يميل حتى كأنه يميل
فيرى أيدي العصاة مطلقة كأنه لآمانع ، فإذا زاد الانبساط
ولم ترعوا العقول أخذ أخذ جبار ، وإنما كان ذلك الأمهال
ليلو صبر الصابر ، وليلي في الأمهال للظالم ، فثبت هذا على
صبره ، ويمزى هذا ببيع فعله . مع أن هنالك من الحلم
في طي ذلك ما لا نعلمه ، فإذا أخذ أخذ عقوبة وأيت على
كل غلطة تبعة . وربما جمعت فضرب العاصي بالحجر الدامع .
وربما خفي على الناس سبب عقوبته فكيل : فلان من أهل الخير ما
وجه ماجرى له ؟ فيقول القدر : حدود لذنوب خفية صار
استيفاءها ظاهراً . فسبحان من ظهر حتى لاخطأ به ، واستوحى
كأنه لايعرف ، وأميل حتى تطمع في مسامحته ، وناقش حتى تحيرت
للعقول من مؤاخذته . لاحول ولا قوة إلا بالله .

٩٦ - الاشتغال بالعلم مع ترقيق القلب

تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به ، فإذا هو يقوي

القلب قوة ميل به الى نوع قساوة ، ولولا قوة القلب وطول
الامل لم يقع التشاغل به ، فاني اكتب الحديث أرجو أن
أرويه ، وأبتديء بالتصنيف أرجو ان الله ، فإذا تأملت
الى باب المعاملات^(١) قلّ الامل ، ورق القلب ، وجاءت
الدموع ، وطابت المناجاة ، وغشيت السكينة ، وصرت كأني
في مقام المراقبة . إلا ان العلم أفضل وأقوى حجة ، وأعلى
رتبة ، وان حدث منه ما شكوت منه . والمعاملة وان كثرت الفوائد
التي أثمرت إليها منها فإنها قريبة الى أحوال الجبان الكسلان ،
الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره ، وانفرد بعزله عن
اجتذاب الخلق الى ربه . فالصواب العكوف على العلم مع
تذيع النفس بأسباب المرفقات لتذيعاً لا يقدح في كمال التشاغل
بالعلم . فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن
أكثر زيارة القبور وأن احضر المحضرين . لأن ذلك يؤثر في
فكري ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم الى مقام الفكر في
الموت ، ولا أنتفع بنفسي مدة . وفصل الخطاب في هذا أنه
ينبغي ان يقاوم المرض بضده ، فمن كان قلبه قاسياً شديداً
القسوة وليس عنده من المراقبة ما يكفّه عن الخطأ قاوم ذلك

(١) يريد المعاملة مع الله - أي الذكر والعبادة ، لامعاملات الناس المعروفة

بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين . فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به بل ينبغي له أن يتشاغل بما ينسبه ذلك لينتفع بعيشه ، وليفهم ما يقف به ، وقد كان الرسول ﷺ يخرج وبسابق عائشة ، ويتلطف بنفسه فمن سار سيرته عليه الصلاة والسلام فهم من مضمونها ما قلته من التلطف بالنفس .

٩٧ - إفاقة المحتضر

أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته ، فإنه ينتبه انتبهاً لا يوصف ويقلق قلماً لا يجد ، ويتلطف على زمانه الماضي ، ويود لو ترك والتدارك ، ويصدق توبته على مقدار يقينه بالموت ، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف ^(١) ، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى ، فالعاقل من مثل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك . فإن لم يتهياً تصوير ذلك على حقيقته تخايلاً على قدر يقظته ، فإنه يكف كفة الهوى ويبعث على الجسد . فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه كان كالأسير لها ، كما روي عن حبيب

(١) أحسنت بذلك كله مرتين : مرة لا كادت أغرق في بحر بيوت ، ومرة لا أشرف بي المرض على الموت سنة ١٩٥٧ ووصفته في كتابي «من حديث النفس» ولودام لي ذلك الشعور لكنت من الصالحين . ولكنني انقسمت في خضم الحياة فلم أعد قادر على استنساخ ذلك النسيم . أسألو الله وليكم المنفرة

العجبي انه كان اذا أصبح يقول لامرأته : اذا مت اليوم
ففلان يغسلني ، وفلان يحملني .

وقال معروف لرجل : صل بنا الظهر .

فقال : إن صليت بكم الظهر لم أصل بكم العصر .

فقال : وكأنك تؤمل أن تعيش الى العصر . فعوذ بالله

من طول الامل . وذكر رجل رجلاً بين يديه بغية فجعل

معروف يقول له : اذكر القطن اذا وضعوه على عينيك .

٩٨ - المتيقظ يأخذ إشارات من كل ما يسمع

وبما أخذ المتيقظ بيت شعر فأخذ منه إشارة فانتفع بها ،

قال الجنيد : ناولني سري^(١) رقعة فيها مكتوب .

سمعت حادياً في طريق مكة شرفها الله تعالى يقول :

أبكي وما يدريك ما يبكي أبكي حذاراً أن تفارقني

وتقطعي حلي وتجريني

فانظر رحمك الله ووفقك الى تأثير هذه الايات عند سري

احب أن يطلع منها الجنيد على ما اطلع عليه ، ولم يصلح

للاطلاع على مثلها إلا الجنيد ، فان أقروا فهم كثافة طبع

وخشوة فهم . قال بعضهم لما سمع مثل هذه : إلام يشار بهذه ؟
إن كان إلى الحق فالحق عز وجل لا يشار إليه بلفظ تأنيث .
وإن كان إلى امرأة فأين الزهد ؟

ولعمري إن هذا حذاء أهل الغفلة إذا سمعوا مثل هذا ،
ولذلك ينهى عن سماع القصائد وأقوال أهل الفناء ، لأن الغالب
حل تلك الاييات على مقاصد النفس ، وغلبات الهوى ومن
أبن لنا مثل الجنيد وسرى ، وإذا وجدنا مثلاً فيها خيرات
بما يسعنا . وأما اعتراض هذا الكفيف الطبع فالجواب : أن
سرياً لم يأخذ الإشارة من اللفظ ، ولم يقس ذلك على مطلوبه
فيعتبره تأنيثاً أو تذكيراً ، وإنما أخذ الإشارة من المعنى ،
فكانه يخاطب حبيبته بمعنى الايات ، فيقول : ابكي حذاراً
من إغراضك وإبعادك . فهذا الحاصل له . وما التفت قط إلى
تذكير ولا إلى لفظ تأنيث فافهم هذا .

وما زال المتيقظون يأخذون الإشارة من مثل هذا حتى
كانوا يأخذونها من هذا الذي تقوله العامة ويلقبونه بسكان
وكان^(١) فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه
سمع امرأة تنشد :

غسلت له طول الليل فركت له طول النهار

(١) نوع معروف من الشعر الهامي أي انه كالرجل والموالي

خرج يعان غيري زلق وقع في الطين
 فأخذ من ذلك إشارة معناها : يا عبدي اني حسنت خلقك
 وأصلحت شأنك ، وقومت بنيتك ، فأقبلت على غيري ،
 فانظر عواقب خلافك لي .

وقال ابن عقيل : وسمعت امرأة تقول ، من هذا (الكان
 وكان) كلمة بقيت في قلبها (١) مدة :

كم كنت بالله أقل لك لذا التواني غائلة
 والقيح خير تبين بعد قليل
 قال ابن عقيل : فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور
 غدا تبين خايرها بين يدي الله تعالى .

٩٩ - مراقبة الله وترك الترخص

أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوع من أنواع الترخص ،
 فكنت كلما حصل شيء منه فأنني من قلبي شيء ، فكلما
 استنارت لي طريق التحصيل تجدد في قلبي ظلمة . فقلت : يا نفس
 السوء ، الاثم حراز القلوب ، وقد قال : استفت نفسك ، فلا
 خير في الدنيا كلها إذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب
 نوع كدر ، وإن الجنة لو حصلت بسبب يقدح في الدين أو في

(١) التعلق منها : التفكير فيها

المعاملة مألذت ، والنوم على المزابل مع سلامة القلب من الكدر ألذ من تكآت الملوك .

ومازلت أغلب نفسي قارة وتغلبني أخرى ، ثم تدعي الحاجة إلى تحصيل ما لا بد لها منه . وتقول : فما اتعدى في الكسب المباح في الظاهر .

فقلت لها : أوليس الورع يمنع من هذا .

قالت : بلى

قلت : اليس القسوة في القلب تحصل به .

قالت : بلى

قلت : فلا خير لك في شيء هذا ثمرة .

فخلوت يوماً بنفسي فقلت لها : ويحك اسمعي احداثك .

إن جمعت شيئاً من الدنيا من وجه فيه شبهة أفانت على يقين من إنفاقه ؟

قالت : لا

قلت : فالهنة أن يحظى به الغير ولا تتألمين إلا الكدر

العاجل ، والوزر الذي لا يؤمن . ويحك اتركي هذا الذي يمنع

منه الورع لأجل الله فعامله بتوكله ، وكأنك لا تريدن إلا تتركي إلا

ما هو محرم فقط أو ما لا يصبغ وجهه ، أو ما سمعت أن من

ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ؟ أما لك عبرة في أقوام جمعوا

فمازله سوام ، واملوا فما بلغوا منام ؟ كم من عالم جمع كتباً
 كثيرة ما انتفع بها ، وكم من منتفع ما عتده عشرة اجزاء ؟
 كم من طيب العيش لا يملك دينارين ، وكم من ذي قناطير منقوص ؟
 امالك فطنة تتلمح احوال من يترخص في وجه فيسلب منه من اوجه ؟
 ربما نزل المرض بصاحب الدار أو ببعض من فيها فانفق
 في سنته اضعاف ما ترخص في كسبه ، والمتقي معافى .
 فضجت النفس من لومي . وقالت : اذا لم اتعد واجب
 الشرع فما الذي تريد مني ؟

قلت لها : أضن بك عن الغبن وانت أعرف بباطن امرك .
 قالت : فقل لي ما أصنع .

قلت : عليك بالمراقبة لمن يراك ، ومثلي نفسك بحضرة
 معظم من الخلق ، فانك بين يدي الملك الاعظم يرى من
 باطنك ما لا يراه المعظمون من ظاهرك ، فغذي بالاحوط ،
 واحذري من الترخص في بيع اليقين ، والتقوى بعاجل الموى ،
 فان وقع الطبع بما تلقين فقولني له : مهلا ، فما انقضت مدة
 الاشارة ، والله مرشدك الى التحقيق ، ومعينك بالتوفيق .

١٠٠ - العقوبة بالمرصاد

مازلت اسمع عن جماعة من الاكابر ، وارباب المناصب ،

انهم يشربون الخمر ، ويفسقون ويظلمون ، ويفعلون أشياء
توجب الحدود فبقيت افكر أقول : متى يثبت على مثل هؤلاء
ما يوجب حداً ؟ فلو ثبت فمن يقيمه ؟

وأستبعد هذا في العادة لانهم في مقام احترام لاجل
مناصبهم ، فبقيت افكر في تعطيل الحد الواجب عليهم ، حتى
رأيانهم قد نكبوا وأخذوا مرات ، وموت عليهم المعائب ،
مقبول ظلمهم بأخذ أموالهم ، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد
الحبس الطويل ، والقيد الثقيل ، والذل العظيم . وفيهم من
قتل بعد ملاقة كل شدة ، فعلت أنه ما يحمل شيء .
فالحدّ الحذر فان العقوبة بالمرصاد .

١٠١ - من ادعى بغض الدنيا فهو كاذب

اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع ،
فمن ذلك حفظ ماله وطلب تنسيته والرغبة في زيادته ، لان
سبب بقاء الانسان ماله ^(١) فقد نهى عن التبذير فيه ، فقيل له
« ولا تنزو السفهاء أموالكم » وأعلم أنه سبب لبقائه « التي
جعل الله لكم قياماً ، أي قواماً لمعاشكم وقال عز وجل
« ولا تبسطها كل البسط » وقال تعالى « ولا تبذروا تبذيراً »

(١) انظر فصل (٣١)

وقال تعالى « لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ،
ومن فضيلة المال أن الله تعالى قال « من ذا الذي يقرض
الله قرضاً حسناً ، وقال تعالى « وأنفقوا في سبيل الله ، وقال تعالى
« ينفقون أموالهم ، وقال « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ،
وجعل المال نعمة وزكاته تطهيراً ، فقال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة
تطهرهم وتركهم بها ، وقال ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل
الصالح » . وقال : « مانعني مال كالأبي بكر »

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج الى التجارة ويترك
رسول الله ﷺ فلا ينهيه عن ذلك . وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه : « لأن أموت بين شعبي جبل اطلب كفاف
وجهي احب الى من أن أموت غازياً في سبيل الله ، وكان جماعة
من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون ، ومن حادات التابعين
سعید بن المسيب ، فمات وخلف مالا وكان يحتكر (١) الزيت
وما زال السلف على هذا . ثم تعرض نواب كالمرض يحتاج فيها
الى شيء من المال فلا يجد الانسان بدأ من الاحتيال في طلبته ،
فيبذل عرضه أو دينه ، ثم للنفس قوة بدنية عند وجود المال
وهو معدود عند الاطباء من الادوية ، حكمة وضعها الواضع
ثم نبغ اقوام طلبوا طريق الراحة فادعوا انهم متوكلة ، وقالوا
نحن لانسك شيئاً ، ولانترود لسفر ، ورزق الابدان يأتي .

(١) لا يعني الاحتكار بالمعنى المعروف اليوم فانه مذموم

وهذا على مضافة الشرع فإن رسول الله ﷺ نهي عن
إضاعة المال ، وموسى عليه السلام لما سافر في طلب الخضر
تزوّد ، ونبينا ﷺ لما هاجر تزود ، وأبلغ من هذا قوله
تعالى (وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى) ثم يدعي هؤلاء المتصوفة
بغض الدنيا فلا يفهمون ما الذي ينبغي أن ينفذ (١) ، ويرون
زيادة الطلب للمال حرصاً وشرهاً ، وفي الجملة انما اخترعوا
بآرائهم طريقاً فيما شئوا من الرهبانية اذا صدقوا ، وشئوا من
للبرجة اذا نصبوا شباك الصيد بالترهه فسوا ما يصلح لهم
من الارزاق فتوحاً .

قال ابن قتيبة في غريب الحديث في قوله ﷺ : واليد
العليا (٢) . قال هي المعطية . قال : فالمعجب عندي من قوم
يقولون هي الآخذة ، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوماً
استطابوا السؤال ، فهم محتجون للدعاء ، فأما الشرائع فإنها
بريئة من حالهم .

وفي الحديث : ضاق البلد بمواثي ابراهيم ولوط عليهما السلام
فافترقا . وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، ثم قد ند
طمعه في زيادة الاجر من موسى عليه السلام فقال : فإن

(١) وضع هذا المتن مراراً في النصول السابقة

(٢) اليد العليا خير من اليد السفلى

أُتِمَّتْ عَشْرًا مِنْ عِنْدِكَ « (١) ، وَكَانَ ابْنُ عَقِيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ :
مَنْ قَالَ إِنِّي لَا أَحِبُّ الدُّنْيَا فَهُوَ كَذَّابٌ ، فَإِنْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ لَا طَلِبَ مِنْهُ ابْنُهُ يَامِينَ قَالَ : « هَلْ آمَنَكُمْ عَلَيْهِ » .
فَقَالُوا : « وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » . فَقَالَ : خَذُوهُ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّالِفِ : مَنْ ادَّعَى بَغْضَ الدُّنْيَا فَهُوَ عِنْدِي
كَذَّابٌ إِلَى أَنْ يَثْبُتَ صَدَقُهُ ، فَإِذَا ثَبَتَ صَدَقَهُ فَهُوَ بِحَنُونٍ ،
وَقَدْ نَفَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ خَلْقًا مِنَ الْخَلْقِ عَنِ الْكَسْبِ ،
وَأَوْحَشُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، وَهُوَ دَأْبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ . وَإِنَّمَا
طَلَبُوا طَرِيقَ الرَّاحَةِ وَجَلَسُوا عَلَى الْفَتُوحِ . فَإِذَا شَبِعُوا رِقَصُوهُ
فَإِذَا انْهَضَ الطَّعَامَ أَكَلُوا . فَإِنْ لَاحَتْ لَهُمْ حِيلَةٌ عَلَى غَيْرِ
أُلْجِبُوا عَلَيْهِ دَعْوَةً ، إِمَّا بِسَبَبِ مَكْرٍ أَوْ بِسَبَبِ اسْتِغْفَارٍ ،
وَأُطِمْ الطَّامَاتُ ادَّعَاوُهُمْ أَنَّ هَذَا قُرْبَةٌ ، وَقَدْ انْعَقَدَ إِجْمَاعُ
الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَنْ ادَّعَى الرِّقَصَ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَفَرَ (٢) ، فَكَرَرُوا
أَنَّهُمْ قَالُوا : « مَبَاحٌ » ، كَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا ، وَهَذَا لِأَنَّ الْقُرْبَ
لَا تَعْرِفُ إِلَّا بِالْشَّرْعِ ، وَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ أَمْرٌ بِالرِّقَصِ وَلَا نَدْبٌ
إِلَيْهِ ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي مِنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرِيقُونَ الشَّمْعَ

(١) أَظُنُّ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَاجِبَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ يَمْنَعُ مِنْ إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَافِ .

(٢) ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عَابِدِينَ فِي الْحَاشِيَةِ (الْجُزْءُ الثَّالِثُ آخِرُ بَابِ الْمُرْتَدِّ)

وَفِي الْمُنَظُّومَةِ الْوَهَابِيَةِ :

وَمَنْ يَسْتَحِلُّ الرِّقَصَ قَالُوا بِكَفَرِهِ . وَلَا سِيَّاهُ بِالْأَفْ يَلْهُو وَيَزْمُرُ
وَالْمِرَادُ بِالرِّقَصِ مَا يَسِيُّ الْيَوْمَ بِالْأَفْ كَرُ ، قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَابِدِينَ وَبَيْنَهُ فِي الْحَاشِيَةِ أَوْضَحُ بَيَانٍ

في وجوه المردان وينظرون إليهم ، فإذا سئلوا عن ذلك
سغروا بالسائل فقالوا : نعتبر بخلق الله ، أفترام أقوى من
الني ^(١) حين أجلس الشاب الذي وفد عليه من وراء ظهره
وقال : « وهل كانت فتنة داوود إلا من النظر ^(٢) »

حيات لقد تلك الشيطان تلك الأزيمة ^(٣) فقادها إلى ما أراد
والعيب من يدم الدنيا وهو يأكل فيشبع ، ولا ينظر من أين
المطعم ، وما زال حاكم السلف يفتشون عن المطعم حتى كان
إبراهيم بن آدم يسهر هو وأصحابه ويقولون : مع من نعمل
غداً ؟ وكانت سرى السقطي يعرف بطيب الغذاء ، وله في
الروح مقامات . فبما قوم يتسبون بالصوفية يدعون اتساع
أوثك السادة ، ويأكلون من مال فلان . وهم يعرفون أصول
تلك الاموال ، ويقولون : « رزقنا » فواجباً إذا كان
الآكل لا يبالي به من أين ؟ ولا امتناع من شهوة ولا
تقل ، ولا يخلو الرباط ^(٤) من المطبخ ، ولا يتقطع لية ،
وأحد من مال قد عرف من أين هو ، والحمام دائر والمشي
يدق بدف فيه جلاجل ورفيقه بالشبابة ، وسعدى وليلى في
الانشاد ، والمردان في الشمع ، ثم يدم الدنيا بعد هذا ،

(١) قال الأستاذ الشيخ ناصر وهو المرجع اليوم في رواية الحديث في الشام :

هذا الحديث ضيف

(٢) الرباط التكية

(٣) جمع زمام

فقولوا لنا : من يتلى بالناس ، ولكن من مرت عليه
ورجنتهم ^(١) فانه أحسن منهم .

١٠٢ - عظمة الخالق

عرض لي في طريق الحج خوف من العرب ، فسرنا على
طريق خبير ، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلني ^(٢) ،
وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري . فصار يعرض لي عند
ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لأجدده عند ذكر غيرها ، فصحت بالنفس :
ويحك اعبري الى البحر وانظري اليه والى عجائبه بعين الفكر ،
تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه ، ثم اخرجني الى الكون
والتفتي اليه فإنك ترينه بالاضافة الى السموات والافلاك كذرة
في فلاة ، ثم جولي في الافلاك وطوفي حول العرش وتلمحي
ما في الجنان والنيران ، ثم اخرجني عن الكل والتفتي اليه ،
فانك تشاهدينه في قبضة القادر الذي لاتقف قدرته عند حد ،
ثم التفتي اليك فتلمحي بدايتك ونهايتك ، وتفكر في ما قبل
البداية ، وليس إلا العدم ، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب ،
فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى ؟
وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الاله العظيم ؟

(١) اي تدجيلهم :

اقال الله حين عبدوه كلوا اكل البهائم وارتصوا لي ؟

(٢) ترى وصفها في كتابي « من نفحات الحرم » لأنها متصلة بجبال « الملا »
التي مرت بها ووصفتها .

بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه
او تقابت من حبه ، غير أن الحس غلب فعمطت قدرة الخالق
عند رؤية جبل ، وان الفطنة لو تلحمت المعاني لدلت القدرة
عليه أوفى من دليل الجبل .

سبحان من شغل أكثر الخلق بما هم فيه مما خلقوا له سبحانه !

١٠٣ - وجوب الصبر على البلاء

لبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل . فلا بد للبتي
من الصبر الى أن ينتضي أوان البلاء ، فإن تقلقل قبل الوقت
لم ينفع التقلقل ، كما أن المادة اذا انحدرت الى عضو فلما لن
ترجع ، فلا بد من الصبر الى حين البطالة . فاستعجال زوال
البلاء مع تقدير مدته لا ينفع . فالواجب للصبر وإن كان الدعاء
مشروعاً ولا ينفع إلا به ، إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجل
بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم الى الحكيم ، ويقطع المواد
التي كانت سبباً لبلاء ، فان غالب البلاء أن يكون عقوبة
فأما المستعجل فمزاحم للدير وليس هذا مقام العبودية وإنما
المقام الأعلى هو الرضا والصبر هو اللازم ، والتلافي بكثرة
الدعاء نعم المعتمد ، والاعتراض حرام ، والاستعجال مزاحمة
للتدبير ، فافهم هذه الاشياء فلما تهون البلاء .

١٠٤ - فوائد الصبر

ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر أما عن المحبوب
أو على المكروهات ، وخصوصاً إذا امتد الزمان أو وقع
اليأس من الفرج ، وتلك المدة تحتاج الى زاد يقطع به سفرها ،
والزاد يتنوع من أجناس .

فمنه تلمح مقدار البلاء ، وقد يمكن أن يكون أكثر ^(١) .
ومنه أنه في حال فوقها أعظم منها مثل أن يبطل بفقد ولد
وعنده آخر منه ، ومن ذلك رجاء العوض في الدنيا .

ومنه تلمح الأجر في الآخرة .
ومنه التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلق فيها بمدحون
عليه والأجر من الحق عز وجل .

ومن ذلك أن الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه .
الى غير ذلك من الأشياء التي يقدحها العقل والفكر ، فليس
في طريق الصبر نفقة سواها ، فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه
ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل ^(٢) .

(١) مر هذا المعنى مراراً

(٢) شبه البلاء بطريق لم يبق منه الا مسيرة ليلة ونهايته الصباح

١٠٥ - قد تتأخر الاجابة بعد الدعاء

ينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا أن لا يفتلج في قلبه أمر من تأخير الاجابة او عدمها ، لان الذي اليه ^(١) أن يدعو والمدعو مالک حکيم ، فإن لم يجب فعل ما يشاء في ملكه ، وإن أقر فعل بمقتضى حكمته ، فالمعترض عليه في سره خارج عن حفة عبد ، مزاحم لمرتبة مستحق ، ثم ليعلم أن اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه . فربما سأل سبلاً سأل به وفي الحديث : « ان رجلاً كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فنهت به هاتف ، إنك انت غزوت لمرت ولان اسرت نصرت ، . فإذا سلم العبد بحكماً لحكمته وحكمته ، وأيقن أن الكل ملكه ، طاب قلبه قضيت حاجته أو لم تقص .

وفي الحديث : « مامن مسلم دعا الله تعالى الا وأجابه . فاما أن يعطها واما أن يؤخرها ولما أن يدخرها له في الآخرة . . فإذا رأى يوم القيامة ان ما اوجب فيه قد ذهب ومالم يجب فيه قد بقي ثوابه ، قال : لبتك لم تجب لي دعوة قط .

(١) لعبد ، اى ليس من الامر الا ان يدعو

فانهم هذه الاشياء وقد سلم قلبك من أن يختلج فيه
ربب أو استعجال .

١٠٦ - العلماء أفضل من الزهاد

من أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزهاد فليتنظر في رتبة
جبريل وميكائيل ومن خص من الملائكة بولاية تتعلق بالخلق ،
وباقى الملائكة قيام لتعبد في مراتب الرهبان في الصوامع^(١) . وقد
حظي اولئك بالتقريب على مقادير علمهم بالله تعالى . فاذا مر
أحدهم بالوحي انزعج أهل السماء حتى يخبرهم بالخبر ، فاذا فزع
عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق . كما اذا
انزعج الزاهد من حديث يسمعه سأل العلماء عن صحته ومعناه .
فسبحان من خص الخصوص بخصائص شرفوا بها على جنسهم ،
ولاخصيصة أشرف من العلم . بزيادته صار آدم مسجودا له
وبنتصانه صارت الملائكة ساجدة . فأقرب الخلق من الله العلماء .
وبس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه وإنما ينال
معناه من تعلّمه للعلل به ، فكلمة دله على فضل اجتهد في
نيه وكلمة نهاه عن نقص بالغ في مباحثته ، فعندئذ يكشف
العلم له سره ، ويسهل عليه طريقه ، فيصير كمنجذب بحث
الجاذب فاذا حركه عجل في سيره . والذي لا يعمل بالعلم لا يطلعه

(١) شبه انقطاعهم لعبادة بانتطاع الرهبان ، لا أن الرهبان كالملائكة ولأنهم
على حق ، الحق اليوم ماجاه به خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان كل
رسول في إمامه على حق ، صلوات الله عليهم اجمعين .

العلم على غوره ، ولا يكشف له عن مره فيكون كمجذوب
لجاذب جاذبه . فافهم هذا المثل وحسن قصدك وإلا فلا تتعب .

١٠٧ - الاعتدال بين الدنيا والآخرة

اعلم أن أصلح الامور الاعتدال في كل شيء واذا رأينا
أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير اعمالهم ،
امرتهم بذكر الموت والقبور والآخرة . فاما اذا كان العالم
لا يغيب عن ذكره الموت وأحاديث الآخرة تقرأ عليه وتجري
على لسانه ، فتذكره الموت زيادة على ذلك لا تفيد الا انقطاعه
بمرة . بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى ،
الكثير الذكر للآخرة ، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد
نفس أمه قليلا فيصنف ويعمل أعمال خير ، ويقدر على طلب
ولد . فاما اذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه اكثر
من مصلحته ، ألم تسمع أن النبي ﷺ سابق عائشة رضي الله عنها
فسبقته ، وسابقها فسبقها ، وكان يمزح ويشاغل نفسه . فان مطالعة
الحقائق على التحقيق تفسد البدن وترجع النفس . وقد روي عن
احمد بن حنبل رحمه الله عليه : أنه سأل الله تعالى ان يفتح
عليه باب الخوف ففتح عليه فخاف على عقله . فقال الله أن
يرد ذلك عنه .

قتأمل هذا الأصل فإنه لا بد من مغالطة النفس وفي ذلك
صلاحها والله الموفق والسلام .

تم الجزء الأول
وبليه الجزء الثاني وأوله
١٠٨ - طلب معالي الأمور

من أجل فكره الصافي فله على طلب أشرف المقامات ،
ونهاه عن الرضي بالنقص في كل حال . وقد قال أبو الطيب المتقي :
ولم أر في عيوب الناس عيباً . كنقص القادرين على التمام
فينبغي للعاقل ان ينتهي الى غاية ما يمكنه ، ولو كانت
يتصور للأدمي صعود السموات لرأيت من اتبع التفاضل وضياء
بالارض ، ولو كانت النيرة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصود في
تحصيلها في حضيض ، غير أنه اذا لم يمكن ذلك ينبغي ان
يطلب المكنى ، والصورة الجيدة عند الحكماء خروج النفس الى
غاية كمالها المكنى لها في العلم والعمل . وانا اشرح من ذلك
ما يدل مذكوره على مفقده .

أما في البدن ، فليست الصورة دأمة تحت كسب الأدمي
بل يدخل تحت كسبه تحسينها وتزيينها ، فبيح العاقل إهمال
نفسه وقد نهى الشرع على الكل بالبعض . فأمر بعض الاطفاار
وتتف الأبط ، وحلق العانة ، ونهى عن أكل النوم والصل
التي لاجل الرائحة . وينبغي له ان يقيس على ذلك ويطلب

غاية النظافة ونهاية الزينة ، وقد كان النبي ﷺ يعرف بحبسه
بريح الطيب فكان الغاية في النظافة والنزاهة ، ولست أمر
بزيادة التشف الذي يستعمله الموسوسون أو المترفون ولكن
التوسط هو المأمور . ثم ينبغي له ان يرفق بيده الذي هو
واحد ولا ينقص من قوته فتتقص قوتها . ولست أمر
بالشبع الذي يوجب الجشاء إنما أمر بالتوسط فإن قوى الأدمي
كعين جارية كم فيها من منفعة لصاحبها ولغيره ، وبين حائماً
ولا يلتفت الى قول الموسوسين من المتزهدين الذين جدوا في
التقليل فضعفوا عن الفرائض ، وليس ذلك من الشرع ولا نقل
عن الرسول ﷺ ولا أصحابه .

إنما كان الرسول ﷺ وأصحابه اذا لم يجدوا جاعوا ،
وربما آثروا فصبوا ضرورة ، وكذلك ينبغي ان ينظر لهذه
الراحة في علفها ، قرب لغة منعت لغات ، فلا يعطها ما يؤذيها
بل ينظر لها في الاصلاح ، ولا يلتفت لمزهد يقول : لا أبلغها
الشهوات ، فإن النظر ينبغي ان يكون في رحل الطعام ،
وأخذ ما يصلح بمقدار .

ولم ينقل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه رضي الله عنهم
ما أحدثه الموسوسون في ترك الشهوات على الإطلاق ، إنما

نقل عنهم تركها لسبب . إما للنظر في حلها ، او للخوف من مطالبة النفس بها في كل وقت ويجوز ذلك .

وينبغي له أن يجتهد في التجارة والكسب ليفضل على غيره ولا يفضل غيره عليه ، وليبلغ من ذلك غاية لا تمتعه عن العلم ، ثم ينبغي له ان يطلب الغاية في العلم ومن أفتح النقص التقليد فإن قويت همته وقته الى ان يختار لنفسه مذهباً ولا يتذهب لأحد^(١) ، فإن المقلد أعمى يقوده مقلده . ثم ينبغي أن

(١) اي يستمد بالعلم والدأب ليصل الى القدرة على الاجتهاد وترك التقليد لا ان يجتهد لنفسه وهو لا يعرف من عدة الاجتهاد الا حفظ الاحاديث او معرفة مكان وجودها والبحث في كتب الرجال عن احوال رواها .
والناس في هذه المسألة بين مفرط في اتباع المذاهب لا يفرق بين الحكم المؤيد بالنس الصريح وما هو رأي الفقيه . وبين مفرط فيها يتركها جملة ويحاول ان يأخذ من الاحاديث رأساً ولولم يكن عنده ادوات الاخذ من الحديث .
والحق ان على المسلم ان يتفقه اولاً على مذهب معين ، فيعرف احكام دينه ، ثم ينظر في دليها ويحاول ان يشمل مايعين على معرفة طرق الاستدلال وقوة الدليل ثم ينظر . فان رأى دليلاً ثابتاً اقوى من دليل مذهبه اخذ به ، وقد بين ابن عابدين في اول الحاشية ان الحنفى المقلد الذي يجد حديثاً صحيحاً على خلاف مذهبه عليه ان يأخذ به (لاسيما في المبادات) ولا يخرج في ذلك عن كونه حنفياً .
والله قد اوجب على المسلم اتباع الكتاب والسنة ، ولم يلزمه بذهب من المذاهب الاربعة ولا غيرها ، وما التقليد الا رخصة المأجور عن الاخذ من الكتاب والسنة .
والتأخرون الذين قالوا باتباع احد المذاهب الاربعة انما قالوا ذلك لما رأوا من غلبة السجز على الناس ، وللا يصير الامر فوضى ، كل واحد يدعى الفهار اباً حفيظة او الشافعى كما هي الحال الآن .

يطلب القابة في معرفة الله تعالى ومعاملته ، وفي الجملة لا يترك
فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلها . فإن الفُتُوح بما نزل المبارك^(١)
حالة الارافل .

فكن رجلاً رجلاً في الثرى وهامة همته في الثريا
ولو أمكنك عبور^(٢) كل أحد من العلماء والزهاد فافعل ،
فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل ، وما قعد من قعد إلا لدناءة
الهمة وخساستها . واعلم أنك في ميدان سباق والاورقات
تنتهب . ولا تخلد الى كسل . فما فات من فات إلا بالكسل ،
ولا نال من نال إلا بالجد والعزم ، وأن الهمة لتغلي في القلوب
غليان مافي القدور ، وقد قال بعض من سلف :

ليس لي مال سوى كرمي فيه أمني من العدم
ففعت نفسي بمارزقت وتطت في العلامي

١٠٩ - منفعة المال

ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن
الناس ، فإنه اذا ضم الى العلم حيز الكمال ، وأن جمهور
العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا الى مالا بد منه ،

وقل الصبر قد دخلوا مداخل شائتهم وإن تأولوا فيها (١) ، إلا
 أن غيها كان أحسن لهم ، فالزهري مع عبد الملك ، وأبو
 حبيدة مع طاهر بن الحارث ، وابن أبي الدنيا مؤدب المعتمد .
 وابن قتيبة صدر كتابه بمدح الوزير . وما زال خلف من
 العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم .
 وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل فانهم فقدوا من
 قلوبهم وكمال دينهم أكثر مما قالوا من الدنيا . وقد رأينا جماعة
 من المنصوفة والعلماء يغشون الولاية لاجل نيل مافي أيديهم .
 فمنهم من يداهن ويرائي ، ومنهم من يمدح بما لا يجوز ، ومنهم
 من يسكت عن منكرات الى غير ذلك من المداهنات .
 وسببها الفقر ، فقلنا أن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون في
 الابتعاد عن المال الظلة ، ولم نر من صح له هذا الا في أحد رجلين :
 إما من كان له مال كسبه بن السبب كات يتجر في الزيت
 وغيره ، وسفيان الثوري كانت له بضائع ، وابن المبارك
 وإمامنا كان شديد الصبر فتوعاً بما وزق وإن لم يكفه كبر
 الخافي ، وأحمد بن حنبل .

ومنى لم يجد الانسان كصبر هذين ، ولا كمال أولئك ، فالظاهر
 تطلبه في الحزن والآفات ، وربما تلف دينه .

فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للفني عن الناس ، فانه
يجمع لك دينك ، فمأربنا في الأغلب منافقاً في الدين والتردد
والتنخسع ولا آفة طرأت على عالم إلا يحب الدنيا ، وغالب ذلك
الفقر ، فان كان من له ما يكفيه ثم يطلب بتلك الخاطلة الزيادة ،
فذلك معدود في أهل الشره ، خارج عن حيز العلماء ، نعوذ بالله
من تلك الأحوال .

١١٠ — الفقه أفضل العلوم

أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر الى ثمرته ، ومن تأمل ثمرة
الفقه علم أنه أفضل العلوم ، فان أبواب المذاهب فاقوا بالفقه الخلائق
أيداً ، وان كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو
بالحديث أو باللغة .

واجتبر هذا بأهل زماننا ، فانك ترى الشاب يعرف مسائل
الخلايف الظاهرة فيستغني ، ويعرف من حكم الله تعالى في الحوادث
ما لا يعرفه التحرير من باقي العلماء ، وكم رأينا مبرزاً في علم القرآن
أو في الحديث أو في التفسير أو في اللغة لا يعرف مع الشيخوخة
معظم أحكام الشرع ، وربما جهل علم ما ينوبه في صلاته .

على أنه ينبغي للفقهاء ألا يكون أجنياً عن باقي العلوم ، فانه

لا يكون فقيهاً ، بل يأخذ من كل علم بحظ ، ثم يتوفر على الفقه
فانه عز الدنيا والآخرة .

١١١ - حفظ الفروع وتضييع الأصول

رأيت كثيراً من الناس يتعززون من رشاش نجاسة ولا
يتعاشون من غيبة ، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات
الربا ، وينهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت ، في أشياء
يطول عذرها من حفظ فروع وتضييع أصول ، فبحثت عن سبب
ذلك ، فوجدته من شيئين :

أحدهما العادة ، والثاني غلبة الهوى في تحصيل المطلوب ، فانه قد
ينغلب فلا يترك سمماً ولا بصراً .

ومن هذا القبيل أن إخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت
المنادي ، « إنكم لسارقون » : « لقد علمتم ما جئنا لنفسد في
الأرض وما كنا سارقين » ، فجاء في التفسير أنهم لما دخلوا مصر
كبوأفواه لإبلهم لثلاثتناول ما ليس لهم ، فكأنهم قالوا: قد رأيتم
ما صنعنا بابلنا فكيف نسرق ؟ ونسوا هم تفاوت ما بين الزرع
واختطاف أكلة لا يملكونها ، وبين القاء يوسف عليه السلام في الجب
وبيعه بثمن بخس .

وفي الناس من يطيع في صفار الأمور دون كبارها ، وفيما

كُنْفَتُهُ عَلَيْهِ خَفِيفَةٌ أَوْ مَعْتَادَةٌ ، وَفِيهَا لَا يَنْقُصُ شَيْئاً مِنْ عَادَتِهِ فِي مَطْعَمٍ وَمَلْبَسٍ .

نَرَى أَقْوَاماً يَأْخُذُونَ بِالرَّيَا وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : كَيْفَ يَرَانِي عَدُوِّي بَعِيْنٌ إِنِّي بَعْتُ دَارِي ، أَوْ تَغْيِيرَ مَلْبُوسِي وَمُرْكُوبِي ! وَنَرَى أَقْوَاماً يَوْمُسُونَ فِي الطَّهَارَةِ ، وَيَسْتَعْمِلُونَ الْكَثِيرَ ، وَلَا يَتَحَاشَوْنَ مِنْ غِيْبَةٍ ، وَأَقْوَاماً يَسْتَعْمِلُونَ التَّائَوِيلَاتِ الْفَاسِدَةَ فِي تَحْصِيلِ أَغْرَاضِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهَا لَا تَجُوزُ ، حَتَّى إِنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالتَّعْبُدِ أَعْطَاهُ رَجُلٌ مَالًا لِيُنِي بِهِ مَسْجِدًا ، فَأَخَذَهُ لِنَفْسِهِ وَأَنْفَقَ عَوْضَ الصَّحِيْحِ قَرَارَةً ، فَلَمَّا احْتَضَرَ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ : اجْعَلْنِي فِي حُلِّ فَانِي فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا .

وَنَرَى أَقْوَاماً يَتْرَكُونَ الذَّنُوبَ لِبُعْدِهِمْ عَنْهَا ، فَقَدْ أَلْفَوْا التَّرِكَ ، وَإِذَا قَرَّبُوا مِنْهَا لَمْ يَتَّكِفُوا ^(١) ، وَفِي النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الْفَنُونِ عَجَائِبُ يَطُولُ ذِكْرُهَا .

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ خُلُقًا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ كُنُوا يَحْمِلُونَ ثِقَلَ التَّعْبُدِ فِي دِينِهِمْ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ وَعَرَفُوا صِحَّتَهُ لَمْ يَطْبِقُوا مَقَاوِمَ أَهْوَائِهِمْ فِي مَحْوِ رِيَاسَتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ قَبِضَ فَانُهُ عَرَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْأَدِلِّ ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَقَاوِمِ هَوَاهُ وَتَرَكَ مَلِكُهُ ، فَالَهُ اللَّهُ فِي تَضْيِيعِ الْأَصُولِ ، وَمِنْ أَهْمَالِ مَرْحِ الْهَوَى ، فَانُهُ أَنَّ أَهْمَاتِ مَاشِيَةِ نَفْسِهِ فِي زُرُوعِ التَّقَى ، وَمَا مِثْلُ الْهَوَى إِلَّا كَسَمْعٍ فِي عُنْقِهِ سَلْسَلَةٌ فَانِ

(١) لِذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الْإِبْتِعَادُ عَنْ فَوَاطِنِ الْفِتَنِ ، وَأَسْبَابِ الْأَهْوَاءِ ، بِذَلِكَ يَسْتَرِجُ قَلْبُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَنْجُو مِنَ الْمَذَابِ فِي الْآخِرَةِ .

استوثق منه خابطه كفته ، وربما لاحت له شهراته الغالبة عليه فلم
تطاولها السلسلة فأفلت .

على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة ، ومنهم
من يصكه بخيط ، فينبغي للعاقل أن يحذر شياطين
الهوى ، وأن يكون بصيراً بما بقوى عليه من أعدائه ، وبمن
يقوى عليه .

١١٢ - لا تثق باحد بما تعاشره

من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال الى الاصدقاء فان أشد
الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المتقلب عدواً ، لأنه قد اطلع على
خفي السر ، قال الشاعر :

احذر عدوك مودة واحذر صديقك ألف مره

فلربما انقلب الصديق فكان أدرى بالضره

واعلم أن من الأمر الموضع في النفوس الحسد على النعم ، أو
القطعة وسب الرضا ، فاذا رأك من يعتدك مثيلاً له وقد اوثقت
عليه فلا بد أن يتأثر وربما حسد ، فان إخوة يوسف عليهم السلام من
هذا الجنس جرى لهم

فان قلت : كيف يبقى الانسان بلا صديق ؟

قلت لك : أتراك ما تعلم أن المجانس مجسد ، وأن أكثر
العوام يعتقدون في العالم أنه لا يتبسم ولا يتناول من شهوات الدنيا
شيئاً ، فإذا رأوا بعض انبساطه في المباح هبط من أعينهم ، فإذا
كانت هذه حالة العوام ، وتلك حالة الخواص ، فمع من تكون
المعاشرة ؟ لا بل والله ما تصح المعاشرة مع النفس لأنها متلونة ،
وإس إلا المدارة لخلق والاحتراز منهم ^(١) ، واتخاذ المعاوف من
غير طمع في صديق صادق ، فان ندر فليكن غير مماثل ، لأن
الحسد إليه ^(٢) أسبق ، وليكن مرفقاً عن ربة العوام ، غير طامع
في نيل مقامك ، وإن كانت معاشرة هذا لا تشي لأف المعاشرة
يلبني أن تكون بين العلماء المجانسين ، لزهم من الاشارات في
الخالطة ما تطيب به الجالسة ، ولكن لاسيلى الى الوصال ^(٣) ، ومثل
هذه الحال انك ان استخدمت الافكباء عرفوا باطنك ، وان
استخدمت الابل انعمكت مقاصدك ، فاجعل الافكباء لخوائبك
الخارجة ، والبله لخوائبك في منزلك لتلا يعلموا أسرارك ،
واقنع من الأصدقاء ، بمن وصفته لك ، ثم لا تلق إلا متدبراً

(١) من كلام عمر : خالطوا الناس وزابلوم .

(٢) أي الى المال .

(٣) كان في البشارة شيئاً من تحريف النسخ .

درج الحذر ، ولا تطلعه على باطن يمكن أن يُستر عنه ، وكن كما يقال عن الذئب :

ينام بأحدى مقلتيه ويستمى بأخرى الأعادي فهو يقظان هاجع

١١٣ - على طالب العلم كسب المعاش

رأيت جماعة من أفنى أوائل عمره وريعان شبابه في طلب العلم ، صَبَرَ على أنواع الأذى ، وهجر فنون الراحة ، أنفة من الجهل ورفيلته ، وطلباً للعلم وفضيلته ، فلما نال منه طرفاً رفعه عن مراتب أبواب الدنيا ومن لا علم له إلا بالعاجل ، ضاق به معاشه ، فسافر في البلاد يطلب من الأراذل ، ويتواضع للسفلة وأهل الدناءة والمُكَّاس^(١) وغيرهم ، فغاطبت بعضهم وقلت : ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التي صهرت لأجلها ، وأظلمات نهارك بسببها ، فلما ارتفعت وانتفعت عدت إلى أسفل حافلين ؟

أما بقي عندك ذرة من الأنفة تنبويها عن مقامات الأراذل ، ولا معك يسير من العلم يسير بك عن مناخ الهوى ،

(١) اصحاب الكوس . والمراد بالكوس هنا الخطالم بأنواعها كلها .

ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بها زمام النفس عن مراعي
السوء ؟

غير أنه تبين لي أن سهرك وقعبك كأنه كان لنيل الدنيا ، ثم
اني أراك تزعم أنك تريد شيئاً من الدنيا تستعين به على طلب العلم .
فاعلم أن التفاتك الى نوع كسب تستغني به عن الأراذل أفضل من
التزبد في علمك ، فلو عرفت ما ينقص به لم تر ما قد عزمت عليه
زيادة مما يحتوي عليه هذا العزم : السفر الذي كله مخاطرة بالنفس ،
وبذل الوجه الذي طالما صبن لمن لا يصلح التفات مثلك الى مثله ،
وبعيد أن تقنع بعد شروءك في هذا الأمر بقدر الكفاف ، وقد
علمت ما في السؤال بعد الكفاف من الإثم ، وأبعد منه أن تقدر
على الورع في المأخوذ ، ومن لك بالسلامة والرجوع الى الوطن ،
وكم رمى قفر في بواده من هالك ، ثم ما يحصله يغني ويبقي منه
ما أعطى ، وعيب المتقين إياك ، واقتداء الجاهلين بك ، وبكفيك
انك عدت على ما علمت من ذم الدنيا بشينه إذ فعلت ما يناقضه ،
خصوصاً وقد مر أكثر العمر ، ومن أحسن فيما مضى يحسن
فيما بقي .

١١٤ — طريق الدرس لطالب العلم

رأيت الشرّ في تحصيل الاشياء بفوت الشرّ مقصودة .

وقد رأينا من كان شهماً في جمع المال فحصل له الكثير منه وهو
حريص على الأزيادة ، ولو فهم علم أن المراد من المال انفاقه
في العمر ، فإذا أنفق العمر في تحصيله فأت المتصور أن جميعا ،
وكم رأينا من جمع المال ولم ينتفع به فأبقياه لغيره وأبقى نفسه كما
قال الشاعر :

كدودة الفز ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

وكذلك رأينا خلقاً كثيراً يحرصون على جمع الكتب فينفقون
أهمادهم في كتابتها ، وكذاب أهل الحديث ينفقون الأعمار في
النسخ والسامع إلى آخر العمر ، ثم يتقسون ، فمنهم من يتشاكل
بالحديث وعلمه وتصحيحه ولعله لا يفهم جواب حادثة ، ولعله عنده
حديث وأسلم سألها الله ، منة طريق .

وقد حكى لي عن بعض أصحاب الحديث أنه سمع جزء ابن عرفة
من مئة شيخ ، وكانت عنده سبعون نسخة ، ومنهم من يجمع
الكتب ويسمها ولا يدري ما فيها لا من حيث صحتها ، ولا من
فهم معناها ، فتراه يقول الكتاب الفلاني سماعى وعندي به نسخة ،
والكتاب الفلاني والفلاني فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهم
صحيحه من سلبه ، وقد حده اشتغاله بذلك عن المهم من العلم
فهم كما قال الخطيب :

زوامل للاخبار لاعلم عندها بتلقاها الا تكلم الا بامر
 لمرك ما يدري البعير اذا غدا بأوساقه او راح ما في الفرائد (١)
 ثم ترى منهم من يتصدر ويفتقر الزمان الى تصدره الرواية
 فيمد يده الى ما ليس من شغلته ، فان اتقى خطأ ، وإن تكلم
 في الاصول خلط ، ولو لا اني لا أحب ذكر الناس لذكرت
 من اخبار كبار علمائهم وما خلطوا ما يعتبر به ، ولكنه لا يحق
 على المحقق حالهم .

فان قال قائل : اليس في الحديث : « منومان لا يشبعان »
 طالب علم وطالب دنيا .

قلت : أما العالم فلا أقول له اشبع من العلم ،
 ولا اقتصر على بعضه ، بل أقول له قدم اليهم فإن العاقل من
 قدر عمره وعمل بمقتضاه . وإن كان لاسيلا الى العلم بمقدار العمر
 غير انه يبني على الاغلب . فان وصل فقد أعد لكل مرحلة زادة ، وإن
 مات قبل الوصول فحسبه ذلك ، فاذا علم العاقل أن العمر قصير
 وأن العلم كثير ، فقيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن
 يتشاغل مثلا بسماع الحديث ونسخه ليحصل كل طريق ، وكل
 رواية ، وكل غريب . وهذا لا يفرغ من مقصوده منه في
 خمسين سنة خصوصاً ان تشاغل بالنسخ ، ثم لا يحفظ القرآن .
 أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث .

(١) الاوساق جمع وسق : الحمل . والفرائد جمع فريدة : الكيس والحوال

أو بالخلاف في الفقه ولا يعرف النقل^(١) الذي عليه مدار المسألة.
فإن قال قائل : فدبر لي ما تختار لنفسك .
فأقول : ذو الهمة لا يخفى من زمان الصبي كما قال
حفيان بن عيينة :

قال لي أبي وقد بلغت خمس عشرة سنة ، إنه قد انقضت
عنتك شرائع الصبا فاتبع الخير تكن من أهله . فجعلت وصية
أبي قبة أميل إليها ولا أميل عنها .

ثم قبل شروعي في الجواب أقول : ينبغي لمن له أفقه أن
يأتى من التقصير الممكن دفعه عن النفس ، فلو كانت النبوة
مثلاً تأتي بكسب لم يجوز له أن يقتنع بالولاية^(٢) ، أو تصور
أن يكون مثلاً خليفة لم يحسن به أن يقتنع بامارة ، ولوضح
له أن يكون ملكاً لم يرض أن يكون بشراً^(٣)

والمقصود أن ينتهي بالنفس الى كمالها الممكن لها في العلم
والعمل ، وقد علم قصر العمر وكثرة العلم فيبتدي بالقرآن
وحفظه^(٤) ، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليه بذلك
منه شيء ، وإن صح له قراءة القراءات السبع وأشياء من
النحو وكتب اللغة ، ابتداءً باصول الحديث من حيث النقل

(١) أي الدليل النقلى : : الآية أو الحديث

(٢) انظر الفصل « ١٠٨ »

(٣) نسي المؤلف أنه فضل فيما مضى من النصول البشر على الملائكة !!

(٤) انظر الفصل « ١٢٠ » و « ١٢١ »

كالصالح والمساكين والسفن ، ومن حيث علم الحديث كعمرة
 الضعفاء والاسماء ، فليُنظر في أصول ذلك ، وقد رتبت العلماء
 من ذلك ما يستغني به الطالب عن التعب ، ولينظر في التواريخ
 ليعرف ما لا يستغني عنه كنسب الرسول ﷺ وأقاربه وأزواجه
 وما جرى له ، ثم ليقبل على الفقه فليُنظر في المذهب والخلاف
 وليكن اعتماده على مسائل الخلاف فليُنظر في المسألة وما تحتوي
 عليه فيطلبه من مظانه ، كتفسير آية وحديث وكلمة لغة ،
 ويتشغل بأصول الفقه وبالفرائض . وليعلم أن الفقه عليه مدار
 العلوم ^(١) ويكفيه من النظر في الأصول ^(٢) ما يستدل به على
 وجود الصانع ، فإذا أثبت بالدليل وعرف ما يجوز عليه بما
 لا يجوز ، وأثبت إرسال الرسل وعلم وجوب القبول منهم ،
 فقد احتوى على المقصود من علم الأصول فإن اتسع الزمان
 للتزيد من العلم فليكن من الفقه فانه لا تقع ومهما فسح له في
 المهل فأمكنه تصنيف في علم فانه يخلف بذلك خلفاً صالحاً
 مع اجتاده في التسبب الى اتخاذ الولد .

ثم يعلم ان الدنيا مَعْبَرَةٌ فليتنفث الى فهم معاملة الله عز
 وجل ، فان مجموع ما حصله من العلم يبدله عليه ، فاذا تعرض

(١) انظر الفصل « ١١٠ »

(٢) يريد علم اصول الدين وهو التوحيد لا علم اصول الفقه

تحقيق معرفته ووقف على باب معاملته قل " أن يقف صادق
 إلا ويغيب الى مقام الولاية ، ومن أريد وفق .
 وإن لله عز وجل ، أقواماً يتولى تربيتهم ويبيعهم اللهم
 في زمن الطفولة مؤدباً وبسي العقل ، ومقوماً ، ويقال له
 اللهم ، ويتولى تأديبهم وتنقيفهم ، ويهيئ لهم اسباب القرب
 منه ، فإن لاح قاطع قطعهم عنه . وإن تعرضت بهم فتنة
 دفعها عنهم . فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم ، ونعوذ به
 من خذلان لا ينفع معه اجتهاد .

١١٥ - تقوى الله في الخلوات

إن الخلوة تأثيرات تبين في الخلوة ، كم من مؤمن بالله عز
 وجل يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهي خذراً من عقابه ،
 أو رجاء لثوابه ، أو إجلالاً له ، فيكون بذلك الفعل
 حكاية طرح عوداً هندياً على حجر فيفوح طيبه فيمتشقه
 الحلائق ، ولا يدرون أين هو . وعلى قدر الجاهدة في
 ترك ما يقوي محبته ، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب
 التروك يزيد الطيب ، وينفاوت تفاوت العود ، فتري عيوب

الخلق تعظم هذا الشخص والسنتهم تمدحه ولا يعرفون لم ؟
ولا يدرون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته وقد غند هذه
الأراييع بعد الموت على قدوها ، فمنهم من يذكر بالخير مدة
مديدة ثم ينسى ، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم يخفى ذكره
وقبره . ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً .

وعلى عكس هذا من هاب الخلق ، ولم يحترم خلوته بالحق ،
فانه على قدر مبارزته بالذنوب وعلى مقادير تلك الذنوب ، تقوح
منه ربيع الكراهة فتتمتته القلوب ، فان قل مقدار ماجنى قل
ذكر الألسن له بالخير ، وبقي مجرد تعظييه . وإن كثر كان
قصارى الامر سكوت الناس عنه لا يمدحونه ولا يذمونه . ورب
خالٍ بذنوب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا
والآخرة ، وكأنه قيل له : ابقى بما آثرت ، فيبقى أبداً في
التضييط . فانظروا إخواني إلى المعاصي أثرت وعثرت . قال
أبو الدرداء رضي الله عنه : إن العبد ليخالو بمعصية الله تعالى
فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعرون .

فتلتحقوا ماسطرته ، واعرفوا ما ذكره ولا تنهلوا خلواتكم
ولا سرائركم ، فان الاعمال بالنية ، والجزاء على مقدار الاخلاص .

١١٦ - الرضى بالقدر

من عرف جريان الاقدار ثبت لها ، وأجهل الناس بعد هذا من قاواها . لان مراد المقدر الذل له .

فاذا قاوت القدر قتلت مرادك من ذلك لم يبق لك ذل .
مثال هذا ، أن يجوع الفقير فيصبر قدر الطاقة ، فاذا عجز خرج الى سؤال الخلق مستعياً من الله كيف يسألهم ، وان كان له عذر بالحاجة التي أُلجأت ، غير انه يرى أنه مغلوب الصبر فيبقى معتذراً مستعياً وذاك المراد منه . أوليس يخرج النبي ﷺ من مكة فلا يقدر على العود إليها حتى يدخل في خفارة المطعم بن عدي وهو كافر ، عبرة في ذلك ؟

فسبحان من ناط الامور بالأسباب ، ليحصل ذل العارف بالحاجة الى التسبب .

١١٧ - يختبر الله صبر عباده

سبحان المتصرف بخلقه بالاغتراب والاذلال ليلو صبرهم ، ويظهر جواهرهم في الابتلاء ، هذا آدم ﷺ تسجد له الملائكة ثم بعد قليل يخرج من الجنة ، وهذا نوح عليه السلام يضرب حتى يغشى عليه ثم بعد قليل ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه ،

وهذا الخليل عليه السلام يلقى في النار ثم بعد قليل يخرج الى
 السلامة ، وهذا الذبيح يضع مستسماً ثم يسلم ويبقى المدح ،
 وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول
 وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعي ثم يرقى الى التكليم ،
 وهذا نبينا محمد ﷺ يقال له بالامس اليتيم ويقلب في عجائب
 يلاقها من الاعداء تارة ومن مكاييد الفقر أخرى ، وهو أثبت
 من جبل حراء . ثم لا ثم مراده من الفتح ، وبلغ الغرض من
 اكبر الملوك وأهل الارض نزل به خيف النقلة ، فقال :
 واكرباه .

فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تتلقى الامواج ، وكيف
 يصبر على مدافعة الايام لم يستهول نزول بلاء ، ولم يفرح
 بعاجل رخاء .

١١٨ - لا تقدم على عمل لا تطيقه

ينبغي للعاقل أن لا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل
 يطيقها ، ويجرب نفسه في ركوب بعضها سراً من الخلق فانه
 لا يأمن أن يرى في حالة لا يصبر عليها ، ثم يعود فيقتضح .
 مثاله ، رجل سمع بذكر الزهاد فرمى ثيابه الجميلة ولبس
 الدون ، وانفرد في زاوية ، وغلب على قلبه ذكر الموت

والآخرة ، فلم يلبث متقاضى الطبع أن ألح بما جرت به العادة ،
 من القوم من عادة (١) الى أكثر مما كان عليه كأكل الناقة
 من مرض ، ومنهم من توسط الحال فبقى كالمدبذب ، وانما الماقل هو
 يستقر نفسه بين الناس بثوب وسط لا يخرجهم من اهل الخير ،
 ولا يدخلهم في زي اهل الفاقة ، فان قويت عزيمته عمل في بيته
 ما يطيق ، وترك ثوب التجمل لستر الحال ، ولم يظهر شيئاً
 للفتن ، فانه ابعد من الزيادة ، واسلم من الفضيحة .

وفي الناس من غلب عليه قصر الامل وذكر الآخرة حتى
 دفن كتب العلم ، وهذا الفعل عندي من اعظم الخطا وان
 كان منقولا عن جماعة من الكبار ولقد ذكرت هذا لبعض
 مشايخنا فقال : اخطؤوا كلهم ، وقد تأولت لبعضهم بانه كان
 فيها احاديث عن قوم ضعفاء ولم يميزوها ، كما روي عن سفيان
 في دفن كتبه ، او كان فيها شيء من الرأي فلم يحبوا ان
 يؤخذ عنهم (١) فكان من جنس تحريق عثمان رضي الله عنه
 للمصاحف لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المجمع على غيره وهذا
 التاويل يصح في حق علمائهم .

فاما غسل احمد بن ابي الحواري كتبه وابن اسباط فمقربط بعض
 فالحدار الحدار من فعل يمنع منه الشرع او من ارتكاب

(١) اي عاد اليها تماماً كما يقال اليوم : « بالمرة »

(٢) مر هذا المعنى مراراً ، انظر الفصل « ١٩ »

ما يظن حزيمة وهو خطيئة ، او من اظهار مالا يقوى عليه
المظهر فيرجع القهري وعليكم من العمل بما تطيقون كما قال عليه السلام

١١٩ - لا خير في لذة من بعدها النار

اجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجل لا يأمن سوء مغيبته ،
فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في
شهواتها ، ولم ينظر في حلال وحرام ، فنزل به من الندم وقت
الموت أضعاف مائه ، ولو كان هذا فحسب لكفى حزناً ،
وكيف ؟ والجزاء الدائم بين يديه ، فالدنيا محبوبة للطبع ،
لا ريب في ذلك ، ولا أنكر على طالبها ومؤثر شهواتها ، ولكن
ينبغي له أن ينظر في كسبها ، ويعلم وجه أخذها ، ليسلم له عاقبة
لذته ، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار .

وعل عد في العقلاء قط من قيل له : اجلس في الملكة سنة ثم
تقتلك ؟ هيأت ، بل الامر بالعكس ، وهو أن العاقل من صابر
مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته ، وفي الجملة ، أف لذة
أعقبت عقوبة .

وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال أخبرنا أبو بكر
الخطيب قال أخبرنا الحسن بن أبي طالب قال حدثنا يوسف بن عمر

القواس قال حدثنا الحسين بن اسماعيل املاء قال حدثنا عبد الله بن
 أبي سعد قال حدثنا محمد بن مسلمة البلخي قال حدثنا محمد بن علي
 القوهستاني قال حدثنا دلف بن أبي دلف . قال : رأيت كان آنياً
 أني بعد موت أبي فقال : أجب الأمير .

فقيمت معه فادخلني دار وحشة وعرة سوداء الحيطان مقلعة
 السقوف والابواب ، ثم أضعدي درجاً فيها ، ثم أدخلني غرفة فاذا
 في حيطانها أثر النيران ، وإذا في أرضها أثر الرماد ، وإذا أبي عريان
 واضعاً رأسه بين ركبتيه فقال لي كالمستفهم : دلف ؟
 قلت : نعم أصلح الله الأمير .

فأنشأ يقول :

أبلغن أهلنا ولا تخفِ عنهم ما لقينا في البرزخ الخفاق
 قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا فاحموا وحشتي وما قد ألاق
 أفهمت ؟ قلت : نعم . فأنشأ يقول :

فلو أنا إذا متنا تُركنا لكان الموت راحة كل حي
 ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء

١٢٠ - فصائح لطالب العلم

هذه ذات كلها بين حسي وعقلي ، فنهاية الذات الحسية وأعلامها

النكاح ، وغاية اللذات العقلية العلم ، فمن حصلت له الغايات في الدنيا فقد نال النهاية ، وأنا أرشد الطالب الى أعلى المطولين ، غير أن للطالب المرزوق علامة وهو أن يكون مرزوقاً علوً الهمة ، وهذه الهمة تولد مع الطفل ، فتراه من زمن طفولته يطلب معالي الامور ، كما يروى في الحديث أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحِجر فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي وهو طفل فيجلس عليه فيقول عبد المطلب : إن لابني هذا شأنًا .

فان قال قائل : فاذا كانت لي همة ولم أوزق ما أطلب فما الحيلة؟ فالجواب ، انه إذا امتنع الرزق من نوع لم يتمتع من نوع آخر ، ثم من البعيد أن يرزقك همة ولا يعينك ، فانظر في حالك فلعلة أعطاك شيئاً ماسكوكه ، أو ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه ، واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيراً ليوفرك على لذات العلم فانك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع ، فهو أعلم بما يصلحك .

وأما ما أردت شرحه لك فانت الشاب المبتدئ في طلب العلم ينبغي له أن يأخذ من كل علم طرفاً ، ويجعل علم الله الام^(١) ، ولا يقتصر في معرفة النقل^(٢) ، فبه تبين سيرة الكاملين ، وإذا رزق

(١) انظر آخر الفصل « ١١٤ » .

(٢) أي الأحاديث التي هي أدلة احكام الله .

فصاحة من حيث الوضع ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو فقد
 شغلت شفرة لسانه على أجود مسن ، ومنى أدى العلم لمعرفة الحق
 وخدمة الله عز وجل فتحت له أبواب لا تفتح لغيره ، وبقيت له
 بالتلطف أن يجعل جزءاً من زمانه مصروفاً الى توفير الالكساب
 والتجارة ، مستنبطاً فيها غير مباشر لها ، مع التدبير في العيش
 الممتنع من الاسراف والتبذير ، فان رواية العلم والصلب به الى
 درجة المعرفة لله عز وجل ، وربما شغلته لذة ما وصل اليه عن كل
 شيء ، وبالحالة سليمة من آفة ، وان وجد من طبعه منازعة
 الى الشوق في النكاح فليتعرف السراري ، فان الحرائر في الاغلب
 غلي ، وليعزل^(١) عن الملوكات الى أن يجرب خلقهن ودينهن ،
 فان وضحن طلب الولد منهن ، وإلا فالاستبدال بين سهل ، ولا
 يتزوج حرة الا أن يعلم أنها تصبر على التزويج عليها والتسري ،
 وليكن قصده الاستمتاع بها لا إجهاد النفس في الانزال ، فان ذلك
 يهدم قوته فيضعف الاصل ، فهذه الجامعة من لذتها
 الحس والعقل ذكرتها على وجه الاشارة وفهم الذكي يلي عليه
 ما لم أشرحه .

(١) النزول الفاء الماء خارج (الوضع) فتح الحمل .

١٢١ - على طالب العلم أن لا يجهد نفسه

اعلم أن المتعلم يفتقر الى دوام الدراسة ، ومن الغلط الانهاك على الاعادة ليلا ونهاراً ، فانه لا يلبث صاحب هذه الحال إلا أن يمرض أو يموت ، وقد روينا أن الطبيب دخل على أبي بكر بن الأنباري في مرض موته فنظر الى مائه^(١) وقال : قد كنت تفعل شيئاً لا يفعله أحد ، ثم خرج فقال : ما يجبه منه شيء .

ف قيل له : ما الذي كنت تفعل ؟

قال : كنت أعيد كل اسبوع عشرة آلاف ورقة .

ومن الغلط حفظ الكثير أو الحفظ من فتور ، فان القلب جارية من الجوارح ، وكما ان من الناس من يحمل المئة رطل^(٢) ، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً ، فكذلك القلوب ، فليأخذ الانسان على قدر قوته ودونها ، فانه اذا استنفدها في وقت ضاعت منه اوقات ، كما أن الشجرة بأكل فضل لقبات يكوّن سبباً الى منع أكلات ، والصواب أن يأخذ قدر ما يطيق ، ويبعد في

(١) أي بوله ، وكان جمع البول في قوادير وعرضه على الطبيب هو الاسلوب الشائع في الفحص الطبي عند اطباء العرب من قبل تسعة سنة .

(٢) الصحيح ان يقال : مئة الرطل . أو المئة الرطل .

وقتین من النهار واللیل ، ویرفہ القوی فی بقیة الزمان ، والدوام
أصل عظیم ، فكم من ترك بعد الحفظ فضاع زمن طويل في
استرجاع محفوظ قد نسي ، والحفظ أوقات من العمر ، فأفضلها
الصبا وما يقاربه من أوقات الزمان ، وأفضلها إعادة الاصحار
وأناصاف النهار ، والغدوات خیر من العشيات ، وأوقات الجوع (١)
خیر من أوقات الشبع .

ولا یجحد الحفظ بحضرة خضرة ولا علی شاطئ نهر ، لان
ذلك یلهم ، والاماكن العالیة للحفظ خیر من السوافل ، والحلوة
أصل وجمع المم أصل الاصول ، وترفيه النفس من الاعادة يوماً
في الاسبوع لیثبت المحفوظ وتأخذ النفس قوة كالبنیان یترك
أیاماً حتى یستقر ثم ینبئ علیه ، وتقلیل المحفوظ مع الدوام أصل
عظیم ، والألا بشرع فی فن حتى یحكم ما قبله ، ومن لم یجد نشاطاً
للحفظ فلیتركه ، فان مكابرة النفس لا تصلح ، وإصلاح المزاج من
الاصول العظيمة فان للبأكولات أثراً فی الحفظ .

قال الزهري : ما أكلت خلا منذ عاجلت الحفظ .

وقیل لای حنیفة : بم یستعان علی حفظ الفقه ؟

قال : یجمع المم .

(١) یرید ما بین الطامین لا وقت الجوع الشدید .

وقال حماد بن سلمة : بقلّة الغم .
 وقال مكحول : من نظف ثوبه قلّ همّه ، ومن طابت
 وجهه زاد عقله ، ومن جمع بينهما زادت مروءته .
 واختار المبتدي في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن
 فان أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له اربعون سنة ، وهذا لأجل
 جمع الهم ، فان غلب عليه الامر^(١) تزوج ، واجتهد في المدافعة
 بالفعل لتتوفر القوة على إعادة العلم ، ثم لينظر ما يحفظ من العلم
 فان العمر عزيز والعلم غزير ، وان أقواماً يصرفون الزمان الى
 حفظ ما غيره أولى منه ، وان كان كل العلوم حسناً ولكن
 الأولى تقديم الهم والافضل ، وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن ،
 ثم الفقه وما بعد هذا بمنزلة تابع ، ومن رزق بقطة دلّته يقطه فلم
 يحتاج الى دليل ، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على
 الاحسن « واتقوا الله ويعلمكم الله »^(٢) .

(١) كما هي الحال في زماننا الذي كثرت فيه المغريات والمغويات .
 (٢) يحتاج بعض الجلبة بهذه الآية ، على أن التصوف يعني عن الطلب ، فينال
 صاحبه العلم وهو قاعد ، وذلك غلط لان الله يعلم من يتقى ، والتقوى لها
 تكون في اتباع الاوامر واجتناب النواهي ، وما امرنا به طلب العلم ، فن لم
 يطلب العلم لم يكن من اهل التقوى .

١٢٢ — اتق الله ولا تغتر بالسلامة

من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله عز وجل ، فإنه ما من عبد أطلق نفسه في شيء ينافية التقوى وإن قل إلا وجد محروبه حاجة أو آفة ، ومن الاعتدال أن تسيء فترى إحساناً فتظن أنك قد سويت ، وتلبي : « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » . وربما قالت النفس أنه : « يغفر » فتساعت ، ولا شك أنه يغفر ولكن لمن يشاء ، وأنا أشرح لك حالاً فتأمل به فكرك تعرف معنى المنفرة .

وذلك أن من هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ، ولا عزم على العود بعد الفعل ، ثم انتبه لما فعل فاستغفر الله ، كأنه فعله وإن دخله عمد في مقام خطأ ، مثل أن يعرض له مستحسن فيقبله الطبع فيطلق النظر ، ويتشاغل في حال نظره بالتذاد الطبع ، عن الملح معنى النهي ، فيكون كالفأب أو كالسكران ، فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله ، فقام الندم بفصل تلك الاوساخ التي كانت كأنها غلطة لم تقصد . فهذا معنى قوله تعالى : « وإذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . فأما المداوم على تلك النظرة ، المردها ، المصرة عليها ، فكانه في مقام متعدي لئلا يوارى بالخلاف ، فالغفوة يبعد عنه بقدر

إصراره ، ومن البعد ألا يرى الجزاء على ذلك كما قال ابن الجلاء :
وأتى شيعي وأنا قائم أتأمل حدثاً نصرانياً فقال :
ما هذا ؟ لترين غيها ولو بعد حين .

فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

واعلم أنه من أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب ، فإن
العقوبة تتأخر ، ومن أعظم العقوبة ألا يحس الإنسان
بها ، وأن تكون في سلب الدين ، وطمس القلوب ، وسوء
الاختيار للنفس ، فيكون من آثارها سلامة البدن وبلوغ
الأغراض .

قال بعض المعتبرين : أطلقت نظري فيما لا يحل لي ، ثم كنت
أنتظر العقوبة فأجلت الى سفر طويل لانية لي فيه ، فلبقت المشاق ،
ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندي ، وذهاب أشياء كان لها وقع
عظيم عندي ، ثم تلافت أمري بالتوبة فصلاح حالي ، ثم عاد الهوى
فعمكني على إطلاق بصري مرة أخرى ، فطمس قلبي وهدمت
وقته ، واستلب مني ما هو أكثر من فقد الاول ، ووقع لي
فخوض عن المفقود ما كان فقدته أصح ، فلما تأملت ما عوضت وما
سلب مني ، صحت من ألم تلك السياط ، فما أنا أنادي من على^(١)
الساحل : إخواني احذروا لجة هذا البحر ، ولا تغتروا بسكونه ،
وعليكم بالساحل ، ولازموا حصن التقوى فالعقوبة مرة ، واعلموا

(١) النصيح : هنا أنا أنادي من الساحل .

أن في ملازمة التقوي مرارات من فقد الاغراض والمشتبهات ، غير
انها في ضرب المثل كالحية تعقب صفة ، والتخليط ربما جلب
موت الفجأة .

وبالله لو نتم على المزايل مع الكلاب في طلب رضى المبتي كانت
قليلاً في نيل رضاء ، ولو بلغت نهاية الاماني من اغراض الدنيا مع
امراضه عنكم كانت سلامتكم هلاكاً ، وعافيتكم مرضاً ، وصحتكم
سقمياً ، والامر بآخره ، والعامل من تلح العواقب ، وحاربوا رحمة
الله تعالى هجير البلاء فما أسرع زواله .

والله الموفق إذ لا حول إلا به ، ولا قوة إلا بفضله .

١٢٣ — الرد على أهل البدع والصوفية والمتكلمين والمشبّهة

قدم الى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم فارتقوا منابر
التذكير للعوام ، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون ليس لله في
الأرض كلام ، وهل المصحف إلا ورق وعفص وزاج ؟ وان الله
ليس في السماء ، وأن الجارية التي قال لها النبي ﷺ أين الله ؟ كانت
خرساء فأشارت الى السماء أي ليس هو من الأصنام التي تعبد في الارض^(١)

(١) نعم . ومن اعتقد أن الله في السماء حقيقة أي ان السماء مشتملة عليه ،
اتخذوا بظاهر الحديث كان مشبهاً كافراً ، هذا والحديث حديث آحاد ، لا تثبت
بعثه عقيدة ولا يفيد العلم باتفاق علماء الأصول .

ثم يقولون أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوت ؟
هذا عبارة جبريل .

فما زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن في صدور أكثر
العوام ، وصار أحدهم يسبح فيقول : هذا هو الصحيح ، وإلا
فالقرآن شيء يجيء به جبريل في كبس . فشكا إلى جماعة من أهل
السنة ، فقلت لهم : اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها
في بعض الأوقات ، وإن كانت مدموغة ، وللباطل جولة ولحق
صولة والدجالون كثير ، ولا يخلو بلد من يضرب الهرج على مثل
سكة السلطان .

قال قائل : فما جوابنا عن قولهم ؟ قلت : اعلم وفكك الله
تعالى أن الله عز وجل ورسوله قنعا من الخلق بالإيمان بالجل ولم
يكلفا معرفة التفاصيل ، إما لأن الاطلاع على التفاصيل يخبط
العقائد ، وإما لأن قوى البشر تعجز عن مطالعة ذلك ، فأول
ما جاء به الرسول ﷺ إثبات الخالق ، ونزل عليه القرآن بالدليل
على وجود الخالق بالنظر في صنعه فقال تعالى : « أمتن جعل
الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً » وقال تعالى : « وفي
أنفسكم أفلا تبصرون » . وما زال يستدل على وجوده بمخلوقاته ،
وعلى قدرته بمصنوعاته ، ثم أثبت نبوة نبيه بمعجزاته ، وكان
من أعظمها القرآن الذي جاء به فمعجز الخلاق عن مثله ، واكتفى

بهذه الأدلة جماعة من الصحابة ، ومضى على ذلك القرن الأول
والشرب صاف لم يتكدر^(١) ، وعلم الله عز وجل ما سيكون من
البدع فبالغ في إثبات الأدلة وملأ بها القرآن ، ولما كان
القرآن هو منبع العلوم ، وأكبر المعجزات للرسول ، أكد
الأمر فيه فقال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » « وننزل
من القرآن ما هو شفاء » ، فأخبر أنه كلامه بقوله تعالى :
« يريدون أن يبطلوا كلام الله » ، وأخبر أنه مسوع بقوله
تعالى : « حتى يسمع كلام الله » ، وأخبر أنه محفوظ فقال
تعالى : « في لوح محفوظ » وقال تعالى : « بل هو آيات بينات
في صدور الذين أوتوا العلم » ، وأخبر أنه مكتوب ومثل فقال
تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا نخطه يمينك » ،
إلى ما يطول شرحه من تعدد الآيات في هذه المعاني التي توجب
إثبات القرآن .

ثم نزه نبيه ﷺ عن أن يكون أتى به من قبل نفسه
فقال تعالى : « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك »
وتوعده لو فعل فقال تعالى : « ولو تقول علينا بعض
اللقاويل » ، وقال في حق الزاعم أنه كلام الخلق حين قال :
« إن هذا إلا قول البشر » ، فأخبر أنه كلام الله عز وجل
أمة بنوع عذاب نولاه بعض الملائكة كصبيحة جبريل عليه

(١) لم يقولوا أنه في السماء ولم ينفوا ، ولم يحقوا الاستواء ولم يؤولوا ،
ولم يتكلموا إلى ذلك شيء ، ولكن فوضوا وسلموا .

السلام بشموه ، وإرسال الريح على عاد ، والحسف بقارون ،
وقلب جبريل دار لوط عليهما السلام ، وإرسال الطير الأبايل
على من قصد تخريب الكعبة . تولى هو بنفسه عقاب المكذبين
بالقرآن فقال تعالى : « ذرني ومن يكذب بهذا الحديث » .
« ذرني ومن خلقت وحيداً » . وهذا لأنه أصل هذه الشرائع
والمثبت لكل شريعة تقدمت ، لأن جميع الملل ليس عندهم
ما يدل على صحة ما كانوا فيه إلا كتابنا ، لأن كتبهم غيرت
وبدلت ، وقد علم كل ذي عقل أن القائل : « إن هذا إلا
قول البشر » انما أشار الى ما سمعه . ولا يختلف أولو الالباب
وأهل الفهم للخطاب ، أن قوله « وأنه » كتابة عن القرآن ،
وقوله : « تنزل به » كتابة أيضا عنه وقوله : « هذا كتاب »
إشارة إلى حاضر . وهذا أمر مستقر لم يختلف فيه أحد من
القدماء في زمن الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم ، ثم
حس الشيطان مسايس البدع فقال قوم : هذا المشار اليه مخلوق ،
فثبت الامام احمد رحمه الله ثبوتنا لم يثبت غيره على دفع هذا
القول لثلاث يتطرق الى القرآن ما يحو بعض تعظيمه في النفوس ،
ويخرجه عن الاضافة الى الله عز وجل . ورأى أن ابتداع مالم
يقال فيه لا يجوز استعماله فقال : كيف أقول مالم يقل .

ثم لم يختلف الناس في غير ذلك ، الى أن نشأ علي بن اسمعيل الاشعري ، فقال مرة بقول المعتزلة ، ثم عنّ له فادعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس . فأوجبت دعواه هذه أن ماعدنا مخلوق وزادت فغضبت العقائد فما زال اهل البدع يجوبون في تيارها الى اليوم ^(١) .

والكلام في هذه المسألة مرتب بذكر الحجج والشبه في كتب الاصول فلا أطيل به ههنا بل أذكر لك جملة تكفي من أراد الله هداه ، وهو أن الشرع قنع منا بالايمان جملة وبتعظيم الظواهر ، ونهى عن الخوض فيما يثير غبار شبهته ، ولا يقوى

(١) الطمن في الاشعري طمن في عقيدة جهور المسلمين من سبعة سنة الى اليوم ، لأنهم جميعاً على مذهب الاشعري في العقائد ، «او الماتريدي وهو قريب منه» يدينون بذلك ، ويؤلفون فيه كتبهم ، ويطونها في مدارسهم ، وما يضر الاشاعرة ان يسميهم ابن تيمية او ابن القيم الجهمية « لاسيا في كتابه اجتناع الجيوش الاسلامية » ، ولا يضرهم ان وافقوا المعتزلة في شيء ، فانه ليس بكل مقال المعتزلة او قال الجهمية باطلا ، بل ان فيه مالا يخلو من حق ، ومن انصفهم من العلماء المتأخرين العالم السلفي الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله « انظر رسالته : الجهمية والمعتزلة » ، وليس معنى قولي هذا ان الاشاعرة فوق النقد او انهم اهدى الناس ، او ان اتباع مذهبهم واجب ، فان الاشاعرة كثيرهم يؤخذ منهم ويرد عليهم ، ولا يجب وجوباً اتباع مذهبهم ، والخير فيما كان عليه السلف قبل ان تكون هذه المذاهب الكلامية كلها ، فن استطاع ذلك فيها ونست ، ومن ابى الا احد هذه المذاهب فليكن اشعرياً ماتريدياً وليكن مع جهور المسلمين .

على قطع طريقه اقدام الفهم ، وإذا كان قد نهى عن الخوض
 في القدر فكيف يجوز الخوض في صفات المقدر ؟ وما ذاك إلا
 لاحد الامرين اللذين ذكرتهما ، إما لحوف اثاره شبهة تزلزل
 العقائد ، أو لأن قوى البشر تعجز عن إدراك الحقائق ، فإذا
 كانت ظواهر القرآن تثبت وجود القرآن فقال قائل ليس ههنا
 قرآن ، فقد رد الظواهر التي تعب الرسول ﷺ في إثباتها وقررد
 وجودها في النفوس ، وبإذا يحل ويحرم ، ويبت ويقطع ،
 وليس عندنا من الله تعالى تقدم ^(١) بشيء ، وهل للمخالف دليل
 إلا أن يقول : « قال الله » فيعود فيثبت مانفى . فليس الصواب
 لمن وفق إلا الوقوف مع ظاهر الشرع ^(٢) فان اعترضه ذو شبهة ،
 فقال : هذا صوتك وهذا خطك ، فأين القرآن ؟ فليقل له : قد
 أجمعنا أنا وأنت على وجود شيء به نخرج جميعاً ، وكما أنك تنكر
 علي أن أثبت شيئاً لا يتحقق لي إثباته حساً ، فأنا أنكر عليك
 كيف تنفى وجود شيء قد ثبت شرعاً ، وأما قولهم هل في
 المصحف إلا ورق وعفص وزاج ، هذا كقول القائل : هل
 الآدمي الا لحم ودم ؟ هيأت إن معنى الآدمي هو الروح ،
 فمن نظر الى اللحم والدم وقف مع الحس . فان قال : فكذا

(١) اي أمر (٢) اي وقوف تفويض وتسليم لانتبيه ونجس

أقول أن الكتب غير الكتابة ، قلنا له : وهذا بما تنكره عليك لأنه لا يثبت تحقيق هذا لك ولا حصك ، فإن أردت بالكتابة الخبر ونخطيطه فهذا ليس هو القرآن ، وإن أردت المعنى القائم بذلك فهذا ليس هو الكتابة ، وهذه الأشياء لا يصلح الخوض فيها فإن مادونها لا يمكن تحقيقه على التفصيل كالروح مثلاً^(١) ، فانا نعلم وجودها في الجملة ، فاما حقيقتها فلا . فاذا جهلنا حقائقها كنا لصفات الحق أجمل ، فوجب الوقوف مع السميات مع نفي ما يليق بالحق ، لأن الخوض يزيد الخاض غميطاً ولا يفيد تحصيلاً بل يوجب عليه نفي ما يثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلي ، فلا وجه للسلامة إلا طريق السلف والسلام . وكذلك أقول ان اثبات الآله بظواهر الآيات والسفد ألزم للعوام من تحديثهم بالتنزيه وان كان التنزيه لازماً . وقد كان ابن عقيل يقول : الأصلح لاعتقاد العوام ظواهر الآي والسنن ، لأنهم يأنسون بالاثبات فتى بحوث ذلك من قلوبهم زالت السياسات والحشمة ونهافت العوام في الشبهة أحب إلي من اغراقهم في التنزيه ، لأن التشبيه يغمسهم في الاثبات^(٢) .

(١) هذا صحيح ، ولكن المؤلف يخالف فيه قوة ، لم يلبس للعرض السلف ولا قال بالمجاز كما فعل طه الحلف ولكنه مال الى التأويل فارة الى التشبيه فارة

(٢) اعوذ بالله ، كيف والمؤلف لله صاحب كتاب « دفع شبه التشبيه » ؟

فيطمعوا ويخافوا شيئاً قد أنسوا الى ما يخاف منه ويرجى ،
 فالتزبه يرمي بهم الى النفي ولا طمع ولا مخافة من النفي ،
 ومن تدبر الشريعة وآما عامة للكافرين في التشبيه بالالفاظ التي
 لا يعطي ظاهرها سواء كقول الاعرابي : أو يضحك ربنا ،
 قال : نعم
 فلم يكفروه من هذا القول (١) .

١٢٤ - العلم والفقر

أعظم البلايا أن يعطيك همة عالية ويمنعك من العمل
 بمقتضاها ، فيكون من تأثير همتك الأنفة من قبول ارفاق
 الخلق استقلالاً لحمل منهم ، ثم يبتليك بالفقر فتأخذ
 منهم ، ويلطف مزاجك فلا تقبل من المأكولات ما سهل
 احضاره ، فتحتاج الى فضل نفقة ، ثم يقلل رزقك ويعلق
 همتك بالمستحسنيات ، ويقطع بالفقر السيل الى الهن ، ويربك
 العلوم في مقام معشوق ، ويضعف بدنك عن الاعادة ويحلي
 يديك من المال الذي تحصل به الكتب ، ويقوّي ثوقك
 الى درجات العارفين والزهاد ، ويجوّجك الى مخالطة أرباب
 الدنيا وهذا البلاء المبين ، وأما الحسب الهمة الذي لا يستكشف

(١) اذا اخذه احد على ظاهره وقال بأنه يضحك « اي كضحكتنا » كثر

من سؤال الخلق ، ولا يرى الاستبدال (١) بزوجه ، ويكتفي
 بيسير من العلم ، ولا يتوق الى احوال العارفين ، فذاك
 لا يؤله فقد شيء ، ويرى ما وجد هو الغاية . فهو يفرح فرح
 الاطفال بالزخارف ، فما أهون الامر عليه . انما البلاء على
 العارف ذي الهمة العالية ، الذي تدعوه همته الى جمع الاضداد
 للتزيد من مقام الكمال ، وتقصير خطاه عن مدارك مقصوده
 فياله من حال ينقد في طريقه زاد الصابرين ، ولولا حالات
 غفلة تعتري هذا المبتي يعيش بها ، لكان دوام ملاحظته
 للمقامات يعمي بصره ، واجتهاده في السلوك يحفي قدمه ،
 لكن ملاحظات الامداد له تارة ببلوغ بعض مراده وتارة
 بالغفلة عما قصد ، وهذا كلام عزيز لا يفهمه إلا أربابه ، ولا
 يعلم كنهه إلا أصحابه .

١٢٥ - فضيلة الصبر على ما فيه شبهة

تَرَاغَنَتْ عَلَيَّ نَفْسِي فِي طَلَبِهَا شَيْئًا مِنْ أَغْرَاضِهَا بِتَأْوِيلِ
 فاسد . فقلت لها : بالله عليك تصبري إن في المعبر شغلا
 يحذر الفرق من كثرة الموجع عن التنزه في عجائب البحر . اذا
 هممت بفعل فقدري حصوله ثم تلحمي عواقبه وما تجتنبين من
 اثره ؛ فأقل ذلك الندم على ما فعلت ، ولا يؤمن ان يشر

(١) كان الزوجة عنده متاع اذا رث جده . لا ، ولكن رقيقة السر ،
 لا يستبدل بها الا ان اسامت او تهذرت معاشرتها .

غضب الحق عز وجل وإعراضه عنك ، فأنف للقاطع عنه
ولو كان الجنة .

ثم اعلمي أيتهما النفس انه ما يخفي شيء جزافاً ، وان
ميزان العدل تبين فيه الذرة فتلمعي الاموات والاحياء ،
وانظري الى من نشر ذكره بالخير والشر ، وزيادة ذلك
وتقصانه ، فسبحان من أظهر دليل الخلوات على اربابها ، حتى
أن حبات القلوب تتعاق بأهل الخير ، وتنفر من أهل الشر ،
من غير مطالعة لشيء من أعمال الكل .

قال ايليس : أو تترك مرادك لاجل الخلق ؟

قلت : لا ، إنما هذا بعض الثمرات الحاصلة من طريق
الغرض . ونحن نرى من يشي ثلاثين فرسخاً ليقال : ضاع ،
فالمتقي قد نال شرف الذكر وان لم يقصد نيل ذلك متوجعاً
له في وزن الجزاء « سيجعل لهم الرحمن وداً » . قالت النفس :
لقد أمرتني بالصبر على العذاب ، لأن ترك الاغراض عذاب .
قلت : لك عن الغرض عوض ، ومن كل متروك بدل ،
وانت في مقام مستعبد ولا يصح للاجير أن يلبس ثياب الراحة
في زمان الاستبجار ، وكل زمان المتقي نهار صوم ، ومن
خاف العقاب ترك المشتى ، ومن رام القرب استعمل الورع ،
والصبر حلاوة تبين في العواقب .

١٢٦ - اترك عاجل الهوى لأجل الثواب

من تازعته نفسه الى لذة محرمة فشغله نظره اليها عن تأمل عواقبها وعقابها ، وسمع هتاف العقل يناديه : وبجك لاتفعل ، فانك تنف عن الصعود ، وتأخذ في الهبوط ويقال لك : ابقى بما اخترت . فان شغله هواه ، فلم يلتفت الى ما قيل له ، لم يزل في نزول ، وكان مثله في سوء اختياره كالثلث المضروب ، ان الكلب قال للاسد : يا سيد السباع ، غير اسمي فانه قبيح . فقال له : أنت خائن ، لا يصلح لك غير هذا الاسم .

قال : فحبريني .

فاعطاه شقة لحم وقال : احفظ لي هذه الى غد وأنا أغبر اسمك ، فجاع وجعل ينظر الى اللحم ويصبر ، فلما غلبته نفسه قال : وأي ثني باسمي ، وما كلب الاسم حسن ؟ فأكل . وهكذا الحسب الهمة ، القنوع بأقل المنازل ، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل . فإله الله في حريق الهوى اذا دار ، وانظر كيف تطفئه ، قرب زلة في بئر بوار ، ورب أثر لم يتلع ، والفائت لا يستدرك على الحقيقة ، فابعد عن اسباب الفتنة ، فان المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يسلم والسلام .

١٢٧ - مجاهدة المتقين

وأبت الخلق كلهم في صف عاربة ، والشياطين يرمونهم
 بنبل الموى . ويضربونهم بأسيايف اللذة . فاما الخاطئون فصرعى
 من أول وقت اللقاء ، واما المتقون ففي جهد جهيد من
 المجاهدة ، فلا بُدَّ مع طول الوقوف في المحاربة من جراح فهم
 يجرحون ويداونون ، الا ان القتل محفوظ ، بلى ، إن الجراحة
 في الوجه شين باق^(١) فليحذر ذلك .

١٢٨ - الدنيا فح

الدنيا فح ، والجاهل بأول نظرة وقع ، فاما العاقل المتقي
 فهو يصابر المجاعة ، ويدور حول الحب^(٢) ، والسلامة بعيدة ،
 فكمن من صابر واجتهد سنين ثم في آخر الامر وقع ، فالخذر
 الخذر ، فقد رأينا من كان على سنن الصواب ، ثم زل على
 شفير القبر .

(١) يريد انهم امنوا القتل ، ولم يأمنوا الجراح ، مثل بذلك للمتقين ، لا يقعون
 في الكفر لكن لا يخلصون من الحاسي - وهذه الجملة مثال على تعيد المؤلف
 ونصور تسيير احياء .

(٢) الحب الموضوع في الفح ، مثل بالنف للصبة والحب للفتا .

١٢٩ - مرارة الذنوب وعواقبها

اعلموا اخواني ومن يقبل نصيحتي ، أن للذنوب تأثيرات
 قبيحة ، مراراتها تزيد على حلاوتها أضعافاً مضاعفة ، والمجازي
 بالمرصاد ، لا يسبقه شيء ولا يفوته ، أو ليس يروى في التفسير أن كل
 واحد من أولاد يعقوب عليهم السلام (وكانوا اثني عشر) ولد
 له اثنا عشر ولداً . إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر وجوزي
 بتلك الهمة فنقص ولداً (١) ، فوا أسفاً لمضروب بالسياط ما يحس
 بالالم ، ولمتخن بالجراح وما عنده من نفسه خبر ، ولتقلب في
 عقوبات ما يدري بها ، ولعمري إن أعظم العقوبة أن لا يدري
 بالعقوبة ، فواعجبا للمغالط نفسه يرضي ربه بطاعة ويسرق
 معصية ، ويقول : حسنة وسبئية . ويترك من كبسك تنفق ،
 ومن بضاعتك تهدم ، ووجه جاهك تشين ، ورب جراحه
 قتل ، ورب عثرة أهلكك ، ورب فارط لا يستدرك ،
 ويحك انتبه لنفسك ما الذي تنتظر باوبتك ؟ وماذا تقرب

(١) من هذا المني وهو رجم بالغيب بلا دليل . ذلك لأن يوسف عليه السلام
 رأى برهانه ربه فكف . ولو كان المجال مجال عقوبة لكان ذنبهم فيما صنعوا به أكبر
 من هم الذي هم به . وانظر مقاله المؤلف عنهم في الفصل « ١١١ » . ولو كان الفضل
 بكثرة الولد لكان أخوة يوسف أفضل من إبراهيم عليه السلام .

بتوبتك ؟ المشيب ؟ فما هو أو هن العظم ، وهن بغد رحيل
الاهل والاولاد والاقارب ، إلا اللحاق ؟ قدر أن ما تؤمله
من الدنيا قد حصل ، فكان ماذا ؟ اما هو عاجل فشغلك
عاجلا ، ثم آخر جرعة اللذة شرقة ، وإما أن تفارق محبوبك
وبفارقك فيالها جرعة مريرة تود عندها أن لو لم تره .

آه المحجوب العقل عن التأمل ، ولمصدود عن الورد وهو يرى
المنهل ، أما في هذه القبور نذير ؟ أما في كروور الزمان زاجر ؟
أين من ملك وبلغ المنى فيما أمل ؟ ناداهم في نادهم . هيات
صموا عن منادهم . فلو أن ما بهم الموت . انما القبور هنية .
العمل حصل بامعدوماً بالأمس ، يامتلاشي ^(١) الاسلاء في الغد
بأي وجه تلقى ربك ؟ أيساري ماتناله من الهوى لفظ عتاب ؟
بأنه ان الرحمة بعد المعاقبة ، ربما لم تستوف قلح البغضة من
صميم القلب ، فكيف إن أعقب العتاب عقاب ؟

وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال ، أخبرنا أبو
بكر الخطيب قال ، أخبرنا محمد بن الحسين المعدل قال ، أخبرنا
أبو الفضل الزهري قال ، أخبرنا أحمد بن محمد الزعفراني قال ،
حدثنا أبو العباس بن واصل المقرئ قال ، سمعت محمد بن عبد

(١) كلمة تلاشي لا اصل لها في الفصحى وفي كلام المؤلف كثير جداً من أمثالها

الرحمن الصيرفي قال : رأى جار لنا مجيى بن أكرم بعد موته
في منامه فقال : ما فعل بك ربك ؟

فقال : وقعت بين يديه فقال لي ، سواء لك يا شيخ .

فقلت : يارب إن رسولك قال إنك لتستحي من ابنائك

الثمانين أن تعذبهم وأنا ابن ثمانين أسير الله في الأرض .

فقال لي : صدق رسولي قد عفوت عنك .

وفي رواية أخرى عن محمد بن مسلم الخواص . قال :

رأيت مجيى بن أكرم في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

أوقفني بين يديه وقال لي يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك

بالنار ^(١) .

والمقصود من هذا النظر بعين الاعتبار ، هل يلي هذا

بدخول الجنة فضلا عن لذات الدنيا ؟ فنسأل الله عز وجل أن

ينبها من رقعات الغافلين ، وأن يرينا الأشياء كما هي لنعرف

حيرب الذنوب والله الموفق .

١٣٠ — ومن يتق الله يجعل له مخرجاً

خاق في أمر أوجب غملاً لازماً دائماً ، وأخذت أباغ في

(١) لا يني على مثل هذه المقامات حكم شرعي ، فلا يفتن ذو شيب بشيبه ليل

على مصبة .

الفكر في الخلاص من هذه المصوم بكل حبة وبكل وجه .
 فأرأيت طريقاً للخلاص ، ففرضت لي هذه الآية : « ومن
 يتق الله يجعل له مخرجاً » . فعلت أن اتقوى سبب المخرج
 من كل غم ، فما كان إلا أن همت بتحقيق التقوى فوجدت
 المخرج ، فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر
 إلا في طاعة الله تعالى ، وامثال أمره ، فإن ذلك سبب
 لفتح كل مخرج^(١) ، ثم أعجبته أن يكون من حيث لم يقدره
 المتفكر المحتال المدير ، كما قال عز وجل : « وبرزقة من
 حيث لا يحتسب » .

ثم ينبغي للمتيقن أن يعلم أن الله عز وجل كافيه فلا يعلق
 قلبه بالأسباب ، فقد قال عز وجل : « ومن يتوكل على الله
 فهو حسبه » .

١٣١ - عدم إجابة الدعاء وأسبابه

من العجب إلحاحك في طلب أغراضك وكلما زاد تعويقها
 زاد إلحاحك ، وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين ، إما المصلحة أنك

(١) أي مطلق ، ورتاج الباب غلقه ، ومنه قولهم ارتج على الخطيب إذا حصر
 وعجز عن الكلام .

فرجما طلبت معجل اذى ، وإما لذنوبك فإن صاحب الذنوب بعيد من الاجابة ، فتظف طرق الاجابة من أوصاخ المعاصي وانظر فيما تطلبه هل هو لاصلاح دينك ، أو لمجرد هواك . فان كان للهوى المجرد ، فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه ، وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيسنع وفقاً به ، وان كان لاصلاح دينك فرجما كانت المصلحة تأخيرها ، أو كان صلاح الدين بعدمه وفي الجملة تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك ، وقد يمنعك ماتهى ابتلاء ليلو صبرك . فأره الصبر الجميل تر عن قرب مايسر ، ومتى نظفت طرق الاجابة من أدران الذنوب ، وصبرت على مايقضيه لك ، فكل مايجري اصلح لك ، عطاء كان أو منعا .

١٣٢ - الاستعداد للموت وقصر الأمل

يجب على من لا يدري متى يبعثه الموت ان يكون مستعداً . ولا يفتّر بالشباب والصحة ، فإن أقل من يموت الاشياخ ، واكثر من يموت الشبان . ولهذا يندر من يكبر ، وقد انشدوا :
يَعْتَرُ واحد فيفر قوماً ويُنسى من يموت من الشباب
ومن الاغترار طول الأمل ، وما من آفة أعظم منه .
فإنه لولا طول الأمل ماوقع افعال اصلاً . وإنما يقدم العاصي

ويؤخر التوبة لطول الامل، وتبادر الشهوات وتُنسى الانابة لطول الامل، وان لم تستطع قصر الامل، فاعمل على قصر الامل، ولا تمس حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فاحمها بتوبة، أو خرقاً فارقه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ماضى في ليالك، وإياك التسويف فإنه اكبر جنود ابليس :

وخذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لم يدبر
وخف هجمة لا تقبل العنا وتطوى الورود على المصدر
ومثل لنفسك أي الرعل يضمك في حلبة الخمر
ثم صور لنفسك قصر العمر، وكثرة الاشغال، وقوة الندم على التفريط عند الموت، وطول الحسرة على البدار بعد الفوت. وصور ثواب الكاملين وانت ناقص، والمجتهدين وانت متكاسل، ولا تخل نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحدثها بها، فإن النفس كالفرس المشيطان ان ان املت لجامه لم تأمن ان يرمي بك، وقد والله دنستك أهواؤك، وضيعت ممرك.

فالبدار البدار في الصيانة، قبل تلف الباقى بالصباية. فكم تعرقل في فخ الهوى جناح جارم^(١)، وكم وقع في بئر بوار مخور. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٣٣ - حذار من المعاصي

الحذر الحذر من المعاصي ، فإن عواقبها سيئة . وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط ابدأ مع تغير اقدامه ، ومثمة فقره ، وحسراته على ما يفوته من الدنيا ، وحسرة لمن تألم ، فلو قارب زمان جزائه على قيحه الذي ارتكبه ، كان اعتراضه على القدر في فوات اغراضه بعيد العذاب جديداً ، فوا أسفاً لمعاقب لا يحس بعقوبته ، وآه من عقاب يتأخر حتى ينسى سببه ، أوليس ابن سيرين يقول : عبرت رجلاً بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة . وابن الجلاء يقول : نظرت الى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

فوا حسرة لمعاقب لا يدري ان أعظم العقوبة عدم الاحساس بها . قاله الله في تجويد التوبة عماها تكف كفاً الجزاء . والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات . فإن المبالغة لله تعالى تسقط العبد من عينه ، وأصلح ما بينك وبينه في السر وقد أصلح لك أحوال العلانية ، ولا تغتر بستره أيها المعاصي فربما يجذب عن هورتك ، ولا بجله فربما يفت العقاب ، وعليك بالقلق والتجاء إليه والتضرع فإن نفع شيء فذلك ،

وتقوت بالحزن ، وتغرز كأس الدمع ، واحفر بمول الامي
 قليب^(١) قلب الهوى لعلك تنبسط من الماء ما يغسل جرم 'جرمك'^(٢).

١٣٤ - الاستقامة ومراقبة الله تعالى

ياخواني ، اسمعوا نصيحة من قد جرب وخبر ، أنه بقدر
 اجلالكم لله عز وجل يحلکم ، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه
 يعظم اقداركم وحرمتكم ، ولقد رأيت والله من أنفق عمره
 في العلم الى ان كبرت سنه ، ثم تعدى بعض الحدود فهلك
 عند الخلق ، وكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه وقوة
 مجاهدته . ولقد رأيت من كان يراقب الله عز وجل في صوته
 مع قصوره بالاضافة الى ذلك العالم ، فعظم الله قدره في
 القلوب حتى علقت النفوس ، ووصفته بما يزيد على ما فيه من
 الخير ، ورأيت من كان يرى الاستقامة اذا استقام فإذا زاغ
 مال عنه اللطف . ولولا محوم الستر وشمول رحمة الكريم
 لاقتضح هؤلاء المذكورون ، غير أنه في الاغلب تأديب أو
 تلطف في العقاب كما قيل :

(١) القليب : البئر الواحدة (٢) الجرم بالكسر الجرم والجرم بالغم الذنب

ومن كان في سخطه عسناً فكيف يكون اذا ماضي ؟
غير ان العدل لا يجاني ، وحاكم الجزاء لا يجوز ، وما يضع
عند الامين شيء .

١٣٥ - للبلايا اوقات قد تطول

ايها المذنب اذا احسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج ،
ولا تقولن قد تبت وندمت فهل زال عني من الجزاء ما اكره
فلعل توبتك ما تحققت .

وان للمجازاة زمانا يمتد امتداد المرض الطويل ، فلا تنجع
فيه الحيل حتى ينتضي اوانه ، وان بين زمان : « وعصى »
الى ابان : « فتلقى » ^(١) مدة مديدة . فاصبر ايها الخاطيء حتى
يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس ، فاذا عصرته
كف الاسى ، ثم تكررت دُفَع الفسلات ، حكم بالطهارة .

بقي آدم يبكي على زلله ثلاثئة سنة ، ومكث ايوب عليه
السلام في بلائه ثمان عشرة سنة ، واقام يعقوب يبكي على
يوسف عليها السلام ثمانين سنة ^(٢) وللبلايا اوقات ثم تنصرم ،

(١) اشارة الى آيتي (وعصى آدم ربه فغوى) و (فتلقى آدم من ربه كلمات
فكتاب عليه)

(٢) من اين جاء هذه الارقام ؟

ورب عقوبة امتدت الى زمان الموت . فاللازم لك أن تلازم محراب الانابة ، وتجلس جلسة المستجدي ، وتعمل طعامك القلق ، وشربك البكاء ، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيراً ، وإن مت في سجن سجنك (?) فربما تاب حزن الدنيا عن حزن الآخرة ، وفي ذلك ربح عظيم .

١٣٦ - احذر عاقبة المعاصي

الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي فان نارها تحت الرماد . وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت ، وربما جاءت مستعجلة . فليبادر باطفاء ما أوقد من نيران الذنوب ، ولا ماء يطفى تلك النار الا ما كان من عين العين^(١) ، لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبيت الحاكم في حكمه .

١٣٧ - وجوب التوبة والعمل للآخرة

واعجبا من عارف بالله عز وجل يخالفه ولو في تلف نفسه ! هل العيش الا معه ؟ هل الدنيا والآخرة الا له ؟ أف لمترخص فعل ما يكره لنيل ما يجب ، تالله لقد فاتاه اضعاف ما حصل .

(١) نبع العين ، يريد الدمع واللين عشرات المعاني . انظر قصيدة جمعها كلمة في مقدمة (الصاحي) لاجد بن فارس .

أقبل على ما أقوله بإذا الذوق ، هل وقع لك تعبير في عيش ،
ونخيط في حال ، الا حال مخالفته ؟

ولا انتشني عزومي عن بابكم الا تعثرت بأذيلي
اما سمعت تلك الحكاية عن بعض السلف انه قال : رأيت
علي سور بيروت شابا يذكر الله تعالى فقلت له : ألك حاجة ؟
فقال : اذا وقعت لي حاجة سألته اياها بقلبي فقضاها .

يا أرباب المعاملة بالله عليكم لا تكسروا المشرب ، قفوا
على باب المراقبة وقوف الحراس ، وادفعوا مالا يصلح أن
يلج فيفسد ، واهجروا اغراضكم لتحصيل محبوب الحبيب ،
فان اغراضكم تحصل . علي أنني أقول أف لمن ترك بقصد
الجزاء (١) ؟ اهذا شرط العبودية ؟ كلا إنما ينبغي لي إذا كنت
مملوكاً أن أفعل ليرضى لا لأعطى ، فان كنت محباً رأيت
قطع الأرب في رضا وصلا . أقبل نصحي بإخذوعاً بفرضه
ان ضعفت عن حمل بلائه فاستغث به ، وان أملك كسب
اختياره فانك بين يديه ، ولا تيأس من روحه وإن قوي
خناق البلاء ، بالله إن موت الخادم في الخدمة حسن عند المعتل .
إخواني لنفسي أقول فمن له شرب معي فليرد .

(١) أي رجاء المكافأة . ومن ترك الدرب بقصد المكافأة كان محناً في نظر
الشرع ، ولا يقال له : أف !

أيتها النفس لقد أعطاك مالم تأمل ، وبلغك مالم تطمح ،
 وستو عليك من قبيحك مالمو فاح ضجت الشام . فما هذا
 الضجيج من فوت كمال الاغراض ؟ أهلوكة أنت أم حرة ؟ أما
 علمت أنك في دار التكليف ، وهذا الخطاب ينبغي أن يكون
 للجهال ، فإين دعواك المعرفة ؟ أتراه لو هبت نفحة ، فأخذت
 البحر كيف كانت تطيب لك الدنيا ؟

وا أسفا عليك لقد عشت البصيرة التي هي أشرف ،
 وما علمت كم أقول : عسى ولعل ؟ وأنت في الخطأ إلى قدام
 قربت سفينة العمر من ساحل القبر ، ومالك في المركب
 بضاعة تريح .

تلاعبت في بحر العمر ربح الضعف وفقدت تلفيق القوى
 وكان قد فصلت المركب .

بلغت نهاية الاجل وعين هواك تلتفت الى الصبا ، بالله عليك
 لا تشقي بك الاعداء . هذا أقل الاقسام ، وأوفى منها أن
 أقول بالله عليك لا يفوتك قدم سابق مع قدرك على
 قطع المضار .

الحلوة الحلوة ، واستحضري قرين العقل ، وجولي في
 حيرة الفكر ، واستدركي صبابة الاجل قبل أن نيل بك

الصبابة (١) عن الصواب .

واعجبنا كلما سعد العمر نزلت ، وكلما جد الموت هزلت
أتراك بمن ختم له بفتنة ، وقضيت عليه عند آخر عمره الهنة .
كان أول عمرك خيراً من الاخير ، كنت في زمن الشباب
اصلح منك في زمن أيام المشيب « وتلك الامثال نضربها
لناس وما يعقلها الا العالمون ،

نسأل الله عز وجل ما لا يحصل مطلوبنا الا به ، وهو
توفيقه انه سميع مجيب .

١٣٨ - من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

قدوت في بعض الايام على شهوة للنفس هي عندها اخطى
من الماء الزلال في فم الصادي . وقال التأويل : ما ههنا مانع
ولامعوق الا نوع ورع ، وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز .
فترددت بين الامرين ، فمنعت النفس عن ذلك . فبقيت
حيرتي لمنع ما هو الغاية في غرضها من غير حاد عنه بحال
الا حذر المنع الشرعي .

فقلت لها : يانفس والله مامن سبيل إلى ما لا يؤمن من دونه ؟

(١) الصبابة : البعية والصبابة : الصبوة والميل .

فتفلقات ، فصحت بها : كم وافقتك في مراد ذهبت لذته وبقي
التأسف على فعله ، فقدري بلاوغ الغرض من هذا المراد ،
أليس الندم يبقى في مجال اللذة اضعاف زمانها ؟
فقلت : كيف أصنع ؟

فقلت :

صبرت ولا والله ما بي جلادة على الحب لكني صبرت على الرغم
وما أنا ^(١) انتظر من الله عز وجل حسن الجزاء على هذا
الفعل . وقد تركت باقي هذه الوجبة ^(٢) بيضاء . أرجو أن أرى
حسن الجزاء على الصبر فأسطره فيه ان شاء الله تعالى . فانه
قد يعجل جزاء الصبر وقد يؤخره ، فان عجل سطره ، وان
أخر فما أسك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه ، فانه من
ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والله اني ماتركته إلا لله
تعالى ويكفيني تركه ذخيرة ، حتى لو قيل لي انذكر يوماً آثرت
الله علي هواك ؟ قلت : يوم كذا وكذا .

فافتخري أيتها النفس بتوفيقك واحدي من وفقك ، فكم
قد خذل سواك . واحذري أن تخذلي في مثلك ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان هذا في سنة احدى وستين وخمسة ، فلما دخلت سنة
خمس وستين ، عوضت خيراً من ذلك بما لا يقارب ، بما لا ينفع
منه ودرع ولا غيره .

قلت : هذا جزاء الترك لاجل الله سبحانه في الدنيا . ولأجر
الآخرة خير والحمد لله .

١٣٩ - تذهب اللذة ويبقى العقاب

لا انكر على من طلب لذة الدنيا من طريق المباح ، لانه
ليس كل أحد يقوى على الترك ، انما المحنة على من طلبها فلم
يجدها ، الا من طريق الحرام فاجتهد في تحصيلها ، ولم يبال
كيف حصلت فهذه المحنة التي نجس العقل فيها حقه ، ولم ينفع
حاجبه وجوده لانه لو وزن ما أوتر وعقابه طاشت كفة اللذة
التي قتبت عند أول ذرة من جزائها ، وكما قد رأينا من آثار
شهوته فسلبت دينه فليعجب العاقل حين التصفع لاجوالهم ،
كيف آثروا شيئاً ما أقاموا معه ، وصاروا الى عقاب لا يفارقهم
فأنه الله في نجس العقول حقها ، وليفطر السالك ابن يضع
القدم ، قرب مستعجل وقع في بير بوار^(١) . ولتكن عين التيقظ
مفتوحة فانكم في صف حرب لا يدورى فيه من أين يتلقى النبل ،
فأعينوا أنفسكم ولا تعينوا عليها .

(١) أي في بئر فارغة مهجورة - وقد كرر هذه الصورة مراراً

١٤٠ - الطاعة بامتنال الأمر واجتناب النهي

الحق عز وجل أقرب الى عبده من حبل الوريد ، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه ، فامر به بقصد بيته ، ورفع اليدين اليه ، والسؤال له . فقلوب الجاهل تستشعر البعد ، ولذلك تقنع منهم المعاصي . إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا ، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة وكفتم عن الانبساط . ولولا نوع غفطية على عين المراقبة الحقيقية لما انبسطت كف بأكل ، ولا قدوت عين على نظر . ومن هذا الجنس « انه ليغاث على قلبي » ومتى تحققت المراقبة حصل الانس ، وانما يقنع الانس بتحقيق الطاعة ، لأن المخالفة توجب الوحشة والموافقة مبسطة المستأنسين .

فيالذة عيش المستأنسين ، وبإخساره المستوحشين . وليست الطاعة كما يظن أكثر الجاهل أنها في مجرد الصلاة والصيام . انما الطاعة الموافقة بامتنال الأمر واجتناب النهي هذا هو الاصل والقاعدة الكلية .

فكم من متعب بعيد ، لانه مضيع الاصل ، وهادم للقواعد بمخالفة الامر أو ارتكاب النهي . وانما الحق من

أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس فأدى ماعليه واجتنب مانهيه
عنه فان رزق زيادة تنفل وإلا لم يضره والسلام .

١٤١ - اللذات مشوبة بالنقص فعليك بدفع الايام

الدنيا في الجلة معبر . فينبغي للانسان ان لا ينافس بلذاتها
وأن يعبر الايام . فانه لو تفكر في كيفية الذبائح ووسخ من
يباشرها وحمل الكامخ ^(١) وغيرها من المأكولات مطايت له ،
ولو تفكر في جولان اللقمة مختلطة بالريق ما قدر على اساعتها ،
فلا يخلو من حالتين :

اما أن يريد التنعم باللذات المباحات ، أو يريد دفع
الوقت بالضرورات . وأيهما طلب فلا ينبغي له أن يبعث فيما
يناله عن باطنه ، فانه لو نظر الى عورة الزوجة نباعها ، وقد
قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت من رسول الله ﷺ
ولارآه مني .

فينبغي للعاقل أن يكون له وقت معلوم يأمر زوجته
بالتصنع له فيه ، ثم يغمض عن التفتيش لطيب له عيشه !
وينبغي لها ان تتفقد من نفسها هذا فلا تحضره الا على

أحسن حال ، وبمثل هذا يدوم العيش . فأما اذا حصلت البذلة
بانت بها العيوب فثبت النفس وطلبت الاستبدال . ثم يقع في
الثانية مثل ما يقع في الاولى . وكذلك ينبغي ان يتصنع لها
كتصنعها له ليدوم الود بحسن الائتلاف . ومتى لم يجر الامر
على هذا في حق من له أنفة من شيء تنبو عنه النفس وقع في
أحد أمرين : اما الاعراض عنها ، واما الاستبدال بها . ومحتاج
في حالة الاعراض الى صبر عن اغراضه ، وفي حالة الاستبدال
الى فضل مؤنة وكلاهما يؤذي .

ومن لم يستعمل ما وصفتنا لم يطب له عيش في متعة .
ولم يقدر على دفع الزمان كما ينبغي .

١٤٢ - نعم الله عليك كثيرة فلا تتعرض الى ما يكرهه

نازعني نفسي الى أمر مكروه في الشرع ، وجعلت تنصب
لي التأويلات وتدفع الكراهة . وكانت تأويلاتها فاسدة ، والحجة
ظاهرة على الكراهة . فلجأت الى الله تعالى في دفع ذلك عن
قلبي ، وأقبلت على القراءة وكان درمي قد بلغ الى سورة
يوسف فافتحتها . وذلك الحاطر قد شغل قلبي حتى لا أدري
ما أقرأ . فلما بلغت الى قوله تعالى « قال معاذ الله انه ربي
أحسن مشاوي » انتهت لها وكأني خطبت بها ، فأقلت من

تلك السكره ، فقلت : بانفس افهمت ؟ هذا حُرّ يسع ظلماً
فراعى حق من أحسن اليه ، وسماه مالكاً وان لم يكن عليه
ملك ، فقال : انه ربي . ثم زاد بيان موجب كفت كفته
عما يؤذيه فقال : أحسن مثواي . فكيف بك وانت عبد
على الحقيقة لمولى مازال يحسن اليك من ساعة وجودك ، وأن
ستوه عليك الزللك أكثر من عدد الحما .

اذا تذكرين كيف وباك وعليك ورزقك ودافع عنك ،
وساق الخير اليك ، وهداك أقوم طريق ، ونجّاك من كل
كيد ، وضم الى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن ،
وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت في قصير الزمان ما لم ينله
غيرك في طويله ، وجلى في عرصة لسانك عرائس العلوم في
حلل الفصاحة ، بعد ان ستر عن الخلق مقابحك ، فتلقوها
منك بحسن الظن ، وساق رزقك بلا كلفة تكلف ولا كدّ
منّ ، رغداً غير تزر .

فوالله ما أدري أي نعمة عليك أشرح لك : حسن الصورة
وصحة الآلات ، أم سلامة المزاج واعتدال التركيب ، أم
لطف الطبع الخالي عن خساسة ، أم إلهام الرشاد منذ الصغر ، أم
الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل ، أم تحييب طريق
التقلد واتباع الانز ، من غير جهود على تقليد المعظم ، ولا
المخراط في سلك مبتدع ، وان تمدوا نعمة الله لا تحصوها ،

كم كائدي نصب لك المكاييد فوقاك ، كم عدو حط منك
بالدم فراقك ، كم أعطش من شراب الاماني خلقاً وسقاك ، كم
ألمات من لم يبلغ بعض مرادك وابقاك . فانت تصبغين
ونسجين سليمة البدن ، محروسة الدين ، في تزيد من العلم
وبلوغ الامل .

فان منعت مراداً فرزقت الصبر عنه بعد ان تبين لك
وجه الحكمة في المنع حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح .
ولو ذهبت أعد من هذه النعم مانسخ ذكره ، امتلأت
الطروس ولم تنقطع الكتابة . وانت تعلمين أن مالم أذكره
أكثر ، وان ما أومات الى ذكره لم يشرح . فكيف
محسن بك للتعرض بما يكرهه ، معاذ الله انه ربي احسن
مشاوي انه لا يفلح الظالمون ، .

١٤٣- من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه

ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة . وقل ان يقاربها
إلا من يقع فيها . ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه .
قال بعض المعتبرين ^(١) : قدرت على لذة ظاهرها التحريم ويحتمل

(١) انظر بين يديه وانه هو صاحب القصة

الاباحة ، اذ الامر فيها مردد ، فجاهدت النفس فقالت : انت ما تقدر فلمـذا تترك . فقارب المقدور عليه ، فلذا تمكنت فتركت كنت تاركاً حقيقة ، ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أوتني فيه الجواز ، وان كان الامر محتمل . فلما وافقتها اثر ذلك ظلمة في قلبي لحوف ان يكون الامر محرماً . فرأيت أنها تارة تقوى علي بالتروخض والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالجمادة والامتناع . فاذا رخصت لم آمن ان يكون ذلك الامر محظوراً ، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب . فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الامر المؤثر ، فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدرتي ان هذا الامر مباح قطعاً ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، لاعدت إليه . فانقطع طمعها بالبين والمعاهدة . وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها لأن تأويلها لا يبلغ الى ان تأمر بالحنث والتفكير . فأجود الاشياء قطع اسباب الفتن ، وترك الرخص فيما يجوز اذا كان حاملاً ومؤدياً الى مالا يجوز . والله الموفق .

١٤٤ - سكرة الهوى

لولا غيبة العاصي في وقت المعاصي كان كالمعاندين غير أن الهوى يحول بينه وبين الفهم للحال ، فلا يرى إلا قضاء

شهوت ، وإلا فلر لاحت له المخالفة خرج من الدين بالخلاف ، فإنما يقصد هواه فيقع الخلاف ضمناً وتبعاً . وأكثر ما يقع هذا في مقاربة الفتنة ، وقل من يسلم عند المقاربة ، لانه كتقديم نار الى حلقاً^(١) . ثم لوميز العاقل بين قضاء وطره لحظة ، وانقضاء باقي العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر ، لما قرب منه ولو أعطي الدنيا ، غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك . آه كم من معصية مضت في ساعاتها كأنها لم تكن ثم بقيت آثارها ، وأقلها ما لا يبرح من المرارة في الزند . والطريق الأعظم في الحذر أن لا يتعرض لسبب فتنة^(٢) ولا يقاربه . فمن فهم هذا وبالع في الاحتراز كان الى السلامة أقرب .

١٤٥ - دع المباحثات فربما آذت في الدين

البلايا على مقادير الرجال . فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودينيا ، واوائك قوم لم يرادوا

(١) لبث من لبث البادية سريع الاشتغال . يريد ان اجتمع المرأة والرجل في ممرض الفتنة كاجتماع النار والبارود ، فاذا اجتمعا ولم يكن انفجار ، جاز ان يحتلط الجنسان الاختلاط الذي نراه الان ، ثم لا يكون سفاذ ولا فساد . وهيات 1

(٢) فلا يزوج بابه وابنته في اماكن الاختلاط ، ولو كانت اما كن علم . كان من وراثها «دع» الاولين والآخرين .

للقامات العبر الرفيعة ، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فاعطف بهم . إذا الحنة العظمى أن ترزق همة عالية لاتنزع منك الا بتحقيق الورع ، وتجويد الدين ، وكمال العلم ، ثم قبلى بنفس تميل الى المباحات ، وتدهي أنها تجمع بذلك همها ، وتكشف مرضها ، لتقبل (مُزاحمة العلة) على تحصيل الفضائل . وهاتان الحالتان كضدين ، لان الدنيا والآخرة ضربتان ، وللأزم في هذا المقام مراعاة الواجبات ، وأن لايفسح للنفس في مباح لا يؤمن ان يتعدى منه اعراض عن واجب وزرع . المبتي يصيح ، فلأن يبكي الطفل خير من أن يبكي الوالد . واعلم أن فتح باب المباحات ربما جر أذى كثيراً في الدين . فأوثق السكر^(١) قبل فتح الماء ، والبس الدرع قبل لقاء الحرب ، وتلمح عواقب ما تخفي قبل تحريك اليد ، واستظهر في في الحذر باجتنب ما يخاف منه وان لم يتيقن .

١٤٦ - وصايا لطالب العلم

ينبغي لطالب العلم أن يكون جل هممه مصروفاً الى الحفظ والاعادة . فلو صح صرف الزمان الى ذلك كان الاولى غير أن البدن مطية ، واعداد السير مظنه الانقطاع .

(١) سكر الماء من عامي الشام الفصيح وهو المسناة اي سد الماء

ولما كانت القوى تكيل فتحتاج الى تجديد ، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لابد منه ، مع أن المهم الحفظ ، وجب تقسيم الزمان على الامرين ، فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل ، ويوزع الباقي بين عمل بالنسخ والمطالعة ، وبين راحة للبدن وأخذ لحظته . ولا ينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء ، فانه متى أخذ أحدهم فوق حقه أثر الغبن وبان اثره .

وان النفس تنهز الى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الاعداد والتكرار ، لان ذلك اشهى وأخف عليها . فيلحذر الراكب من إهمال الناقة ، ولا يجوز له أن يحمل عليها مالا تطيق . ومع العدل والانصاف يتأتى كل مراد .

ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه . ومن طوى منازل في منزل أوشك أن يفوته ماجد لأجله . على أن الانسان الى التحريض أخرج لان الفتور أكثر من الجد .

وبعد فاللازم في العلم طلب المهم . فرب صاحب حديث حفظ مثلاً لحديث : « من أتى الجمعة فليغتسل » عشرين طريقاً ، والحديث قد ثبت من طريق واحد ، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل . والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه في نفس . وكفى بالعقل مرشد الى الصواب من عضده التوفيق

١٤٧ - من أصلح سريره ذاع فضله

إذا صح قصد العالم استراح من كُلف التكليف ، فإن كثيراً من العلماء بأنفون من قول (لا أدري) ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال جهلوا الجواب ، وإن كانوا على غير يقين بما قالوا . وهذا نهاية الخذلان .

وقد روي عن مالك بن أنس أن رجلاً سأله عن مسألة فقال : لا أدري . فقال : قطعت البلدان إليك .

فقال : أرجع إلى بلدك وقل سألت مالكا فقال لا أدري .

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله كيف استراح من الكلفة ، وسلم عند الله عز وجل .

ثم إن كان المقصود إجماعهم بيد غيرهم ، والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت ، ويتخشع في نفسه ولباسه والقلوب تنبوعه ، وقدره في النفوس ليس بذاك ، ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع والقلوب تنهافت على محبته ، فتدبر السبب فوجدته السريرة .

كما روي عن أنس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم ، وإنما كانت له سريرة ، فمن أصلح سريره فاحسب عيبه فضله .

وهبت القلوب بنشر طيبه ، فافته الله في السرائر ، فانه ما ينفع
مع فسادها صلاح ظاهر .

١٤٨ — لا تجزع من تأخر إجابة الدعاء

نزلت في شدة ، وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة ،
وتأخرت الإجابة^(١) ، فانتزعبت النفس وقلقت ، فصحت بها :
وبلك ، تأملني أمرك ، أملوكة أنت أم مالكة ؟ أم دبيرة أنت
أم مدبيرة ؟ أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ،
فاذا طلبت أغراضك ولم تصبري على ما ينافي مرادك فأين
الابتلاء ؟

وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد ، فافهمي
معنى التكليف وقد هان عليك ما عز ، وسهل ما استصعب ، ظلمنا
تدبرتي ما قلته سكنت بعض السكون .

فقلت لها : وعندي جواب ثان وهو أنك تقتضين الحق^(٢)
بأغراضك ، ولا تقتضين نفسك بالواجب له ، وهذا عين الجهل ،
ولمّا كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس ، لأنك بملوكة

(١) تقدم هذا المعنى مراراً .

(٢) أي تطالين الله .

والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك ، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى ، فسكنت أكثر من ذلك السكون .

فقلت لها : وعندي جواب ثالث ، وهو أنك قد استبطأت الإجابة وأنت سدوت طرقها بالمعاصي ، فلو قد فتحت الطريق أمرعت ، كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى ، أو ما سمعت قوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه » و « يجعل له من أمره يسرا » أو ما فهمت أن العكس بالعكس ؟ آه من سكر غفلة صار أقوى من كل سكر في وجه مياه المراد بمنعها من الوصول الى زرع الاماني ، فعرفت النفس أن هذا حق فاطمأنت .

فقلت : وعندي جواب رابع ، وهو أنك تطلين ما لاتعلمين عاقبته وربما كان فيه ضررك ، فمثلك كمثل طفل محموم يطلب الحلوى ، والمدير لك أعلم بالمصالح ، كيف وقد قال تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » فلما بان الصواب للنفس في هذه الاجوبة ، زادت طمأنينتها .

فقلت لها : وعندي جواب خامس ، وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك ، ويحيط من مرتبتك ، فمنع الحق (١) لك

ما هذا سبيله عطاء منه لك ، ولو أنك طلبت ما يصلح آخرتك كان أولى لك ، فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحت فقالت : لقد شرحت في رياض ما شرحت ، فهمت^(١) إذ فهمت .

١٤٩ — على العالم طلب الغنى

حضرنا بعض أغذية أرباب الاموال ، فرأيت العلماء أذل الناس عندهم ، فالعلماء يتواضعون لهم ويدلون لموضع طمعهم فيهم وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم اليهم ، فرأيت هذا عيباً في الفريقين ، أما في أهل الدنيا فوجه العيب أنهم كانوا ينبغي لهم تعظيم العلم ، ولكن لجهلهم بقدره فأنهم ، وآثروا عليه كسب الاموال ، فلا ينبغي ان يطلب منهم تعظيم ما لا يعرفون ولا يعلمون قدره ، وإنما أعود باللوم على العلماء واقول : ينبغي لكم ان تصونوا أنفسكم التي شرفت بالعلم عن الذل للانذال ، وان كنتم في غنى عنهم كان الذل لهم والطلب منهم حراماً عليكم ، وإن كنتم في كفاف فلم لم تؤثروا التنزه عن الذل بالعفة عن الحطام الغاني الحاصل بالذلة ، إلا انه يتخيل لي من هذا الأمر ، اني علمت قلة صبر النفس على الكفاف والعزوف عن الفضول ، فان

وجد ذلك منها في وقت لم يوجد على الدوام ، فالأولى
لعالم أن يجتهد في طلب الفنى ، ويبالغ في الكسب ، وإن
خاع بذلك عليه كثير من زمان طلب العلم ، فإنه يصوت
بغيره عرضه .

وقد كان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلف مالا ، وخلف
سفيان الثوري مالا وقال لولائك لتمدلوأى^(١) ، وقد سبق في
كتابي هذا في بعض الفصول شرف المال ، ومن كان من الصحابة
والعلماء يقتنيه ، والسرى فعلهم ذلك ، وحشيتي طالبي العلم على
ذلك ما بينته من أن النفس لا تثبت على التعفف ، ولا تصبر على
دوام التزهد ، وكما قد رأينا من شخص قويته عزيمته على طلب
الآخرة فأخرج ما في يديه ، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح
وجه . فالأولى ادخار المال والاستغناء عن الناس ، فيخرج الطمع
من القلب ، ويصفو نشر العلم من سائبة ميل .

ومن تأمل أخبار الأخيار من الإخبار وجددم على هذه
الطريقة ، وإنما سلك طريق الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده

(١) أي اتخذواي ممحاة « متديلاً » أو لعل لها في عامة ذلك الزمان معنى

آخر يريد المؤلف .

بذل الدين والوجه ، فطلب الراحة ونسي أنها في المعنى عناء ،
كما فعل جماعة من جهال المتصوفة في اخراج ما في أيديهم
وادعاء التوكل ، وما علموا أن الكسب لا ينافي التوكل ، ولما
طلبوا طريق الراحة وجعلوا التعرض للناس كسباً ، وهذه
طريقة مركبة من شيئين : أحدهما قلة الانفة على العرض ،
الثاني قلة العلم .

١٥٠ - لو تأمل العاصي عظمة الخالق ما عصاه

تأملت وقوع المعاصي من العصاه فوجدتهم لا يقصدون العصيان
ولما يقصدون موافقة هوامم ، فتبع العصيان تبعاً ، فنظرت في
سبب ذلك الاقدام مع العلم بوقوع المخالفة فاذا به ملاحظتهم لكرم
الخالق ، وفضله الزاخر ، ولو أنهم تأملوا عظمتة وهيبته
ما انبسطت كف بمخالفته ، فانه ينبغي والله أن يحذر من أقل
فعله تعيم الخلق بالموت ، حتى القاء الحيوان البهيم الذبيح ، وتعذيب
الاطفال بالمرض ، وفقر العالم ، وغنى الجاهل ، فليعرض المقدم
على الذنوب على نفسه الحذر من هذه صقته ، فقد قال الله تعالى
« ويحذركم الله نفسه » وملاحظة أسباب الخوف ادنى الى الامن من
ملاحظة أسباب الرجاء ، فالخائف آخذ بالحزم ، والراجي متعلق
بجبل طمع ، وقد يخلف الظن .

١٥١ — على العالم أن لا يذل لأرباب الدنيا

رأيت عموم أرباب الاموال يستخدمون العلماء ، يستذلونهم بشيء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم ، فان كان لأحدهم خسة قال : فلان ما حضر ، وان مرض قال : فلات ما تردد ، وكل منته عليه شيء نزر يجب تسليمه الى مثله ، وقد رضي العلماء بالذل في ذلك لموضع الضرورة فرأيت أن هذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم .

ودواؤه من جهتين : احدهما القناعة باليسير ، كما قيل : من رضي بالخل والبقول لم يستعبده أحد . والثاني صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم الى كسب الدنيا ، فانه يكون سبباً لإعزاز العلم ، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب العلم ، مع احتمال هذا الذل .

ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة ، قدر قوته ، واحتفظ بما معه ، أو سعى في مكتسب يكفه ، ومن لم يأنف من مثل هذه الأشياء لم يحظ من العلم إلا بصورته دون معناه .

١٥٢ - افهم مقصود أوامر الله بعقلك واتبع الدليل

مدار الأمر كله على العقل ، فانه اذا تم العقل لم يعمل

صاحبه إلا على أقوى دليل ، وثمرة العقل فهم الخطاب ، وتلح المقصود من الامر ، ومن فهم المقصود وعمل على الدليل كان كاللبياني على أساس وثيق .

واني رأيت كثيراً من الناس لا يعملون على دليل ، بل كيف اتفق ، وربما كان دليلهم العادات ، وهذا أقبح شيء يكون .

ثم رأيت خلقاً كثيراً لا يتبعون الدليل بطريق اثباته كاليهود والنصارى ، فانهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا ، وكذلك يثبتون الآله ولا يعرفون ما يجوز عليه بما لا يجوز ، فينسبون اليه الولد ، ويمنعون جوارحه تغييره ما شرع .

وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا في اثبات الصانع وما يجوز عليه ، ولا في الدليل على صحة النبوات ، فتقع أعمالهم ضائعة كاللبياني على رمل .

ومن هذا القبيل في المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون وينصبون أبدانهم في العلم بأحاديث باطلة ، ولا يسألون عنها من يعلم .

ومن الناس من يثبت الدليل ولا يفهم المقصود الذي دل

عليه الدليل^(١) . ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فترهّدوا ، وما فهموا المقصود ، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها وإن النفس تحب عداوتها ، فعملوا على أنفسهم فوق ما يطاق ، وعذبوها بكل نوع ، ومنعوها حظوظها ، جاهلين بقوله عليه الصلاة والسلام : **حِينَ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ** . وفهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض ، ونحول الجسم ، وضعف القوى ، وكل ذلك لضعف الفهم للمقصود والتلصص للمراد . كما روي عن داود الطائي^(٢) أنه كان يترك ماء في دَنٍّ تحت الأرض فيشرب منه وهو شديد الحر ، وقال لسفيان : **إذا كنت تأكل اللذيذ الطيب ، وتشرب الماء البارد المبرد ، فمتى تحب الموت والقُدوم على الله ؟**

وهذا جهل بالمقصود ، فإن شرب الماء الحار يورث أمراضاً في البدن ولا يحصل به الري ، وما أمرنا بتعذيب أنفسنا في الصورة ، بل بخلاف ما تدعو إليه بما نهى الله عنه ، وفي الحديث الصحيح : **أن أبا بكر رضي الله عنه لما حلب له الراعي في طريق**

(١) كمن يعرف طرق الاحاديث ودرجاتها ولم يستكمل اسباب الاجتهاد والاستنباط فيدع ما عليه الفقهاء ويأخذ بما فهم من الحديث وإن خالف فيه العلماء .

(٢) داود بن نصير ولد في الكوفة ورحل إلى بغداد فأقام فيها إلى أن مات سنة ١٦٠ أخذ عن أبي حنيفة وغيره ثم اعتزل ولزم العبادة .

المجرة صب الماء على القدر حتى برد أسفله ، ثم سقى رسول الله ﷺ ، وفرش له في ظل صخرة ، وكان يستعذب لرسول الله ﷺ الماء ، وقال : « إن كان عندكم ماء بات في شئ وإلا كرعنا » . ولو فهم داود رحمه الله أن إصلاح علف الناقة متعين لقطع المنزل لم يفعل هذا .

ألا ترى إلى سفيان الثوري فإنه كان شديد المعرفة والخوف ، وكان يأكل اللذيذ ويقول : إن الدابة إذا لم يحسن إليها لم تعمل .

ولعل بعض من يسمع كلامي هذا يقول : هذا ميل على الزهاد ، فأقول : كن مع العلماء وانظر إلى طريق الحسن ، وسفيان ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وإمام ، والشافعي ، وهؤلاء أصول الاسلام ، ولا تقلد في دينك من قل علمه وإن قوي زهده ، واحمل امره على أنه كان يطيق هذا ولا تقتد بهم فيها لا تطيقه ، فليس أمرنا البينا ، والنفس ودیعة عندنا ، فان أنكرت ما شرحت فانت ملحق بالقوم الذين أنكرت عليهم . هذا رمز إلى المقصود والشرح بطول .

١٥٣ - عجز الخلق عن فهم حكمة الخالق

الواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما يجني من مكروه .

مثاله انه قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق عز وجل
وملكه وتدييره ، فاذا رأى الانسان عالماً محروماً ، وجاهلاً
مرزوقاً ، أوجب عليه الدليل المثبت 'حكمة' الخالق التسليم اليه ،
ونسبة العجز عن معرفة الحكمة الى نفسه ، فان أقواماً لم يفعلوا
ذلك جهلاً منهم . أفترام بماذا حكموا بفساد هذا التدبير ؟ أليس
بمقتضى عقولهم ؟ أو ما عقولهم من جملة مواهبه ؟ فكيف يحكم على
حكيمته وتدييره ببعض مخلوقاته التي هي بالاضافة اليه انقص من كل
شيء ؟ ولقد بلغني عن الامين ابن الراوندي^(١) انه كان جالساً على
الجسر^(٢) وفي يده رغيف يأكله ، فجازت خيل واموال فقال : لمن
هذه ؟ فقيل : لفلان الخادم . فجازت خيل واموال . فقال : لمن هذه ؟ فقيل :
لفلان الخادم . فلما مر الخادم رأى شخصاً محترقاً ، فرمى الرغيف
الى ناحيته وقال : وهذا لفلان . ما هذه القصة ؟

ولو فكر المدبر لبانت له وجوه اقلها جهله بمن يدعي معرفته وقلة
تعظيمه ، وذلك يوجب عليه أشد ما كان فيه من تضيق العيش ،
ولكنه ميراث إبليس حيث اعتقد سوء التدبير في تفضيل آدم
عليه السلام .

(١) احمد بن يحيى متوفى زنديق مات ببغداد سنة ٢٤٥ هـ وهو استاذ
ملاحية عمرنا وامامهم ، واستاذ الجميع ابليس . (٢) جسر بغداد .

فالعجب من تلميذ يتعلم^(١) على أستاذه ، ومن مملوك يتيه على سيده .

وبما ينبغي ان يتبع فيه الدليل ولا يلتفت الى ما جئت الحال ، ان العلم اشرف مكنسب ، وقد رأى جماعة من الجبهة قلة حظوظ العلماء من الدنيا فازروا على العلم وقالوا لا فائدة فيه ، وذلك لجهلهم بمقدار العلم ، فان تابع الدليل لا يبالي ما جنى ، وإنما يبين الاختبار بفقد الغرض . ولو لم يكن من الدليل على صدق نبينا صلى الله عليه وسلم إلا اعراضه عن الدنيا وتضييق العيش عليه ، ثم لم يخلف شيئاً وحرم اهله الميراث ، فدل على صدق طلبه لمطوب آخر .

وربما رأى الجاهل قوماً من العلماء يفعلون خطيئة فيزري على العلم ويدعيه ناقصاً وهذا غلط كبير^(٢) .

فليتق الله العاقل وليعمل بمقتضى العقل فيما يأمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم ، وليعلم ان الابتلاء في الصبر على فوات المطالبات ، وليلزم اتباع الدليل وإن جنى مكروهاً والله الموفق .

١٥٤ - موافقة هوى النفس ومخالفته

قرأت سورة يوسف عليه السلام ، فتعجبت من مدحه عليه السلام

(١) وفي النصيح : يتعلم .

(٢) وهو كثير في إيماننا . ينسبون النفس الى الدين ، اذا رأوا في بعض المشايخ نقصاً وإنما النفس ممن نفس ، والدين يرى منه .

على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك ، فتأملت
 خبيثة الأمر فإذا هي مخالفة للهوى المكروه ، فقلت : وأعجباً
 لو وافق هواه من كان يكون ؟ ولما قد خالفه لقد صار امرأ
 عظيماً يضرب الأمثال بصبره ، ويفتخر على الخلق باجتهاده . وكل
 ذلك قد كان بصبر ساعة فياله عزاً وفخراً ، يقاوم كل لحظة
 من ذكره أمثال ساعة الصبر عن المحبوب ، وبالعكس منه حالة
 آدم في موافقته هواه ، لقد عادت^(١) نقيصة في حقه أبداً لولا التدارك
 فتأب عليه .

فتلمحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى ، فالعاقلة من ميز
 بين الأمرين : الحلوين والمرين ، فأت من عدل ميزانه ولم
 تملى به كفة الهوى رأى كل الأدباج في الصبر ، وكل الحسنان
 في موافقة النفس ، وكفى بهذا موعظة في مخالفة الهوى لأهل
 النهى والله الموفق .

١٥٥— وجوب مزج الفقه والحديث بالرقائق وسير الصالحين

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح
 القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين ،
 فأما مجرد العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب وإنما

(١) يريد : « لقد كادت تكون » وما كادت ، وآدم نبي ، وهو أبو الأنبياء ،
 وم أكل البش .

ترق القلوب بذكر رقائق الاحاديث ، وأخبار السلف الصالحين .
لأنهم تناولوا مقصود النقل ، وخرجوا عن صور الافعال المأمور
بها الى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذا الا بعد معالجة وذوق . لأني وجدت
جمهور المحدثين وطلاب الحديث همه اعدام في الحديث العالي (١)
وتكثير الاجزاء . وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغلب
به الخصم .

وكيف يرق القلب مع هذه الاشياء ؟ وقد كان جماعة من
السلف يقصدون العبد الصالح للنظر الى سمته وهديه ، لا لاقتباس
علمه . وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته . فافهم هذا وامزج
طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون
سبباً لركة قلبك .

وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الاخيار كتاباً فيه
أخباره وآدابه . فجمعت كتاباً في أخبار الحسن (٢) ، وكتاباً في
أخبار سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وبشر الحافي ، واحمد
ابن حنبل ، ومعروف (٣) ، وغيرهم من العلماء والزهاد . والله الموفق
للمقصود . ولا يصلح العمل مع قلة العلم ، فهذا في ضرب المثل
كسائق وقائد والنفس بينها حرون ومع جد السائق والقائد
ينقطع المنزل . ونعوذ بالله من الفتور .

١٥٦ - لا ترخص في مخالفة الاجماع

ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب فوجدت في قلبي
قسوة عظيمة . وتخايل لي نوع طرد عن الباب ، وبعد وظلمة
تكاثفت . فقالت نفسي : ما هذا ؟ أليس ماخرجت عن اجماع
الفقهاء ؟

قلت لها : يانفس السوء جوابك من وجهين . أحدهما أنك
تأولت مالا تعتقدين فلو استفتيت لم تُفتي بما فعلت .
قالت : لو لم اعتقد جواز ذلك ما فعلته .
قلت : الا ان اعتقادك هو ما ترضينه لغيرك في الفتوى .
والثاني أنه ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب
ذلك ، لانه لولا نور في قلبك مآثر مثل هذا عندك .
قالت : فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة في القلب .
قلت : فاعزمي على الترك وقدري ما تركت جائزاً بالاجماع ،
وعدي هجره ورعاً ، وقد سلمت .

١٥٧ - لا تظاهر أحداً بالعداوة

بما أفادتني تجاوب الزمان انه لا ينبغي لاحد أن يظاهر
بالعداوة أحداً منها استطاع ، فانه ربما يحتاج اليه . وان الانسان

قد لا يظن الحاجة اليه يوماً ما كما قد يحتاج الى عويده^(١) منبوذة لا يلتفت اليه . وكم من محترق احتيج اليه . وان لم تقع الحاجة الى ذلك الشخص في جلب نفع ، وقعت الحاجة في دفع ضرر . ولقد احتجت في عمري الى ملاطفة اقوام ماخطر لي قط وقوع الحاجة الى التلطف بهم .

واعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجلب اذى من حيث لا يعلم . لان المظاهر بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضرباً . وقد يلوح مضرب خفي ، وان اجتهد المدرع في ستر نفسه فيفتشه ذلك العدو .

فينبغي لمن عاش في الدنيا أن يجتهد في أن لا يظاهر بالعداوة احداً لما بينت من وقوع احتياج الخلق بعضهم الى بعض ، وإقدار بعضهم على ضرر بعض . وهذا فصل مفيد تبين فائدته للانسان مع تغلب الزمان .

١٥٨ - لذات الدنيا ممزوجة بالآفات والمنغصات

رأيت النفس تنظر الى لذات أبواب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات .

(١) عود صغير

وبيان هذا انك ان رأيت صاحب اماره وسلطنة قتألت
 سمته وجدتها مشوبة بالظلم . فان لم يقصده هو حصل من
 محاله . ثم هو خائف منزع في كل اموره ، حذر من عدو
 أن يَسْئُرَهُ ، قلق من هو فوقه أن يعزله ، ومن نظيره أن
 يكبده . ثم اكثر زمانه يمضي في خدمة من يخافه من
 السلاطين ، وفي حساب أموالهم ، وتنفيذ أوامره التي لا تخلو
 من أشياء منكرة . وان عزل أربى ذلك على جميع ما قال
 من لذة . ثم تلك اللذة تكون معبورة بالحذر فيها ومنها وعليها .
 وان رأيت صاحب تجارة رأيت قد تقطع في البلاد ، فلم
 ينل ما قال الا بعد علو السن وذهاب زمان اللذة . كما حكى
 ان رجلا من أولاد الرؤساء كان حال شيبته فقيراً ، فلما
 كبر استغنى وملك أموالا واشترى عبيداً من الترك وغيرهم
 وجواري من الروم فقال هذه الايات في شرح حاله :

ما كنت أرجوه إذ كنت ابن عشرينا	ملكته بعد أن جاوزت سبعينا
نظيف بي من بني الاتراك أغزلة	مثل الغصون على كسبان يبرينا
ومخرود من بنات الروم رائحة	يحكي بالحسن حور الجنة العينا
يفغزني بأساربع (١) منعمة	تكاد تعقد من أطرافها ليناً

(١) الاسروع في الاصل لظي وهو يريد الاسابع

يرون أحياء ميت لا حراك به وكيف يحين ميتاً صار مدفوناً
قالوا أنينك طول الليل يسهرنا فما الذي تشكي قلت الثانية
وهذه الحالة هي الغلبة ، فان الانسان لا يكاد يجتمع له كل
ما يحبه إلا عند قرب رحيله .

فان بذر ما يجب في بداية شبابه فالصبرة مانعة من فهم
التدبير في الالتذاذ ، والانسان في حالة الصبرة لا يدري أن
هو الى أن يبلغ ، فإذا بلغ كانت همته في المنكوح كيف
اتفق ، وان تزوج جاء الاولاد فمنعوه اللذة وانكسر في نفسه
وافترق الى الكسب عليهم ، فبينما هو قد دَعَكَ (في تلك
المديدة القريبة) الثلاثين ، وخطه الشيب فانفرد من نفسه
لعلمه ان النساء ينفرن منه ، كما قال ابن المعتز بالله :

لقد أتعبت نفسي في مشيبي فكيف تحبني الخرد^(١) الكعاب
فاذا فهم المتمتع بالمستحسنات ، وخرج عن طلب صورة
النكاح ، لم يجد ما لا يبلغ به المراد ، فان كسب ضاع زمن
تمتعه ، واذا تم المطلوب فالشيب أقبح قذى وأعظم مبغض .
ثم ان صاحب المال خائف على ماله ، محاسب لمعامله
مذموم ان اسرف وان قتر ، ولده يرصد موته ، وجاريته

(١) يقال خرد وخرد

قد لا ترضى بشخصه ، وهو مشغول بحفظ حواشيه ، فقد مضى زمانه في عجن ، واللذات فيها خلص معتادة لالذة فيها ، ثم في القيامة يحشر الامير والتاجر ، الا من عصم الله .

فاياك إياك أن تنظر الى صورة نعيمهم فانما تستطيعه لبعده عنك ، ولو قد نلته يرد عندك ، ثم في ضمنه من عجن الدنيا والآخرة مالا يوصف .

فعليك بالقناعة مهما أمكن ، ففيها سلامة الدنيا والدين . وقد قيل لبعض الزهاد وعنده خبز يابس : كيف تشتهي هذا؟ فقال : أتركه حتى أشتهيه .

١٥٩ - مناجاة

وقع بيني وبين أرباب الولايات نوع معاداة لاجل المذهب فاني كنت في مجلس التذكير أنصر ان القرآن كلام الله وأنه قديم ، وأقدم ابا بكر ، واتفق في أرباب الولايات من يميل الى مذهب الاشعري ^(١) ، وفيهم من يميل الى مذهب الروافض وتماثلوا علي في الباطن ، فقلت يوماً في مناجاتي للحق سبحانه وتعالى : سيدي نواصي الكل بيدك ، وما فيهم من يقدر لي

(١) مغزى المباشرة أن مذهب الاشعري من المذاهب المخالفة للسنة وليس

كذلك . انظر لمليحة الفصل (١٢٣)

على ضرر ، الا أن تجربته على يده ، وانت قلت سبحانه
 « ومأم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، وطيب قلب
 المبتهلى بقولك : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، فان
 أجريت على أيدي بعضهم ماوجب خذلاني كان خوفاً على
 مانصرته اكثر من خوفاً على نفسي ، لئلا يقال ، لو كان على حق
 ماخذل ، وان نظرت الى تقصيري وذنوبي فاني مستحق للخذلان
 غير أني أعيش بما نصرته من السنة ، فأدخلني في خفارته ، وقد
 استودعني إياك خلق من صالحى عبادك ، فان لم تحفظني بي
 فاحفظني بهم . سيدي انصرتني على من عاداني ، فانهم لا يعرفونك
 كما ينبغي ، وهم معرضون عنك على كل حال ، وأنا على
 تقصيري اليك أنسب .

١٦٠ - السعيد من ذل وسأل الله العافية

روي عن الحلّاج الصوفي (١) انه كان يقعد في الشمس في الحر
 الشديد وعرقه يسيل ، فجاز به بعض العقلاء فقال : يا أحمق هذا
 تقاوى على الله تعالى . وما أحسن ما قال هذا فانه ما وضع التكليف
 إلا على خلاف الأغراض ، وقد يخرج صاحبه الى ان يعجز عن الصبر .
 فالجاهل الاحق من تقاوى ويسأل البلاء كما قال ذلك الأبى :

(١) الحلّاج قتل على الكفر بسبب الشرع فلا تفتربكلام من يدافع عنه .

فكيف مائت فاختبرني . والسعيد من فل وسأل العافية ،
 فانه لا يوهب العافية على الاطلاق فلا بد من بلاء ، فلا
 يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على جهور أحواله فيقرب الصبر
 على سير البلاء . وفي الجملة ينبغي للانسان ان يعلم أنه
 لا سبيل الى محبوباته ، ففي كل جرعة غصص ، وفي كل لقمة شجأ :
 ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل الى الوصال
 وعلى الحقيقة ما للصبر إلا على الاقدار ، وقل ان تجري
 الاقدار إلا على خلاف مراد النفس . فالعاقل من دارى نفسه في
 الصبر بوعد الأجر ، وتسهيل الامر ، ليذهب زمان البلاء سالماً من
 شكوى ، ثم يستغيث بالله تعالى سائلاً العافية ، فأما
 المتجمل فما عرف الله قط .
 نعوذ بالله من الجهل به ، ونسأله عرفانه ، انه كريم مجيب .

١٦١ - انحراف الصوفية

الجادة السلبية والطريق القويمة ، الاقتداء بصاحب الشرع
 والبدار الى الاستئنان به . فهو الكامل الذي لانقص فيه فإن
 خلقاً كثيراً انحرفوا الى جادة الزهد وحملوا أنفسهم فوق الجهد
 فأفاقوا في أواخر العمر ، والبدن قد نكس ، وفاتت أمور
 مهمة من العلم وغيره . وان أقواماً انحرفوا الى صورة العلم

خالفوا في طلبه ، فأفاقوا في أواخر العمر ، وقد فاتهم العمل به . فطريق المصطفى ﷺ العلم والعمل ، والتلطف بالبدن ، كما أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له : ان لنفسك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً . فهذه هي الطريق الوسطى الفضلى ، فأما اليبس الجرد ، فكم فوت من علم لو حصل نيل به أكثر مما نيل بالعمل ، فإن مثل العالم كرجل يعرف الطريق ، والعابد^(١) جاهل بها ، فيشي العابد من الفجر الى العصر ، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان وقد سبق العالم فضل شرطه . فإن قال قائل : بين لي هذا . قلت : صورة التعبّد خدمة لله تعالى ، وذل له ، وربما لم يطلع العابد على معنى تلك الصورة ، لأنه ربما ظن أنه أهل لوجود الكرامة على يده ، وأنه مستحقّ لتقيل يده ، أو أنه خير من كثير من الناس ، وذلك كله لقلّة العلم .

وأعني بالعلم فهم أصول العلم ، لا كثرة الرواية ومطالعة مسائل الخلاف ، فإذا طالع العالم الاصولي ، سبق هذا العابد بحسن خلق ، ومداراة الناس ، وتواضعه في نفسه ، وارشاده الخلق الى الله تعالى ، فيعسر على هذا العابد ، وهو في ليل

(١) أي العابد بلا علم ، أما العالم العابد فهو الذي جمع الخير كله ، والعبادة الصحيحة هي غاية الخلق ، فمن علم ولم يعمل كان عليه حجة عليه يوم يقوم الحساب .

جهله بالخال راقدا . ربما تزوج العابد ثم حمل نفسه على التجفف
فحبس زوجته عن مطاوبها ولم يطلقها ، وصار كالتي^(١) حبست
المرأة فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الارض .
ومن تأمل حالة الرسول ﷺ ، رأى كاملاً من الخلق ،
يعطي كل ذي حق حقه ، فتارة يمزح ، وتارة يضعك ،
ويداعب الاطفال ، ويسمع الشعر ، ويتكلم بالمعاريف ،
ويحسن معاشره النساء ، ويأكل ما قدر عليه وفتح له ، وان
كان لذيذاً كالعسل ، ويستعذب له الماء ، ويفرش له في الظل ،
ولا ينكر ذلك .

ولم يسمع عنه بمثل ما حدث بعده من جهال المتصوفة
والمتهدين ، من منع النفس شهواتها على الاطلاق . فقد كان
ياكل البطيخ بالرطب ، ويقبل ، ويص اللسان ، ويطلب
المستحسنات .

فأما أكل خبز الشعير ووزن المأكول ، وتخفيف البدن ،
وهجر كل مشتهى ، فإنه تعذيب للنفس ، وهدم للبدن ،
لا يقتضيه عقل ، ولا يمدحه شرع . وإنما اقتنع أقوام بالقليل ،
لأسباب مثل أن حدثت شبهة قتلوا ، أو اختلط طعام بطعام
فتورعوا . ثم كان النبي ﷺ يوفي العباد حقا ، بقيام الليل
والاجتهاد في الذكر .

(١) واحه : دخلت النار امرأة في مرة حبستها الخ ..

فعليك بطريقته التي هي أكمل الطرق ، وبشرعته التي لا شوب فيها ، ودع حديث فلان وفلان من الزهاد ، واحمل أمرهم على أحسن حمل ، وأقم لهم الاعتذار مهما قدرت ، فان لم تجد عذراً فهم محجوجون بفعله ، اذ هو قدوة الخلق ، وسيد العقلاء . وهل فسد الناس الا بالانحراف عن الشريعة .

ولقد حدثت آفات من المتصوفة والمتزهدين ، خرقوا بها شبكة الشريعة ، وعبروا ، فمنهم من يدعي المحبة والشوق ، ولا يعرف المحبوب ، فتراه يصيح ويستغيث ويمزق ثيابه ويخرج عن حد الشرع بدعواه ومضمونها . ومنهم من حمل على نفسه بالجوع والصوم الدائم ، وقد صرح عن النبي ﷺ أنه قال لعبد الله بن عمر : صم يوماً وافطر يوماً . فقال : أريد أفضل من ذلك . فقال : لا أفضل .

وفهم من خرج الى السياحة فأفادت نفسه الجماعة ، وفهم من دفن كتب العلم وقعد يصلي ويصوم ، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح ، لان النفس تغفل وتحتاج الى التذكير في كل وقت ، ونعم المذكر كتب العلم .

وإذا دخل إبليس على كل قوم منهم من حيث قدر ، وكان مقصوده بدفن الكتب اطفاء المصباح ، لبسير العابد في الظلمة . وما أحسن ما قال بعض العلماء لرجل سأله فقال :

أريد أن أمضي الى جبل الآكام ، فقال : هذه (هَوَّكَلَه)
وهي كلمة عامية معناها حب البطالة . وعلى الحقيقة الزهاد في مقام
الحفافيش ، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس ، وهم
حالة حسنة إذا لم تمنع من خير من جماعة ، واتباع جنازة ،
وعيادة مريض ، الا انها حالة الجبناء ، فاما الشجعان فهم
يتعلمون ويعلمون . وهي مقامات الانبياء عليهم السلام .

أتري كم بين العابدين اذا نزلت به حادثة وبين الفقيه ؟
بالله لو مال الخلق الى التعبد لضاعت الشريعة ، على أنه
لو فهم معنى التعبد لم يقتصر به على الصلاة والصوم قرب ماش
في حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة . والعمل بالبدن
سعي الآلات للظاهرة ، والعلم سعي الآلات الباطنة ، من
العقل والفكر والفهم ، فلذلك كان أشرف .

فان قلت : كيف تدم المعتزلين للشر الى التعبد ؟
قلت : ما أذمهم ، بل حدثت منهم حوادث اقتضاها الجهل
من الدعاوى والآفات التي سببها قلة العلم ، وحملوا على أنفسهم
(التي ليست لهم وعن غير اذن الأمر) ما لم يجوز ، حتى أن
أحدهم يرى أن فعل ما يؤذي النفس على الإطلاق فضيلة حتى
قال بعض الحكماء : دخلت الحمام فوجدت غفلة ، فأليت أن
لا أخرج حتى أصبح كذا وكذا نسيعة ، فطال الأمر

عزمت . وهذا رجل خاطر بنفسه في فعل ما ليس له . ومن
المتصوفة والزهاد من قنع بصورة اللباس ، وركب من الجهل
في الباطن ما لا يسعه كتاب . طهر الله الأرض منهم وأعان
العلماء عليهم ، فان أكثر الحقى معهم ، فلو أنكر عالم على
أحدهم مال العوام على العالم بقوة الجهل .

ولقد رأيت كثيراً من المتعبدین وهو في مقام العجائز
يسبح تسييحاً لا يحوز النطق به ، ويفعل في صلاته ما لم ترد به
السنّة . ولقد دخلت يوماً على بعض من كان يتعبد ، وقد
أقام إماماً وهو خلفه في جماعة يصلي بهم صلاة الضحى ويحبر
فقلت لهم : إن النبي ﷺ قال : صلاة النهار عجباء . فغضب
ذلك الزاهد وقال : كم ينكر هذا علينا . وقد دخل فلان
وأنكر وفلان وأنكر ، نحن نرفع أصواتنا حتى لا ننام .

فقلت : واعجبوا ومن قال لكم لا تناموا ؟ اليس في
الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال له : قم ونم
وقد كان رسول الله ﷺ ينام ، ولعله ماضت عليه ليلة إلا
ونام فيها . ولقد شاهدت رجلاً كان يقال له حسين القزويني
بجامع المنصور وهو يمشي في الجامع مشياً كثيراً دائماً ، فسألت
ما السبب في هذا المشي ؟ فقبل لي : حتى لا ينام .

وهذه كلها حماقات أوجبها قلة العلم ، لانه اذا لم تأخذ

النفس حظها من النوم اختلط العقل ، وفات المراد من التعب
بعد الفهم .

ولقد حدثني بعض الصالحين المجاورين بجامع المنصور ، ان
رجلا اسمه كثير ، دخل عليهم الجامع فقال : اني عاهدت الله
على امر ونقضه ، وقد جعلت عقوبتي لنفسي ان لا آكل شيئا
اربعين يوماً . قال : فكث منها عشرة ايام قريب الحال يصلي
في جماعة ، ثم في العشر الثاني بان ضعفه وكان يداري الامر ،
ثم صار في العشر الثالث يصلي قاعداً ، ثم استطرح في العشر
الرابع ، فلما تمت الاربعون جيء بنقوع فشربه ، فسمعنا
صوته في حلقه مثل مايقع الماء على المقلاة ، ثم مات بعد ايام .
فقلت : يا الله العجب ، انظروا ما فعل الجبل باهله ، ظاهر هذا
انه في النار ، الا ان يعفى عنه .

ولو فهم العلم وسأل العلماء لعرفوه انه يجب عليه أن يأكل ،
وان ما فعله بنفسه حرام . ولكن من اعظم الجهل استبداد
الانسان بعلمه .

وكل هذه الحوادث نشأت قليلا قليلا حتى تمكنت . فأما
الشرب الاول فلم يكن فيه من هذا شيء ، وما كانت الصحابة
تفعل شيئا من هذه الاشياء . وقد كانوا يؤثرون ^(١) ويأكلون

(١) يؤثرون غيرهم على أنفسهم

دون الشيع . ويصبرون إذا لم يجدوا . فمن اراد الاقتداء فعليه
 برسول الله ﷺ أو صحابه ، ففي ذلك الشفاء والمطلوب .
 ولا ينبغي أن يخلد العاقل الى تقليد معظم شاع اسمه ،
 فيقول : قال ابو يزيد ، وقال الثوري . فان المقلد^(١) أعمى ، وكـ
 قد رأينا أعمى يأنف من حل عصا^(٢) . فمن فهم هذا المشار اليه
 طلب الافضل والاعلى والله الموفق .

١٦٢ - الفلسفة والرهبانية

تأملت الدخـل الذي دخل في ديننا ، في العلم والعمل فرأيتـه
 من طريقين :

فأما أصل الدخـل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة . وهو أن
 خلقاً من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ
 من الانكفاف على الكتاب والسنة ، فأوغلوا في النظر في
 مذاهب أهل الفلسفة ، وخاضوا في الكلام الذي حملهم على
 مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد .

وأما أصل الدخـل في باب العمل فمن الرهبانية ، فان خلقاً
 من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التشف ، ولم ينظروا
 في سير نبينا ﷺ وأصحابه ، وسمعوا فم الدنيا وما فهموا
 المقصود ، فاجتمع لهم الاعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهم

(١) أي المقلد فـيا يقدر على الاجتهاد فيه ، او لـا ضرورة له الى التقليد فيه ،
 اما تقليد العامي الذي لا يقدر على الاجتهاد لأحد أئمة المذاهب الاربعة فواجب .
 (٢) هذا مثال من يأنف من التقليد وهو عاجز عن الاجتهاد

للقصود ، فحدث منهم بدع قبيحة . فأول ما ابتدأ به ابليس أنه أمرهم بالاعراض عن العلم ، فدفعوا كتبهم وغسلوها ، وألزمهم زاوية التعبد فجا زعم ، وأظهر لهم من الخزعبلات ما أوجب إقبال العوام عليهم فجعل السهم هوام ، ولو علموا أنهم منذ دفعوا كتبهم وفارقوا العلم انطقاً مصباحهم ما فعلوا ، لكن ابليس دقيق المنقب (١) .

وبالعلم يعلم فساد الطريقين ويهتدي إلى الاصب .
نسأل الله عز وجل أن لا يجرمنا إياه فانه النور في الظلم .
والانيس في الوحدة ، والوزير عند الحادثة (٢) .

١٦٣ - دواء البطالين

أعوذ بالله من صحة البطالين . لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرّون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك للتردد خدمة ، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ، ويتخلله غيبة . وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش من الوحدة ، وخصوصاً في أيام التهافي والاعياد ، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على المناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكروه من تضيع الزمان .

(١) أي الخنزير (٢) أي المعين عن المعية

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهائه
 بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين :
 أن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المؤلف ،
 وإن قبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت ادافع بالثنا جهدي ،
 فإذا غلبت فصرت في الكلام لأنزعجني الفراق . ثم أعددت
 أملاً لا تمنع من المحادثة ، لآوقات لقائهم لثلاثي الزمان
 فارغاً . فبعلت من الاستعداد للقائهم قطع الكاغد . وبريحي
 الأقلام ، وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لا بد منها ،
 ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لآوقات زيادتهم
 لثلاثي بضعة شيء من وقتي .

نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر ،
 وإن يوفقنا لاغتنامه . ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون
 معنى الحياة . فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله ،
 فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس ، ولم يرب
 من آفة ومنكر . ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج ومنهم من
 يقطع الزمان بكثرة الحوادث ^(١) من السلاطين والغلاء والرخس
 إلى غير ذلك .

(١) أي رواية الحوادث واستقصاء الاخبار ، ويجمع ذلك كله قراءة الجرائد
 واستماع الاذاعات .

فعلت ان الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألمه اغتنام ذلك « وما يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

١٦٤ - التصنيف انفع من التدريس

رأيت من الرأي القويم ان نفع التصنيف اكثر من نفع التعليم بالمشافهة ، لأنني أضافه في عمري عدداً من المتعلمين وأضافه بتصنيفي خلقاً لا يحصون ما خلقوا بعد ^(١) ، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم . فينبغي للعالم ان يتوفر على التصنيف ان وفق للتصنيف المفيد ، فإنه ليس كل من صنف صنف ، وليس المقصود جمع شيء ، كيف كان ، وإنما هي أمرار يطلع الله عز وجل عليها من شاء من عباده ^(٢) ويوفقه لكشفها ، فيجمع ما فُرق او يرتب ما سُتت ، أو يشرح ما أهمل ، هذا هو التصنيف المفيد .

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر ، لأن أوائل العمر زمن الطلب ، وآخره كلال الحواس . وربما خان

(١) صحيح والله ، رحمه الله ، واجزل ثوابه . (٢) جعلنا الله منهم

العلم والمثل من قدر عمره ، ولما يكون التدبير على العادات
 الخالصة ، لا أنه يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ
 والتشاكل الى الأربعين ، ثم يتدبر بعد الأربعين بالتصنيف
 والتعليم . هذا اذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ ،
 وأعين على تحصيل المطالب .

فأما اذا قلت الآلات عنده من الكتب ، أو كان في
 أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريد في هذا الاوان ،
 أخر للتصنيف الى تمام خمسين سنة . ثم ابتداء بعد الخمسين في
 التصنيف والتعليم الى رأس الستين ، ثم يزيد فيما بعد الستين
 في التلميز ويسع الحديث والعلم ويطلع للتصنيف ^(١) الى رأس
 السبعين ، فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة
 والتهيز للرحيل . فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعلم بحسبه ،
 أو تصنيف يقتدر اليه ، فذلك اشرف العدة للآخرة .

ولتكن همه في تنظيف نفسه وتهذيب خلاله ، والمبالغة
 في استدراك زلاته ، فان اختطف في خلال ما ذكرنا قبة
 المؤمن خير من عمله ، وان بلغ الى هذه المنازل فقد يشأ

(١) أي يرجع عليها بالتصحيح والتنقيح وبيان الادلة والمثل ، ومنه من يجد
 الدين الموصلي كتابه الذي ينبغي فيه ادراك حكم الخلق وترجيح فيه الاختيار لتلخيص الفتاوى

ما يصلح لكل منزل . وقد قال سفيان الثوري : من بلغ
 من رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفنًا . وقد بلغ جماعة من العلماء
 سبعاً وسبعين سنة ، منهم أحمد بن حنبل ، فان بلغها فليعلم أنه على شفير
 القبر ، وأن كل يوم يأتي بعدها مستطرف . فان تمت له الثمانون
 فليجعل همته كلها مصروفة إلى تنظيف خلاه ، ونهية زاده ،
 وليجعل الاستغفار حليفه ، والذكر أليفه ، وليدقق في محاسبة
 النفس في بذل العلم ، أو مخالطة الخلق ، فان قرب الاستعراض
 للجيش يوجب عليهم الحذر من العارض . وليبالغ في إبقاء
 أثره قبل رحيله ، مثل بث علمه ، وإنفاق كتبه وشيء من ماله .
 وبعد فمن تولاه الله عز وجل علمه ، ومن أراد أمله .
 نسأل الله عز وجل أن ينعم علينا بان يتولانا ولا يتولى عنا
 أنه قريب مجيب .

١٦٥ - العادات والشرع

رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع ،
 فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جرباته العادة
 لا لنهي الشرع !

فكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويشترى ، فاذا حصلت

له القراضه باعها بالصحيح من غير تقليد لامام^(١) ، أو حمل
برخصة عادة من القوم ، واستقلالاً للاستفتاء .

ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب ويتوانون عن
الفرائض . وكثيراً من المتصوفين لا يستوحشون من ظلم
الناس ، ثم يتصدقون على الفقراء . وربما توانوا عن إخراج
الزكاة ، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها . ثم إذا حضر
أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال .

ومنهم من يخرج بعض الزكاة مصانعة مما لم يخرج به . ومنهم
من يعلم أن أصل ماله حرام ، ويصعب عليه فراقه للعادة .
وفهم من يحلف بالطلاق ويحنت ويرى الفراق صعباً ،
فربما تأول وربما تكاسل عن التأويل اتكالا على عفو الله
تعالى ، ووعداً من النفس بالتوبة .

ومنهم من يرى أن استعمال الشرع ربما كان صيباً في
تضييق معاشه ، وقد ألف التفسح فلا يسهل عليه فراق ما قد
ألف . والعادات في الجملة هي المهلكة .

(١) كانت الدراهم بالوزن . والدرم إما أن يكون صحيحاً وإما أن يكون
قطماً فضية مكسرة من الدرهم وهي القراضة (والكلمة مستعملة عند عوام الشام إلى
الآن) ووجه إنكار المؤلف كونها فضة وهي من الأموال الربوية لا تكون إلا
مثلاً بمثل يدأ بيد . تراجع باب « ربا الفضل » في كتب الفقه ، ورسالة القياس
في الشرع الاسلامي لابن تيمية .

ولقد حضر عندي رجل شيخ ابن ثمانين سنة ، فاسترث
 منه دكانا وعقدت معه العقد ، فلما افترقنا غدو بعد أيام ، فطلبت
 منه الحضور عند الحاكم قاضي ، فأحضرت فحلف باليمين الغموس
 أنه مابعتني ، فقلت ماتدور عليه السنة ، وأخذ يوطلي لمن
 يحول بيني وبينه من الظلمة ، فرأيت من العوام من قد
 غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها إلى قول قبيح ، يقول :
 هذا ما قبض الثمن فكيف يصح البيع ؟ وآخر يقول : كيف
 يجوز لك أن تأخذ دكانه بغير رضا ؟ وآخر يقول : يجب
 عليك أن تقيه البيع . فلما لم أقله أخذ هو وأقاربه يأخذون
 مرضسي ، ورأى أنه مجامى من ملكه ، ثم سعى بي إلى
 السلطان سعابة يجرى فيها من الكذب ما أدهشني ، ووطلي^(١)
 ما لا خلق من الظلمة ، فبالعوا وسعوا ، إلا أن الله تعالى
 نجاني من شرهم . ثم إني أقمت عليه البيعة عند الحاكم ، فقال
 بعض أرباب الدنيا للحاكم : لا تحكم له .

فوقف عن الحكم بعد ثبوت البيعة عنده ، فرأيت من
 هذا الحاكم ومن حاكم آخر أعلى منه من ترك انقضاء الحق
 حفظاً لرياستهم ما هو عندي ما فعله ذلك الشيخ حفظاً لئلا
 يلحقه وعلم هؤلاء ، فتجلى لي من الأمر أن العادات غلبت

(١) البرطيل الرشوة وبرطلة فنبرطل رشاء فاونتي وهو من عامي الشام الصريح

على الناس ، وأن الشرع أعرض عنه ، وإن وقت موافقة
 للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة ، فإن الإنسان لو ضرب
 بالسباط ما أفطر في رمضان . عادة قد استمرت ، وبأخذ
 أعراض الناس وأموالهم عادة . فكم رأيت هذا الشيخ يصلي
 ويحافظ على الصلاة ، ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع
 جانباً . وكم قد رأيت أولئك الحكام يتعبدون ويطلبون
 العلم ، غير أنهم خافوا على رياستهم أن يزول تركوا جانب
 الدين . ثم أن الله تعالى نصرني عليه وتقدم الى الحاكم بأنظاف
 ما ثبت عنده ، ودارت السنة فمات الشيخ على قل^(١) . فنسأله
 عز وجل التوفيق للانتقياد لشرعه ومخالفة أهوائنا .

١٦٦ - عزلة العالم

ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزا ولا شرفا ولا راحة
 ولا سلامة أفضل من العزلة ، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه
 وجهه عند الله عز وجل وعند الخلق ، لأن الخلق يهون
 عليهم من مخالطهم ، ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم ، ولهذا
 عظم قدر الخلفاء لاحتياجهم . وإذا رأى العوام أحد العلماء

(١) أي على قلة وسحابة (٢) ما احتجبا أبو بكر ولا عمر ، وكانوا من
 أعظم قدراً ، إنما يعظم اقدار الحكام أتباعهم الشرع . ولو مثل لمن الحجاب ، وذلك
 المرحى ، يحجاب المرأة أمس ، وسفورها اليوم . لكان اقرب واصوب .

متروخاً في أمر مباح هان عندهم . فالواجب عليه صيانته علمه وإقامته قدر العلم عندهم ، فقد قال بعض السلف : كنا نخرج ونضحك ، فإذا صرنا يقتدي بنا فما أراه يسعنا ذلك . وقال سفيان الثوري : تعلموا هذا العلم وأكثموا عليه ، ولا تخطئوه بهزل فتسبج القلوب . فإراءة الناس لا ينبغي أن تنكر . وقد قال عليه السلام لعائشة : لولا حدثان قومك في الكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين . وقال أحمد بن حنبل في الركنين قبل المغرب : رأيت الناس يكرهونها فتركتهما .

ولا تسع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء ، إنما هي صيانة للعلم .

وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس^(١) أو في يده كسرة يأكلها قل عندهم وإن كان هذا مباحاً ، فيصير بمثابة تخليط الطيب الأمر بالحمية ، فلا ينبغي للعالم أن ينسبط عند العوام حفظاً لهم ، ومتى أراد مباحاً فليستتر به عنهم . وهذا القدر الذي لاحظته أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنها قد قدم الشام راكباً على حمار ورجلاه من جانب ، فقال : يا أمير المؤمنين يتلذذك عطاء الناس .

فما أحسن ما لاحظ ! إلا أن عمر رضي الله عنه أراد

(١) إنما هي عادات ، ولقد كان عامة علماء الاندلس « إلا القضاة منهم » يكتفون رؤوسهم .

تأديب أى عبيدة بحفظ الاحل فقال : إن الله أعزكم بالاسلام
 فيها طلبتم العز في غيره أذلكم . والمعنى ينبغي أن يكون
 طلبكم العز بالدين لا بصور الافعال ، وان كانت الصور
 تلاحظ ، فإن الانسان يخلو في بيته عرباناً^(١) ، فإذا خرج
 الى الناس لبس ثوبين وعمامة ووداء ، ومثل هذا لا يكون
 تصنعاً ولا ينسب الى كبر . وقد كان مالك بن أنس يقتل
 ويتطيب ويقعد للحديث .

ولالتفت باهذا الى ماترى من بذل العلماء على أبواب
 السلاطين ، فان العزلة أصون للعالم والعلم ، وما يخسرهُ العلماء
 في ذلك أضعاف ما يرجونه . وقد كان سيد الفقهاء سعيد
 ابن المسيب لا يغشى الولاية ، وعن قول هذا سكتوا عنه^(٢) .
 وهذا فعل الحازم . فان أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم
 بعقر بيتك ، وكن معتزلاً عن أهلك يطب لك عيشك ،
 واجمل لقاء الاهل وقتاً ، فاذا عرفوه تصنعوا للقائك ،
 فكانت المعاشرة بذلك أجود .

وليكن لك بيت في بيتك تخلو فيه وتحادث مطور
 كتبك ونجربى في حلبات فكرك ، واحترس من لقاء الخلق

(١) كلمة عربان غير ممنوعة من الصرف (٢) ولعل في العبارة تحريفاً من النسخ

وخصوصاً للعوام ، واجتهد في كسب يظفك عن الطمع .
فهذه غاية لذة العالم في الدنيا . وقد قيل لابن المبارك :
مالك لا تجالسنا ؟ فقال : انا اذهب فاجالس الصحابة والتابعين .
وأشار بذلك الى أنه ينظر في كتبه .

ومنى رزق العالم الفنى عن الناس والحلوة ، فان كان له
فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته ، وإن رزق فيها يرتقى
الى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل المات^(١) .
نسأل الله عز وجل همه عالية تسو الى الكمال ، وتوفيقاً
لصالح الاعمال ، فالسالكون طريق الحق افراد .

١٦٧ - ثمرة العلم

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم فرأيت أكثر الخلق
يقين خسارتهم حينئذ ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب ،
ومنهم من فرط في اكتساب العلم ، ومنهم من أكثر من
الاستمتاع بالذات حينئذ . فكلمهم نادى في حالة الكبر
حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت ، أو قوى ضعفت ،
أو فضية فانت . فيمضي زمان الكبر في حشرات ، فإن
كانت الشيخ افاقة من ذنوب قد سلفت قال : وا أسفأ على
ما جنيت . وان لم يكن له افاقة صار متأسفاً على فوات ما كان

(١) لان لذة الحاجة للحلوات اعظم اللذات وأكثرها من نعم الحيات .

يلتذ به . فأما من أنفق عصر الشباب في العلم ، فإنه في زمن
 الشيخوخة يجد جني ماغرس ، ويلتذ بتصنيف ما جمع ، ولا
 يرى مايقصد من لذات البدن شيئاً ^(١) . بالإضافة الى مايناله من
 لذات العلم ، هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل
 به ادراك المطلوب . وربما كانت تلك الاعمال أطيب مما نيل
 منها كما قال الشاعر :

أمتز عندني وصلها طرباً ورب أمنية أحلى من الظفر
 ولقد تأملت نفسي بالإضافة الى عشرين الذين أنفقوا أعمارهم
 في اكتساب الدنيا ، وانفقت زمن الصبوة والشباب في طلب
 العلم ، فرأيتني لم يفتني مما نالوه الا مالو حصل لي ندمت عليه
 ثم تأملت حالي فاذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجامعي
 بين الناس أعلى من جامهم ، ومائلت من معرفة العلم لايقاوم
 فقال لي ابليس : ونسيت تعبك وسهرك ؟ فقلت له : أجهل
 الجاهل ، تقطيع الأيدي لاوقع له عند رؤبة يوسف ، وما
 طالت طريق أدت الى صديق :

جزى الله المسير إليه خيراً وإن ترك المطايا كالزاد ^(٢)

(١) شيئاً مقول فان «دري» (٢) جمع مزارعة ، أي تركها جأداً على علم

ولقد كنت في حلاوة طلبة العلم ألقى من الشدائد ما هو
عندي أحلى من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو .

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في
طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى^(١) فلا أقدر على أكلها إلا
عند الماء ، فكما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين مني لا ترى
إلا لذة تحصيل العلم . فآثر ذلك عندي أني عرفت بكثرة
سماعي لحديث سير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال
أصحابه وتابعيه ، فصرت في معرفة طريقه كإن أجود ، وأثر
ذلك عندي من المعاملة ما لا يدرك بالعلم ، حتى أني أذكر في
زمان الصبوة ، ووقت الغلة والعزبة ، قدرتي على أشياء كانت
النفس تتوق إليها توقان العطشان الى الماء الزلال ، ولم يمنعني
عنها الا ما آثر عندي من العلم من خوف الله عز وجل . ولولا
خطايا لا يتخلو منها البشر ، لقد أخاف على نفسي من العُجب
غير أنه عز وجل صانني وعلمني وأطلعني من أمرار العلم على
معرفة ، وإيثار الخلوة به ، حتى أنه لو حضر معي معروف
وبشر^(٢) لرأيتها زحمة .

ثم عاد فغمسني في التقصير والتقريط حتى رأيت أقل الناس

(١) من ضواحي بغداد (٢) معروف الكرخي وبشر الحافي

خيراً مني . وتارة يوقظني لقيام الليل ولذة مناجاته ، وتارة
 يجردني ذلك مع سلامة بدني . ولولا بشارة العلم بأن هذا
 نوع تهذيب وتأديب ، لخرجت اما الى العجب عند العمل ،
 واما الى اليأس عند البطالة . لكن رجائي في فضله قد عادل
 خوفي منه . وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه ، لاني رأيت أنه
 قد رباني منذ كنت طفلاً ، فإن أبي مات وأنا لا اعقل به ،
 والأم لم تلتفت إليّ . فركز في طبعي حب العلم . ومازال
 يوقعني على المهم فالمهم . ويحملني الى من يحملني على الاصول
 حتى قوّم أمري . وكم قد قصدني عدو فصدته عني . واذا رأيت
 قد نصرني وبصرني ودافع عني ، ووهب لي ، قوّي رجائي في
 المستقبل بما قد رأيت في الماضي .

ولقد قاب على يدي في مجالس الذكر اكثر من مئتي الف
 وأسلم على يدي اكثر من مئتي نفس ، وكم سالت عين متعب
 بوعظي لم تكن تسيل . ويحق لمن تلح هذا الانعام أن
 يرجو التمام .

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري الى تقصيري وزلي .
 ولقد جلست يوماً فرأيت حوالي أكثر من عشرة آلاف
 مافهم إلا من قد رقى قلبه ، أو دمت عينه . فقلت لنفسي :

كيف بك ان نجوا وملك ؟ فصحت بلسان وجدي : إلهي
وسيدي إن قضيت عليّ بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي حياة
لكرمك لا لأجلي ، لئلا يقولوا عذب من دلّ عليه . إلهي
قد قيل لنبيك ﷺ : اقل ابن أبي المنافق فقال : لا يتحدث
الناس ان عمداً يقتل اصحابه . إلهي فاحفظ حسن عقائدكم في
بكرمك ان تعلمهم بعذاب الدليل عليك . حاشاك والله يا رب
من تكدير الصافي .

لأتبر عوداً انت ربشته حاشا لباني الجود أن يتغضا
لأثعطش الزرع الذي نبت به بصوب إنعامك قد روتها

١٦٨ - العاشق في عذاب

من الامور التي تخفى على العاقل ان يرى انه متى لم يكن
عنده امرأة او جارية يواها هو شديداً انه لا يلتذ في الدنيا ،
فاذا حور محبوباً يملوكا تخايل لذة عظيمة ، واذا كان عنده من
لا يميل اليه اعتقد نفسه محروماً ، وهذا امر شديد الحفاء ،
فينبغي أن يوضح .

وهو أن الملوك يملوك . ومتى قدر الانسان على ما يشتهي
ملكه ومال الى غيره ، تارة لبيان عيوبه التي تكشفها الخالق

فانه قد قال الحكماء : العشق العبي عن عيوب المحبوب .
 وقارة لمكان القدرة عليه ، والنفس لا تزال تطلع الى ما لا قدر
 عليه . ثم لو قدرنا دوام المحبة مع القدرة فانها قد تكون ،
 ولكن ناقصة بقدار القدرة ، وانما يقويا تجني المحبوب . فيكون
 تجنيه كلامتناع ، أو امتناعه من الموافقة ، فاذا صفا فلا بد من
 أكدار ، منها الحذر عليه ، ومنها قلة ميله الى هذا العاشق ،
 وربما تكلف القرب منه بعم الانسان بفسه ميل محبوبه اليه
 ينقص بل ينقص ، فان خاف منه خيانة احتاج الى حراسه
 فقويت الشغص ، وأصلح المقدمات التوسط ، وهو اختيار ما قبل
 النفس اليه ولا يرتقى الى مقام العشق ، فان العاشق في عذاب .
 وانما يتخابل ^(١) الفارغ من العشق التذاذ العاشق وليس كذلك
 فانه كما قيل :

وما في الارض أشقى من محب	وان وجد الهوى عذب المذاق
تراه باسكياً في كل وقت	غشاقاً فرة أو لاشتياق
فيكي انت نأوا شوقاً اليهم	ويكي ان نأوا خوف الفراق
تسفن عنه ^(٢) عند التداني	وتسفن عنه عند الفراق

(١) يتخابل في أسلوب المؤلف : يقوم ويتخيل

(٢) تلول العرب : اقر الله عينه كناية عن الضحك والبرور ، فقال

الوافيون : حشده عينه يكون بها عن البكاء

١٦٩ - علو الهمة بلاء

ما تبلي الانسان قط بأعظم من علو همة . فان من علت
 همة يختار المعالي ، وقد لا يساعد الزمان ، وقد تضعف
 الآلة ، فيبقى في عذاب . واني أعطيت من علو الهمة طرفاً فانا
 به في عذاب ، ولا أقول : لئنه لم يكن ؛ فانه انما يحلو العيش
 بقدر عدم العقل ^(١) ، والعامل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل .
 ولقد رأيت اقواماً يصفون علو همهم ، فتأملتها فاذا بها في
 فن واحد ، ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم ، قال الرضي :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسسي من تفاوت همتي

فنظرت فاذا غاية أمه الإمارة ، وكان ابو مسلم الحراساني
 في حال شيبته لا يكاد ينام ، فقيل له في ذلك فقال : ذهن
 حاف ، وهم بعيد ، ونفس تتوق الى معالي الامور ، مع عيش
 كعيش الهيج الرعاع .

قيل : فما الذي يبرد غلبك .

قال : الظفر بالملك .

قيل : فاطلبه .

قال : لا يطلب الا بالاهوال .

(١) ذو العقل يشقى في النعم بعلة واخو الجاهة في الشقاوة ينعم

قيل : فاركب الاهوال .

قال : العقل مانع .

قيل : فما تصنع ؟

قال : سأجعل من عقلي جهلاً ، وأحاول به خطراً لا ينال
الا بالجهل ، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به ، فإن التحول اخو العدم .
فنظرت الى حال هذا المسكين فاذا به قد ضيع أهم
المهمات وهو جانب الآخرة ، وانتصب في طلب الولايات .
فكم فتك وقتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا ، ثم
لم يتنعم في ذلك أكثر من ثمان سنين ، ثم اغتيل ونسي تديرو
العقل فقتل ، ومضى الى الآخرة على أقبح حال . وكانت
المنبي يقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلدّه

ولكن قلباً بين جنبيّ ماله

مدى ينهي بي في مراد أحدّه

ترى جسده يكسى شفوفاً تربّه

فيختار ان يكسى دروعاً نهده

فتأمل هذا الآخر فإذا نهته فيما يتعلق بالدنيا فحسب .
ونظرت الى علو همي فرايتها عجباً . وذلك أنني أروم من

العلم ما أيقن أني لا أصل إليه ، لأنني أحب ليل كل العلوم
على اختلاف فنونها ، وأريد استتصاء كل فرد ، وهذا أمر
يعجز العمر عن بعضه ، فإن عرض لي همة في فن قد بلغ
مستناه رأيتُه ناقصاً في غيره ، فلا أعد همة تامة . مثل الحديث
فاته الفقه ، والفقيه فاته علم الحديث ، فلا أرى الرخص يتقنان
من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة .

ثم إنني أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق الى ورع يشر ،
وזהادة معروف ، وهذا مع مطالعة التصانيف ، وإفادة الخلق
ومعاشرتهم بعيداً .

ثم إنني أروم الغنى عن الخلق ، واستشرف الافضال عليهم .
والاشتغال بالعلم مانع من الكسب . وقبول المنع مما تأله
الهمة العالية .

ثم إنني أتوق الى طلب الاولاد ، كما أتوق الى تحقيق
التصانيف ، لبقاء الخلفين ^(١) تأبين عني بعد التلف . وفي
طلب ذلك مافيه من شغل القلب الهب لتفرد .
ثم إنني أروم الاستمتاع بالمستعونات ، وفي ذلك امتناع
من جهة قلة المال ثم لو حصل فرق جمع الهمة .

(١) يشير الى انه اذا مات ابن آدم انقطع عنه الا من ثلاث : صدقة جارية ،
وعلم نافع ، وولد صالح يدعو له . وهذان هما الخلفان اللذان اراد .

وكذلك أطلب لبدي ما يصلحه من المطاعم والمشارب ،
فانه ممنوع لذته والتلطف ، وفي فقه المال مانع .
وكل ذلك جمع بين أخذاه . فأين انا وما وحقته من
حال من كانت غاية همه الدنيا ؟

وانا لا أحب ان يחדش حصول شيء من الدنيا وجه ديني
بسبب . ولا ان يؤثر في علمي ولا في عملي . فواقفتي من
طلب قيام الليل ، وتحقيق الورع ، مع اعادة العلم ، وشغل
القلب بالتصانيف ، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم .
ووا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقات الناس
وتعليهم .

وما كدر الورع مع طلب لا بد منه للعائلة .
غير اني قد استسلمت لتعذيري ، ولعل تهذيبي في تعذيري ،
لأن عليان (١) الهمة تطلب المعالي القريبة الى الحق عز وجل .
وربما كانت الخيرة في الطلب دليلاً الى المقصود .
وما انا (٢) أحفظ انقاسي من ان يضع منها نفس في غير
قائدة ، وان بلغ همي مراده ، وإلا فنية المؤمن أبلغ
من حله .

(٢) النصيح جالدة

(١) عليان يعني علوما لا يعرف من الله

١٧٠ - التلطف بالجسم

لما سطرت هذا الفصل المتقدم ، رأيت اذكار النفس بما لا بد لها في الطريق منه ، وهو أنه لا بد لها من التلطف ، فان قاطع مرحلتين في مرحلة خليك بأن يقف ، فينبغي ان يقطع الطريق بالطف بمكن . واذا تعبت الرواحل نهض الحادي يغنيها . وأخذ الراحة الجيدة جيدة . وغوص السابح في طلب الدر صعود . ودوام السير يحشر الأبل (١) والمفازة صعبة .

ومن أراد ان يرى التلطف بالنفس فليتنظر في سيرة الرسول ﷺ فانه كان يتلطف بنفسه ، ويمارح ويمخاط النساء ، ويقبل ويمص اللسان ، ويختار المستحسنيات ، ويستعذب له الماء ويختار الماء البارد (٢) ، والأوفى من المطاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى . وهذا كله رفق بالناقة في طريق السير . فأما من جرد عليها السوط فانه يوشك ألا يقطع الطريق . وقد قال ﷺ ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فان المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

(١) يريد انه يتعبها

(٢) كرر هذا المعنى من قبل

وأعلم أنه ينبغي للعاقل أن يغالط نفسه فيما يكشف العقل
عن عوارده ، فإن فكر المتيقظ يسبق قبل مباشرة المرأة الى
أنها اعتناق جسد يحتوي على قذارة ، وقبل بلع اللقمة أنها
مقلبة في الريق لو أخرجها الانسان ^(١) ولو فكر في قرب الموت
وما يجري عليه بعده ، لبغض عاجل لذته ، فلا بد من مغالطة
تجري لينتفع الانسان بعيثه كما قال لبيد :

فاكذب النفس إذا حدثتها ان صدق النفس يزري بالأمل
وقال البستي ^(٢) :

أفد طبعك المكدود بهم راحة 'نجم' وعلاه بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته ذاك فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
وقال أبو علي بن الشبل ^(٣) :

وإذا هممت فناج نفسك بالمني وعداً فغيرات الجنان عدات
واجعل رجاءك دون بأسك جنة حتى تزول بهك الاوقات
واستر عن الجلساء بشك انما جلساؤك الحساد والشحات
ودع التوقع للحوادث انه للحي من قبل المات بمات

(١) هنا ياش بالاصل

(٢) أبو الفتح علي بن الحسين كان من اكبر شعراء عصره توفي في بخاري سنة ٤٠٠ هـ

(٣) الحسين بن عبد الله فيلسوف شاعر توفي في بغداد سنة ٤٧٤ هـ

وله القصيدة النادرة المشهورة جدا :

اقصد ذا السير ام اضطرار

يربك ايها الفلك المدار

فالمم ليس له ثباتٌ مثل ما في أهله ما للسرور ثبات
لولا مغالبة النفوس عقولها لم يصف للتيقظين حياة
وقال أيضاً :

محفظ الجسم تبقى النفس فيه بقاء النار تحفظ بالوعاء
فبالأس المص فلا تمتها ولا تعد لها طول الرجاء
وعدها في شدائد رها وذكرها الشدائد في الرها
بعد صلاحها هذا وهذا وبالتركيب منفعة الدواء

وقد كان عموم السلف يخضبون الشيب لثلا يرى الانسان
منهم ما يكره ، وان كان الخضب لا يعدم النفس عليها بذلك
ولكنه نوع مخادعة للنفس ، وما زالت ترى الظاهر ، وانما
الفكر والعقل مع الغائب ، ولا بد من مغالبة تجري ليم العيش^(١)
ولو عمل العامل بمقتضى قصر الأمل ما كتب العلم ولا صنف .

فافهم هذا الفصل مع الذي تقدمه ، فان الاول في مقام
الغزبية ، وهذا في مكان الرخصة ، ولا بد لتعب من راحة
واعانة . والله عز وجل على قدر صدق الطلب ، وقوة التمسك
وخلق الحول والقوة ، وهو الموفق .

(١) قال المتن : تصفو الحياة لجاهل او غافل
ولن يخادع في الحقائق لله عما مضى منها وما هو قادم
وهو ما طلب الحال فتتبع

١٧٦ - درس للشباب والشيخوخ

قوام الآدمي بشيئين : الحرارة والرطوبة . ومن شأن الحرارة ^(١) ان تحلل الرطوبة وتقضيها . فالآدمي يحتاج الى تحصيل خلف المتحلل ، فأبدان النشء تغتذي بأكثر مما يتحلل منها . والأبدان المتأخرة تغتذي بمقدار ما يتحلل منها ، والأبدان التي قد أخذت في الهرم يتحلل منها أكثر مما تغتذي به ، فينبغي للنشء البالغ أن يتحفظ في النكاح ، لأنه يربي قاعدة قوة يجد أثرها في الكبر . وأما المتوسط والواقف السن فينبغي أن يحدو فضول الجماع ، فان حصل له مثل ما يخرج منه فأسرف ، فاللازم أخذ من الحاصل ، ويوشك أن يسرع النفاذ . وأما الشيخ فترك النكاح كاللازم له ، خصوصاً اذا زاد علو السن ، لأنه ينفق من الجوهر الذي لا يحصل منه أبداً .

ثم ينبغي ان ينظر العاقل في ماله فيكتسب أكثر مما ينفق ليكون الفائض مدخراً لوقت العجز ، وليحذر السرف ، فان المعدل هو الاصلاح . ثم ينظر في الزوجة ، والمطلوب منها شيان : وجود الولد ، وتديب المنزل . فاذا كانت مبدرة فمريب لا يجتنب ، فان انضمت صفة العقر فلا وجه للاسك ، الا أن تكون

(١) مما يسمى اليوم « الكالوري »

مستحسنة الصورة ، فان ضم اليها عقل وعفاف حسن الامساك .
وان كانت بما يحتاج أن تحفظ فتركها لازم .

فأما الخدم فليجتهد في تحصيل خادم لاستعبده الشهوة ،
فان عبد الشهوة له مولى غير سيده . ولينظر المالك في طبع
المالك ، فمنهم من لا يأتي الا على الاكرام فيكرمه فانه يربح
محبه . ومنهم من لا يأتي الا على الاهانة فليداره . ويعرض عن
الذنوب ، فان لم يكن^(١) عائب بلطف ، وليعذر العقوبة ما أمكن
وليجعل للمالك زمن راحة .

والعجب ممن يعنى بدابته وينسى مداراة جاريته ، وأجود
المالك الصغار ، وكذلك الزوجات . لأنهم متعودون خلق
المشترى ، وليحفظ نفسه الهية من الانحراف مع الزوجة ،
ولا يطلعها على ماله ، فانها سفية تطلب كثرة الاتفاق . وأما
تدبير الاولاد فحفظهم من مخالطة تفسد ، ومنى كان الصبي ذا
أنفة حياء رجي خيره . وليعمل^(٢) على صحبة الاشراف والعلماء
وليحذر من مصاحبة الجهال والسفهاء ، فان الطبع لص ،
وليحذر الصبي من الكذب غاية التحذير ، ومن المخالطة
للصبيان . وليوصه بزيادة البر للوالدين . وليحفظ من مخالطة
النساء فاذا بلغ فليزوج بصية فينتفعان .

هذه الاشارة الى تدبير أمور الدنيا .

فأما تدبير العلم فينبغي ان يحمل الصبي من حين يبلغ
خمس سنين على التشاغل بالقرآن والفقه وسماع الحديث وليحصل

(١) اي فان لم يكن اعراض (٢) اي الولد

له المحفوظات اكثر من المسوعات ، لأن زمان الحفظ الى خمس عشرة سنة ، فاذا بلغ تشتت همته ، فليضرب ثارة ، ويرثى أخرى ، ليلبغ ، وقد حصل محفوظات سنه . وأول ما ينبغي ان يكلف حفظ القرآن متقناً ، فانه يثبت ويختلط بالحم والدم ، ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن ، ثم الفقه مذهباً وخلافاً (١) . وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظه حسن . وليحذر من عادات اصحاب الحديث ، فانهم يفنون الزمان في سماع الاجزاء التي تتكرر فيها الاحاديث ، فيذهب العمر وما حصلوا فهم شيء ، فاذا بلغوا سنّاً طلبوا جواز فتوى ، او قراءة جزء من القرآن ، فعادوا القهقري ، يحفظون بعد كبر السن فلا يحصل مقصودهم . فالحفظ في الصبا للمهم من العلم اصل عظيم . وقد رأينا كثيراً ممن تشاغل بالمسوعات ، وكتابة الاجزاء ، ورأى الحفظ صعباً ، قال الى الاسهل ، فمضى عمره في ذلك ، فلما احتاج الى نفسه قعد يتحفظ على كبر فلم يحصل مقصوده . فاليقظة الفهم ، اذكرت وانظر في الاخلاص ، فما ينفع شيء دونه .

(١) علم الخلاف ، اي الفقه المأثور - كما يقولون اليوم - و«الخلاف» بين علماء المذاهب المتعددة ، و«الاختلاف» بين علماء المذهب الواحد . واجودما اعرف من كتب الخلاف « بداية المجتهد » لابن رشد ، و« المقارنة بين المذاهب » للشيخ شلتوت شيخ الازهر اليوم .

١٧٢ - الويل للمفرط المهمل

اشد القلاء ببغداد في أول سنة خمس وسبعين^(١) ، وكما
جاء التعبير زاد ، فتواقع الناس على اشتراء الطعام ، فاعتبط
من يستعد كل سنة بزرع ما يوقته ، وفرح من يادر في أول نيسان
الى اشتراء الطعام فانه يضاعف ثمنه ، وأخرج الفقراء ما في
بيوتهم فرموه في سوق الموان ، وبات ذل نفوس كانت
حزينة ؛ فقلت : يانفس خذي من هذه الحال اشارة ، ليغبطن
من له عمل صالح وقت الحاجة اليه ، وليفرحن من له جواب
عند اقبال المسألة . وكل الويل على المفرط الذي لا ينتظر في
حاقبه ، فتنبه ، فقد نهبت فاساً الدنيا على أمر الآخرة ،
وبادوي موسم الزرع مادامت الروح في البدن ، فالزمان كله
تسرين قبل ان يدخل نيسان الحصاد ، ومالك زرع ، وحاجة
المفتقرين الى أموالهم غنمهم من الابرار .

١٧٣ - حجة غير متبادلة

تأملت حالة أزهبتني . وهو أن الرجل قد يفعل مع
امراته كل جميل وهي لا تحب ، وكذا يفعل مع صديقه

(١) اي خمس وسبعين وخمسة .

والصديق يفيضه ، وقد يتقرب الى السلطان بكل ما يقدر
 عليه والسلطان لا يؤثره ، فيبقى متحيراً يقول : ما حيلتي ؟
 فنظرت أن تكون هذه حالي مع الخالق سبحانه ، أتقرب
 اليه وهو لا يريدني ، وربما يكون قد كتبني شقياً في الأزل
 ومن هذا خاف الحسن فقال : أخاف أن يكون اطلع على
 بعض ذنوبي فقال : لاغفرت لك . فليس الا القلق والخوف لعل
 سفينة الرجا تسلم يوم دخرها الشاطئ من جرف .

١٧٤ - الاحاديث النبوية وعددها

جرى بيني وبين أحد اصحاب الحديث كلام في قول الامام
 احمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ سبعة الف حديث ،
 قلت له ، إنما يعني به الطرق (١) ، فقال : لا الا المتون .
 قلت هذا بعيد التصور . ثم رأيت لأبي عبد الله الحاكم كلاماً
 ينصر ما قال ذلك الشخص ، وهو أنه قال في كتاب المدخل
 الى كتاب الاكليل كيف يجوز أن يقال : أن حديث رسول
 الله ﷺ لا يبلغ عشرة آلاف حديث ، وقد روى عنه من

(١) أي ان الحديث الواحد يكون له عدة طرق « أي عدة اسانيد »
 فيمدونه بحصة احاديث ، ومن هنا جاءت هذه الأرقام الكبيرة ، وقد غلط في هذه
 المسألة أحمد ابن حنبل في غير الاسلامونيه اعلمها في « الرسالة » من نحو ربع قرن .

أصحابه أربعة آلاف رجل وامرأة ضجوه نيقا وعشرين سنة
بمكة ثم بالمدينة ، حفظوا أقواله وأفعاله ، ونومه ويقظته
وحركاته وغير ذلك سوى ما حفظوا من أحكام الشريعة .
واحتج بقول أحمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ
سبع مئة ألف حديث وكسر ، وأن اسحاق بن راهويه كان
علي سبعين ألف حديث حفظاً ، وأن أبا العباس بن عقدة قال :
أحفظ لاهل البيت ثلاث مئة ألف حديث ، قال ابن عقدة : وظهر
لابن كريب بالكوفة ثلاث مئة ألف حديث .

قلت : ولا يحسن أن يشار بهذا الى التون . وقد عجبت
كيف خفي هذا على الحاكم وهو يعلم أن أجمع المسانيد الظاهرة
مسند احمد بن حنبل ، وقد طاف الدنيا مرتين حتى حصله
وهو أربعون ألف حديث ، منها عشرة آلاف مكررة ،
قال حنبل بن اسحق : جمعنا احمد بن حنبل انا وصالح وعبد الله
وقرأ علينا المسند ، وقال لنا : هذا كتاب جمعه من أكثر من
سبع مئة ألف وخمسين ألفاً . فما اختلف المسلمون فيه من حديث
رسول الله ﷺ فارجعوا اليه ، فان وجدتموه والا فليس
بجدة . أفترى يخفى على منيظ أنه اراد بـ يكونه جمعه من
سبع مئة ألف انه اراد الطرق . لان السبع مئة الالف ان كانت
من كلام رسول الله ﷺ فكيف أهملها ؟

فان قيل فقد اخرج في مسنده أشياء ضعيفة . ثم اعوذ بالله ان يكون سبعة الف مانحوق منها سوى ثلاثين ألفاً وكيف ضاعت هذه الجملة ؟ ولم اهتمت وقد وصلت كلها الى زمن احمد فانقضى منها ورمى الباقي ؟ واصحاب الحديث قد كتبوا كل شيء من الموضوع والكذب .

وكذلك قال أبو داود : جمعت كتاب السنن من سنة الف حديث . ولا يحسن أن يقال أن الصحابة الذين رووها ماتوا ولم يحدثوا بها التابعين ؛ فان الامر قد وصل الى أحمد فأحصى سبعة الف حديث ، وما كان الأمر ليذهب هكذا عاجلاً ، ومعلوم انه لو جمع الصحيح والمحال الموضوع وكل منقول عن رسول الله ﷺ ما بلغ خمسين ألفاً ، فابن الباقي ؟

ولا يجوز ان يقال تلك الاحاديث كلام التابعين ، فان الفقهاء نقلوا مذاهب القوم ودونوها واخذوا بها ، ولا وجه لتروكها ، ففهم كل ذي لب أن الاشارة الى الطرق ، وان ماتوهم الحاكم فاسد ، ولو عرض هذا الاعتراض عليه ، وقيل له : فابن الباقي ؟ لم يكن له جواب . لكن الفهم عزيز . والله المنعم بالتوفيق . ومثل هذا تغفيل قوم قالوا : إن البخاري لم يخرج كل ما صح عنده ، وان ما اخرج كالانموذج ، والا فكان بطول . وقد ذهب الى نحو هذا أبو بكر الاسماعيلي

وحكى عن البخاري أنه قال : ما تركت من الصحيح أكثر ،
ولما يعني الطرق ، يدل على ما قلته أن الدار قطني وهو سيد
الحفاظ جمع ما يلزم البخاري ومسلم لإخراجه ^(١) فبلغ ما لم يذكره
أحاديث يسيرة ، ولو كان كما قالوا لأخرج مجلدات ، ثم قوله
ما يلزم (البخاري) دليل صريح على ما قلته ، لأنه من أخرج
الأنموذج لا يلزمه شيء .

وكذلك أخرج أبو عبد الله الحاكم كتاباً جمع فيه ما يلزم
البخاري لإخراجه فذكر حديث الطائر فلم يلتفت الحفاظ إلى
ما قال . فما أقل فهم هؤلاء الذين شغلهم الحديث من التدقيق
الذي لا يلزم في صحة الحديث . ولما وقع لقله الفقه والفهم .
إن البخاري ومسلم تركا أحاديث أقوام ثقات لأنهم خولفوا
في الحديث ، فنقص الأكثرون من الحديث وزادوا ولو كان
ثم فقه لعلوا أن الزيادة من الثقة مقبولة ، وتركوا أحاديث
أقوام لأنهم انفردوا بالرواية عن شخص ، ومعلوم أن انفرد
الثقة لا عيب فيه . وتركوا من ذلك الغرائب . وكل ذلك
سوء فهم . ولهذا لم يلتزم الفقهاء هذا ، وقالوا : الزيادة من

(١) أي ما وجدته من الأحاديث على شرطها . راجع رسالة « شروط الأئمة »

الجمعة ، طبع حسام الدين القدسي . وانظر كتاب [مجمع الزوائد]

الشفقة مقبولة ولا يقبل القدح حتى يبين سببه ^(١) . وكل من لم
يخاطب الفقهاء وجهه مع المحدثين تأذى وساء فيه . فالحمد لله
الذي انعم علينا بالحالتين .

١٧٥ - طبيعة النفوس

اعلم أن الله عز وجل وضع في النفوس أشياء لا تحتاج الى
دليل . فالنفوس تعلمها ضرورة ، واكثر الخلق لا يحسنون
التعبير عنها . فانه وضع في النفس ان المصنوع لا بد له من
صانع ، وان المبنى لا بد له من بان ، وان الاثنين اكثر من
الواحد ، وان الجسم الواحد لا يكون في مكانين في حالة واحدة
ومثل هذه الاشياء لا تحتاج الى دليل ^(٢) ، وأهم العرب النطق
بالصواب من غير لحن ^(٣) ، فهم يفرقون بين المرفوع والمنصوب
بأمارات في جملتهم ، وان عجزوا عن النطق بالعلمة ، قال
عثمان بن جنى : سألت يوماً أبا عبد الله بن عساف العقيلي
فقلت له : كيف تقول (ضربت اخوك) ؟ فقال : اقول (ضربت
اخاك) ، فأدبرته على الرفع فأبى . وقال : لا اقول (اخوك) ابداً .

(١) ومن القدح الذي لم يبين سببه ، ولا وجه لقبوله ، ولا صحة له ، فليس
بعض المحدثين بسيد فقهاء الاسلام الامام الاعظم ابى حنيفة . واعلمه وابصره عن
الحق اتهامهم إياه بسوء الحفظ ، وقد كان في حفظه فائرة الدنيا ، وأعجوبة الدهر ،
(٢) وهي البدييات

(٣) هذه طائفة تشبه بالقرينة وليست من باب البدييات الطويلة .

قال : فكيف تقول ضربني اخوك ؟ فرفع ، فقلت : أليس زعمت انك لاتقول اخوك ابداً ؟ فقال : ايش هذا ؟ اختلفت جهتها في الكلام !

وهذا ادل شيء على تأملهم مواقع الكلام ، واعطائهم اياه في كل موضع حقه ، وانه ليس استرسالا ولا ترخيا .
قال عثمان : واللغة هي اصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، والنحو انتحاء سمّت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره كالثنية والجمع والتحقير^(١) والتكسير وغير ذلك ليلحق من لبس من اهل اللغة اهلها .

١٧٦ - علو الهمة

تعبرت احوال الاخيار والاشرار فرأيت سبب صلاح الاخيار النظر^(٢) ، وسبب افعال الاشرار إهمال النظر .
وذاك ان العاقل ينظر فيعلم انه لا بد له من صانع ، وان طاعته لازمة ، ويتأمل معجزات رسول الله ﷺ فيسلم قياده الى الشرع ، ثم ينظر فيما يقربه اليه ، ويؤلفه لديه .
فاذا شق عليه اعادة العلم تأمل ثمرته فسهل ذلك ، واذا صعب عليه قيام الليل فكذلك ، واذا رأى مشتهى تأمل

(١) اي التضمين

(٢) كلمة النظر هنا ، وفي مثل هذا المقام المراد بها النظر العقلي اي الفكر

عاقبته فعلم ان اللذة تفنى والعار والاثم يبقى ، فيسهل عليه التترك . واذا انتهى الانتقام ممن يؤذيه ذكر ثواب الصبر وندم الغضبان على افعاله في حال الغضب . ثم لا يزال يتأمل مرة مرة المرء فيفتنمه بتحصيل افضل الفضائل فينال منها .

وأما الغافل فانه لا يرى الا الشيء الحاضر . ففهم من لم يتأمل في معنى المصنوع واثبات الصانع ، فوجدوا وتركوا النظر ، وجحدوا الرسل وما جاؤوا به ، ونظروا الى العاجل ، ولم يتفكروا في مبدئه ومنتهاه ، فليس عندهم من عرفان المطعم إلا الاكل . ولو تأملوا كيف أنشئ ولماذا جعل حافظاً للأبدان لعرفوا حقائق الامور . وكذلك كل شهوة تعرض لهم لا ينظرون في عاقبتها بل في عاجل لذتها . وكم قد جنت عليهم من وقوع حد ، وقطع يد ، وفضيحة . فتعجيل اللذة يفوت الفضائل ، ويحصل الرذائل ، وسببه عدم النظر في العواقب . وهذا شغل العقل ، وذاك المذموم شغل الهوى .

نسأل الله عز وجل يقظة تربينا العواقب ، وتكشف لنا الفضائل والمعائب ، انه قادر على ذلك .

١٧٧ - المؤلف ذو همة عالية

خلقت لي همة عالية تطلب الغايات ، فعَلت السن وما

بلغت ما أملت ، فأخذت أسأل تطويل العمر ، وتقوية البدن ،
وبلوغ الآمال ، فأُنكرت عليّ العادات وقالت : ما جرت عادة
بما تطلب . فقلت : إنما أطلب من قادر يحرق العادات ، وقد
قيل لرجل : لنا حويجة . فقال : اطلبوا لها وجيلاً . وقيل
لآخر : جئناك في حاجة لا تزوؤك . فقال : هلا طلبتم لها
مغاسف الناس .

فإذا كان أهل الأئمة من أبواب الدنيا يقولون هذا فلم
لا نطسع في فضل كريم قادر . وقد سأله هذا السؤال في
ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين فإث مدّ لي أجل ^(١)
وبلغت ما أملت هذا الفصل إلى ما بعد ويضته ، وأخبرت
ببلوغ آمالي ، وإن لم يتفق ذلك فيسدي أعلم بالمصالح ، فإنه
لا يجع مجللاً ، ولا حول إلا به .

١٧٨ - الرياء في العبادة

ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً لأن أكثر الناس لمحبون
ظهور عباداتهم . وسفيان الثوري كان يقول : لا أعتد بما ظهر
من علي . وكانوا يسترون أنفسهم ، واليوم ثياب القوم

(١) عاش بعد ذلك اثنين وعشرين سنة

تسهرم . وقد كان أيوب السخيتاني^(١) بطول قميصه حتى يقع على قدميه ، ويقول : كانت الشرة في التطويل ، واليوم الشرة في التقصير . فاعلم ان ترك النظر الى الخلق ، وبحو الجاه من قلوبهم بالتعمل واخلاص القصد وستر الحال ، هو الذي رفع من رفع .

فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافياً في وقت ويحمل نعليه في يديه ويخرج للتقاط . وبشر يمشي حافياً على الدوام وحده ، ومعروف يلتقط النوى^(٢) .

واليوم صارت الرياسات من كل جانب . وما تتمكن الرياسات حتى يتسكن من القلب الغفلة ، وورثة الخلق ، ونسيان الخلق ، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا .

ولقد رأيت من الناس عجباً حتى من يتزى بالعلم ، وإن وآني أمشي وحدي أنكر عليّ ، وإن وآني أزور فقيراً عظم ذلك ، وإن وآني أنبسط بتبسم نقصت من عينه ، فقلت : فواعجباً هذه كانت طريق الرسول ﷺ والصحاب

(١) فقيه زاهد حدث جمع الفضائل توفي سنة ١٣١

(٢) وكان الشيخ عبد الحكيم الأدهاني يمتنع عن أموال الأمراء والاعتياء ، فإذا احتاج تشكر وخروج إلى بساين النومة فاشتغل « فاعلاً »

رضي الله عنهم . فصارت احوال الخلق نواويس لاقامة الجاه
لاجرم والله سقطتم من عين الحق ، فأسقطكم من عين الخلق .
فكم بمن يتعب في تربية فاموس ولا يلتفت إليه ولا يحظى
بمراده ، ويفوته المراد الاكبر .

فالتفتوا اخواني الى اصلاح النيات ، وترك التزين للخلق .
ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق ، فبذلك سعد السلف وسعدوا .
وياكم وما الناس عليه اليوم ، فإنه بالاضافة الى يقطه
السلف نوم .

١٧٩ - تأديب الولد

والله ما ينفع تأديب الوالد^(١) اذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك
الولد ، فإنه سبحانه اذا اراد شخصاً رباه من طفولته وهده
الى الصواب ، ودله على الرشاد ، وحجب إليه ما يصلح ،
وصحبه من يصلح ، وبفض إليه خد ذلك ، وقبح عنده
مفساد الامور ، وعصه من القبائح ، واخذ بيده كلما عثر .
واذا أبغض شخصاً تركه دائم التعثير ، متخبطاً في كل
حال ، ولم يخلق له همة لطلب المعالي ، وشغله بالردائل عن

(١) على الوالد ان يتبع الامر باتخاذ الاسباب ويسأل الله التوفيق ، فيؤدب
ولده ما استطاع ، ويدعو الله ان يحبه من الصالحين .

الفضائل . وان قال لم خصصت بهذا ، قال الخطاب الذي
لا يجاب « بما كسبت ايديكم » (١) .

١٨٠ - من الادلة على الله

من اكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه ان هذه النفس
الناطقة المبرزة الحركة للبدن على مقتضى ارادتها ، والتي دبرت
مصالحها ، وترقت الى معرفة الافلاك ، واكتسبت ما امكن
تحصيله من العلوم ، وشاهدت العجائب في المصنوع ، فلم يجيبها
ستور وان تكاثفت ، لا يعرف مع هذا ماهيتها (٢) ولا كيفيتها
ولا جوهرها ولا محلها بأشغالها ، ولا يفهم من اين جاءت ،
ولا يدري اين تذهب ، ولا كيف تعلق بهذا الجسد . وهذا
كله يوجب عليها ان لها مديراً وخالقاً . وكفى بذلك دليلاً عليه .
اذ لو كانت وجدت بها لما خفيت احوالها . فسبحانه سبحانه .

(١) هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، والمطلوب فيها الوقوف عند النصوص ،
ونصوص القرآن صريحة بأن المبدئ يدخل الجنة بعمله ، ويصلي النار بعمله ، وفي القرآن
الآيات الكثيرة بهذا المعنى .

(٢) بل نحن لانعرف ماهية الكهرباء والمغناطيس ، فاذا كان هذا مسمى جهلنا
بنفسنا وبما حولنا ، فكيف نطمح ان نبحث بمقولنا في صفات خالق هذه النفوس ؟
وان نبحث في القضاء والقدر ؟ وان نقول « الصفة عين الموصوف ام لا » ؟ وهل
هي واقعة بالذات ام لا ؟ وما اليد ؟ وما الاستواء ؟

١٨١- تعلم الحديث خير من التنفل

سبحان من منّ على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الامر ومراد الشارع . فهم حفظوا الشريعة فأحسن الله جزاءهم . وإن الشيطان ليتجافاهم خوفاً منهم ، فانهم يقدرون على أداءه ، وهو لا يقدر على اذامه .

ولقد تلاعب بأهل الجهل والقليل الفهم . وكان من اعجب تلاعبه ان حسن لاقوام ترك العلم ثم لم يقتنعوا بهذا حتى قدحوا في المتشاكسين به . وهذا (لو فهموه) قدح في الشريعة . فان رسول الله ﷺ يقول : بلغوا عني . وقد قال له ربه عز وجل : « بلغ » ، فاذا لم يتشاكل بالعلم فكيف يبلغ الشريعة الى الخلق ؟ ولقد نقل مثل هذا عن كبار الزهاد ، كيشير الحافى ، فانه قال لعباس بن عبد العظيم : لانجالس اصحاب الحديث . وقال لاسحق بن الضيف : انك صاحب حديث فاحب ان لاتعود اليّ ، ثم اعتذر فقال : انما الحديث فتنة الا لمن اراد الله به ، واذا لم يعمل به فتركه افضل .

وهذا عجب منه ! من اين له ان طلابه لا يريدون الله به ، وانهم لا يعملون به ؟ وليس العمل به على ضربين : عمل بما يحب ، وذلك لا يسع احداً تركه ، والثاني فاته ولا يلزم .

والتشاغل بالحديث أفضل من التسلل بالصوم والصلاة وما أظنه أراد الا طريقه في هوام الجوع والتجهد ، وذلك شيء لا يلام بتركه . فان كان يريد ان لا يوغل في علوم الحديث فهذا خطأ لان جميع اقسامه محدودة . أفترى لو ترك الناس طلب الحديث كان بشرٌ يعني ؟ فإله الله في الالتفات الى قول من ليس بفقير ، ولا يهولك تعظيم اسمه فإله يغفر عنه .

١٨٢ - من عصى الله بطاعة غيره سلطه عليه

العاقل من يحفظ جانب الله عز وجل وان غضب الخلق وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق بقلب الله قلب الذي قصد ان يرضيه فيسلطه عليه .

قال المأمون لبعض أصحابه : لا تعص الله بطاعتي فيسلطني عليك . ولما بالغ طاهر بن الحسين فيما فعل بالأمين وقتك به وصلب رأسه وان كان ذلك عن ارادة المأمون ، ولكن بقي أثر ذلك في قلبه ، فكان المأمون لا يقدر ان يراه . ولقد دخل عليه يوماً فبكى للمأمون ، فقال له طاهر : لم تبكي لأبكي الله حينك ، فلقد دانت لك البلاد ؟

فقال : أبكي لأمر ذكره ذل ، ومره حزن ، ولن يفلح أحد من شجن .

فلما خرج طاهر أتته الى حديق الخادم متي ألتفت قدم

وسأله ان يسأل المأمون : لم بكى ؟

فلما تغدى المأمون قال : يا حسين اسقني .

قال : لا والله لا أسقيك حتى تقول لي لم بكيت حين

دخل عليك طاهر .

قال : يا حسين وكيف غنيت بهذا حتى سألت عنه .

قال : نعمي بذلك .

قال : يا حسين أمر ان خرج من رأسك قتلتك .

قال : ياسيدي ومتى أخرجت لك سرأ ؟

قال : اني ذكرت أخي محمداً وما ناله من الذلة فغضتني

العبدة فاسترحت الى إفاضتها . ولئن يفوت طاهراً مني ما يكره .

فأخبر حسين طاهراً بذلك ، فركب طاهر الى احمد

ابن ابي خالد فقال له : ان المعروف عندي ليس بضائع فقيني

عن عينه . قال : سأفعل .

فدخل على المأمون فقال : مايت البارحة .

قال : ولم ؟

قال : لانك وليت غان ابن عباد خراسان ، وهو ومن معه

أكلة رأس^(١) ، فأخاف ان يخرج خارج من الترك فيصطله .

قال : فمن ترى !

قال : طاهر بن الحسين . فعقد له فضي ، فبقي مدة ثم

(١) اي انهم لا يثبتون لدوم الا هذا الزمن البير .

قطع الدعاء للمأمون على المنبر يوم الجمعة .

فقال له صاحب البريد^(١) : مادعوت لأمر المؤمنين .

قال : سهو فلا تكتب .

ففعل ذلك في الجمعة الثانية والثالثة .

فقال له : لا بد ان اكتب لك التجار ويسبقوني

قال : اكتب . فكتب .

فدعا المأمون احمد بن ابي خالد وقال :

انه لم يذهب عليّ احتيالك في امر طاهر ، وانا اعطي الله

عهداً ان لم تشخص حتى توافيني به كما اخرجته من قبضي لتدمن

عقبك ، فشخص وجعل يتلوّم^(٢) في الطريق ويعتل بالمرض ،

فوصل الى الري^(٣) وقد بلغته وفاة طاهر .

قلت : ولما خرج الراشد من بغداد وارادوا تولية المقتفي ،

شهد جماعة من الشهود بأن الراشد لا يصلح للخلافة ، فتزعموه

وولي المقتفي ، فبلغني انه ذكر للمقتفي بعض الشهود قدمه ،

وقال : كان فيمن أعان على ابي جعفر .

وعلى ضد هذا كل من يراعي جانب الحق والصواب يرضي

عنه من مخط عليه . ولقد حدثني الوزير ابن هبيرة^(٤) ان

(١) كان من تشكيلات الدولة ان مع كل وال صاحب بريد يكتب بخبره الى الخليفة

(٢) يتأخر ويتقاعس (٣) في موضوع طهران اليوم والنسبة اليها رازي .

(٤) العالم المحدث المادل كان من نوادر الزمان توفي سنة ٥٦٠

المستجد بالله كتب اليه كتاباً وهو يومئذ ولي عهد ، وابهله
أن يسترد من أبيه (قال) فقلت للواصل به : ولله ما يمكنني
أمرؤه ولا أجيب عنه .

فلما ولي الخلافة دخلت عليه فقلت : اكبر دليل على
صدق وإخلاصى فى ما حابيتك فى ابيك .
فقال : صدقت . انت الوزير .

ورحدثني بعض الاصدقاء ان قوماً اخطوا الى الخزن بعض
دين لهم ليستخلص ، فقال المسترشد لصاحب الخزن : خلصه
لهم ونقه ما ضمنوا لنا . فاحضر ابن الرطبي^(١) وعرض الامر
عليه ، فقال : هذا امر بظلم وما أحكم فيه ، فقال : ان
السلطان قد تقدم^(٢) ، قال : ما أفعل . فاحضر قاضياً آخر
فبث الحكم . فأنجز الخليفة بالخال . فقال : أما ابن الرطبي
فبشكر على ما قال . وأما الآخر فيعزل . وذلك لانه بان
ان الحق ما قاله ابن الرطبي . وكذلك ما طلبه السلطان من ان
يلقب ملك الملوك . فاستقى القضاء فأجازوا ذلك وامتنع من
إبازة الماوردى^(٣) ، فعظم قدره عند السلطان .

(١) احمد بن حنبله الفقيه الشافعى توفى ببغداد ٢٢٧ هـ (٢) اي امر
(٣) علي بن محمد قاضي القضاء له الكتاب المصنف في الاحكام السلطانية وغيره

ومثل هذا اذا تسع كثير . فينبغي ان يحسن القصد لطاعة الخالق وان يسخط الخلق ، فانه يعود صاغراً ولا يسخط الخالق فانه يسخط الخلق فيفوت الحظان جميعاً .

١٨٣ - لاتعاشر من ليس له أصل ولا شرف

ينبغي للعاقل أن ينظر الى الاصول فيمن يخالط ويعاشره ويشاركه ويصادقه ويؤوجه او يتزوج اليه . ثم ينظر بعد ذلك في الصور ، فان صلاحها دليل على صلاح الباطن . أما الاصول فان الشيء يرجع الى اصله . وبعيد بمن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن . وان المرأة الحسنة اذا كانت من بيت ردي قل أن تكون صالحة ، وكذلك أيضاً الخاط والصديق والمبايع والمعاشر .

فإياك أن تخالط الا من له أصل يخاف عليه الدنس ، فالغالب السلامة . وان وقع ذلك كان نادراً . وقد قال عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه لرجل : أشتر عليّ فيمن أستعمل . فقال : أما أبواب الدين فلا يريدونك ، وأما أبواب الدنيا فلا تردم ، ولكن عليك بالاشراف^(١) ، فانهم يصونون شرفهم مما لا يصلح .

وقد روى أبو بكر الصولي قال ، حدثني الحسين بن يحيى عن

(١) اي الاشرف باخلاصهم لاداناسهم .

اسحاق^(١) قال : دعاني المعتصم يوماً فادخلني معه الحمام ، ثم خرج
فخلاني وقال : يا ابا اسحق في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه ،
ان أخي المأمون اصطنع قوماً فأنجبوا ، واصطفيت انا مثلهم
فلم ينجبوا . قلت ومن هم ؟ قال : اصطنع طاهراً وابنه
وآل سهل فقد رأيت كيف هم . واصطنعت أنا الافشين فقد
رأيت إلام آل امره ، وأشناس فلم أجده شيئاً ، وكذلك
ايتاخ ووصيف^(٢) . قلت : يا أمير المؤمنين ، ههنا جواب على
أمان من الغضب . قال : لك ذلك . قلت : نظر أخوك الى
الاصول فاستعملها فأنجبت فروعا ، واستعملت فروعا لا اصول
لها فلم تنجب^(٣) ، فقال : يا ابا اسحق مقاساة مامري طول هذه
المدة أهون عليّ من هذا الجواب .

أما الصور ، فانه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب
فالعالم صفة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب

(١) اسحاق بن ابراهيم الحلي مدير الشرطة ببغداد أيام المأمون
والمعتصم والوائق والمتوكل .

(٢) هؤلاء كلهم من غلمان الاتراك الذين جاء بهم المعتصم فجعلهم قواد القوة
ورؤسائها فكانت جنابة على تاريخنا .

(٣) لما اعتقدتم انما لا حلوم لهم ضمت وضعيت من كان يستند
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم حكم السادة المذكورة الحشد

في الباطن أيضاً ، فاحذر من به عاة كالاقرع والاعمى وغير ذلك ، فان بواطنهم في الغالب ردية ^(١) .

ثم مع معرفة اصول المخالط وكال صورته لا بد من التجربة قبل المخالطة ، واستعمال الحذر لازم ، وان كان كما ينبغي .

١٨٤ - الذكاء والتلطف في طلب الاغراض

ينبغي أن يكون شغل العاقل في العواقب والتحرز بما يمكن ان يكون . ومن الغلط النظر في الحالة الحاضرة كالموافق لمعاشه ولصحة بدنه ، وربما يجري له مصحوبه فينبغي ان يعمل على انقطاع ذلك ، فيكون مستعداً لتغير الاحوال . وكذلك النظر في لذة تفنى وتبقى تبعتها وعارها ، وإيثار الكسل والدعة لما يحبه من بقاء الجهل . وكذلك تحصيل المرادات التي لا تحصل الا بالتلطف في الاحتيال ، خصوصاً اذا أريد من ذكي فانه يفتن بأقل تلويح ، فمن أراد غلبة الذكي دقق النظر وتلطف في الاحتيال .

وقد ذكر في كتب الحيل ما يشهد الحواطر ، وأتينا بجملة منه في كتاب الاذكياء ، مثل ماروي ان رجلا من الاشراف كان لا يقوم لاحد ولا يجتنب احداً ، فجاز عليه بعض الوزراء فلم يرد ولم يقم ، فقال ذاك الوزير لرجل : أخبر فلانا اني قد

(١) الله اعلم بصحة هذا الحكم .

كسبت أمير المؤمنين في حقه ، وقد أمر له بنته لقت ، فليظفر
ليقبضها .

فأخبره ذلك الرجل فقال الشريف : ان كان أمر لي بشيء
فلينفذه لي . وانما مقصوده ان يضع مني بالتودد عليه .

فمن وقع الانسان مع ذكي فيلبغي ان يتحرز منه ويسرق
أغراضه بصنوف الاحتيال ، وينظر فيما يجوز وقوعه فليحتوز
منه ، كما ينظر صاحب الرقعة النقالات . وكثير من الاذكياء لم
يقدروا على اغراضهم من ذكي فأعطوه وبالغوا في اكرامه
ليصيدوه . فان كان قليل الفطنة وقع في الشرك ، وان كان
أقوى منهم ذكاء علم ان تحت هذه الجنية ^(١) خيبة فزاده ذلك
احترازاً .

وأقوى ما ينبغي أن يكون الاحتراز من موتور ، فانك اذا
أفريت شخصاً فقد غرست في قلبه عداوة ، فلاتأمن تفريع لك
الشجرة ، ولا تلتفت الى ما يظهر من ود وان حلف ، فان
خاربه فكن منه على حذر .

١٨٥ - استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان

ورأيت أكثر الناس لا يكملون من إفشاء سرهم ، فاذا ظهر

(١) الجنية : من جن الشجرة وهي « شبة » فمن « مشوة » والجنية : الجنية

عاشبوا من أخبروا به (١).

فواعجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعاً ثم لاموا من أفشاء ، وفي الحديث : استعينوا على قضاء أموركم بالكتان (٢) . ولميري أن النفس يصعب عليها كتم الشيء ، وتوى بأفشاءه راحة ، خصوصاً إذا كان مرضاً أو همماً أو عثقاً ، وهذه الأشياء في أفشاءها قريبة (٣) ، انما اللازم كتمانها احتيال المحتال فيما يريد أن يحصل به غرضاً ، فان سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه ، فانه اذا ظهر بطل مايراد أن يفعل ، ولاعذر لمن أفشى هذا النوع .

وقد كان النبي ﷺ اذا اراد سفراً ورّى بغيره . فان قال قائل : انما احدث . قيل له وكل حديث جاوز الاثنين شائع ، وربما لم يكتم صدقك .

وكم قد سمعنا من مجدته الملوك بالقيض على صاحب (٤) قم الحديث الى صاحب وهرب ففات السلطان مراده . وانما الرجل الحازم الذي لا يتعداه سره ولا يفشيه الى أحد . ومن العجز إفشاء السر الى الولد والزوجة ، والمال من

(١) اذا ضاق صدر المرء عن حفظ سر صدر الذي يستودع السر أخيق

(٢) قال الأستاذ الشيخ فامر : ضيف

(٣) كذا ومقتضى المعنى ان في افشاءها راحة

(٤) تطلق كلمة الصاحب على العامل والوزير ومنه الصاحب بن عباد ، وكتاب

الصحاب لابن المنعم - وهي اليوم في الهند كلمة تعظيم كـ « السيد » . وربما اختصروها بلسانهم فقالوا : ص

حجة السر ، فاطلاهم عليه - ان كان كثيراً فربما تمنوا هلاك الموروث ، وان كان قليلاً تبرموا بوجوده ، وربما طلبوا من الكثير على مقدار كثرتة فأنلفته النفقات . وستر المصائب من حجة كتمان السر ، لأن اظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب . وكذلك ينبغي ان يكم مقدار السن ، لانه ان كان كثيراً استمرموه وان كان صغيراً احتقروه ^(١) .

وبما قد انما فيه كثير من المفرطين انهم يذكرون بين أصدقائهم اميراً او سلطاناً فيقولون فيه فيبلغ ذلك إليه فيكون سبب الهلاك . وربما رأى الرجل من صديقه اخلاصاً وافياً فاشاع سره . وقد قيل :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فربما انقلب الصديق فكان أدرى بالضرّة

ورب مفسد سرّه الى زوجة او صديق فيصير بذلك رهيناً عنده ولا يتجاسر أن يطلق الزوجة ، ولا ان يجر الصديق ، مخافة ان يظهر سره القبيح . فالخازم من عامل الناس بالظاهر ، فلا يضيق صدره بسرّه . فان فارقت امرأة او صديق او خادم لم يقدر أحد منهم ان يقول فيه ما يكره . ومن أعظم الأسرار الخلوات ، فليحذر الخازم فيها من الانبساط بمراى من مخلوق . ومن خلق له عقل ثاقب دله على الصواب قبل الوصايا .

(١) ومن اقوالهم : اكنم ذمك وذمك ومذهبك .

١٨٦ - طريقة الحفظ

مارأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم والتكرار ،
 وخصوصاً تكرار ما ليس لها في نفس تكراره وحفظه حظ ،
 مثل مسائل الفقه ، بخلاف الشعر والسجع ، فان لها لذة في
 في اعادته وان كان يصعب ، لأنها تلتذ به مرة ومرتين ، فاذا
 زاد التكرار صعب عليها ، ولكن دون صعوبة الفقه وغيره
 من المستحسنات عند الطبع فتراها تتخلد الى الحديث والشعر
 والتصانيف والنسخ لانه يمر بها كل لحظة مالم تره ، فهو في
 المعنى كالماء الجاري ، لانه جزء بعد جزء ، وكذا من ينسخ
 مايجب ان يسعه أو يصنف ، فانه يلتذ بالجدة ويستريح من
 تعب الاعدادة ، إلا أنه ينبغي للعاقل ان يكون جل زمانه
 للاعدادة ، خصوصاً الصبي والشاب ، فانه يستقر المحفوظ عندهما
 استقراراً لا يزول ، ويجعل أوقات التعب من الاعدادة للنسخ ،
 ويحذر من تقلتها الى النسخ عن الاعدادة فيقهرها ، فانه يحمد
 ذلك حمد السرى وقت الصباح ، وسيندم من لم يحفظ ندم
 الكسبي^(١) وقت الحاجة الى النظر والفتوى ، وفي الحفظ

(١) رجل من العرب يضرب به المثل في الندم ، وخبره مع قومه في جمع
 الامثال ، للبدائي . وهو اجمع كتاب لامثال العرب ، وان كانت اكثر قصصه
 موضوعة لا أصل لها .

نكتة ينبغي ان تلاحظ ، وهو ان الفقيه يحفظ الدرس ويعيده ، ثم يتركه فينساها فيحتاج الى زمان آخر لحفظه ، فيقضي ان يحكم الحفظ ويكثر التكرار لينتج قاعدة الحفظ .

١٨٧ - العزلة للعالم وللعايد

ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخلق خصوصاً للعالم والزاهد فانك لا تكاد ترى إلا شامتاً بنكبة أو حسوداً على نعمة ، ومن يأخذ عليك غلطائك . فبالعزلة ما أذهبا . جلت من كدر غيبة ، وآفات تصنع ، وأحوال المداجاة ، وتضييع الوقت ^(١) . ثم خلا فيها القلب بالفكر ، لانه مستلذه عنه بالخالطة فدير أمر دنياه وآخرته . فثله كمثل الحبة يخلو فيها المعنى بالاخلاط فيذيبها . وما رأيت مثل ما يضيع الخاط ، لانه يرى حاله الحاضرة من لقاء الناس وكلامهم ، فيشتغل بها عما بين يديه . فثله كمثل رجل يريد سفرأ قد أوف ، فجالس أقواماً فشغلوه بالحديث حتى ضرب البوق ^(٢) ، وما تروء ، فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل والسلامة من ضر الخالطة كفى .

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد ، فإنها بطلان

(١) قد أكثر المؤلف الكلام في العزلة ، والحق لها ما قاله هو في كتابه «منهاج الطالبين» الذي اختصر فيه «الاشياء المنزلة» . (٢) ابن الرحيل

مقصود العزلة ، وان كانا لا في عزلة . وأما العالم فعليه مؤنة ،
 وكتبه عذبه ، والنظر في سيرة السلف مقومه ، والتفكير في
 حوادث الزمان السابق فرجة . فان ترقى بعلمه الى مقام
 المعرفة الكاملة للخالق سبحانه وتثبت بأذيال محبة تضاعفت
 لذاته ، واشتغل بها عن الاكوان وما فيها . فخلا بجهنمه وعمل
 معه بمقتضى علمه .

وكذلك الزاهد تبعده أنيسه ، ومعبوده جليسه ، فان
 كشف لبصره عن المعبول معه غاب عن الخلق ، وغابوا عنه .
 انما اعتزلا ما يؤدي فيها في الوحدة بين جماعة . فهذان
 رجلان قد سلما من شر الخلق ، وسلم الخلق من شرورهما .
 بل هما قدوة للتعبدين وعلم للساكنين . ينتفع بكلامها السامع ،
 وتجري موعظتها المدامع ، وتنتشر هيبتها في الجامع . فمن
 أراد أن يتشبه بأحدهما فليصبر الخلو وان كرهها لبشر له .
 الصبر العمل . وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالم ، خصوصاً
 لأرباب المال والسلطين يمتلب ويحتلب ويحتلب فما يحصل له
 شيء من الدنيا الا وقد ذهب من دينه أمثاله .

ثم أين الأنفة من الذل للفساق ؟ فالذي لا يبالي بذلك هو
 الذي لا يذوق طعم العلم ولا يدري ما المراد به ، وكأنه به

وقد وقع في بادية جرّز^(١) وقفر مهلك ، في تلك البراري
وكذلك المتزهد اذا خالط وخلط ، فانه يخرج الى الرياء
والتصنع والنفاق ، فيفوته الحظان ، لا الدنيا ونعيمها تحصل
له ولا الآخرة .

فنسال الله عز وجل خلوة خلوة . وعزلة عن الشر لذّة^(٢)
يستصلحنا فيها لمناجاته ، ويهلم كلامنا طلب نجاته . انه قريب مجيب .

١٨٨ - التزود للآخرة

ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت ، وهو لا يستعد للقاءه .
وأشد الناس بلياً وتغفيلاً من قد عبر الستين وقارب السبعين
فان ما بينهما هو معترك المنايا . ومن تأزل المعترك استعد وهو
غافل عن الاستعداد :

قال الشباب لعلنا في شيبنا ندع الذنوب فما يقول الا شيب
والله ان الضحك من الشيخ ماله معنى ، وان المزاح منه
بارد المعنى ، وان تعرضه بالدنيا وقد دفعته عنها يضعف القوى
ويضعف الرأي . وهل بقي لابن ستين منزل ؟ فان طمع في
السبعين فانما يرتقى اليها بعناء شديد ، ان قام دفع الاوض ،
وان مشى لمت ، وان قد تنفس . ويرى شهوات الدنيا

ولا يقدر على تناولها . فان أكل كد المعدة ، وصعب المضغ ،
وان وطىء آذى المرأة ، ووقع دَنَفًا لا يقدر على رد ما ذهب
من القوة الى مدة طويلة . فهو يعيش يعيش الاسير . فان
طمع في الثمانين فهو يزحف اليها زحف الصغير :

وعشر الثمانين من خاضها فان الملأت فيها فتون
فالعامل من فهم مقادير الزمان . فانه فيما قيل : قبل
البلوغ صبي لبس على عمره عيار ، الا ان يرزق فطنة فقيه
بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم
والعلوم . فاذا بلغ فليعلم انه زمان المجاهدة للهوى وتعلم العلم .
فاذا رزق الاولاد فهو زمان الكسب للعائلة . فاذا بلغ
الاربعين انتهى تمامه ، وقضى مناسك الاجل ، ولم يبق الا
الانحدار الى الوطن :

كان الفتي يرقى من العمر معلما الى ان يجوز الاربعين وينحط
فينبغي له عند تمام الاربعين أن يجعل جل همته التزود
للآخرة . ويكون كل تلح له بين يديه ، وبأخذ في الاستعداد
للرحيل . وان كان الخطاب بهذا لابن عشرين ، الا أن رجاء
التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير . فاذا بلغ الستين
فقد أعذر الله اليه في الاجل وجاز من الزمن ، فليقبل بكليته الى
جمع زاده ، ونهي آلات السفر ، وليعتقد كل يوم بحيا فيه لغنية

ماهي في الحساب . خصوصاً اذا قوي عليه الضعف وزاد ، فانه
لا يحرك كهر^(١) ، وكلما علت منه فينبغي ان يزيد اجتهاده .
فاذا دخل في عشر الثمانين فليس الا الوداع . وما بقي بمكة^(٢) .
العصر تجارة الانفس . اسف على تفريط أو تعبد على ضعف .
نسأل الله عز وجل بقطعة ثامة تصرف عنا رقاد الغفلات ، وعلا
حالحا نأمن معه من الندم يوم الانتقال . والله الموفق .

١٨٩ - النهي عن علم الكلام

ماهي السلف عن الخوض في الكلام الا لامر عظيم ، وهو
ان الانسان يريد ان ينظر مالا يقوى عليه بصره فربما تحير
مخرج الى الحجب ، لأننا اذا نظرنا في ذات الخالق حار العقل
وهبت الحسن ، لانه^(٣) لا يعرف شيئاً لا بداية له ، لا يعلم الا
الجسم والجوهر والعرض ، فاثبات ما يخرج عن ذلك لا يفهمه ،
وان نظرنا في افعاله رأينا بحكم البناء ثم ينقضه ولا نتطلع علي
تلك الحكمة ، فالاولى للعاقل ان يكف كف التطلع الى
ما لا يطبق النظر اليه ، ومتى قام العقل فنظر في دليل وجود

(١) مكثا بالاصل (٢) نفس في الكلام ، والتقدير وما بقي بمكة الا منقطع

(٣) الضمير يرجع الى الانسان

الحاق بمصروعانه ، وأجاز بمئة نبي واستدل بمعجزاته ، فكفاه ذلك ان يتعرض لما قد اغنى عنه ، ولذا قال القرآن كلام الله تعالى بدليل قوله : حتى يسمع كلام الله ، فكفاه . وأما من تمخلى فقال : التلاوة هي التلو أو غير التلو ، والقراءة هي المقروء أو غير المقروء ، فيضيع الزمان في غير تحصيل ، والمقصود العمل بما فهم . وقد عكبي ان ملكاً كتب الى حاكم في البلدان اني قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا ، ففعلوا الا واحداً منهم ، فانه قد يتفكر في الكتاب فيقول : أتري كتبه بعداد أو بحجر ؟ أتري كتبه قائماً أو قاعداً ؟ فإزال يتفكر حتى قدم الملك ولم يعمل بما امره به شيئاً ، فأحسن جوائز الكل وقتل هذا .

١٩٠ - لذة العلم اعظم اللذات

لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها واللذة فيها شرف العلم ، وزهرة العفة ، وأنفة الحية ، وعز القناعة ، وحلاوة الافضال على الخلق ، فأما الالتذاذ بالمطعم والمنسكح فتشغل جاعل باللذة ، لان ذاك لا يروا لنفسه بل لاقامة العوض في البدن والولد . وأي لذة في النكاح وهي قبل المباينة لا تحصل ، وفي حالة المباينة قلق لا يثبت ، وعند انقضائها كأن لم تكن ، ثم ينسرف الخوض في البدن .

وأى لذة في جمع المال فضلاً^(١) عن الحاجة . فانه مستعبد
للخازن ، يبيت حذراً عليه ، ويدعوه قليلاً الى كثيره .
وأى لذة في المطعم وعند الجوع يستوي خشته وحسنه ،
فان ازداد الاكل خاطر بنفسه . قال علي بن أبي طالب رضي
الله عنه : بنيت الفتنة على ثلاث ، النساء وهن فسخ ابليس
المنسوب ، والشراب وهو سيفه المرفف ، والدينار والدرهم ،
وهما سبها المسومان . فمن مال الى النساء لم يصف له عيش ،
ومن أحب الشراب لم يتمتع بعقله ، ومن أحب الدينار والدرهم
كان عبداً لهما ماعاش .

١٩١ - الرد على المجسمة والفلاسفة

أصل كل محنة في العقائد قياس أمر الخالق على أحوال
الخلق . فان الفلاسفة لما رأوا إيجاد شيء لامن شيء كالمستحيل
في العادات قالوا بقدم العالم . ولما عظم عندهم في العادة الاحاطة
بكل شيء قالوا : انه يعلم الجمل لا التفاصيل . ولما رأوا تلف
الابدان بالبلاء أنكروا اعادة ابدانها . وقالوا : الاعادة رجوع الارواح
الى معادنها^(٢) . وكل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين
خرج الى الكفر . فان المجسمة دخلوا في ذلك لانهم حملوا أوصافه

(١) الفضل الزيادة ، أي المال الزائد عن الحاجة

(٢) ومن هذا الباب قول لانوازيه : في هذا الكون لا يبقى شيء ولا يجد شيء

على ما يعقلون . وكذلك تدبيره عز وجل . فان " من سمحه على ما يعقل في العادات رأى ذبح الحيوان لا يستحسن ، والأمراض تستحب ، وقسمة الغني للأبله ، والفقر للجلد العاقل أمراً ينافي الحكمة . وهذا في الأوضاع بين الخلق . فأمّا الخالق سبحانه فان العقل لا ينتهي الى حكمته . بلى ، قد ثبت عنده وجوده وملكه وحكمته ، فتعرضه بالتفاصيل على ما تجري به عادات الخلق جهل . ألا ترى الى أول المعترضين وهو ابليس كيف ناظر فقال : أنا خير منه ؟ وقول خليفته ^(١) وهو أبو العلاء المعري :

رأى منك ما لا يشتهي فترندقا

ونسأل الله عز وجل توفيقاً للتسليم ، وتسليماً للحكيم ، وبنا لا ترع قلوبنا بعد اذ هديتنا .

أترى نقدر على تعليل أفعاله فضلاً عن مطالعة ذاته ؟ وكيف نفيس أمره على أحوالنا ؟ فإذا رأينا نبينا ﷺ يسأل في أمه وعمه فلا يقبل منه ، ويتقلب جائعاً والدنيا ملك يده ، ويقتل أصحابه والنصر بيد خالقه ، أوليس هذا مما يحير ؟

فألنا والاعتراض على مالك قد ثبتت حكمته واستقر ملكه .

١٩٢ - معالي الأمور تحتاج الى تعب

تأملت عجباً ، وهو أن كل شيء نفيس خطير بطول طريقه

(١) فتى الناس بدرومياته وفيها الكفر المريح الذي لا يؤول .

ويكثر التنب في تحصيله . فان العلم لما كان أشرف الاشياء لم يحصل الا بالتعب والسر والتكرار وهجر اللذات والراحة . حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتي المريسة لا أقدر ، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس .

ونحو هذا تحصيل المال ، فانه يحتاج الى المخاطرات والاسفار والتعب الكثير . وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ، فانه يفتقر الى جهاد النفس في بذل المحبوب ، وربما آل الى الفقر . وكذلك الشجاعة ، فانها لا تحصل الا بالمخاطرة بالنفس . قال الشاعر (١) :
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفتقر والاقدام قتال

ومن هذا الفن تحصيل الثواب في الآخرة ، فانه يزيد على قدر قوة الاجتهاد والتعب ، أو على قدر وقع المذول من المال في النفس ، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الخزع . وكذلك الزهد يحتاج الى صبر من الهوى . والعفاف لا يكون الا بكف كف الشره . ولولا ماعاني يوسف عليه السلام ما قيل له أيما الصديق .

وله أقوام مارضوا من الفضائل الا بتحصيل جميعها ، فهم يبالغون في كل علم ويجتهدون في كل عمل ، وينابذون على كل فضية . فاذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات فائبة وهم لما سابقون . وأكمل احوالهم ما عراضهم عن اعمالهم . فهم

(١) انتهى وفي شره غلات واذا لم يبلغ فيها مبلغ شيخ المرة ولا الشاعر فكأن ان هاني .

يجتهدوننا مع التمام ، ويعتذرون من التصير . ومنهم من يزيد على هذا فيشاعل بالشكر على التوفيق لذلك ، ومنهم من لا يرى ما جعل أصلاً^(١) لأنه يرى نفسه وعمله لسببه .

وبالعكس من المذكور من أبواب الاجتهاد ، حال أهل الكسل والشر والشهوات ، فثلث الندوا بمأجل الراحة لقد أوجت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة . ومن تلج صبر يوسف عليه السلام وعجلة (ما عَزِر)^(٢) بأن له الفرق ، وفهم الربيع من الحسرات .

ولقد تأملت نيل الدر من البحر فرأيت بعد معاناة الشدائد . ومن تفكر فيما ذكرته مثلاً بآيات له أمثال ، فالوفق من تلج قصر الموسم المعمول فيه ، وامتداد زمان الجزاء الذي لا آخر له انتهت حتى اللحظة ، وزاحم كل فضيلة ، فانها اذا فانت فلا وجه لاستدراكها . أو ليس في الحديث يقال للرجل : « اقرأ وارفق » فنزك عند آخر آية تقرأها . فلو ان الفكر عمل في هذا حق العمل حفظ القرآن عاجلاً .

١٩٣ - كمال الايمان

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ، ويتجنب المحظورات قسب . انا المؤمن هو السكامل الايمان ولا يجتهد في

(٢) حديث مشهور

(١) اي لا يرى معه ابداً

قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجري وسوسة . وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه ، وقوى تسليبه . وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً ، وسره لا يتغير لانه يعلم انه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى ارادته ، فان اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية الى مقام المناظرة ، كما جرى لابليس . والایمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء ، فاما اذا رأينا مثل يحيى بن زكريا تسلط عليه فاجر فيأمر بذبحه فيذبح . وربما اختلج في الطبع أن يقول فهلاً رد عنه من جعله نبياً ؟

وكذلك كل تسلط من الكفار على الانبياء والمؤمنين وما وقع رد عنهم . فان هجس بالفكر أن القدرة تعجز عن الرد عنهم كان كفراً . وان علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردت ، ويجوع المؤمنون ويشبع الكفار ، ويعافى العصاة ويمرض المتقين ، لم يبق الا التسليم للمالك وان أمض وأرمد وقد ذهب يوسف بن يعقوب عليها السلام فبكى يعقوب ثمانين سنة ثم لم ييأس ، فقال : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » وقد دعا موسى عليه السلام على فرعون ، فأجيب بعد اربعين سنة .

وكان يذبح الانبياء ولا ترده القدرة القديمة العظيمة . وصلب السحرة ، وقطع أيديهم .

وكم من بلية نزلت بمعظم القدر ، فما زاده ذلك الا تسلياً ورضىً فهناك يبين معنى قوله « ورضوا عنه » ، وههنا يظهر قدر قوة الايمان لا في ركعات ، قال الحسن البصري : استوى الناس في العافية فاذا نزل البلاء تباينوا .

١٩٤ - الرد على علماء الكلام

أخر ما على العوام المتكلمون . فانهم يخبطون عقائدهم بما يسمعون منه .

من افبح الاشياء ان يحضر العامي الذي لا يعرف أركان الصلاة ولا الربا في البيع ، مجلس الوعظ فلا ينهاء عن التواني في الصلاة ، ولا يعلمه الخلاص من الربا ، بل يقول له القرآن قائم بالذات ، والذي عندنا مخلوق ، فيكون القرآن عند ذلك العامي ، فيحلف به على الكذب .

وبح المتكلم لو كان له فهم لعلم أن الله سبحانه وتعالى نصب أعلاماً تأنس بها النفوس وتطمئن اليها كالكعبة وسماها بيته ، والعرش وذكر استواءه عليه ، وذكر من صفاته اليد والسمع والبصر والعين ، وينزل الى السماء الدنيا (١) ، ويضعك

(١) النزول وامثاله من كون الله في السماء انما جاءت به احاديث آحاد. واحاديث

الآحاد لا تنفذ العلم ولكن يعمل بها بغلبة الظن .

وكل هذا لتأنيس النفوس بالاعادات . وقد جلي مما قضت
هذه الصفات من الجوارح .

وكذلك عظم أمر القرآن ، ونهى المحدث أن يمس المصحف
قال الامر يقوم من المتكلمين الى أن أجازوا الاستجاء به ،
فهؤلاء على معاندة الشريعة ، لانهم يبينون ما عظم الشرع .
وهل الايغال في الكلام بما يقرب الى معرفة الحقائق التي لا يمكن
خلافها ! هيأت . لو كان كذلك ما وقع بين المتكلمين خلافه
أو ليس الشرب الأول ما تكلّموا في شيء من هذا ، وان
كانوا تعرضوا ببعض الاصول ؟ ثم جاء فقهاء الامصار فهزوا
عن الحوض في الكلام ، لعلهم ما يجلب وما يمتنع ومن لم
يقنع بمقيدة مثل الصحابة ولا بطريق مثل طريق أحمد
والشافعي في ترك الحوض فلا كان . من كان (١)

ثم بالله تأملوا ، أليس قد وجب علينا هجر الربا بقوله
تعالى : « لا تأكلوا الربا » ! وهجر الزنا بقوله : « ولا تقربوا
الزنا » فأبي فائدة لنا في ذكر قراءة ومقروء ، وتلاوة ومتلو
وقديم ومحدث (٢) . فان قيل : فلا بد من اعتقاد ، قلنا :
طريق السلف أوضح محجة ، لانا لانقلبه تقليداً ، بل بالدليل
ولكننا لم نستفده عن جوهر وعرض وجزء لا يتجزء ، بل

(١) اي كائناً من كان

(٢) وان اللوح حقيقي او مجازي . واليه من القدرة اوهي على ظهوره

بأداة القتل مع مساعدة العقل من غير بحث عما لا يحتاج اليه
وليس هذا مكان الشرح .

١٩٥ - لا ينبغي الحزن للموت

مازلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الاهل
والاولاد ، ولا اتخايل الا بلى الابدان في القبور فاحزن لذلك .
فمرت بي احاديث قد كانت تمر بي ولا أتفكر فيها ، منها
قول النبي ﷺ : انما نفس المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة
حتى يروه الله عز وجل الى جسده يوم يبعثه . فرأيت أن
الرجل الى الراحة ، وان هذا البدن ليس بشيء . لانه
مركب تفكك وفسد ، وسيبني جديداً يوم البعث ، فلا ينبغي
أن يتفكر في بلاءه . ولتسكن النفس الى أن الارواح انتقلت
الى راحة فلا يبقى كبير حزن ، وان اللقاء للاجباب عن قوب .
وانما يبقى الاسف لتعلق الخلق بالصور ، فلا يرى الانسان
الا جسداً مستحسناً قد نقص فيحزن لنقصه . والجسد ليس هو
الآدمي ، انما هو مركبه ، فالارواح لا ينالها البلى . والابدان
ليست بشيء .

واخبر هذا بما اذا قلعت خرسك فزمينه في حطرة ، فهل

عندك خبر مما يلقي في مدة حياتك ؟ فحكم الابدان حكم ذلك
الضرس ، لاتدري النفس مايلقى . ولا ينبغي ان تنعم بتزويق
جسد المحبوب وبلاه ، واذكر تنعم الارواح ، وقرب التجديد
وعجل اللقاء والفكر في تحقيق هذا بمن الحزن ويسهل الامر .

١٩٦ - احفظ لسانك ومذهبك

ينبغي للعاقل ان لايتكلم في الخلوة عن احد بشيء حتى
يمثل ذلك الشيء ظاهراً معلناً به ثم ينظر فيما يجني . فرب
رجل وثق بصديق فتكلم عن سلطان بأمر فبلغه فأهلكه ،
او عن صديق فبلغه فوقعت الواقعة . وكذلك ينبغي كتم
المذاهب ، فانه مايربح مظهرها إلا المعادة . ولما صرح
الشريف ابو جعفر في زمان المقتدي بمخالفة الاشاعرة أخذ
وحبس حتى مات ، وكان المقصود قطع الفتن واصلاح الرعية ،
فإنه أم الى السلطان من التعصب لمذهب .

١٩٧ - حكمة الاقدار

رأيت كثيراً من المتغفلين يظهر عليهم السخط بالاقدار ،
وفيه من قل إيمانه ، فأخذ يعترض ، وفيهم من خرج الى

للكفر ، ورأى ان مايجري كالعبث ، وقال : ما فائدة
الاعدام بعد الابدان ، والابتلاء بمن هو غني عن اذنانا ؟
فقلت لبعض من كان يرمز الى هذا : ان حضر عقلك
وقلبك حدثك ، وان كنت تتكلم بمجرد واقعك من غير
نظر وانصاف فالحديث معك ضائع . ويحك ، احضر عقلك ،
واسمع ما أقول :

أليس قد ثبت ان الحق سبحانه مالك ، ولها لك ان
يتصرف كيف يشاء ؟ أليس قد ثبت أنه حكيم والحكيم
لا يعبث ؟ وأنا أعلم ان في نفسك من هذه الكلمة شيئاً فإنه
قد سمعنا عن جالينوس انه قال : ما أدري ؟ أحكيم هو أم لا ؟
والسبب في قوله هذا ، أنه رأى نقضاً بعد احكام ،
فمقاس الحال على أحوال الخلق ، وهو أن من بنى ثم نقض
لالمعنى فليس بحكيم .

وجوابه لو كان حاضراً أن يقال : بماذا بان لك ان النقض
ليس بحكمة ؟ أليس بعقلك الذي وهبه الصانع لك ؟ وكيف
يب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال (١) ؟ وهذه الهبة التي
جرت لابليس ، فانه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، فلو تفكر
علم ان واهب العقل أعلي من العقل ، وان حكيمته أوفى من
كل حكيم ، لأنه بحكيمته التامة أنشأ العقول .

(١) هذا جواب عظيم . رحمة الله على المؤلف

فهذا اذا تأمله النصف زال عنه الشك . وقد أثار سبحانه
الى نحو هذا في قوله تعالى (ألهُ البنات ولكم البنون ؟) أي
جلى نفسه النقصات وأعطاكم الكاملين ؟

فلم يبق إلا ان نضيف العجز عن فهم ما يجري الى أنفسنا .
ويقول : هذا فعل عالم حكيم ، ولكن ما بين لنا معناه ،
وليس هذا بعجب ، فان موسى عليه السلام خفي عليه وجه
الحكمة في نقض السفينة للصهيبة ، وقتل الغلام الجليل . فلما
بين له الخضر وجه الحكمة أذعن . فلنكن مع الخالق
كموسى مع الخضر .

أو لسنأثرى المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعام النظيف
الطريف يقطع ويمضغ . ولسنأثرك تلك الافعال ولانسكر الاقصاد
له ، لعلنا بالمصلحة الباطنة فيه ، فما المانع أن يكون فعل الحق
سبحانه له باطن لانه ؟ ومن أجهل الجهال العبد المملوك اذا
طلب أن يطلع على سر مولاه ، فان فرضه التسليم لا الاعتراض .
ولو لم يكن في الابتلاء بما تنكره الطباع الا أن يقصد إذهاب
الغلل وتسلية لكفى .

ولقد تأملت حالة عجيبة ، يجوز أن يكون المقصود بالموت
هي ان الخالق سبحانه في غيب لا يدركه الاحساس . فلو انه لم
ينقض هذه البنية لتغافل للإنسان أنه صنع لا يصنع . فاذا

وقع الموت عرفت النفس نفسها التي كانت لانعرفها لكونها في الجسد وتدرّك عجائب الامور بعد رحيلها . فاذا رُدّت الى البدن عرفت ضرورة أنها مخلوقة لمن أعادها ، وتذكرت حالها في الدنيا . فان الافكار تعاد كما تعاد الابدان . فيقول قائلهم : « انا كنا قبل في أهلنا مشفقين »

ومنى رأت ماقد وُعِدَت به من امور الآخرة ، أيقنت يقيناً لاشك معه . ولا يحصل هذا باعادة ميت سواها ، وانما يحصل بروية هذا الامر فيها فيبنى بنية تقبل البقاء وتسكن جنة لا ينقضي دوامها ، فيصلح بذلك اليقين أن تجاور الحق ، لانها آمنت بما وعد ، وصبرت بما ابتلى ، وسلمت لأقداره ، فلم تعترض ، ورأت في غيرها العبر ، ثم في نفسها . فهذه هي التي يقال لها : « ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فاما الشاك والكافر فيحق لها الدخول الى النار واللبث فيها ، لأنها رأيا الادلة ولم يستفيدا ونازعا الحكيم واعترضا عليه ، فعاد شؤم كفرهما يطس قلوبها ، فبقيت على ما كانت عليه ، فلما لم تنتفع بالدليل في الدنيا لم تنتفع بالموت والاعادة . ودليل بقاء الحبث في القلوب قوله تعالى « ولو رُدّوا لعادوا لمانهاوا عنه » فنسأل الله عز وجل عقلا مسلماً يقف على حده .

ولا يمترض على خالقه وموجده . ثم الويل للمعترض ، أي رد
اعتراضه الاقدار ؟ فما يستفيد إلا الحزني ؟ نعمة بالله من خذل .

١٩٨ - الصبر على المرض والموت

لا ينبغي للمؤمن ان يتزعج من مرض أو نزول موت ،
وان كان الطبع لا يملك . الا أنه ينبغي له التصبر بها أمكن ،
إما لطلب الاجر بما يعاني ، أو لبيان أثر الرضى بالقضاء ، وماهي
الاخطات ثم تنقضي . وليتفكر المتعافي من المرض في الساعات
التي كان يقلق فيها أين هي في زمان العافية ؟ ذهب البلاء
وحصل الثواب ، كما تذهب حلاوة اللذات المحرمة ويبقى الوزر .
وبعضي زمان التسلط بالاقدار ، ويبقى العتاب . وهل الموت
إلا آلام تريد فتعجز النفس عن حملها فتذهب ؟ فليتصور
المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس ، وقد هان مايلقى ،
كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة . ولا ينبغي ان يقع
جزع بذكر البلى ، فان ذلك شأن المركب (١) ، أما الراكب
فهي الجنة أو في النار . وإنما ينبغي أن يقع الاهتمام الكلي بما
يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوق عنها . فالسعيد من

ووفق لاغتنام العافية ، ثم مختار تحصيل الافضل فالافضل في زمن
الاغتنام . ولعلم ان زيادة المنازل في الجنة على قدر التزبد من
الفضائل هنا . والعمر قصير ، والفضائل كثيرة ، فليبالغ في
البيدار . فيأطول راحة النعب ، وبافرحه المغموم ، وبأسرود
المحزون . ومتى تخاليل دوام اللذة في الجنة من غير منقضى
ولا قاطع ، هان عليه كل بلاء وشدة .

١٩٩ - ينبغي التلطف بالبدن بنوع غفلة عن الموت

حضرت يوماً جنازة شاب مات أحسن ما كانت الدنيا له ،
فرايت من ذم الناس للدنيا ، وعيب من سكن إليها ، والتقيح
للعاقبين عن الاستعداد لهذا المصراع أمراً كبيراً من الحاضرين .
فقلت : نعم ما قلتم . ولكن اسمعوا مني ما لم تسعوه . أعجب
الاشياء أن العاقل اذا علم قرب هذا المصراع منه أوجب عليه
عقله البدار بالعمل والقلق من الخوف . وقد اشتد ذلك
بأقوام فهموا في البراري ، وطووا الايام بالجماعة ، وداموا
على سهر الليل ، ولازموا المقابر ، فهلكوا سريعاً . ولم يري
إن ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل . ولكن نرى العقل
الذي أوجب هذا القلق قد أمر بما يوجب السكون ، فقال :
إنما خلق هذا البدن ليحل النفس كما تحمل الناقة الراكب .

ولا بد من التلطف بالثاقة ليحصل المقصود من السير ، ولا يحسن في العقل دوام السهر وطول القلق ، لأنه يؤثر في البدن فيفوت أكثر المقصود . كيف وقد خلق بدن الآدمي خلقاً لطيفاً ، فإذا هجر الدسم نشف الدماغ ، وإذا دام على السهر قوي اليبس ، وإذا لازم الحزن مرض القلب .

فلا بد من التلطف بالبدن بتناول ما يصلحه ، وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذي له . وإلا فتي دام المؤذي عجل التلف . ثم يأتي الشرع بما قد قاله العقل . فيقول : ان لنفسك عليك حقاً . وان لزوجك عليك حقاً . فصم وأفطر ، وقم ونم . ويقول : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ، ويحث على النكاح .

ودوام القلق واليبس يترك الزوجة كالارملة ، والولد كاليتيم . ولا وجه للتشاغل بالعلم مع هذا القلق ، ومن أراد مصداق ماقلته فليتامل حالة الرسول ﷺ ، فإنه كان يعدل ما عنده من الخوف فيأزح ، ويسابق عائشة ، ويكثر من التزوج . وكان يتلطف ببدنه ، فيختار الماء البائث (١) ، ويحب الحلوى واللحم . ولولا مساكنة نوع غفلة لما صنف العلماء ، ولا حفظ العلم ، ولا كتب الحديث . لان من يقول : ربما مت اليوم ، كيف يكتب ؟ وكيف يسمع ويصنف ؟

(١) لأنه يصفو بترسب ما قد يكون فيه من المكر

فلا يهولنكم ما ترون من غفلة الناس عن ذكر الموت حق ذكره ، فإنها نعمة من الله سبحانه بها تقوم الدنيا ، وبصلح الدين . وإنما تدم قوة الغفلة الموجبة للتفريط والاهمال للحاسبة للنفس ، وتضييع الزمان في غير التزود ، وربما قويت فعملت على المعاصي . فأما اذا كانت بقدر ، كانت كالملح في الطعام لا بد منه ، فإن كثرت صار الطعام زعافاً . فالغفلة تمدح اذا كانت بقدر كما بينا . ومتى زادت وقع الذم . فافهم ماقلته . ولا تقل فلان شديد اليقظة ما ينام الليل ، وفلان غافل ينام أكثر الليل ، فإن غفلة توجب مصلحة البدن والقلب لاتدم والسلام .

٢٠٠ - الزهد الحقيقي ، وحقيقة العزلة

ما يكاد يحب الاجتماع بالناس الا فارغ ، لأن المشغول القلب بالخلق يفر من الخلق . ومتى تمكن فراغ القلب من معرفة الحق امتلاً بالخلق ، فصار يعمل لهم ومن أجلهم وهلك بالرياء ولا يعلم . وإني لأنأمل بعض من يتزيا بالفقر والتصوف وهو يلبس ثياباً لاتساوي ديناراً ، وعنده المال الكثير ، وقد أمرع نفسه بالمطاعم الشبهة ، وهو عامل بمقتضى الكبر والتصدر ، فيقترب الى أرباب الدنيا ، ويستتري أرباب العلم ، ويזור أولئك دونهم . وإنما يرد ما يعطى ليشيع له اسم زاهد ،

فقواه يربي الناموس وهو في احتياله كتعلب ، وفي نهوضه على
 أغراضه في الباطن كلب شري . فأقول : سبحان الله ، ما يزهّد
 إلا اللّيب ! أتري ما سمع هذا قول النبي ﷺ : أن الله يحب
 أن يرى أثر نعمته على عبده ؟ وأعوذ بالله من رؤية النفس ،
 ورؤية الخلق ، فإن من رأى نفسه تكبر ، والمتكبر أحق ، لأنه مامن
 شيء بتكبر به إلا ولغيره أكثر منه ، ومن رأى الخلق عديم
 وهو لا يعلم . فأما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد من الخلق ،
 فان تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بعدم عنه . وقد رأينا من
 يراني ولا يدري فيستنع من المشي في السوق ، ومن زيارة
 الإخوان ، ومن أن يشتري شيئاً بنفسه ، وتوجهه نفسه أني
 أكره مخالطة السوقة . وإنما هذا يربي جاهاً بين العلماء . اذ لو
 خالطهم لامتنحى جاهه ، وبطل تقيل يده . وقد كان بشر
 الخافي مجلس في مجلس عند العطار . وابلغ من هذا كله أن
 نبينا ﷺ كان يشتري حاجته ويحملها . وخرج علي بن أبي طالب
 رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين إلى السوق فاسترى ثوباً .
 وقد كان طلحة بن مطرف قارئ أهل الكوفة ، فلما سكت
 الناس عليه مشى إلى الأعمش فقرأ عليه ، قال للناس إلى
 الأعمش وتركوا طلحة .

هذا والله الكبريت الاحمر ، والاكبر ، لا ما يظن اكبراً
في الكسبياء . والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون . فأما
ضد هذه الحال فعالة عابد الخلق ملبس^(١) وقد عم هذا جمهور
الخلق حاشا السلف .

أفدي طلباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

٢٠١ - بعض المعاصي أقبح من بعض

كل المعاصي قبيحة ، وبعضها أقبح من بعض ، فإن الزنا
من أقبح الذنوب ، فإنه يفسد الفرش ويغير الانساب ، وهو
بالجارة أقبح ، فقد روي في الصحيحين من حديث ابن مسعود

قال : قلت يا رسول الله أي ذنب أعظم ؟

قال : أن تجعل الله نداً وهو خلقك .

قلت : ثم أي ؟

قال : أن تقتل ولدك من أجل أن يطعم معك .

قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حيلة ببارك .

وقد روى البخاري في تاريخه من حديث المقداد بن الاسود

عن النبي ﷺ أنه قال : لأن يزني الرجل بعشرة نساء أيسر

(١) في بعض المخطوطات منتس ومنس ومنس ومنس يعني واحد

من أن يزني بامرأة جاره . ولأن يسرق من عشرة أبيات
أسر عليه من أن يسرق من بيت جاره . وإنما كان هذا ،
لأنه يضم الى معصية الله عز وجل انتهاك حق الجار .

ومن أقبح الذنوب أن يزني الشيخ ، ففي الحديث : إن
الله يبغض الشيخ الزاني . لأن شهوة الطبع قد ماتت ، وليس
فيها قوة تغلب ، فهو يحركها ويبالغ ، فكانت معصيته عنادا .
ومن المعاصي التي تشبه المعاندة لبس الرجل الحرير والذهب ،
خصوصاً خاتم الذهب الذي يتحلّى به الشيخ ^(١) وأنه من أبود
الافعال وأقبح الخطايا .

ومن هذا الفن الرياء والتخاسع وإظهار الترهّد للخلق ،
فإنه كالعبادة لهم مع إهمال جانب الحق عز وجل . وكذلك
المعاملة بالربا الصريح ، خصوصاً من الغني الكثير المال .

ومن أقبح الاشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب
من ذنب ، ولا يعتذر من زلة ، ولا يقضي ديناً ، ولا يوصي
بإخراج حق عليه .

ومن قبائح الذنوب أن يتوب السارق والظالم ولا يرد
المظالم . والمفترط في الزكاة أو في الصلاة ولا يقضي .

(١) وما عمت به البلوى خاتم الزواج يتخذه الرجال من الذهب ، يخالفون
فيه حكم الدين ، ليوافقوا الغربيين ؛ وإن كان ابن تيمية يُلطف الأمر في رسالته
(القياس في الشرع الاسلامي)

ومن أقبحها أن يحنث في بين طلاقه ثم يقيم مع المرأة .
وقس على ما ذكرته ، فالمعاصي كثيرة ، وأقبحها لا يخفى .
وهذه المستقبحات فضلاً عن القبائح تشبه العناد للآمر .
فيستحق صاحبها اللعن ودوام العقوبة . واني لأرى شرب الخمر
في ذلك الجنس ، لأنها ليست مشتهاة لذاتها ولا لريحها ولا لطعمها
فيما يذكر ، إنما لذتها فيما يقال بعد تجرع موارثها ، فالأقدام
على ما لا بدعو إليه الطبع إلى أن يصل التناول إلى اللذة معاندة .
نسأل الله عز وجل إيماناً يحجز بيننا وبين مخالفته . وتوفيقاً
لما يرضيه . فإنا نحن به وله .

٢٠٢ - من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر

اعتبرت على أكثر العلماء والزهاد^(١) أنهم يبطنون الكبر
فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه ، وهذا لا يعود مريضاً
فقيراً يرى نفسه خيراً منه . حتى أتى رأيت جماعة يوماً إليهم ،
منهم من يقول لا أدفن إلا في دكة أحمد بن حنبل ، ويعلم أن
في ذلك كسر عظام الموتى ، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدر .
ومنهم من يقول : ادفنوني إلى جانب مسجدي ظناً منه أنه
يصير بعد موته مزوراً كمعروف الكرخي .

(١) قوله (اعتبر عليه) لاسرفه للمرية الابتأويل

وهذه خلة مهلكة ولا يعلمون . قال النبي ﷺ : من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر . وقل من رأيت الا وهو يرى نفسه (١) . والعجب كل العجب ممن يرى نفسه ، أتراه بماذا وآها ؟ ان كان بالعلم فقد سبقه العلماء ، وان كان بالتعب فقد سبقه العباد ، أو بالمال فان المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية . فان قال : قد عرفت مالم يعرف غيري من العلم في زماني ، فما علي من تقدم .

قيل له : ما تأمرك بإحافظ القرآن أت ترى نفسك في الحفظ كمن يحفظ النصف ، ولا يافقه أن ترى نفسك في العلم كالعامي ، انما تحذر عليك ان ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وان قل علمه ، فان الخيرية بالمعاني لا بصورة العلم والعبادة . ومن تلح خصال نفسه وذنوبها علم انه على يقين من الذنوب والتقصير ، وهو من حال غيره على منك . فالذي 'يحذر منه' الاعجاب بالنفس ، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة . والمؤمن لا يزال يحقر نفسه . وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ان مت تدفئك في حجرة رسول الله ﷺ ، فقال : لأن الله بكل ذنب غير الشرك أحب الي من أن أرى نفسي أهلاً لذلك .

(١) لا يزال هذا التعبير مستعملاً بمعنى (تكبر) عند عوام الناس .

وقد روينا : أن رجلا من الرهبان رأى في المنام قائلا
يقول له : فلان الاسكافي خير منك ، فزول من صومعته فجاء
اليه فسأله عن عمله فلم يذكر كبير عمل .

فقل في المنام : عد اليه وقل له ، ممّ صفة وجهك ؟
فجاء فسأله فقال : ما رأيت مسلماً إلا وطننته خيراً مني
فقل له : فبذاك ارتفع .

٢٠٣ - اصبر على غضب زوجتك وولدك وصديقك

منى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح ،
فلا ينبغي أن تعقد على مايقوله خنعراً (١) ، ولا ان تؤاخذ به ،
فان حاله حال السكران ، لا يدري مايجري ، بل
اصبر لقورته ، ولا تعول عليها ، فان الشيطان قد غلبه ، والطبع
قد هاج ، والعقل قد استتر ، ومنى أخذت في نفسك عليه ،
أو أجبت بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنوناً ، أو ككفيق
جانب مغى عليه ، فالذنب لك . بل انظر اليه بعين الرحمة ،
وتلمح تصريف القدر له ، وتفرج في لعب الطبع به . واعلم
أنه اذا اتبته ندم على ما جرى ، وعرف لك فضل الصبر .
وأقل الاقسام ان تسلمه فيما يفعل في غضبه الى ما يستريح به .
وهذه الحالة ينبغي أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد ،

(١) اي لاسمه ولا تلتفت اليه .

والزوجة عند غضب الزوج ، فتتركه يشتفي بما يقول ،
ولا تقول ذلك ، فسيعود نادماً معتذراً ، ومتى قوبل على
حالته ومقاتلته صارت العداوة متمكنة ، وجازى في الافاقة
على ما فعل في حقه وقت السكر . واكثر الناس على غير هذا
الطريق ، متى رأوا غضبان قابلوه بما يقول . ويعمل على مقتضى
الحكمة ، هذا (١) . بل الحكمة ما ذكرته . وما يعقلها
الا العالمون .

٢٠٤ - اذا آذيت شخصاً فلا تشق بمودته

ليس في الدنيا أبله من يسيء الى شخص ويعلم انه قد
بلغ الى قلبه بالاذى ثم يصطلحان في الظاهر ، فيعلم ان ذلك
الاثر مَحْيٍ بالصلح . وخصوصاً الملوك ، فان لذتهم الكبرى أن
لا يرتفع عليهم أحد ولا ينكسر لهم غرض . فاذا جرى شيء
من ذلك لم ينجر .

واعتبّر هذا بأبي مسلم الخرساني ، فإنه غض من قدر المنصور
قبل ولايته فحصل ذلك في نفسه فقتله . ومن نظر في التواريخ
رأى جماعة قد جرى لهم مثل هذا . ولا ينبغي لمن أساء الى ذي

(١) في الجملة شيء لعله من تحريف النسخ .

سلطان أن يقع في يده ، فإنه إذا رام التخلص لم يقدر . فيبقى ندمه على ترك احترازه ، وحسرتة على مساكنة الضمان للسلامة أشد عليه من كل مايلقى به من الموان والأذى .

ومن هذا الجنس الاصدقاء المماثلون . فانك متى آذيت شخصاً وبلغ الى قلبه أذاك فلا تتق بمودته ، فان أذاك نصب عينه ، فان لم يحتل عليك لم يَصِفُ لك . ولا تخاطب إلا من أنعمت عليه فهو لم ير منك شيئاً فيكون في نفسه ، وكذلك الولد والزوجة والمعاملون . ويلحق بهذا أن أقول ، لا ينبغي أن تعادي أحداً ولا تتكلم في حقه ، فربما صارت له دولة فاشتفى ، وربما احتيج اليه فلم يُقدر عليه . فالعقل يصور في نفسه كل ممكن ويستتر ما في قلبه من البغض والود ، ويدارى مع الغيظ والحقد . هذه مشاور العقل ان قبلت .

٢٠٥ - العقل من استعد لما يجوز وقوعه

كل من لا يتلمح العواقب ويستعد لما يجوز وقوعه فليس بكامل العقل . واعتبر هذا في جميع الاحوال . مثل أن يغتر بشبابه ويدوم على المعاصي ويسوف بالتوبة ، فربما أخذ بغتة ولم يبلغ بعض ماأمل . وكذلك إذا سوف بالعمل أو بحفظ العلم ، فان الزمان ينقضي بالتسويق ويفوت المقصود .

وربما عزم على فعل خير أو وقف شيء من ماله فسوف فُتت .
 فالعاقل من أخذ بالحزم في تصوير ما يجوز وقوعه وعمل
 بختض ذلك ، فإن امتد الاجل لم يضره ، وإن وقع الخوف
 كان محتزاً . وبما يتعلق بالدنيا أن يميل مع السلطان وبسيء
 إلى بعض حواشيه ثقة بقربه منه ، فربما تغير ذلك السلطان
 فارتفع عدوه فانتقم منه . وقد يعادي بعض الاصدقاء ولا يبالى
 به لانه دونه في الحالة الحاضرة ، فربما صعدت مرتبة ذلك
 فاستوفى ما أسلفه اليه من القبيح وزاد .

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه ولم يعاد أحداً ، فإن
 كان بينها ما يوجب المعادة كتم ذلك ، فإن صح له ان يشب
 على عدوه فينتقم منه انتقاماً يبيحه الشرع جاز ، على ان العفو
 أصلح في باب العيش . ولهذا ينبغي ان يخدم البطل (١) ،
 فإنه ربما عمل (٢) فعرف ذلك لمن خدم . وقس على أنودج
 ما ذكرته من جميع الاحوال .

٢٠٦ - النهي عن مخالطة السلاطين

بقدر صعود الانسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة (٣) .

(١) أي الساطل من المنصب (٢) أي ولي ولاية : صار عاملاً

(٣) أحياناً لادائماً . فقد أوتي سليمان ملكاً لا ينبغي لاحد من بعده ، وكان الخلاء

الاربية ملوك الدنيا ، والفتى الشاكر كالغدير العابر ، وقد ذهب أهل الدور بالاجور

وقد صرح بهذا ابن عمر رضي الله عنها فقال : والله لا يناله أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله ، وإن كان عنده كريماً . فالسعيد من اقتنع بالبلغة ، فإن الزمان أشرف من أن يضيع في طلب الدنيا . اللهم إلا أن يكون متورعاً في كسبه معيناً لنفسه عن الطمع قاصداً إعانة أهل الخير والصدقة على المحتاجين ، فكسب هذا أصلح من بطالة . فأما الصعود الذي سببه مخالطة السلاطين فبعيد أن يسلم معه الدين ، فإن وقعت سلامته ظاهراً فالعاقبة خطيرة .

قال أبو محمد التميمي . ما غبطت أحداً إلا الشريف أبا جعفر يوم مات القائم بأمر الله فإنه غسله وخرج ينفض أكمامه فقدم في مسجده لا يبالي بأحد وغن مزجعون لاندري ما يجري علينا . وذلك أن التميمي كان متعلقاً على السلطان يحيى له في الرسائل فحاف مغبة القرب . وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة . ولعمري أنهم طلبوا الراحة فأخطؤوا طريقها ، لأن غوم القلب لا يوازها لذة مال ، ولا لذة مطعم ، هذا في الدنيا قبل الآخرة .

ومن أشرف وأطيب عيشاً من منفرد في زاوية لا يخاط السلاطين ولا يبالي أطاب مطعمه أم لم يطب ، فإنه لا يخلو من

كسرة وقعب ماء ، وهو سليم من أن يقال له كلمة تؤذيه ، أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق .

ومن تأمل حال أحمد بن حنبل في انقطاعه وحال ابن أبي
 حوَّاد ويحيى بن أكرم عرف الفرق في طيب العيش في الدنيا
 والسلامة في الآخرة ، وما قال ابن آدم : لو علم الملوك
 وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيق العيش لالدونا عليه بالسيوف .
 ولقد صدق ابن آدم ، فإن السلطان ان أكل شيئاً خاف
 ان يكون قد طرح له فيه سم ، وان نام خاف ان يُغتال ،
 وهو وراء المغالقة لا يمكن ان يخرج لفرجة ، فان خرج كان
 منزعاً من اقرب الخلق إليه ، واللذة التي ينالها تبرده عنده ،
 ولا يبقى له لذة مطعم ولا منكح ، وكلما استظرف المطاعم
 أكثر منها ففسدت معدته ، وكلما استبعد الجواري أكثر منهم
 فذهبت قوته ، ولا يكاد يبعد ما بين الوطء والوطء فلا يجد
 في الوطء كبير لذة ، لأن لذة الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين ،
 وكذلك لذة الاكل . فإن من أكل على شبع ووطئ من
 غير صدق شهوة ، وقلق لم يجد اللذة التامة التي يجدها الفقير اذا
 جاع ، والعزب اذا وجد امرأة .

ثم ان الفقير يرمي نفسه على الطريق في الليل فينام .

ولذة الأمن قد حرمها الأمراء . فلذتهم ناقصة ، وحسابهم زائد .
والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغاً من الهذات ما لم
يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد ، والعباد
المحققين كمعروف ، فإن لذة العلم تزيد على كل لذة . وما
خرم إذا جاعوا أو ابتلوا بأذى ؟ فإن ذلك زاد في رفعتهم
وكذلك لذة الخلوة والتعب . فهذا معروف ، كان منفرداً بربه ، طيب
العيش معه لذيد الخلوة به ، ثم قد مات منذ نحو أربعين سنة فما يخلو
أن يهدى إليه كل يوم ما تقدير مجموع أجزائه من القرآن ، وأقله من
يقف على قبره فيقرأ (قل هو الله أحد) ويهديها له .
والسلطين تقف بين يدي قبره ذليلة . هذا بعد الموت ، ويوم
الحشر تنشر الكرامات التي لا توصف ، وكذلك قبور العلماء
المحققين . ولما بليت أقوام بمخالطة الأمراء أثر ذلك التكدير
في أحوالهم كلها . فقال سفيان بن عيينه : منذ أخذت من مال
فلان الأمير منعت ما كان يذهب لي من فهم القرآن .

وهذا أبو يوسف القاضي ^(١) لا يزور قبره اثنتان ^(٢) . فالصبر
عن مخالطة الأمراء وإن أوجب ضيق العيش من وجه يحصل

(١) وقبره وسط مقام الكاظم في الكاظمية (بغداد)
(٢) لو كان الفضل بعدد زوار القبور لكان أحمد البدوي وابن عربي أفضل

طبيب العيش من جهات ، ومع التخطيط لا يحصل مقصود . فمن
 حزم حزم . كان ابو الحسن القزويني لا يخرج من بيته إلا
 وقت الصلاة ، فربما جاء السلطان فيقعده لا تنتظاره لبس عليه ،
 ومدة النفس في هذا ربما أضجر السامع . ومن ذاق عرف .

٢٠٧ - أكثر الناس على غير الجادة

من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول ﷺ
 وأحوال الصحابة وأكابر العلماء علم أن أكثر الناس على غير
 الجادة ، وإنما يمشون مع العادة ، يتزاورون فيغتاب بعضهم
 بعضاً ، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه ، ويحسده أن
 كانت نعمة ، وبشت به أن كانت مصيبة ، ويتكبر عليه أن
 جمع له ، ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ، ويأخذ عليه المثرات
 أن أمكن . هذا كله يجري بين المنتسبين إلى الزهد
 لا الرعاع ، فالأولى بمن عرف الله سبحانه وعرف الشرع وسير
 السلف الصالحين الانقطاع عن الكل ، فإن اضطر إلى لقاء
 منتسب إلى العلم والخير تلقاء وقد لبس دواعي الحذر ، ولم يطل
 معه الكلام ، ثم عجل الحرب منه إلى مخالطة الكتب التي
 تحوي تفسيراً لنطاق الكمال .

٢٠٨ - دلائل الكمال وأسبابه

الكمال عزيز ، والكامل قليل الوجود . فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن ، وحسن صورة الباطن ، فصورة البدن تسمى خلقاً ، وصورة الباطن تسمى خلقاً ، ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت ، واستعمال الادب . ودليل صورة الباطن حسن الطباع ، والاخلاق . فالطباع : العفة ، والتقاة ، والأنفة من الجهل ، ومباعدة الشر . والاخلاق : الكرم ، والابتار ، وستر العيوب ، وابتداء المعروف ، والحلم عن الجاهل . فمن رزق هذه الاشياء وقته الى الكمال ، وظهر عنه أشرف الحلال ، وان نقصت خلة أوجبت النقص .

٢٠٩ - التسليم للقضاء والرضا بالقدر

ليس في الدنيا أبله (١) ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الاغراض ، فإن تكون البلوى اذن ؟ لا والله . بل لا يد من انعكاس المرادات ، ومن توقف أجوبة السؤالات ، ومن تشقى الاعداء في أوقات . فاما من يريد أن تدوم له السلامة

(١) أبه صفة ولا تحيء اسم تفضيل .

والنصر على من يعاديه ، والعافية من غير بلاء ، فما عرف
التكليف ، ولا فهم التسليم .

أليس الرسول ﷺ يُنصر يوم بدر ، ثم يجري عليه ماجرى
يوم أحد ؟ أليس يُصد عن البيت ثم قهر بعد ذلك ؟ فلا بد
من جيد وردى ، والجيد يوجب الشكر ، والردى يحرك الى
السؤال والدعاء ، فان امتنع الجواب ، أريد نقوذ البلاء ،
والتسليم للقضاء .

وهنا بين الايمان ، ويظهر في التسليم جواهر الرجال . فان
تحقق التسليم باطناً وظاهراً فذلك شأن الكامل . وان وجد في
الباطن انعصار من القضاء لامن المقضى فان الطبع لا بد أن
ينفر من المؤذي دل على ضعف المعرفة . فان خرج الامر الى
الاعتراض باللسان ، فتلك حال الجهال ، نعوذ بالله منها .

٢١٠ - حاجة الكريم الى اللثيم بلاء

من الابتلاء العظيم اقامة الرجل في غير مقامه . مثل أن
يحوج الرجل الصالح الى مداراة الظالم والتروء اليه ، والى مخالطة
من لا يصلح ، والى أعمال لا تليق به ، أو الى أمور تقطع عليه
مراده للذي يؤثره ، مثل أن يقال للعالم : تردد الى الامير
والا خفنا عليك سطونه . فيت تردد فيرى ما لا يصلح ولا يمكنه أن

ينكر . أو يحتاج الى شيء من الدنيا وقد منع حقه فيحتاج
 ان يعرض بذكر ذلك ، أو يصرح لينال بعض حقه . ويحتاج
 الى مدارة من تصعب مداراته ، بل يتشتت همه لتلك الضرورات .
 وكذلك يفقر الى الدخول في امور لاتليق به ، مثل أن
 يحتاج الى الكسب فيتردد الى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته .
 وهذا لا يمتلئ قلب المراقب لله سبحانه لأجل ما يخالطه من
 الاكدار ، أو يكون له عائلة وهو فقير فيتفكر في اغنائهم ،
 فيدخل في مداخل كلها عنده عظيم وقد يبتل بفقد من يحب ،
 أو يبلاء في بدنه ، وبمعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه ،
 فيرى الفاسق يقهره ، والظالم يذله . وكل هذه الاشياء تكدر
 عليه العيش ، وتسكاد تزلزل القلب ، وليس في الابتلاء بقوة
 الاشياء إلا التسليم والتسليم والتسليم إلى المقدر في الفرج .

فيرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظام ولا يتغير
 قلبه ، ولا ينطق بالشكوى لسانه . أو ليس الرسول ﷺ يحتاج
 ان يقول : من يؤويني من ينصرني ؟ ويفقر الى ان يدخل
 مكة في جوار كافر ، ويلقى السلا على ظهره وتقتل أصحابه ،
 ويداري المؤلفة ، ويشدد جوعه وهو ساكن لا يتغير . وماذا
 الا أنه علم ان الدنيا دار ابتلاء ، لينظر كيف يعملون وما همون

هذه الاشياء علم العبد بالأجر ، وان ذلك مراد الحق : فالجرح
لذا أرواحكم الم^(١) .

٢١١ - بخل العلماء والمتزهدين

لا ينكر ان الطباع نجس المال ، لأنه سبب بقاء الابدان ،
لكنه يزيد فيه في بعض القلوب حتى يصير محبوباً لذاته لا للتوصل
به الى المقاصد ، فتوى البخل يحمل على نفسه العجائب ، ويمتصها
للذات ، وتصير لذاته في جمع المال . وهذه جبة في خلق كثير .
وليس العجب أن تكون في الجهال ، وينبغي أن يؤثر
فيها عند العلماء المجاهدة لطبع ومخالفته ، خصوصاً في الافعال
اللازمة في المال . فأما أن يكون العالم جامعاً للمال من
وجود فيجدة ، من شبهات قوية ، ومحرص شديد ، وبذل في الطلب ،
ثم يأخذ من الزكوات ولا تحل له مع الغنى ، ثم يدخره ولا ينفع
به ، فهذه بيمية تخرج من صفات الآدمية ، بل البيمية أعند
لأنها بالرياضة تتغير طباعها ، وهؤلاء ماغيرتهم الرياضة ،
ولا أفادهم العلم .

ولقد كانت أبو الحسن البسطامي مقياً في رباط البسطامي

(١) المتن وسدده : ان كان سرّكم ما قال حاشدا

الذي على نهر عيسى ، وكان لا يلبس الا الصوف شتاء وصيفاً ،
 وكان محترماً ويقتصد ، فخلف مالا يزيد على أربعة آلاف دينار .
 ورأينا بعض أسياننا وقد بلغ الثمانين وليس له أهل ولا
 ولد ، وقد مرض فالتى نفسه عند بعض أصدقائه يتكلف له
 ذلك الرجل ما يشتهي وما يشفيه ، فمات فخلف أموالاً عظيمة .
 ورأينا صدقة بن الحسين الناسخ ، وكان على الدوام يذم
 الزمان وأهله ويبالغ في الطلب من الناس ويتجفف^(١) وهو في
 المسجد وحده ليس له من يقوم بأمره ، فمات فخلف فيما قيل
 ثلاثة دنانير .

وكان يصحبنا أبو طالب بن المؤيد الصوفي ، وكان يجمع
 المال ، فسرق منه نحو مئة دينار ، فتلّاه عليها وكان ذلك
 سبب هلاكه .

ومن أعجب أحوال الناس أنك ترى أقواماً جلسوا على
 صفة القوم يطلبون الفتوح ، فيأتيهم منها الكثير الذي يصيرون
 به من الأغنياء ، وهم لا يمتنعون من أخذ زكاة ولا من طلب .
 وكذلك القصاص ، يخرجون الى البلاد ويطلبون ، فيحصل
 لهم المال الكثير ، فلا يتركون الطلب عادة .

فيا سبحان الله ! أي شيء أفاد العلم ؟ بل الجهل كان
 لهؤلاء أعذر .

ومن أقبح أحوالهم لزومهم الأسباب التي تجلب لهم الدنيا من التخاصع والتناسك في الظاهر^(١) ، وملازمة حث العزلة عن المخالطة ، وكل هؤلاء يعزل عن الشرع .

ولقد تأملت على^(٢) بعضهم من القدح في نظيره الى أن يبلغ به الى التعرض به للهلاك . فالويل لهم ، وما أقل ما يتمتعون بظواهر الدنيا ، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم ، لأن الحق عز وجل لا يميل القلوب الا الى المخلصين^(٣) . فقد فاتهم الدنيا على الحقيقة ، وهي مسك القلوب ، والآخرة بالانفاق ، وما حصلوا الا صورة الخطام . نسأل الله عز وجل عقلا يدبر دنيانا ، ويحصل لنا آخرتنا ، والرزاق قادر .

٢١٢ - معرفة الحق سبحانه وطاعته

ينبغي لمن عرف شرف الوجود أن يحصل أفضل الوجود . هذا العبر موسم ، والتجارات تختلف ، والعامسة تقول : عليكم بما خف حمله وكثر ثمنه .

-
- (١) ولا يزال في عصرنا ناس يتاجرون بالدين ويأكلون به الدنيا
 (٢) هذه مثل قوله « اعتبرت على » . ولا اعرف لها وجهاً في العربية إلا بتأويل
 (٣) إلا ان يكون ذلك استدراجاً او نحوه كالذي نراه من ميل قلوب العامة الى المتدعين الدجالين .

فينبغي للمستيقظ أن لا يطلب إلا الأنفس .
 وأنفس الاشياء في الدنيا معرفة الحق عز وجل . فمن
 العارفين السالكين من وافى في طريقه بغيته في السفر ، ومنهم
 من ينظر الى ما يرضي الحبيب فيحمله الى بلد المعاملة ، ويرضي
 بالقبول ثمنا ، ويرى أن كل البضائع لا تقى بحق الخفارة ،
 ومنهم من يرى لزوم الشكر في اختياره السلوك دون غيره
 فيقر بالعجز .

وقد ارتفع قوم عن هذه الاحوال ، فأروا مجرد التوفيق
 يشغلهم عن النظر الى العمل . اولئك الاقلون عدداً والاعظمون
 قدراً . هم أقل نسلا من غنقاء مغرب^(١) .

٢١٣ - المبادرة الى التوبة والصلاح

من علم قرب الرحيل عن مكة استكثر من الطواف ،
 خصوصاً إن كان لا يؤمل العود لكبر سنه وضعف قوته ، فكذلك
 ينبغي لمن قارب ساحل الاجل بعلو سنه أن يبادر الاحظات ، وينتظر
 المهاجم بما يصلح له فقد كان في قوس الاجل منزع زمان
 الشباب ، واسترخى الوتر بالمشيب عن سية القوس ، فأنحدر
 الى القلب وضعفت القوى أن يوتر ، وما بقي إلا الاستسلام
 لحارب التلف ، فالبدار البدار الى التنظف ليكون القيدوم
 على طهارة .

(١) طائر لا وجود له كان العرب يتوهمون وجوده انظر الكلام عنه في
 « حياة الحيوان » لدميري .

وأي عيش في الدنيا بطيب لمن أبامه السلبه تقربه الى
الهلاك ، وصعود مره نزول عن الحياة ، وطول بقاءه نقص
مدى المدة ؟

فليتفكر فيما بين يديه ، وهو أم بما ذكرناه . أليس في
الصحيح : ما منكم أحد إلا ويعرض عليه مقعده بالعداء
والعشي من الجنة أو النار فيقال هذا ، مقعدك ، حتى يبعثك الله ؟
فوا أسفا لمهدد ، كم يقتل قبل القتل . ويا طيب عيش
المعود بأزيد المني . وليعلم من شارب السبعين ، ان النفس
أبني . أعان الله من قد قطع عتبة العمر على رمل زرود الموت .

٢١٤ - الاقتداء بالنبي عليه السلام في التسليم الى الله عز وجل

من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله عز وجل في أفعاله
وأن يدري من أين نشأ الرضى ، فليتفكر في أحوال رسول
الله ﷺ . فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن
الخالق مالك ، والمالك التصرف في مملوكه ، ورآه حكيماً
لا يصنع شيئاً عبثاً ، فلم تسلم مملوك الحكيم ، فكانت العجائب
تجري عليه ولا يوجد منه تغير ، ولا من الطبع تأفف ، ولا
يقول بلسان الحال لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار نبوت
الجلل لمواصف الرياح .

هذا سيد الرسل ﷺ ، بعث الى الخلق وحده والكفر قد
ملا الآفاق ، فبعضل يفر من مكان الى مكان ، واستتر في
دار الخيزران ^(١) ، وهم يضربونه اذا خرج ويدمونه عقبه
والقى السلا على ظهره وهو ساكت ساكن ، ويخرج كل موسم
فيقول : من يؤويني من ينصرني ؟

ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر
ولم يوجد من الطبع تأفف ، ولا من الباطن اعتراض إذ لو
كان غيره لقال : يارب أنت مالك الخلق ، وقادر على النصر ،
فلم أذل ؟ كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية :
ألسنا على الحق ، فلم نعطي الدنيا في ديننا ؟ ولما قال هذا ،
قال له الرسول ﷺ : إني عبد الله ولن يضيعني . فجمعت
الكلمتان الأصلين الذين ذكرتهما . فقوله : إني عبد الله .
أقرار بالملك وكأنه قال : أنا مملوك بفعل بي ما يشاء . وقوله :
لن يضيعني بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً .

ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجر ، والله خزائن السهوات
والارض . وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ،
ويقتل بصره ^(٢) وهو ساكت . ثم يرزق ابناً ويسلب منه ،

(١) كانت دار الأرقم ، وهي في اصل الصفا ، ولم تكن خلعت الخيزران وإنما

اتت إليها الدار بعد ذلك (٢) حزة في أحد

فيتعلل بالحسن والحسين فيخبر بما سيجري عليهما . ويسكن
 بالطبع الى عائشة رضي الله عنها فينقص عيشه بقذفها ، ويبالغ
 في اظهار المعجزات فيقام في وجهه مسيلة والعنسي وابن صياد .
 ويقوم ناموس الأمانة والصدق ، فيقال : كذاب ساحر .

ثم يعلقه المرض كما يوعك رجلان وهو ساكن ساكت .
 فإن أخبر بحاله فليعلم الصبر .

ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريفة وهو
 مضطجع في كساء ملبد وازار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد
 به المصباح ليلتئذ .

هذا شيء ما قدر على الصبر عليه كما ينبغي نبي قبله . ولو
 ابتليت به الملائكة ماصبوت . هذا آدم عليه السلام يبساح له
 الجنة سوى شجرة فلا يقع ذباب حرصه إلا على العقر . ونبينا
 ﷺ يقول في المباح : مالي وللدنيا ؟ وهذا نوح عليه السلام
 يضح بما لاقى فيصبح من كمد وجده : « لا تذروني على
 الارض من الكافرين دياراً » ونبينا ﷺ يقول : اللهم
 أهد قومي فانهم لا يعلمون ^(١) هذا الكلام موسى ﷺ ، يستغيث
 عند عبادة قومه المعجل على القدر « إن هي إلا فتنتك » ويوجه

(١) قال الشيخ ناصر : ضيف

اليه ملك الموت فيقطع عينيه^(١) . وعيسى عليه السلام يقول : ان صرفت الموت عن أحد فاصرفه عني . ونينا عليه السلام يخبر بين البقاء والموت فيختار الرحيل الى الرفيق الاعلى .

هذا سليمان عليه السلام يقول : هب لي ملكا . ونينا عليه السلام يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا .

هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجد ، فمات اغراضه وسكنت اعتراضاته فصار هواه فيما يجري .

٢١٥ - من عرف النساء رضي بزوجه

اكثر شهوات الحس النساء . وقد يرى الانسان امرأة في ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته ، أو يتصور بفكره المستحسنات وفكره لا ينظر إلا الى الحسن من المرأة ، فيسمى في التزوج والتسري ، فاذا حصل له مراده لم يزل ينظر في عيوب الحاصل التي ما كان يتفكر فيها فيقبل ويطلب شيئاً آخر ، ولا يدري أن حصول أغراضه في الظاهر ربما اشتمل على محن ، منها أن تكون الثانية لادين لها أو لاعقل أو لاجبة لها أو لاتدبير فيفوت أكثر مما حصل .

(١) هذه اسرائيليات يكثر المؤلف رحمه الله من ايراد مثلهاء - والرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد منا ان نمدحه بدم الانبياء من قبله . « لان فرق بين أحد من رسله » صلى الله عليه وعليهم جميعاً .

وهذا المعنى هو الذي أوقع الزناة في الفراش . لانهم
يحالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها ، فتقدم
تلك الساعة ، ثم ينتقلون الى أخرى . فليعلم العاقل أن لاسبيل
الى حصول مراد تام كما يريد ، ولستم بأخذه الا أن تغضوا
فيه ، وما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله عز وجل « ولهم
فيها أزواج مطهرة » وذو الالفة يأتي من الوسخ صورة ،
وعيب الخلق معنى . فليقنع بما باطنه الدين ، وظاهره البتة
والقناعة . فانه يعيش مرفه السر ، طيب القلب ومتى وما
استكثر ، فانما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه .

٢١٦ - تعدد الصناعات

سبحان من شغل كل شخص بفن لتنام العيون في الدنيا
فأما العلوم فحجب الى هذا القرآن ، وإلى هذا الحديث ،
وإلى هذا النور ، إذ لولا ذلك ما حفظت العلوم وألم هذا
المتعیش أن يكون خبازاً ، وهذا أن يكون هراً ، وهذا
أن ينقل الشوك من الصحراء ، وهذا أن ينقي البئر ليلتئم
أمر الخلق . ولو ألم أكثر الناس أن يكونوا خبازين مثلاً ،
بات الخبز وهلك ^(١) ، أو هراسين جفت المراسي . بل يلهم

(١) اي كثر فكده وفسد

هذا بقدر لينتظم أمر الدنيا وأمر الآخرة ويندر من الخلق
من يلهم الكمال وطلب الفضل ، والجمع بين العلوم والاعمال
ومعاملات القلوب ، وتتفاوت أبواب هذه الحال . فسبعات
من يخلق ما يشاء ويختار . نسأله العفو إن لم يقع الرضى ،
والعلاء إن لم نصلح للعامة .

٢١٧ - أحاديث الزهد

علم الحديث هو الشريعة ، لانه مبين للقرآن وموضح للعلل
والحرام ، وكاشف عن سير رسول الله ﷺ وسير اصحابه .
وقد مزجوه بالكذب ، وادخلوا في المقولات كل قبيح ،
فاذا وفق الزاهد والواعظ لم يذكر الا ما شهد بصحته ، وان
حرما التوفيق ، عمل الزاهد بكل حديث يسمعه لحسن ظنه
بالرواة ، وقال الواعظ كل شيء يراه ، لجهله بالتصحيح ، ففسدت
أحوال الزاهدين ، وانحرف عن جادة الهدى ، وهو لا يعلم .
وكيف لا وعموم الاحاديث الدالة على الزهد لا تثبت ، مثل
حديث ابن عمر رضي الله عنها : أيما أمرىء مسلم انتهى شهوة
فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له : وهذا حديث موضوع ،
يطلع الانسان ما أبيع له بما يتقوى به على الطاعة ومثل قوله :
من وضع ثيابا حسنا . وكذلك ما رووا أن رسول الله ﷺ

قدم له ادمان فقال : ادمان في قدح ، لاحاجة لي فيه ، أكره
أن يسألني الله عن فضول الدنيا . وفي الصحيح أن رسول الله
ﷺ : أكل البطيخ بالرطب .

ومثل هذا اذا تتبع كثير ، فقد بنوا على فسادهم ، ففسدت
أحوال الواعظ والموعوظ ، لأنه يبني كلامه على أشياء فاسدة
ومحالات . ولقد كان جماعة من المتزهدين يعملون على أحاديث
ومنتولات لاتصح ، فيضيع زمانهم في غير المشروع . ثم
ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات ، ويرون أن التجفف
هو الدين . وكذلك الوعاظ يحدثون الناس بما لا يصح عن الرسول
ﷺ ولأصحابه . فقد صار الحال عندهم شريعة . فسبحان من
حفظ هذه الشريعة بأخبار أخيار ينفرون عنها تحريف الغالين ،
وانتحال المبطلين .

٢١٨ - مسند احمد

كان قد سألني بعض أصحاب الحديث ، هل في مسند احمد
ماليس بصحيح : فقلت : نعم .

فعظم ذلك على جماعة ينسبون الى المذهب ، فعملت أمرهم
على أنهم عوام ، وأهملت فكر ذلك . واذا بهم قد كتبوا
فتاوى . فكتب فيها جماعة من أهل خراسان ، منهم أبو العلاء

المهدي في يعظمون هذا القول ، ويردونه ويقولون قول من قاله .
 فبقيت دهشاً متعجباً ، وقلت في نفسي : واعجباً صار المنتسبون
 الى العلم عامة أيضاً ، وما ذاك الا أنهم سمعوا الحديث ولم
 يبحثوا عن صحبه وسقيه ، وظنوا أن من قال ماقلته قد
 تعرض لظعن فيما أخرجه أحمد ، وليس كذلك . فان الامام
 احمد روى المشهور والجيد والردى ، ثم هو قد رد كثيراً مما
 روى ولم يقبل به ولم يجعله مذهباً له . أليس هو القائل في
 حديث الرضوء بالنيذ : مجهول ! ومن نظر في كتاب العلل
 الذي صنه أبو بكر الحلال^(١) رأى احاديث كثيرة كلها في
 المسند ، وقد طعن فيها أحمد .

ونقلت من خط القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين^(٢) الفراه
 في مسألة النيذ قال : إنما روى احمد في مسنده ما اشتهر ،
 ولم يقصد الصحيح ولا السقيم .

(١) احمد بن محمد مفسر لغوي - من كبار الخطابة له كتاب « الجامع لطوم

الامام احمد » توفي في بغداد سنة « ٣١١ »

(٢) صاحب [الاحكام السلطانية] وهو مثل كتاب [الاحكام السلطانية]

للاوردي . وهو عالم عصره ، كان مقرباً من الخلفاء العباسيين وولي القضاء لهم بشرط

الايجز ايام الموكب ولا يخرج في الاستقبالات ولا يدخل دار السلطان ، وكان

شيخ الخطابة في زمانه توفي سنة ٤٥٨

وبدل على ذلك أن عبد الله قال : قلت لأبي ، ما تقول

في حديث ربعي بن حراش عن حذيفة ؟
قال : الذي يرويه عبد العزيز بن أبي رواد^(١)

قلت : نعم .

قال : الأحاديث بخلافه .

قلت : فقد ذكرته في المسند .

قال : قصدت في المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد

ماصح عندي لم أورد من هذا المسند الا الشيء بعد الشيء .

اليسير ، ولكنك يا بني تعرف طريقتي في الحديث ، لست أخالف

ماضعف من الحديث اذا لم يكن في الباب شيء يدفعه .

قال القاضي : وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند ،

فمن جعله أصلاً للصحة فقد خالفه وترك مقصده .

قلت : قد غني في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم

صاروا كالعامية ، واذا مر بهم حديث موضوع قالوا قد روي .

والبسكاء ينبغي أن يكون على خسارة المصمم . ولا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم .

٢١٩ - هوى النفس

بلغني عن بعض فساق القدماء أنه كان يقول :

(١) النكفي مول الملب المتوفى سنة ١٥٩

ما أرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئاً أو مصيباً
 فتدبروت حال هذا وإذا به ميت النفس ، ليس له أنفة على
 عرضه ولا خوف عار . ومثل هذا ليس في مسلاخ الآدميين ،
 فان الأنساب قد يقدم على القتل لثلاثا يقال جبان ، ومجمل
 الانتقال ليقال ما قصر ، ويخاف العار فيصبر على كل آفة من
 الفقر ، وهو يستر ذلك حتى لا يرى بعين ناقصة . حتى أن الجاهل
 إذا قيل له : باجاهل غضب . واللصوص المتهيشون للحرام
 إذا قال أحدهم للآخر : لاتكلم ، فان أختك تفعل وتصنع ،
 اخذته الحمية فقتل الاخت .

ومن له نفس لا يقف في مقام تهمة لثلاثا يظن به .
 فاما من لا يبالي ان يرى سكران ، ولاجه ان شرب بين
 الناس ، ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسوء ، فذاك في عداد
 البهائم . وهذا الذي يريد ان يتبع النفس هواها لا يلتذ به إلا
 أن لا يخاف عنتاً ولا لوماً ، ولا يكون له عرض يحذر
 عليه ، فهو بهيمة في مسلاخ انسان ^(١) ، وإلا فأبي عيش لمن
 شرب الخمر وأخذ عقيب ذلك وضرب وشاع في الناس ما قد
 فعل به ، أما يفني ذلك باللذة ؟ لا ، بل يربي عليها أضعافاً .
 وأي عيش لمن ساكن الكسل اذا رأى أقرانه قد برزوا

في العلم وهو جاهل ، او استغنوا بالتجارة وهو فقير ، فهل
يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى . ولو تفكر الزاني في
الاحدوثة عنه ، او تصور أخذ الحد منه ، لكف الكف ،
غير أنه يرى لذة حاضرة كأنها لمع برق . وباشؤم ما أعقبت
من طول الالام ، هذا كله في العاجل . فأما الآجل فننصت
العذاب دائم ، (والذين آمنوا مشفقون منها) نسأل الله أنفة من
الروذائل ، وهمة في طلب الفضائل انه قريب مجيب .

٢٢٠ - المبارزة بالمعاصي

قد تبغت العقوبات ، وقد يؤخرها الحلم ، والعاقل من
إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة ، فكم مغرور بامهال العصاة لم
يعمل . وأسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسى النهي ،
فتكون تلك الخطيئة كاللعاندة والمبارزة ، فان كانت توجب
اعتراضاً على الخالق او منازعة له في عظمته ، فتلك التي
لا تتلافى . خصوصاً ان وقعت من عارف بالله ، فإنه ينذر
إيمانه ، قال عبد المجيد بن عبد العزيز^(١) : كان عندنا بخراسان
رجل كتب مصحفاً في ثلاثة أيام فلقبه رجل فقال : في كم
كتبت هذا ؟

(٢) ابن النور الذي مر ذكره قبل صفحتين

فأوما بالسبابة والوسطى والابهام وقال : في ثلاث « وما
منا من لغوب » .

فجفت أصابعه الثلاث ، فلم ينتفع بها فيما بعد .
وخطر لبعض الفصحاء أنه يقدر ان يقول مثل القرآن :
فصعد الى غرفة فانفرد فيها ، وقال أمهلوني ثلاثاً ، فصعدوا
إليه بعد الثلاث ويده قد يبست على القلم وهو ميت ، قال
عبد المجيد : ورأيت رجلاً كان يأتي امرأته حائضاً ، فحاض^(١) ،
فلما كثر الامر به تاب فانقطع عنه . ويلحق هذا أن يعير
الانسان شخصاً بفعل ، وأعظمه أن يعيره بما ليس إليه ،
فيقول : يا أعمى ، ويا قبيح الحلقة .

وقد قال ابن سيرين : عيرت رجلاً بالفقر فحبست على دين .
وقد تناخر العقوبة وتأتي في آخر العمر . فباطول التعشير
مع كبر السن لذنوب كانت في الشباب . فالحذر الحذر من
عواقب الخطايا والبدار البدار الى محوها بالانابة ، فلها تأثيرات
قبيحة ان أمرعت وإلا اجتمعت وجاءت .

(١) الحديث الصحيح السند ان كان مخالفاً للمشاهد المحسوس ، حكم بان رسول
الله صلى الله عليه وسلم لم يقه ، فكيف يمثل هذه الاخبار التي لا اصل لها ؟ ومنى
رأى الناس رجلاً حاض¹²

٢٢١ - جمع المال

اعلم ان الآدمي قد خلق لأمر عظيم . وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل ^(١) ، ولا يكفيه التقليد ، وذلك يفتقر الى جمع المم في طلبه . وهو مطالب بإقامة المفروضات ، واجتباب المحارم ، فإن سميت مهمته الى طلب العلم احتاج الى زيادة جمع المم . فأساعد الناس من له قوت داره بقدر الكفاية ، لا من ممن الناس وصدقائهم ، وقد قنع به ، فإنه حينئذ يجتمع مهم لمطلوباته من الدين والدنيا والعلم . وأما اذا لم يكن له قوت يكفي فاهم الذي يريد اجتماعه في تلك الأمور ينشئت ويصير طالباً للتعميل في القوت ، فيذهب العمر في تحصيل قوت البدن الذي يريد من بقاءه غير بقاءه ، ويفوت المقصود ببقائه . وربما احتاج الى الانذار . قال الشاعر :

حسبي من الدهر ما كفاني بصون عرضي عن الهوان
خافة أن يقول قوم فضل فلان على فلان
فينبغي للعامل إذا رزق قوتاً أو كان له مواد أن يحفظها
ليجتمع همه ، ولا ينبغي أن يبذر في ذلك فانه يحتاج فينشئت
همه ، والنفس إذا أحرزت قوتها اطمانت .

(١) اما الدليل العقلي الذي ثبت به كذب العلم الكلام فلم يوجب الله على المؤمن ، ولقد كان السلف لا يعرفونه وإيمانهم اثبت من الجبال الزواسي .

فان لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته وقلل الغلو
ليجمع همه ، وليقتع بالقليل ، فانه متى تمت مهمته الى فضول
المال وقع الخذور من التشتت ، لأن التشتت في الأول للعدم ،
وهذا التشتت يكون للحرص على الفضول ، فيذهب العمر
على البارد :

ومن يتفق الايام في حفظ ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
فافهم هذا يا صاحب الهمة في طلب الفضائل ، فانك مسالم
تعزل قوت الصبيان تشتتوا قلبك ، وطبعك طفل ، فقرغ همك
من استعانتة .

واعرف قدر شرف المال الذي أوجب جمع همك ، وصان
عروضك عن الخلق . وإياك أن يملك الكرم على فرط الانخراج
فتصير كالفقير المتعرض لك بالتعرض لغيرك وفي الحديث أن
رجلا اتى رسول الله ﷺ فرأى عليه آثار الفقر ، فعرض به
فاعطى شيئاً . فجاء فقير آخر فأثره الاول ببعض ما أعطى ،
فرماه النبي ﷺ اليه ، ونهاه عن مثل ذلك .

والقناعة بما يكفي ، وترك التشوف الى الفضول أصل الاصول .
ولما أبأس الامام احمد بن حنبل نفسه من قبول الهدايا والصلات
اجتمع همه ، وحسن ذكره . ولما أطعمها ابن المديني ^(١) وغيره

(١) علي بن عبد الله كان حافظ عمره توفي بسامراء سنة ٢٢٤

سقط ذكركم . ثم فيمن يطمع ؟ إنما هو سلطان جائر ، أو مزكّـ
 منان ، أو صديق مذل بما يعطى ، والعز ألد من كل لذة ،
 والخروج عن ربة المثنى ولو بسفّ التراب .

٢٢٢ - التجلد عند النكبات

قد ركب في الطباع حب التفضيل على الجنس . فما أحد إلا
 وهو يحب أن يكون أعلى درجة من غيره ، فإذا وقعت نكبة
 أوجبت نزوله عن مرتبة سواء ، فينبغي له أن يتجلد بستر تلك
 النكبة ، لتلا يرى بعين نقص . ولينجمل المتعفف حتى لا يرى بعين
 الرحمة . وليتعامل المريض لتلا يشمت به ذو العافية . وقد قال
^{عليه السلام} لأصحابه حين قدومه مكة وقد أخذتهم الحمى فخاف أن
 يشمت بهم الأعداء حين ضعفهم عن السعي ، فقال : « رحم الله
 من أظهر من نفسه الجلد » .

فرملوا والرمل شدة السعي . وزال ذلك السبب وبقي الحكم ،
 لينذكر السبب فيفهم معناه . واستأذنوا على معاوية وهو في
 الموت ، فقال لأهله أجلسوني ، فقمعد متمكنا يظهر العافية ، فله
 خراج العواد أنشد :

وتجلدي لشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أنضع
 وإذا المنية انشبت أظفارها ألقيت كل قيمة لا تنفع^(١)

(١) من تصبده إلى زؤبب الأمن المتون وريها تتوجع وهي من أجل المراتي

وما زال العلاء يظهرون التجلّد عند المصائب والفقر والبلاء ،
 ثلاثاً يتحلوا مع النوائب شماعة الاعداء ، وانها لأشد من كل نائبة .
 وكان فقيرهم يظهر الغنى ، ومريضهم يظهر العافية ، بلى . ثم
 نكتة ينبغي التفطن لها ، ربما أظهر الانسان كثرة المال وسبوغ
 النعم ، فاصابه عدو بالعين ، فلا يفي ما تبجح به بما يلاقي من انعكاس
 النعمة ، والعين لا تصيب إلا ما يستحسن للشيء ، ولا يكفي
 الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد ، ولا يكفي
 ذلك حتى يكون من شرير الطبع . فاذا اجتمعت هذه الصفات
 خيف من إصابة العين . فليكن الانسان مظهرًا للتجميل مقدار
 ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه في خير . وليحذر الافراط في
 اظهار النعم ، فان العين هناك محذورة .

وقد قال يعقوب لبنيه عليهم السلام : لا تدخلوا من باب
 واحد وادخلوا من ابواب متفرقة ، وإنا خاف عليهم العين فليفهم هذا
 الفصل فانه ينفع من له تدبر .

٢٢٣ - درجات الايمان

إنما خلقنا لنجيا مع الخالق في معرفته ومحادثته ورؤيته في
 البقاء الدائم . وإنا ابتدئ كورتنا في الدنيا لانها في مثال
 مكتب نتعلم فيه الخط والادب ليصلح الصبي عند بلوغه للرتب
 فن الصبيان بعيد الذهن بطول مكثه في المكتب ويخرج وما فهم
 شيئاً . وهذا مثال من لا يعلم وجوده ، ولا ثال المراد من كونه .

ومن الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه وقلة فهمه وعدم تعلمه أذى الصبيان ، فهو يؤذيهم ، ويسرق مطاعهم ، ويستغيثون من يده ، فلا هو صلح ولا فهم ولا كف الشر . وهذا مثل أهل الشر والمؤذين .

ومن الصبيان من علق بشيء من الخط لكنه ضعيف الاستخراج ، ردي الكتابه ، فخرج ولم يعلق الا بقدر ما يعلق به حساب معاملته وهذا مثل من فهم بعض الشيء وفاته الفضائل التامة .

ومنهم من جوّد الخط ولم يتعلم الحساب ، واتفق الآداب حفظا ، غير أنه قاصر في أدب النفس . فهذا يصلح أن يكون كاتباً للسلطان على غفلة لسوء ما في باطنه من الشره وقلة التأدب .

ومنهم من سمت همته الى المعالي الكاملة ، فهو مقدم الصبيان في المكتب ونائب عن معلمهم ، ثم يرتفع عنهم بعزة نفسه ، وأدب باطنه ، وكإل صناعة الآداب الظاهرة . ولا يزال حاث من باطنه يحثه على تعجيل التعلم ، وتحصيل كل فضيلة لعله أن المكتب لا يراود لنفسه بل لاخذ الادب منه ، والرحلة الى حالة الرجولية والتصرف ، فهو يبادر الزمان في نيل كل فضيلة . فهذا مثل المؤمن الكامل يسبق الأقران يوم التجاري ،

ويعرض لوح عمله جيد الخط ، فيقول بلسان حاله « هاؤم
افروؤا كتابية » .

وكذلك الدنيا وأهلها . من الناس هالك بعيد عن الحق
وهم الكفار . ومنهم خاطيء مع قليل من الايمان فهو معاقب
والمصير الى خير . ومنهم سليم ولكنه قاصر . ومنهم تام لكنه
بالإضافة الى من دونه ، وهو ناقص بالإضافة الى من فوقه .
فالبدار الدار يأرباب الفهوم فان الدنيا معبر الى دار
اقامة ، وسفر الى القرب من السلطان ومجاورته فتتهؤوا للمجالسة
واستعدوا للمخاطبة ، وبالغوا في استعمال الأدب لتصلحوا
لقرب من الحضرة . ولا يشغلنكم عن تضيير الحيل تكاسل .
وليحكم على الجدل في ذلك تذكر يوم السباق ، فان قرب
المؤمنين من الخالق على قدر حذرهم في الدنيا ، ومنازلهم على
قدرهم ، فما منزل النفاط كمنزل الحاجب ، ولا منزل الحاجب
كمكان الوزير ، جنتان من ذهب آينتها وما فيها ، وجنتان
من فضة آينتها وما فيها . والفردوس الاعلى لآخرين . والذين
في أرض الجنة ينظرون أهل الدرجات ، كما يرون
الكواكب الدري .

فليتذكر الساعي حلاوة التسليم الى الامين ، وليتذكر في
لذافة المدح يوم السباق . وليحذر المسابق من تقصير لا يمكن

استدراكه . وليخف من عيب يبقى قبح ذكره . هؤلاء
الجهنيون عتقاء الرحمن ، وليصبر الهوى عن المشتهى ، فالإيام
قلائل . يدخل فقراء المؤمنين قبل الأغنياء الى الجنة بخمسة
عام . فالجد الجد ، بأقدام المبادرة ، فقد لاح العلم خصوصاً
لمن بانت له بانة الوادي ، إما بالعلم الدال على الطريق ، وإما
بالشيب الذي هو علم الرحيل وهو يأمله أهل الجد . وكانت
الجنيد يقرأ وقت خروج روحه ، فيقال له في هذا الوقت :
فيقول أبادر طي صحيفتي . وبعد هذا ، فالمراد موفق .
والمطلوب معان . وإذا أرادك لأمر هياك له .

٢٢٤ - تفاوت الهمم

تأملت حالة عجيبة وهو أن أهل الجنة الساكنين في أرضها
في نقص عظيم بالإضافة الى من فوقهم ، وهم يعلمون
فضل أولئك . فلو تفكروا فيما فاتهم من ذلك وقعت الحسرات ،
غير أن ذلك لا يكون ، لأن ذلك لا يقع لهم لطيب منازلهم ،
ولا يقع في الجنة غم ، ويرضى كل بما أعطي من وجهين :
أحدهما أنه لا يظن أن يكون نعيم فوق ما هو فيه ، وأن
علت منزلة غيره .

والثاني أنه يحب اليه كما يحب اليه ولده المستوحش الحلقة ،
فيؤثره على الاجنبي المستحسن .

إلا أن نحت هذا معنى لطيفاً . وهو أن القوم خلقت لهم هم قاصرة في الدنيا عن طلب الفضائل ، ويتفاوت قصورها . فمنهم من يحفظ بعض القرآن ولا يتوق إلى التمام . ومنهم من يسمع يسيراً من الحديث . ومنهم من يعرف قليلاً من الفقه . ومنهم من قد رضي من كل شيء بيسيره . ومنهم مقتصر على الفرائض . ومنهم قنوع بصلاة ركعتين في الليل ولو علت بهم المهم لجذت في تحصيل كل الفضائل ، ونبت عن النقص فاستخدمت البدن كما قال الشاعر :

ولكل جسم في التحول بلية وبلاء جسسي من تفاوت همي
وبدل على تفاوت المهم أن في الناس من يسهر في سماع سحر
ولا يسهل عليه السهر في سماع القرآن . والإنسان يحشر ومعه تلك الهمة ، فيعطى على مقدار ما حصلت في الدنيا ، فكما لم تنق إلى الكمال وقنعت بالدون قنعت في الآخرة بمثل ذلك . ثم أن القوم يتفكرون بعقولهم ، فيطمون أن الجزاء على قدر العمل ، ولا يطمع من صلى ركعتين في ثواب من صلى ألفاً . فإن قال قائل : فكيف يتصور لها أن تروم ماثله من هو أفضل منها ؟ قلت : أن لم يتصور نيله يتصور الحزن على فوته ، وهل رأيت عامياً يحزن على فوات الفقه حزناً يقلقه ؟

هيات . لو كانت ذلك الحزن عنده لحركه إلى التشاغل .

فليس عندهم حجة توجب الاسف مع أنهم قد رضوا بما هم فيه .
ظافهم ماقلته وبأدر ، فهذا ميدان السباق .

٢٢٥ - حكمة بقاء اهل الكتاب

تفكرت في إبقاء اليهود والنصارى بيننا وأخذ الجزية منهم ،
فرايت في ذلك حكماً عجيباً . منها ماقد ذكر من أن الاسلام
كان ضعيفاً فتقوى بما يؤخذ من جزيتهم ، ومنها ظهور عزه^(١)
بذلهم الى غير ذلك مما قد قيل . ووقع لي فيه معنى عجيب .
وهو أن وجودهم وتعبدهم وحفظهم شرع نبيهم ﷺ دليل على
انه قد كان انبياء وشرائع ، وان نبينا ﷺ ليس ببدع من
الرسل ، فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صانع ، واقرار
برسل ، فبان أننا ما ابتدعنا ما لم يكن . وهم يصبرون على باطلهم ،
ويؤدون الجزية ، فكيف لانصبر على حق ، والدولة لنا ،
وفي بقائهم احترام لما كان صحيحاً من الدين وليرجع متبصر
وليستعمل مفكر .

٢٢٦ - الاشتغال بفن واحد

قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله ، إلا أن طلاب العلم
افتقروا ، فكل قدعوه نفسه الى شيء ، فمنهم من أذهب عمره

(١) المرة لله ورسوله والمؤمنين ، فن اراد ان يقال عزة المؤمنين ، فليتمسك بالدين

في القراءات ، وذاك تفريط في العمر ، لأنه إنما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها لأعلى الشاذ ، وما أقبح بالتأريء أن يسأل عن مسألة في الفقه ولا يدري ، وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق في روايات القراءات .^(١)

ومنهم من يتشاغل بالنحو وعمله فحسب ، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب ، ومنهم من يكتب الحديث ويكثر ولا ينظر في فهم ما كتب . وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يسأل عن مسألة في الصلاة فلا يدري ما يقول ، وكذلك القراء ، وكذلك أهل اللغة والنحو .

وحدثني عبد الرحمن بن عيسى الفقيه قال حدثني ابن المنصوري قال حضرتا مع أبي محمد بن الحشاش ، وكان امام الناس في النحو واللغة ، فتذاكروا الفقه ، فقال : سلوني عما شئتم . فقال له رجل : ان قيل لنا رفع اليدين في الصلاة ما هو فماذا نقول ؟ فقال : هو ركن !

فدهشت الجماعة من قلة فقهه .

وإنما ينبغي أن يأخذ من كل علم طرفاً ثم يتم بالفقه ، ثم ينظر في مقصود العلوم ، وهو المعاملة لله سبحانه والمعرفة به والحب له وما أبله من يقطع عمره في معرفة علم النجوم ،

(١) اما قراءة القرآن بانظام الفناء ، واخذ الاجرة عليه ، كلاهما لا يجوز

وانما ينبغي أن يعرف من ذلك اليسير والمنازل لعلم الاوقات
 فاما النظر فيما يدعي أنه القضاء والحكم فجعل محض ، لأن
 لا سبيل الى علم ذلك حقيقة ، وقد جرب فبان جهل مدعيه ،
 وقد تقع الاصابة في وقت . وعلى تقدير الاصابة لا فائدة فيه
 إلا تعجيل الغم .

فإن قال قائل : يمكن دفع ذلك . فقد سلم أنه لاحقيقة
 له . وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيبياء ^(١) فانه هذيان
 فارغ . واذا كان لا يتصور قلب الذهب نحاساً لم يتصور
 قلب النحاس ذهباً . فلماذا فاعل هذا مستعمل للتدليس على الناس
 في النقود ، هذا اذا صح له مراده . وينبغي لطالب العلم أن
 يصحح قصده ، إذ فقد الاخلاص يمنع قبول الاعمال . وليجتهد
 في مجالسة العلماء ، والنظر في الاقوال المختلفة ، وتحصيل
 الكتب ، فلا يخلو كتاب من فائدة ^(٢) ، وليجعل همه للحفظ ،
 ولا ينظر ولا يكتب إلا وقت التعب من الحفظ . وليحذر
 صحبة السلطان ، ولينظر في منهاج الرسول ﷺ والصعابة والتابعين ،

(١) الكيبياء في اصطلاحهم السمي لاكتشاف الاكبر الذي يحول المادن
 كلها الى ذهب .

(٢) كما ان كثيراً من الكتب لا تخلو من مفرة ، وانما يقصد المؤلف رحمه الله
 كتب الدين لامثال الكتب التي يقبل عليها الشباب اليوم .

وليبتهد في رياضة نفسه والعمل بعلمه ، ومن تولاه الحق وفقه .

٢٢٧ - الأصنام والحجارة

طال تعجبي من أقوام لهم أنفة وعندم كبير زائد في الحد ، خصوصاً العرب الذين من كلمة ينفرون ومجاربون ويروضون بالقتل حتى أن قوماً منهم أدركوا الاسلام فقالوا : كيف نركع ونسجد فتعلونا استاهنا ، فقال رسول الله ﷺ : لاخير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود .

ومع هذه الأنفة يذلون لمن هم خير منه . هذا يعبد حجراً ، وهذا يعبد خشبة ، وقد كان قوم يعبدون الحيل والبقر ، وان هؤلاء لأخس من إبليس ، فإن إبليس اتف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال : « أنا خير منه » وفرعون اتف أن يعبد شيئاً أصلاً . فالعجب من ذل هؤلاء المفتخرين المتعاطلين المتكبرين لحجر أو خشبة ، وإنما ينبغي ان يذل الناقص الكاملين . وقد أشير الى هذا في ذم الاصنام في قوله تعالى « ألم أرى أنكم تأخذون بها ، أم لهم أيدي يطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، والمعنى أنتم لكم هذه الآلات المدركة وهم ليس لهم ، فكيف يعبد الكامل الناقص ،

غير أن هوى القوم في متابعة الاسلاف واستعلاء ما اخترعوه بأرائهم غطى على العقول ، فلم تتأمل حقائق الامور . ثم غطى الحسد على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه . فامية بن ابي الصلت ، يقرّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به ، ثم يعود فيقول : لاؤمن برسول ليس من ثقيف .

وابو جهل يقول : والله ما كذب محمد قط ، ولكن اذا كانت السدانة والحجابه في بني هاشم ثم النبوة فما بقي لنا ؟
وابو طالب يرى المعجزات ويقول : إني لأعلم أنك على الحق ، ولولا أن تعيرني نساء قريش لأقورت بها عينك .
فنعود بالله من ظلمة حسد ، وغياة كبر ، وحماة هوى يغطي على نور العقل ، ونسأله إلهام الرشد ، والعمل بمقتضى الحق .

٢٢٨ - جماعة من الصالحين

قد سمعنا بجماعة من الصالحين عاملوا الله عز وجل على طريق السلامة والمحبة والطف فعاملهم كذلك ، لانهم لا يحتل طبعهم غير ذلك . ففي الاوائل برخ العابد خرج يستسقى فقال : ما هذا الذي لانصرفه منك ؟ اسقنا الساعة . فسقوا . وفي الصعابة أنس بن النضير يقول : والله لا تكسر سن الربيع . فجرى الامر كما قال . فقال النبي ﷺ : إن من عباد الله من

لو أقسم على الله لأبره . وهؤلاء قوم غلب عليهم ملاحظة
اللطيف والرفق فلفظ بهم ، وأجروا على ما اعتقدوا . وهناك
أعلا من هؤلاء يسألون فلا يجابون ، وهم بالمنع راضون ، ليس
لأحدهم انبساط ، بل قد قيدهم الخوف ، ونكس رؤوسهم
الخدر ، ولم يروا ألسنتهم أهلا للانبساط ، فغاية آمالهم العفو ،
فإن انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الاجابة عاد على نفسه بالتوبيخ ،
فقال : مثلك لا يجاب . وربما قال : لعل المصلحة في منعي .

وهؤلاء الرجال حقاً ، والأبله الذي يرى له من الحق أن يجاب
فإن لم يجيب تدمر في باطنه كأنه يطلب أجرة عمله ، وكأنه
قد نفق الخالق بعبادته . وإنما العبد حقاً من يرضى ما يفعله
الخالق فإن سأل فاجيب رأى ذلك فضلاً ، وإن منع رأى
تصرف مالك في مملوك ، فلم يجل في قلبه اعتراض بحال .

٢٢٩ - الواجب على العالم والزاهد

رأيت جماعة من العلماء يتفستعون ويظنون أن العلم يدفع
عنهم ، وما يدرون أن العلم خصمهم ، وأنه يغفر للجاهل
سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب ، وذلك لأن الجاهل
لم يتعرض بالحق ، والعالم لم يتأدب معه . ورأيت بعض
القوم يقول : أنا قد أقيت منجلي بين الجصادين ونمت . ثم كان
يتفحس في أشياء لا تجوز . فتفكرت فإذا العلم الذي هو معرفة

الحقائق ، والنظر في سير القدماء ، والتأدب بآداب القوم ،
ومعرفة الحق وما يجب له ليس عند القوم ، إنما عندهم صور
الفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم ، وليس ذلك العلم النافع .
إنما العلم فهم الاصول ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه .
والنظر في سير الرسول ﷺ وصحابته ، والتأدب بآدابهم ،
وفهم ما نقل عنهم ، هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء
أحقر عند نفسه من أجهل الجهال .

ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر ، فبلغني أنه قال :
قد عبده عبادة ما عبده بها أحد ، والآن قد ضعفت .

فقلت : ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سبباً لرد الكل ،
لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئاً ، وإنما وقف يسأل
النجاة بطلب الدرجات ، ففي حق نفسه فعل . وما مثله إلا
مثل من وقف بكدي^(١) ، فلا ينبغي أن يمين على المعطي .
ولمّا سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق وأين هو من كبار
علماء المعاملة^(٢) الذين كان فيهم مثل صلة بن أشيم إذا رآه السبع
هرب منه ، وهو يقول إذا انقضى الليل عند صلاته : يارب
أجرني من النار ، ومثلي يسأل الجنة ؟!

وأبلغ من ذا قول عمر : وددت أن أنجو كفافاً لا لي

ولا عليّ . وقول صفيان عند موته لحمد بن سلمة : أترجو
لمثلي أن ينجو من النار ؟ وقول أحمد : لا . بعد .
فأنا أحمد الله عز وجل اذ تخلصت من جهل المتسمين بالعلم
من هؤلاء الذين ذمهم ، وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهم ،
فاني قد اطلعت من عظمة الخالق وسير المحققين على ما يحرس
لسان الانبساط ، ويمحو النظر الى كل فعل . وكيف أنظر
الى فعلي المستحسن ، وهو الذي وهبه لي واطلعتني على ما خفي
عن غيري ، فهل ذلك بي أو بطفه ؟ وكيف أشكر توفيقه
الشكر ؟ ثم أي عالم اذا سبر أمور العلماء من القدماء لا يحتقر
نفسه ، هذا في صورة العلم ، فدع معناه وأي عابد يسمع
بالعباد ولا يجري في صورة التبعيد ، فدع المعنى ^(١) . نسأل الله
عز وجل معرفة تعرفنا أقدارنا ، حتى لا يبقى للعجب بمحقر
ما عندنا أثر في قلوبنا . ونزغب اليه في معرفة لعظمته تحرس
اللسن أن تنطق بالادلالات ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به
آفات الاعمال التي بها تزهو حتى تشر الملاحظة ليعوبها الحجل من
وجودها . إنه قريب مجيب .

٢٣٠ - الصبر والتسليم

سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة : وليس في الدنيا

(١) يريد ان يقول : في صورته فضلاً عن معناه « معنى التبعيد وحقيقته »

طيب عيش على الدوام إلا للعارف الذي شغله رضى حبيبه والتزود
 للرحيل اليه . فانه إن وجد راحة في الدنيا استعان بها على طلب
 الآخرة . وإن وجد شدة اغتم الصبر عليها لثواب الآخرة .
 فهو راض بكل مايجري عليه . يرى ذلك من قضاء الخالق ،
 ويعلم أنه مراده ، كما قال قائلهم :

إن كان رضاكم في سهرى فسلام الله على وصى
 فأما من طلب حظه فانه يقلق لفوت مراده ، ويتنقص لبعده
 مايشتهي ، فلو افترق تغير قلبه ، ولو ذل تغير . وهذا لأنه قائم مع
 فرضه وهواه . وما أحسن قول الحضري : ايش عليّ مني
 وايش لي في ؟

وهذا كلام عارف . لأنه إن كان ينظر إلى حقيقة الملكية
 فعبد يتصرف فيه مولاه ، فاعتراضه لوجه له ، واراדתه أن يقع
 غير مايجب فضول في البين . وإن نظر أن النفس كالملك له فقد
 خرجت عن يده من يوم « ان الله اشترى » أفيعسن لمن باع شاء
 أن يغضب على المشتري إذا ذبحها أو يتغير قلبه . والله لو قال
 المالك سبحانه : انما خلقتكم ليستدل على وجودي ، ثم أنا أفنيكم
 ولا اعادة . لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً
 لما قلت وطاعة ، وأي شيء لنا فيما حتى نتكلم . فكيف وقد
 وعد بالأجر الجزيل ، والخلود في النعيم ، الذي لاينفد . لكن

طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة وما يبقى لتعب رمل
(زرود) ^(١) أثر إذا لاح الحرم . فالصبر الصبر بأقدام المبتدئين
لاح المنزل . والسرور السرور بامتوسطين ضربت الحيم .
والفرح الكامل بإعارفين ، قد تلقيم بالبشائر .

زالت والله أنقال المعاملات عنكم ، فكانت معرفتكم بالمبتلى
حلاوة اعقت شربة المجاهدة ، فلم يبق في الفم للمرآثر . تخايلا
قرب المناجاة ولذة الحضور . ودوار كؤوس الرضى عنكم فقد
أخذت شمس الدنيا في الافول :

ما بيننا إلا تصره م هذه السبع البواقي
حق يطول حديثنا بصنوف ما كنا نلاقي

٣٣١ - لا تركن إلى عدوك

من التغفل أن تعاقب شخصاً أو تسيء إليه إساءة عظيمة
وتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد ، فتراه ذليلاً لك طائعاً قاتباً
مقلعاً عما فعل ، فتعود فتستطيعه وتنسى ما فعلت وتظن أنه قد
انمى من قلبه . فربما عمل لك الهن ونصب لك المكائد ، كما
جرى لقصير مع الزباء ^(٢) ، وأخباره معروفة . فإياك أن تساكُن

(١) زرود : بادية كبير رملها

(٢) قصة الزباء موضوعة لا أصل لها

من آذيته ، بل ان كان ولا بد فن خارج فما تؤمن الاحقاد .
 ومتى رأيت عدوك فيه غفلة لا يثنيه مثل هذا فأحسن اليه ، فانه
 ينسى عداوتك ولا يظن انك قد أضمرت له جزاء على قبح فعله
 فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه . ومن الحون إظهار
 العداوة للعدو . ومن أحسن التدبير التلطف بالاعداء الى أن
 يمكن . ولو لم يمكن كان اللطف سبيلاً في كف أكفهم عن
 الاذى ، وفيهم من يستحي لحسن فعلك فيتغير قلبه لك . وقد
 كان جماعة من السلف اذا بلغهم ان رجلاً قد شتمهم أهدوا اليه
 واعطوه ، فهم بالعاجل يكفون شره ، ويحتالون في قلب قلبه ،
 ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه ان أرادوا وكفى
 بالذهن الناظر الى العواقب والتأمل لكل ممكن مؤدياً .

٢٣٢ - ربما كان المنع لطفاً من الله بك

تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان : يا سفيان عُدْ منع
 الله إياك عطاء منه لك ، فانه لم يمنعك بخلاً ، انما منعك لطفاً .
 فرأيت كلام من قد عرف الحقائق . فان الانسان قد
 يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر ، وعجزه اصلح له ، لانه
 لو قدر عليهن تشتت قلبه إما بحفظهن أو بالكسب عليهن ،

فان قري عشقه لمن ضاع عمره وانقلب هم الآخرة الى الاهتمام
 بهن . فان لم يردنه فذاك الهلاك الاكبر . وان طلبن نفقة لم
 يطقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه . وان اردن
 الوطاء وهو عاجز فربما أهلكته او فجرن . ومات معشوقه
 هلك هو أسفاً . فالذي يطلب الفائق يطلب سكيناً لذبحه
 وما يعلم . وكذلك انفاذ قدر القوت فانه نعمة وفي الصحيحين
 أن رسول الله ﷺ قال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً .
 ومتى كثرت تشتت الهم . فالعاقل من علم أن الدنيا
 لم تخلق للتنعيم ، ففنع بدفع الوقت في كل حال .

٢٣٣ - التعلل بالاقدار

رأيت جماعة من الخلق يتعللون بالاقدار ، فيقول قائلهم :
 إن وقعت فعلت . وهذا تعلل بارد ، ودفع للأمر بالراح ،
 وهو يشير الى رد اقوال الانبياء والشرائع جميعها . فانه
 لو قال كافر للرسول : إن وفقني أسلمت ، لم يجبه الا بضرب العتق .
 وهذا من جنس قول الناس لعلي رضي الله عنه : ندعوك الى
 كتاب الله فقال : كلمة حق اريد بها باطل . وكذلك قول
 المتعلمين عن الصدقة « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » ولعمري
 ان التوفيق أصل الفعل . ولكن التوفيق أمر خفي والخطاب

بالفعل أمر جلي . فلا ينبغي أن يتشاغل عن الجلي بذكر
الخطي . وما يقطع هذا الاحتجاج أن يقال لهذا القائل : إن
الله سبحانه لم يكلفك شيئاً ، إلا وعنده أدوات ذلك الفعل
ولك قدرة عليه ، فإن كانت القدرة عليه معدومة والأدوات
غير محصة فلا أمر ولا تكليف ، وإن كنت تسعى بتلك
الأدوات في تحصيل غرضك وهواك ، فاسع بها في إقامة
مفروضك .

مثال ذلك أنك تسافر في طلب الربح ، وتُسأل الحج
فلا تفعل ، وبثقل عليك الانتباه بالليل ، فلو أردت الخروج
إلى العيد انتهت سعراً ، وتقف في بعض أغراضك مع صديق
تحدثه ساعات فإذا وقفت في الصلاة استعجلت ، وثقل عليك .
فإياك إياك أن تتعلق بأمر لا حاجة لك فيه ، ثم من نصيبك
ينقص ، ومن حظك يضيع ، فالما تُحرِّك لك ، وإنما تُعرض
لنفعك . فبادر فإنك مبادر بك .

وما يزيل كسلك أن تأمله أن تتخايل ثواب المجتهدين
وقد فاتك . ويكفي ذلك في توبيخ المقصر أن كانت له نفس .
فأما الميت المهمة : فما لجرح ميت إبلام .

كيف بك إذا قمت من قبرك وقد قربت نجائب النجاة
لأقوام وتعرضت ، وامرعت أقدام الصالحين على الصراط وتخبطن

هيمات . ذهبت حلاوة البطالة ، وبقيت مرارة الاسف ،
 ونضب ماء كأس الكسل ، وبقي رسوب الندامة . وما قدر
 البقاء في الدنيا بالاضافة الى دوام الآخرة ! ثم فاقدر عمرك في
 في الدنيا ونصفه نوم ، وباقية غفلة . فيا خاطبا حور الجنة
 وهو لا يملك فلساً من عزيمة ، افتح عين الفكر في ضوء العبر
 لعلك تبصر مواقع خطاك ، فان رأيت تشبطاً من الباطن
 فاستغث بعون اللطف ، وتنبه في الاسعار ، لعلك تتلمع مركب
 الارباح ، وتعلق على قطار المستغفرين ولو خطوات ، وانزل في
 رابعة المجتهدين ولو منزلاً .

٢٣٤ - الرد على المتكلمين والمتصوفة

ظهرت في قول أبي الدرداء رضي الله عنه : ما أعرف شيئاً
 بما كنا عليه اليوم إلا القبة .

فقلت : واعجباً كيف لو رأنا اليوم وما علينا من الشريعة
 إلا الرسم ؟ والشريعة هي الطريق . وانما تعرف شريعة رسول
 الله ﷺ إما بأفعاله أو أقواله . وسبب الانحراف عن طريقه
 ﷺ إما الجهل بها فيجري الانسان مع الطبع والعادات ، وربما
 اتخذ ما يصاد الشريعة طريقاً ، وقد كانت الصحابة ساهمة
 وصممت منه فقل أن ينصرف أحد منهم عن جادته ، إلا أن

أبا الدرداء رضي الله عنه رأى بعض الانحراف لميل الطباع
 فضع فإنه قد يعرف الانسان الصواب ، غير أن طبعه يميل
 عنه ، وما زالت الاحاديث المنقولة عن الرسول ﷺ وأصحابه
 رضي الله عنهم بقل الاسعاد بها والنظر فيها إلى أن أعرض عنها
 بالكلية في زماننا هذا وجهلت إلا النادر ، واتخذت طرائق
 قضاة الشريعة ، وصارت عادات ، وكانت أسهل عند الخلق
 من اتباع الشريعة . وإذا كان عامة من ينسب إلى العلم قد
 أعرض عن علوم الشريعة فكيف العوام ؟

ولما أعرض كثير من العلماء عن المنقولات ابتدعوا في
 في الاصول والفروع . فالاصوليون تشاغلوا بالكلام وأخذوه
 من الفلاسفة وعلماء المنطق . ودخلت أيدي الفروعيين في ذلك
 فتشاغلوا بالجدل وتركوا الحديث الذي عليه يدور الحكم . ثم
 رأى القصاص^(١) أن التفاف بالتفاف ، فأقبل قوم منهم على
 التلبس بالزهد ، ومقصودهم الدنيا . ورأى جمهورهم أن القلوب
 تميل إلى الاغاني ، فأحضروا المطربين من القراء وأنشدوا أشعار
 الغزل ، وتركوا الاشتغال بالحديث ، ولم يلتفتوا إلى نهى
 العوام عن الربا والزنا ، وأمرهم بأداء الواجبات ، وصار
 متكلمهم يقطع المجلس بذكر ليلى والمجنون والطور وموسى

(١) أي الوعاظ

وأبي يزيد والحلاج والمهذبان الذي لا محصول له ، وانفرد أقوام
بالتزهيد والانقطاع ، فامتنعوا عن عبادة المرضى ، والمشى بين
الناس ، وأظهروا التواضع ، ووضعوا كتباً للرياضات ،
والثقل من الطعام . وصارت الشريعة عند كلام أبي يزيد
والشبلي والمتصوفة ، ومعلوم ان من سبر الشريعة لم يرقها
من ذاك شيئاً .

وأما الامراء فجروا مع العادات ، وسبوا ما يفعلونه من
القتل والقطع سياسات ، لم يعملوا فيها بمقتضى الشريعة ، وتبع
الاخير في ذلك المتقدم فأبن الشريعة المحمدية ومن أين تعرف
مع الاعراض عن المنقولات ؟ نسأل الله عز وجل التوفيق
لقيام بالشريعة ، والاعانة على رد البدع انه قادر .

٢٣٥ - لذات الدنيا مشوبة بنقص

كنت اسمع علي بن الحسين الواعظ يقول على المنبر : والله
لقد بكيت البارحة من يد نفسي .

فبقيت أنا أفكر وأقول : أي شيء قد فعلت نفس هذا
حتى يبكي . هذا رجل متنعم له الجوارى التركيات . وقد
بلغني أنه تزوج في السر بجملة من النساء ، ولا يطمع إلا
الغاية من الدجاج والحلوى ، وله الدخل الكثير والمال الوافر

والجاء العريض ، والافضال على الناس ، وقد حصل طرفاً
من العلم ، واستعبد كثيراً من العلماء بمعروفه ، وراحت دائمة .
فما الذي يبكيه ؟

تفكرت فعلت أن النفس لا تقف على حد بل تروم من
الذات ما لا منتهى له ، وكلما حصل لها غرض برد عندها
وطلبت سواء . فيفنى العمر ويضعف البدن ويقع النقص ،
ويروق الجاه ، ولا يحصل المراد وليس في الدنيا أبله ^(١) فمن
يطلب النهاية في لذات الدنيا وليس في الدنيا على الحقيقة الذة ،
إنما هي راحة من مؤلم .

فالسعيد من اذا حصلت له امرأة او جارية قال إليها
ومالت اليه ، وعلم سترها ودينها ، أن يعقد الخصر على
صحتها . واكثر أسباب دوام محبتها أن لا يطلق بصره . فمَنْ
أطلق بصره أو أطبع نفسه في غيرها فإن الطمع في الجديد
ينقص الخلق وينقص المحالطة ، ويستتر عيوب الخارج ، فتبطل
النفس الى المشاهد الغريب ، ويتكدر العيش مع الحاضر
الغريب كما قال الشاعر :

والمرء مادام ذا عين يقلبها في أعين الناس ^(٢) موقوف على الخطر

(١) القياس ان يقول « اشد بلاهة » لان بلاهه . لا يعني منها افضل التفضيل

(٢) الذي احفظه - في عين البين - والذين جمع عيناء . ومنه الخور البين والخور
جمع حوراء وهي التي في البين منها حور . وهي آيات جيدة اولها :

كل المصائب مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستغفر الشر

يسر مقلته ماضر مهجته لا مرجحاً بسرور عاد بالضرر
ثم تصوير الثانية كالاولى ، وتطلب النفس ثالثة وليس لهذا
آخر ، بل الغرض عن المشنجات ، وبأس النفوس من طلب
المستحسنات ، يطيب العيش مع المعاشر .

ومن لم يقبل هذا النصح تعثر في طرق الهوى وهلك على
البارد . وربما سعى لنفسه في الهلاك العاجل ، أو في العار
الحاضر ، فان كثيراً من المستحسنات لمن بصيغات ولا يفي التمتع
بهن بالعار الحاصل ، ومنهن المبدرات في المال ، ومنهن المبغضة
للزوج وهو يحبها كما به ضم . وأبله البله الشيخ الذي يطلب
حبة .. ولعمري إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا كما قال القائل :
(فقلت بنفسي نشأ الصغار) ومنى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل
بها الاستمتاع ، فإذا بلغت ارادت كثرة الجماع والشيخ لا يقدر .
فان حمل على نفسه لم يبلغ مرادها ، وهلك سريعاً . ولا ينبغي
أن يغتر بشهوته إلى الجماع فان شهوته كالقبحر الكاذب . وقد
أبنا شيخاً اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتاً ، وكان
في المارستان شاب قد بقي شهرين بالقيام فدخلت عليه زوجته
فوطئها فانقلب عنها ميتاً . فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم
والني فاذا فرغاً ولم تجد ماء تعتمد عليه ذهبت ، وان قنع
الشيخ بالاستمتاع من غير وطء فهي لا تنفع قصير كالعدو

له فرجاً عليها المهرى ففجرت أو احتالت على قتله ، خصوصاً الجوارى
الوآقي أغلبهن قد جئن من بلاد الشرك ففين قسوة القلب .

وقبيح بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء ، فإن اتفق
معه صاحبة دين قبل ذلك فليرع لها معاشرتها ، وليتيم نقصه
عندها تارة بالانفاق ، وتارة بحسن الخلق ، ويزد في تعريفها
أحوال الصالحات والزاهدات ، وليكثر من ذكر القيامة وذم
الدنيا . ويعرض بذكر حبة العرب فإنهم كانوا يعشقون
ولا يرون وطء المعشوق كما قال قائلهم :

انما الحب قبة وغمز كف وعضد^(١)

انما العشق كذا ان فكح الحب فسد^(٢)

فان قدر أن يشغلها بحمل أو ولد عرقها به ، فاستبقى قوته
في مدة اشتغالها بذلك فإن وطئ فليصبر عن الانزال حفظاً
لقوته وقضاء لحقها .

وقد قيل لبشر : لم لم تتزوج ؟ فقال : على ماذا أغر مسلمة ،
وقد قال الله عز وجل « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف »

(١) كذا في الاصل والاصح : مالحب الا قبة ... مالحب الا هكذا ...

(٢) ذلك ان الحب ليس الارغبة في النكاح ، مباح زوقة الشراء ، فان تم
المراد بطلت الرغبة ، ومن هنا بين ان الحب الشريف او المفدي ، لا وجود له ،
وكل حب فائته النكاح . انظر تفصيل الكلام في الحب في كتابي - صور وخواطر -

والمسكين من دخل في أمر لم يتلمح غواقبه قبل الدخول ورأى
حبة الفخ فبادر طالباً لها ناسياً تمرقل الجناح والذبح . ومجموع
ما قد بسطته حفظ البصر عن الاطلاق ، وبأس النفس عن التحصيل ،
قنوعاً بالحاصل خصوصاً من قد علت سنه ، وعلم أن الصبية عدو
له متمنية هلاكه ، وهو يربها لغيره . وفي بعض ما ذكرته ما يردع
العاقل عن التعرض لهذه الآفات . نسأل الله عز وجل توفيقاً من
فضله وعملاً بمقتضى العقل والشرع . انه قريب مجيب .

٢٣٦ - موعظة في الاستعداد للموت

أعجب الأشياء اغترار الانسان بالسلامة ، وتأميله الاصلاح
فيما بعد . وليس لهذا الامل منتهى ، ولا للاغترار حد ، فكلما أصبح
وامسى معافى زاد الاغترار وطال الامل . وأي موعظة أبلغ
من أن ترى ديار الاقران واحوال الاخوان وقبور المحبوبين ،
فتعلم أنك بعد أيام مثلهم . ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك .
هذا والله شأن الحق . حوثي من له عقل أن يسلك هذا المسلك .
بل والله ان العاقل ليبادر السلامة فيدخر من زمنها الزمن ،
ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة . خصوصاً لمن قد

علم ان مراتب الآخرة انما تعلق بمقدار علو العمل لها . وان
التدراك بعد الفوت لا يمكن . وقدّر أن المعاصي عظمى عنه . أبنال
مراتب العمال ؟ . ومن أجل على خاطره ذكر الجنة التي
لاموت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم ، بل لذاتها متصلة
من غير انقطاع ، وزيادتها على قدر زيادة الجِد مهنا ، انتهب
هذا الزمان فلم ينم إلا ضرورة ، ولم يغفل عن عمارة لحظة .
ومن رأى ان ذنباً قد مضى لذته وبقيت آفاته دائمة كفاه
ذلك زجراً عن مثله ، خصوصاً الذنوب التي تصل آثارها مثل
أن يزني بذات زوج فتحمل منه ، فتلحق بالزوج ، فيسنع الميراث
أهله ، ويأخذه من ليس من أهله ، وتتغير الانساب والقرش ،
ويتصل ذلك أبداً ، وكله شؤم لحظة . فنسأل الله عز وجل
توفيقاً يلهم الرشاد ، ويمنع الفساد ، انه قريب مجيب .

٢٣٧ - أفعال الخالق وأفعال المخلوق

تأملت سبب تخليط العقائد ، فإذا به المبيل الى الحسن
وقياس الغائبات على الحاضر . فإن أقواماً غلب عليهم الحسن ،
ظلموا لم يشاهدوا الصانع جحدوا وجوده ، ونسوا أنه قد ظهر

بأفعاله ، وأن هذه الأفعال لا بد لها من فاعل ، فإن العاقل إذا مرّ على صحراء خالية ثم عاد وفيها غرس وبناء علم أنه لا بد من غارس ، إذ الغرس لا يكون بنفسه ولا البناء . ثم جاء قوم فثبتوا وجود الصانع ، ثم قاسوه على أحوالهم فشهروا ، حتى أن قائلهم يقول في قوله « ينزل الى السماء » : ينتقل . ويستدل بأن العرب لا تعرف النزول إلا الانتقال .

وخل خلق كثير في صفاته كما خل خلق في ذاته . فظن أقوام أنه يتأثر حين سمعوا أنه يغضب ويرضى ، ونسوا أن صفته تعالى قديمة لا يحدث منها شيء . وخل خلق في أفعاله فأخذوا يعلمون فلم يقنعوا بشيء . فخرج منهم قوم الى أن نسبوا فعله الى ضده تعالى عن ذلك . ومن رزق التوفيق فليحضر قلبه لما أقول : اعلم أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات ، وصفاته ليست كالصفات ، وأفعاله لا تقاس بأفعال الخلق . أما ذاته سبحانه فإنه لا نعرف ذاتاً إلا أن تكون جسماً وذلك يستدعي سابقة تأليف ، وهو منزّه عن ذلك ، لأنه المؤلف ، أو أن يكون جوهرأ فالجوهر متحيز ، وله أمثال ، وقد جل عن ذلك . أو عرضاً فالعرض لا يقوم بنفسه بل بغيره ، وقد تعالى عن ذلك . فإذا أثبتنا ذاتاً قديمة خارجة عما يعرف ، فليعلم أن الصفات تابعة لتلك الذات ، فلا يجوز لنا أن نقبس شيئاً منها على

مانعته ونقصه ، بل تؤمن به ونسله ، وكذلك أفعاله ؛ فإن
أحدنا لو فعل فعلاً لا يجتلب به نفعاً ، ولا يدفع به عنه ضرراً
عدّ عابثاً . وهو سبحانه أوجد الخلق لا لنفع يعود إليه ،
ولا لرفع ضرر ، إذ المنافع لاتصل اليه ، والمضار لاتتطرق عليه .
فان قال قائل : إنما خلق الخلق لينفعهم . قلنا : يبطله ،
أنه خلق خلقاً منهم للكفر وعذبهم . ونراه يؤلم الحيوان والاطفال ،
وهو قادر ألاّ يفعل ذلك .

فان قال قائل : انه يثيب على ذلك .

قلنا : وهو قادر ان يثيب بلا هذه الاشياء ، فإن السلطان
لو أراد ان يغني فقيراً فجرحه ثم اغناه لم على ذلك ، لأنه
قادر ان يغنيه بلا جراح . ثم من يرى ماجرى لرسول الله
ﷺ وعلى أصحابه من الجوع والقتل مع قدرة الناصر ، ثم
يسأل في أمه فلا يجاب ، ولو كان المسؤول بعضنا قلنا : لم
نمنع ما لا يضرك غير ان الحق سبحانه لاتقاس أفعاله على
أفعالنا ولا تعلل .

والذي يوجب علينا التسليم ان حكمته فوق العقل ، فهي
تقضي على العقول ، والعقول لاتقضي عليها . ومن قاس فوله على
أفعالنا غلط الغلط الفاحش . وانما هلكت المعتزلة من هذا الفن .
فانهم قالوا : كيف يأمر بشيء ويقضي بامتناعه ، ولو ان انساناً دعا

الى داره ثم أقام من يصد الداخل لعيب . ولقد صدقوا فيما يتعلق
 بالشاهد . فاما مَنْ أفعاله لاتعلل ولايقاس بشاهد ، فانا لانصل
 الى معرفة حكمته . فان قال قائل : فكيف يمكنني ان اقود عقلي
 الى ماينافيه ؟ قلنا : لامنافاة ، لان العقل قد قطع بالدليل الجلي
 انه حكيم ، وانه مالك ، والحكيم لايفعل شيئاً إلا لحكمة ،
 غير أن تلك الحكمة لايلفها العقل . ألا ترى أن الحضرة خرق
 سفينة وقتل شخصاً ، فأنكر عليه موسى عليها السلام بحكم
 العلم ولم يطلع على حكمة فعله ، فلما أظهر له الحكمة اذعن
 والله المثل الاعلى ^(١) . فإياك إياك ان تقيس شيئاً من أفعاله
 على أفعال الخلق أو شيئاً من صفاته أو ذاته سبحانه وتعالى .
 فانك ان حفظت هذا سلمت من التشبيه الذي وقع فيه من
 رأى الاستواء اعتماداً ، والتزول ثقلاً ، ونجوت من الاعتراض
 الذي أخرج قوماً الى الكفر حتى طعنوا في الحكمة . وأول
 القوم ابليس ، فانه رأى تقديم الطين على النار ليس بحكمة ،
 فنسي انه إنما علم ذلك (بزعمه) بالفهم الذي وهب له ، والعقل
 الذي منحه فنسي ان الواهب اعلم (أو لم يروا ان الله الذي
 خلقهم هو أشد منهم قوة) ولقد رأيت لابن الرومي ^(٢)

(١) هذا والله الحق ، الذي يريح قلب الانسان ويثبت الايمان ويرضي الرحمن

(٢) في بعض المخطوطات : الرمودي ولم اتف على ترجمته . وما في الاصل من

اله « ابن الرومي » فهو ان لم يكن تحريفاً فليس المراد به ابن الرومي الشاعر قطعاً

اعتراضاً على من يقول بتخليد الكفار في النار : ينبغي ان يقبل كل ما يقوله العقل ، ولا يرد بعضه اذ ليس رد بعضه بأولى من رد الكل ، وتخليد الكفار لا غرض فيه للمعذب ولا للمعذب فلا يجوز ان يكون .

فقلت : العجب من هذا الذي يدعي وجود العقل ولا عقل عنده . وأول ما أقول له : أصح عندك الخبر عن الخالق سبحانه انه أخبر بخلود أهل النار أم لم يصح ؟ فان كان ما صح عنده فالكلام اذن في اثبات النبوة وصحة القرآن ، فما وجه ذكر الفرع مع جحد الاصل .

وان قال : قد ثبت عندي ، فواجب عليه ان يتحمل لاقامة العذر ، لا ان يقف في وجه المعارضة . وانما ينكر هذا من يأخذ الامر من الشاهد . وقد بينا ان ذات الحق لا كائنات . وان صفته لا كالصفات ، وأن افعاله لا تتعلل . ولو تلح شيئاً من التعليل لخلود الكفار لبان ، اذ من الجائز أن يكون دوام تعذيبهم لاظهار صدق الوعيد . فانه قال : من كفر بي خلده في العذاب ، ولا جناة كالكفر ولا عقوبة كدوام الاحراق ، فهو يدوم ليظهر صدق الوعد . ومن الجائز أن يكون ذلك لتثمة تنعيم المؤمنين فانهم أعداء الكفار ، وقد قال سبحانه : ويشفر صدور قوم مؤمنين ، وهم من قلق في صدر وحقن على أبي جهل

فيا فعل ، وكم غم في قلب عتار وأمه سمية وغيرهم من أفعال الكفار بهم فدوام عذابهم شفاء لقلوب أهل الايمان .
ومن الجائز أن يدوم العذاب لدوام الاعتراض وذكر المعبذ بما لا يحسن ، فكلما زاد عذابهم زاد كفرهم واعتراضهم فهم يعذبون لذلك . ودليل دوام كفرهم « ويحلفون له كما يحلفون لكم ، فاذن كفرهم مازال ، ومعرفتهم به ما حصلت ، والشر كامن في البواطن ، وعلى ذلك يقع التعذيب « ولوردوا لعادوا لما نورا عنه .

٢٣٨ - لا تعترض على الخالق

ينبغي للمؤمن بالله سبحانه إذا نظر في الفصل الذي قد تقدم هذا أن لا يعترض على الله سبحانه في شيء لا في باطنه ولا في ظاهره ، ولا يطلب تعليقات أفعاله . فان المتكلمين أعرضوا عن السنن^(١) وتكلموا بآرائهم فما صفى لهم شرب ، بدليل اختلافهم . وكذلك إضمار القياس لما أعملوه جاءت أحاديث تعكر عليهم . والصواب التعليل لما يمكن ، والتسليم لما يخفى . وكذلك سؤال الحق سبحانه ، فإذا دعا المؤمن ولم ير اجابة سلم وفرض وتأول للنسج ، فيقول : ربما يكون المنع أصح ، وربما يكون لأجل ذنوبي ، وربما يكون التأخير أولى ، وربما لم يكن هذا مصلحة .

(١) هذا الكلام ينطبق على من اعرض عن السنن ومتكلموا الاشاعة لم يرضوا عنها فلا يشملهم .

وإذا لم يجد تأويلاً لم يختلج في باطنه نوع اعتراض ، بل يرى أنه قد تعبد بالدعاء ، فإن أنعم عليه فبفضل ، وإن لم يجب فما لك يفعل ما يشاء . على أن أكثر السؤال إنما يقع في طلب أغراض الدنيا التي إذا ردت كان أصلح . فليكن هم العاقل في إقامة حق الحق^(١) والرضا بتدبيره وإن أساء^(٢) . فمَن أقبلَ عليه أقبل على إصلاح شأنك ، وإذا عرفت أنه كريم فلذ به ولا تسأل . ومَن أقبلَ على طاعته ففعال أن يجود صانع وينصح في العمل ثم لا يعطى الأجرة .

٢٣٩ - وجوب الاستعداد الدائم للنعيم في الجنة

والله اني لأتخايل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة قطراً ، بل صحة دائمة وأغراض متصلة لا يعتورها منقص ، في نعيم متجدد في كل لحظة الى زيادة لا تنفأ ، فأطيش وبسكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك لو لا أن الشرع قد ضمنه . ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدر الاجتهاد هنا ، فواعجبا من مضيع لحظة يقع فيها ، فتسبيجة يفرس لها في الجنة نخلة أكلها دأيم وظلها . فيأبى الخائف من فوت ذلك شجع قلبك بالرجاء . ويأبى المترعج لذكر الموت تلمح ما بعد مرارة الشربة من العافية . فإنه من ساعة

(١) أي حق الله (٢) أي وإن كان في التدبير مساءة لعباده
لا إن الله يسيء تعالى الله عن ذلك .

خروج الروح لابل قبل خروجها تنكشف المنازل لأصحابها .
 فيكون سير المجدوب للذة المنتقل اليه . ثم الارواح في خواصل
 طير تعلق^(١) في اشجار الجنة . فكل الآفات والخافات في نهار
 الاجل ، وقد اصفرت شمس العمر . فالبدار البدار قبل الغروب
 ولا معين يرافق على تلك الطريق إلا الفكر اذا جلس مع العقل
 فتذاكرا العواقب ، فاذا فرغ ذلك المجلس فالنظر في سير المجدبن
 فانه يعود مستجلبا للفكر منها للفضائل ، والتوفيق من وراء
 ذلك . ومتى ارادك شيء هياك له ؛ فاما مخالطة الذين ليس
 عندهم خبر إلا من العاجلة فهو من اكبر اسباب مرض الفهم
 وعلل العقل ، والعزلة عن الشر حمية ، والحمية سبب العافية .

٢٤٠ - الاعراض عن الله عز وجل سبب الهموم

رايت سبب الهموم والغموم الاعراض عن الله عز وجل
 والاقبال على الدنيا . وكلما فات منها شيء وقع الغم لقواته .
 فأما من رزق معرفة بالله تعالى فانه يستغنى بالرضا بالقضاء ، فبها
 قدر له رضى ، وان دعا فلم ير أثر الاجابة لم يحتلج في قلبه
 اعتراض ، لأنه بملوك مدبر فتكون همته في خدمة الخالق .
 ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال ، ولا مخالطة الخلق ، ولا
 الالتفاف بالشهوات . لأنه إما ان يكون مقصراً في المعرفة فهو

(١) اي ترمى وتأكل .

مقبل على التعبد المحض يزهد في الفاني لينال الباقي . وإما ان يكون له ذوق في المعرفة فانه مشغول عن الكل بصاحب الكل . فتراه متادبا في الخلوة به ، مستأنساً بمناجاته ، مستوحشا من مخالطة خلقه ، راضيا بما يقدر له . فعيشه معه كعيش حب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه ، ولا يهتم بغيره ، فأما من لم يرزق هذه الاشياء ، فانه لا يزال في تنغيص متكدر العيش ، لان الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه ، فيبقى أبداً في الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بطيب المعاملة . نسأل الله عز وجل أن يستصلحنا له فانه لا حول ولا قوة إلا به .

٢٤١ - الدنيا دار الحياة والاذى

تفكرت في نفسي فرأيتني مفلساً من كل شيء ، إن اعتمدت على الزوجة لم تكن كما أريد . ان حسنت صورتها لم تكمل أخلاقها . وان تمت أخلاقها كانت مريدة لغرضها لالي ، ولعلها تنتظر رجلي .

وان اعتمدت على الولد فكذلك . والخادم والمريد لي كذلك ، فان لم يكن لهما مني فائدة لم يريداني .

وأما صديق فليس ، واخ في الله كعنفاء مغرب^(١) ، ومعارف يفتقدون أهل الخير ويعتقدون فيهم قد عدموا وبقيت وحدي .

(١) أي انه مثل العنفاء لاجوده .

وعدت الى نفسي ، وهي لاتصفو الي أيضاً ولا تقيم على حالة سليمة
 فلم يبق إلا الخالق سبحانه . فرأيت أني ان اعتمدت على
 انعامه فما آمن ذلك البلاء ، وان رجوت عفوه فما آمن عقوبته
 فوا أسفا لاطمأنينة ولا قرار . واقلقي من قلقي ، واحرقني
 من حرقي ، بالله ما العيش الا في الجنة ، حيث يقع اليقين بالرضى
 والمعاشرة لمن لا يحزن ولا يؤذي ، فأما الدنيا فما هي دار ذاك .

٢٤٢ - شروط مصاحبة السلطان

ينبغي لمن صحب سلطانا او محتشما أن يكون ظاهره معه
 وباطنه سواء ، فانه قد يدس اليه من يختبره ، وربما افتضح
 في الابتداء . وقد كان جماعة من الملوك يقصدون تقرب
 المنادم ، ويجعلون له حجرة في دورهم ، فاذا أرادوا أن
 يختصوه اختبروه باطناً وذاك لا يدري ، فيظهر منه مالا يصلح فيطرده .
 ولقد امتحن أبو يزيد رجلاً من خاصته ، فدس اليه جارية
 معها الطاف ، وأمرها ان لاتقعد عنده فحملتها ، ثم أنفذهها
 مرة أخرى وأمرها ان تقعد بعد التسليم هنيئة ففعلت ، فلاحظها
 الرجل . ثم بعثها مرة ثالثة وأمرها أن تطيل القعود عنده
 وتحدثه ، فأطالت الحديث معه ، فأبدى لها شيئاً من الميل اليها .
 فقالت : أخاف أن يطلع علينا ، ولكن دعني أدير في هذا .

فذهبت فاخبرت الملك بذلك ، فوجه غيرها من خواص
جواريه بمنزل ذلك ، فلما جاءته قال : ما فعلت فلاتة .
قالت : مريضة . فاربد لونه .

ثم فعلت الجارية الثانية مثل ما فعلت الاولى ، فقالت له
إن الملك يمضي الى بستانه فيقيم هناك ، فان أرادك على أن
تضي معه فأظهر أنك عليل ، فان ختيرك بين الانصراف الى
دور نسائك أو المقام هنا . فاختر المقام هنا ، وأخبره أنك
لا تقدر على الحركة ، فان اجابك الى ذلك جئت اليك كل ليلة
مادام الملك غائبا .

فسكن الى قولها . ثم مضت وأخبرت الملك بذلك . فلما
كان بعد ثلاث ، استدعاه الملك فقال :
اني مريض .

فعاد الرسول فاخبره فتبسّم . وقال : هذا أول الشر .
فوجه اليه محفة حمل فيها اليه فلما بصر به أبروين قال :
والمحفة الشر الثاني .

فرأى العصابة على رأسه ، قال :

والعصابة الشر الثالث .

فقال له الملك : ايما أحب اليك الانصراف الى نسائك
ليسرّضنك أو المقام هنا الى وقت رجوعي .

قال : المقام هنا أرفق لي لثقة الحركة .
فتبسم وقال : حركتك هنا إن تركت أكثر من
حركتك الى منزلك .

ثم أمر له بعض الزناة التي كان يوسم بها من زنى .
فايقن الرجل بالأمر ، وأمر أن يكتب ما كان من أمره
حرفاً حرفاً فيقرأ على الناس حرفاً حرفاً اذا حضروا ، وان
ينفى الى أقصى المملكة ، وتجعل العصا على رأس رمح يكون
معه حيث كان ليحذر منه من لا يعرفه .

فلما نفى أخذ من بعض الموكلين مدية فجب بها فكره
ومات من ساعته .

قلت : وقد كان جماعة من الامراء يتشكرون ويسألون
العوام عن سيرتهم ، فينكلم العامي بما لا يصلح فيضبطونه عليه
وربما بعثوا دسباً . ورب كلمات قالها مسترسل فبلغها فضولي .
ورأى عمر بن عبد العزيز رجلاً من العمال كثير الصلاة ، فدرس
عليه من قال له : إن أخذت لك الولاية الفلانية فما تعطيني ؟
قال : أعطيك كذا وكذا .

قال عمر : غررتنا بصلاتك .
وقد بلغت أن رجلاً كلم امرأة فاجابته فاستدعته الى
دارها ، فلما دخل قامت عن قتله . فقد ينبغي من هذه الحكاية

أنه لا ينبغي أن يسكن الى قول امرأة أو بعل يجوز أنه يكون جاسوساً ومختبراً . وكذلك لا يظهر ما ينبغي اخفاؤه من مال أو مذهب أو سب رجل فربما كان له في الحاضرين قريب . ولا يوثق بمودة لا أصل لها ، فربما كانت نخبها آفة تقصده . وليحذر من كل أمر محتمل . ورب كلمة تقلم صديق الى صديق فتحدث بها من لا يقصد أذى للقائل فبُلت فتأذى . ورب مظهر للمحبة مبالغ حتى يستمكن من مراده . فالحذر الحذر من الطمانينة الى أحد ، خصوصاً من عدو آذيته أو قتلت له قريباً ، فربما أظهر الجليل شبكة لاصطيادك كحديث الزباء .

٢٤٣ - الحرص والامل عند المسنين

رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد حرصها كما قال النبي ﷺ : يشيب ابن آدم وتشب منه خصلتان الحرص والامل . ورأيت أكثر أسباب ذلك فراغ اليد من الدنيا وكثرة العائلة وقوة الحاجة ، فيحتاج الانسان الى التعرض بما يشين التعرض ليحصل الغرض . فقلت : السهم أبعد رؤية جبال عرقة أضل ؟ أبعد مشاركة الحرم تأخذني أعراب البادية ؟ وأسفا أطلع فجر النحر وما وصلت الى عرفات ؟ وباضباع سفر العمر وما حصل المقصود !

قد كنت أرجوك لنيل النسي واليوم لا أطلب الا الرضى
ثم قلت : بانفس مالك ملجأ الا اللج واستغاثة الغريق فان
رُحمت والا فكم من حسرة تحت التراب .

٢٤٤ - الكهل والزوجة الصغيرة

سكا لي بعض الاشياخ فقال : قد علت سني وضعفت قوتي
ونفسي تطلب مني شراء الجوارى الصغار ، ومعلوم انهن يردن
النكاح وليس في ، ولا تقنع مني النفس بربة البيت اذ قد كبرت .
فقلت له : عندي جوابان : أحدهما الجواب العامي ،
وهو أن اقول ، ينبغي أن تشتغل بذكر الموت وما قد
توجهت اليه ، وتحذر من استراء جارية لا تقدر على ابقاء حقها
فانها تبغضك ، فان أجهدت استعجلت التلف . وان استبقيت
قوتك غضبت هي ، على أنها لا تريد شيخاً كيف كان ، وقد
أنشدنا علي بن عبيد الله قال أنشدنا محمد النسيبي :

أفنى بأفواذي من غرامي واستمع مقالة محزون عليك خفيق
علقت فتاة قلبها متعلق بغيرك فاستوثقت غير وثيق
وأصبحت موثوقاً وراحت طليقة فكم بين موثوق وبين طليق
فاعلم أنها تعد عليك الايام ، وتطلب منك فضل المال
لتستعد لغيرك ، وربما قصدت حتفك فاحذر ، والسلامة في الترك
والاقتناع بما يدفع الزمان .

والجواب الثاني فاني أقول ؛ لا يخلو أن تكون قادراً
على الوطء في وقت أو لا تكون ، فان كنت لا تقدر فالاولى
مصاهرة الترك لكل ، وان كان يمكن الحازم أن يداري
المرأة بالنفقة وطيب الخلق الا انه يخاطر . وان كنت تقدر في
أوقات على ذلك ، ورأيت من نفسك نوعاً شديداً ، فعليك
بالمراهقات فانهم ما عرفن النكاح ، وما طلبن الوطء ،
وأغمرهن بالاتفاق وحسن الخلق مع الاحتياط عليهن ، والمنع
من مخالطة النسوة . واذا اتفق وطء فتصبر عن الاتزال ريثما
تقضي المرأة حاجتها . واعتمد وعظها وتذكيرها بالآخرة .
واذكر لها حكايات العشاق من غير نكاح وقبح صورة الفعل ،
ولفت قلبها الى ذكر الصالحين ، ولا تخل نفسك من الطيب
والتزبن والكياسة والمداراة والاتفاق الواسع . فهذا ربما حرك
الناقة للسير . مع خطر السلامة .

٢٤٥ - العاقل من احتسب مما يجوز وقوعه

أبله الناس من عمل على الحال الحاضرة ولم يتصور تغييرها
ولا وقوع ما يجوز وقوعه .
مثاله أن يغتر بدولة فيعمل بمقتضى ملكة فاذا تغيرت هلك ،
وربما عاды خلقاً اغتراراً بأنه متسلط أو أنه صاحب سلطان ،

فاذا تغيرت حاله أكل كفه ندماً عند فوات التدارك . وكذا
من له مال يبذره سكوناً الى وجود المال وينسى حاله عند العدم .
ومن يتناول الشهوات ، ويكثر من المآكل والمشروبات والنكاح
ثقة بعافيته ، وينسى ما يعقب ذلك من الامراض والآفات .

ومن اطرف^(١) الاحوال ان يجب جاريته فيعتقها ويحب لها ،
أو امرأة فيسكن اليها ويحب لها فتمكن . ولا تخفى الايام حتى
يسلوها أو يطلب غيرها ، ولا يجد طريقاً للخلاص . فان تخلص
منها أخذت ما غنيت منه فلقى من الغيظ أضعاف ما يبتذله ،
فلا ينبغي أن يوثق بامرأة ولا بحبة انسان ، فانه قد يجب امرأة
ويظن أنه لا يسلوها أبداً فيستمرسل اليها والسوا يحدث . وربما
أحب غيرها فينسى الاولى فيصعب عليه الخلاص من الاولى .
فالعاقل لا يدخل في شيء حتى يهيء الخروج منه ، فان الاشياء
لا تثبت ، والمحبة لا تدوم ، والتغير مقرون بكل حال .

وكذلك يعطي ماله ولده ثم يبقى كلاً عليه فيستنى الولد
هلاكه ، وربما علّ به في النفقة .

وكذلك قد يثق بالصديق فيبث أسراراً اليه ، وربما أظهر
ذلك فكان منها ما يوجب هلاكه .

وكذلك يغتر الانسان بالسلامة وينسى طروق الموت فيأتيه
بغتة فيمته وقد فات الاستدراك ولم يبق إلا الندم . فالعاقل من

كانت عينه مراقبة للعواقب ، محترزة بما يجوز وقوعه ، عاملة بالاحتياط في كل حال حافظة للسِرِّ واللمال ، غير واثقة بزوجته ولا ولد ولا صديق ، متساهبة للرحيل متهيئة للنقلة . هذه صفات أهل الحزم .

٢٤٦ - معرفة ذات الله عز وجل مستحيلة

من أعجب الأمور طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله عز وجل وصفاته وأفعاله ، وهيات . ليس إلا المعرفة بالجملة ولقد أوغل المتكلمون فما وقعوا بشيء فرجع عقلاؤهم الى التسليم ، وكذلك اصحاب الرأي ، مالوا الى القياس فإذا اشياء كثيرة بعكس مرادهم ، فلم يجدوا ملجأ الا التسليم ، فسوموا ما خالفهم استحصانا^(١) : فالفقيه من علل بما يمكن ، فاذا عجز استطرح للتسليم ، هذا شأن العبيد .

فأما من يقول لم فعل كذا؟ وما معنى كذا؟ فانه يطلب الاطلاع على سر الملك ، وما يجد الى ذلك سيلاً لوجهين : احدهما ان الله تعالى متر كثيرأ من حكمه عن الخلق . والثاني انه ليس في قوى البشر ادراك حكم الله تعالى كلها ، فلا يبقى مع المعارض سوى الاعتراض المخرج الى الكفر « فليسد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيد »

(١) لم يوضح ما يريد ، فان كان يعني بـ « أهل الرأي » الخفية ، ويقصد « الاستحصان » المعروف عندهم . فالحق غير ما قال .

ما يغيظ ، والمعنى من رضي بأفعالي والا فليخفق نفسه فما افعل
الا ما أريد .

٢٤٧ - فساد أهل الزمان وخاصة المتصوفة

من رزقه الله تعالى العلم ، والنظر في سير السلف ، رأى
أن هذا العالم ظلمة ، وجهورهم على غير الجادة ، والمخالطة لهم
قصر ولا تنفع ، فالعجب لمن يتوخص في المخالطة وهو يعلم أن
الطبع لص يسرق من المخالط . وإنما ينبغي أن تقع المخالطة
للأرفع والاعلى في العلم والعمل ليستفاد منه ، فأما مخالطة الدون
فإنها تؤذي ، الا أن يكون عاميا يقبل من معلمه ، فينبغي أن
يخالط بالاحتراز . وفي هذا الزمان أن وقعت المخالطة للعوام فهم
ظلمة مستحكمة ، فإذا ابتلي العالم بمخالطتهم فليشر ثياب الحذر ،
ولتكن مجالسته أيام للتذكرة والتأديب فحسب .

وان وقعت المخالطة للعلماء فاكثرم على غير الجادة ، مقصودهم
حورة العلم لا العمل به . فلا تكاد ترى من تذاكره أمر الآخرة
إنما شغلهم الغيبة وقصد الغلبة واجتلاب الدنيا ، ثم فهم من
الحسد للنظر ما لا يوصف .

وان وقعت المخالطة للأمراء ، فذاك تعرض لفساد الدين ،
لأنه أن تولى لهم ولاية دنيوية فالظلم من ضروراتها ، لغلبة العادة

عليهم والاعراض عن الشرع . وان كانت ولاية دينية كالقضاء ، فانهم يأمرونه بأشياء لا يكاد يمكنه المراجعة فيها ، ولو راجع لم يقبلوا . وأكثر القوم يخاف على منصبه ، فيفعل ما أمر به وان لم يجوز . وربما رأيت في هذا الزمان أقواماً يبذلون المال ليكونوا قضاة ، أو شهوداً ، ومقصودهم الرفعة . ثم أكثر الشهود يشهد على من لا يعرفه ، ويقول أنه معرف ، ويدري انه كذاب ، وانه انما عرف لاجل حبة يعطاها ، وكم قد وقعت شهادة على غير المشهود عليه ، وعلى مكره . وان وقعت المخالطة للمتزهدين فأكثرهم على غير الجادة ، وعلى خلاف العلم ، قد جعلوا لانفسهم نواميس . فلا يتنسبون ولا يخرجون الى سوق ، ويظهرون التخشع الزائد . وكله نفاق . وفيهم من يلبس الصوف تحت ثيابه ، وربما لوح بكمه ليُرى . وقد حكى عن طاهر بن الحسين انه قال لبعض المتزهدين :
 مذ كم قدمت العراق ؟

قال : دخلتها منذ عشرين سنة ، وانا منذ ثلاثين سنة صائم .

قال : سألناك مسألة فأجبت عن اثنتين .

وبنت الصوفية أربطة فهي خوارج على المساجد ، وهي دكاكين كربة يقعد فيها الكسالى عن الكسب مع القدرة عليه ، ويتعرضون بالعود للصدقات ، ولأحوال الظلمة ، وقد أراحوا أنفسهم من

إعادة العلم . وأكثرهم لا يصلي نافلة ولا يقوم الليل ، بل
 مهم المأكول والمشروب والرقص ^(١) . وقد اتخذوا سنناً
 تخالف الشريعة فهم يلبسون المرقع لا من فقر ، وهذا قبيح .
 لانه ليس عندهم من أمارات الزهد سوى اللبس الدون ،
 فتياهم تصيح نحن زهاد ، وباقي أفعالهم المستورة تفضحهم اذا
 اطلع عليها ، فالمطبخ دائر ، والحمام ، والحوى كثيرة .
 والطيب والدعة ؟ والكبر حاصل بذلك الكبر . وقد قال
 النبي ﷺ للمالك بن فضلة وقد رآه أشعث الهيئة : أمالك مال ؟
 قال : بلى من كل المال آتاني الله عز وجل !

قال : فان الله عز وجل اذا أنعم على عبد نعمة أحب ان ترى عليه .
 ومن أخلاقهم تنفير الناس عن العلم ، ويزعمون أن لا حاجة
 الى الوسائط ، وانما هو قلب ورب ^(٢) . ولهم من الاقوال
 والافعال المنكرات ما قد ذكرته في تلبس ابليس .

آه لو كان لهذا الزمان ضمير لاحتاج كل يوم الى منه درة .
 لا بل كان يستعمل السيف في هؤلاء الخوارج ، وهم داخل
 البلد لاقدرة للعلماء عليهم . اذ قولهم فيهم لايقبل . فمن رزقه

(١) الذي يسمى اليوم « الذكر » وهو بدعة منكورة والصوفية اذا جاعوا
 اكلوا واذا شبعوا رقصوا . انظر حكم الرقص ووصفه في باب المرتد من حاشية
 ابن عابدين (٢) اي ان من كلامهم في هذا المعنى : حدثني قلبي عن ربي !!

الله سبحانه النظر في سير السلف ، ووقفه للاقتداء بهم ، أن
يعتزل عن أكثر الخلق ، ولا يخالطهم فإنه من خالط أودى ،
ومن دأرى لم يسلم من المداينة ، فالنصح اليوم مردود .

٢٤٨ - كيف تعامل أعداءك وحسادك

من البله أن تبادر عدواً أو حسوداً بالخاصة . وإنما ينبغي
أن عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما ، وأن
اعتذر قبلك ، وأن أخذ في الحصومة صفحت ، وأريته أن
الأمر قريب ، ثم تبطن في الحذر منه ، فلا تثق به في حال
وتتجافاه باطناً مع إظهار الخالطة في الظاهر ، فإذا أردت أن
تؤذيه فأول ما تؤذيه به إصلاحك واجتهادك فيما يرفعك . ومن
أعظم العقوبة له العفوعن زلله . وأن بالغ في السب فبالغ في
الصفح تنب عنك العوام في مثبه ، ويحمدك العلماء على حملك .
وما تؤذيه به من ذلك وغيره في الباطن أضعاف ، وما تؤذيه
به من كلمة إذا قلتها له سمعت أضعافها . ثم بالحصومة تعلمه
أنك عدوه فيأخذ الحذر ويبسط اللسان ، وبالصفح يجهرل
حافى باطنك ، فيمكنك حينئذ أن تشفي منه بما يؤذي دينك
فيكون هو الذي قد اشتفى منك وما ظفر قط من ظفر
به الاثم بل الصفع الجليل . وإنما يقع هذا بمن يرى أن

تسليطه عليه إما عقوبة للذنوب أو لرفع درجة أو للابتلاء فهو لا يرى الخصم وإنما يرى القدرة .

٢٤٩ - حكمة منع اجابة الدعاء

إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها فليس لك الا الدعاء والتسجّد بعد أن تقدم التوبة من الذنوب ، فان الزلل يوجب العقوبة ، فاذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب ، فاذا ثبت ودعوت ولم تر للاجابة أثراً فتفقد أمرك ، وربما كانت التوبة ماضية ، فصحبها ثم ادع ولا تغفل من الدعاء ، وربما كانت المصلحة في تأخير الاجابة ، وربما لم تكن المصلحة في الاجابة ، فانت تثاب وتجاهب الى منافعك . ومن منافعك أن لا تعطى ما طلبت بل تعوض غيره . فاذا جاء ابلّيس فقال : كم تدعوه ولا ترى اجابة؟ فقل : أنا اتعبد بالدعاء ، وأنا موقن أن الجواب حاصل ، غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح عليّ مناسب ، ولو لم يحصل حصل التمسك والذل . فإياك أن تسأل شيئاً الا وتقرنه بسؤال الحيرة ، فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سبباً لهلاك ، وإذا كنت قد أمرت بالمشاورة في أمور الدنيا فليبين لك في بعض

الآراء ما يعجز رأيك وترى أن ما وقع لك لا يصلح ، فكيف لاتسأل الخير ربك وهو أعلم بالمصالح والاستخارة من حسن المشاورة .

٢٥٠ - أكثر طبقات الناس فاسدون

نظرت الى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل ، فاما الجاهل فانقسموا ، فمنهم سلطان قد ربي في الجهل ولبس الحرير وشرب الخمر وظلم الناس ، وله عمال على مثل حاله ، فهؤلاء بعزل عن الخير بالجملة . ومنهم تجار همتهم الاكتساب وجمع الاموال ، واكثرهم لا يؤدي الزكاة ولا يتعاشى من الربا فهؤلاء في صور الناس . ومنهم أرباب معاش يطففون المكيال ويخسرون الميزان ويبخسون الناس ويتعاملون بالربا وفي الاسواق طول النهار لاهمة لهم الا امام فيه ، فاذا جاء الليل وقعوا نياماً كالسكارى فهمة أحدهم ما يأكل ويلتذ به ، ولبس عندهم من الصلاة خبر ، فان صلى احدهم نقرها أو جمع بينها ، فهؤلاء في عداد البهائم .

ومن الناس ذور رذالة في جميع أحوالهم فهذا كناس وهذا تربال وهذا نخال وهذا يكسح الحش^(١) فهؤلاء أرذل القوم .

ومنهم من يطلب الاذات ولا يساعد المعاش فيخرج الى قطع الطريق ، وهؤلاء أحق الجماعة ، إذ لا عيش لهم فان

(١) كل هذا ليعيب فيه ان اضطر المرء اليه ، واتقى الله فيه .

التدوا لحظة بأكل أو شرب فحركت الريح قصبة هربوا خوفاً من السلطان ، وما أقل بقاءهم ، ثم القتل والصلب مع اثم الآخرة . ومنهم أرباب قرى قد همهم الجهل ، واكثرهم لا يتحاشى من نجاسة ، فهم في زمرة البقر . ورأيت النساء ينقسمن ايضاً ، فمنهن المستحسنة التي تبغي^(١) ومنهن الخائنة لزوجها في ماله ، ومنهن من لاتصلي ولاتعرف شيئاً من الدين فهو لاء حشو النار . فاذا سمعن موعظة فانها كما مرت على حجر واذا قرىء عندهم القرآن فكأنهن يسمعن السم .

وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون الى ذي نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل ، ويميل الى الفسق ظناً أن العلم يدفع عنه ، وإنما هو حجة عليه . وأما المتوسطون والمشهورون فاكثروا يغشى السلاطين ويسكت عن انكار المنكر ، وقليل من العلماء من تسلم له نيته ويحسن قصده .

فمن اراد الله به خيراً رزقه حسن القصد في طلب العلم ، فهو يحصله لينتفع به وينفع ، ولايبالي بعمل بما يدل عليه العلم فتراه يتجافى أرباب الدنيا ، ويحذر مخالطة العوام ، ويقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة في الدنيا في تحصيل الكثير ، ويؤثر العزلة فليس مذكراً بالآخرة مثلها ، وليس على العالم أضر من

الدخول على السلاطين فإنه يحسن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر ، وربما اراد ان ينكر فلا يصح له ، فإن عدم القناعة وغلبته نفسه في طلب فضول الدنيا سلم عليه لانه يتعرض باربابها . وان الانسان ليشتي في السوق ساعة فينسى بما يرى ما يعلم ، فكيف اذا انضم الى ذلك التردد الى الاغنياء والطمع في اموالهم ، فاما الوحدة فانها سبب رجوع القلب وجمع الهم والنظر في المواقب والتهيز للرحيل وتحصيل الزاد . فاذا انضمت اليها القناعة جلبت المستحسنة . ولا تحسن اليوم المجالسة الا لكتاب بجدتك عن اسرار السلف . فاما مجالسة العلماء فمخاطرة ، اذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة في الاغلب . ومجالسة العوام فتنة للدين ، الا ان يحترز بمجالستهم ويمنعهم من القول فيقول هو ويكلفهم السماع . ثم يستوفز للبعد عنهم ولا يمكن الانقطاع الكلي الا بقطع الطمع . ولا ينقطع الطمع الا بالقناعة باليسير أو بتجر بتجارة ، أو أن يكون له عقار يستغله ، فإنه متى احتاج تشتت الهم ، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم وتوفر على ذكر الآخرة فذاك الذي ينفع وينتفع به . والله الموفق .

٢٥١ - الاستعداد للجنة والرد على المتصوفة

من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا

كدر ، ولذات بلا انقطاع ، وبلوغ كل مطلوب للنفس ، والزيادة
 للآعين رأيت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، من غير
 تغير ولا زوال . ولا يقال ألف ألف سنة ولا مئة ألف ألف .
 ولو أن الانسان عد الالوف الوف السنين لانقضى عدده وكان
 له نهاية ، وبقاء الآخرة لانقضاء له ، إلا انه لا يحصل ذلك الا بنقد
 هذا العمر . وما مقدار عمر غايته مائة سنة منها خمس عشرة صوبة
 وجعل ، وثلاثون بعد السبعين ان حصلت ضعف وعجز . والتوسط
 نصفه نوم ، وبعضه زمان اكل وشرب وكسب ، والمتنفل منه
 للعبادات يسير . أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل ؟

ان الاعراض عن الشروع في هذا البيع والشراء لغبن فاحش
 في العقل ، وخلل داخل في الايمان بالوعد . فان من يدري
 كيف يعقد البيع بالعلم ، هو الذي يدل على الطريق ويعرف
 ما يصلح لها ويجذر من قطعها .

ولقد دخل ابليس على طائفة من المتزهدين بأفات اعظمها
 انه صرفهم عن العلم . فكأنه شرع في اطفاء المصباح ليسرق في
 الظلمة ، حتى انه اخذ قوما من كبار العلماء فلما بهم من ذلك
 ما ينهى عنه العلم ، فرأيت ابا حامد الطوسي ^(١) يحكي عن نفسه
 في بعض مصنفاته قال : شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في

(١) يريد به حجة الاسلام الامام الغزالي .

المواظبة على تلاوة القرآن فنعني منه ، وقال : السبيل ان تقطع
علايقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك الى اهل وولد
ومال وعلم ، بل تصير الى حالة يستوي عندك وجود ذلك
وعدمه ، ثم تخلو بنفسك في زاوية . فتقتصر من العبادة على
الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغ القلب . ولا تزال تقول : الله .
الله . الى ان تنتهي الى حالة لو تركت تحريك اللسان رأيت كأن
الكلمة جارية على لسانك ، ثم تنظر ما يفتح عليك بما فتح مثله
على الانبياء والاولياء ^(١) .

قلت : وهذا أمر لا أعجب انا فيه من الموصى به وانما
أعجب من الذي قبله مع معرفته وفهمه ، وهل يقطع الطريق
بالاعراض عن تلاوة القرآن ؟ وهل فتح للأنبياء ما فتح بمجاهدتهم
ورياضتهم . وهل يوثق بما يظهر ؟ ثم ما الذي يفتح ؟ أم اطلاع
على علم الغيب أم وحي ؟

فهذا كله من تلاعب ابليس بالقوم . وربما كان ما يتخيل
من أثر الما ليخوليا ومن ابليس . فعليك بالعلم ، وانظر في سير
السلف هل فعل أحد منهم من هذا شيئاً أو امر به ؟ وانما
تشاغلو بالقرآن والعلم فدلهم على اصلاح البواطن وتصفيتهما .
نسأل الله عز وجل علماً نافعا ، ودفعاً للعدو مانعاً ، إنه قادر

(١) ما خالف الشرع زده ولو جاء به النزال او غير النزال ، وهذا مما يخالف الشرع

٢٥٢ - نصائح في الحب والبغض

من أراد اصطفاء محبوب ، فالمحجوب نوعان امرأة يقصد
 منها حسن الصورة ، وصديق يقصد منه حسن المعنى ، فإذا
 أعجبك صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة 'مديدة' قبل ان
 يتعلق القلب بها تعلقاً محكماً ، فان رأيتهما كما تحب وأصل
 ذلك كله الدين كما قال : عليك بذات الدين - فل اليها
 واستولدها وكن في ميلك معتدل الميل ، فانه من الغلط ان
 تظهر لمحجوبك المحبة ، فانه يشتط عليك ، وتلقى منه الاذى
 من التبعي والمجران والاذلال وطلب الانفاق الكثير ، وان
 كانت تحبك ، لأن هذا إنما يجتلبه حب الاذلال المقهور وثم
 نكتة عجيبة ، وهي انك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة ،
 وهي تحكم بكمال الحب ، ثم ان ذلك لا يثبت إليك فتقع
 وتبقى مقهوراً وبصعب عليك الخلاص . وربما تمكنت بمعرفة
 مترك أو بأخذ كثير من مالك .

ومن أحسن ما بلغني في هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت
 تحبه حباً شديداً ولا تظهر له ذلك ، فسئلت عن هذا فقالت :
 لو أظهرت ما عندي فجفاني هلك . قال الشاعر :

لا تظهرن مودة لحبيب	فترى بعينك منه كل عجب
أظهرت يوماً للحبيب مودتي	فأخذت من هجرانه بنصيب

وكذا ينبغي ان تكتم حبك للولد ، لانه ينسلط عليك ،
ويضيع مالك ، ويبالغ في الادلال ، ويمتنع عن التعلم والتأدب .
وكذلك اذا اصطفت صديقا وخبرته فلا تخبره بكل
ما عندك ، بل تعاوده بالاحسان كما تعاود الشجرة ، فانها اذا
كانت جيدة الاصل حسنت ثمرتها بالتعاود . ثم كن منه على
حذر فقد تتغير الاحوال وقد قيل :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان ادرى بالمضرة

وأما إذا أبغضت شخصا فلا تظهرن ذلك ، فانك تنبهه
على أخذ الحذر منك ، وتدعوه الى المبارزة ، فيبالغ في
حربك والاحتيال عليك ، بل ينبغي أن تظهر له الجميل ان
قدرت ، وتبره ما استطعت ، فانكسرت معاداته جلة بالحياه
من بغضك ، فان لم تقط فهجر جميل ، لانيين فيه ما يؤذي .
ومنى سمعت عنه كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة ، فهي
أقوى في كف لسانه ، وكذلك جميع ما يخاف اظهاره ، فلا
تتكلمن به ، فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان فنقلت
اليه فكانت سبب هلاكك ، أو عن صديق فكانت سبب
عداوته ، أو صرت رهينا لمن سمعها خائفا أن يظهرها .
فالخزم كتمان الحب والبغض .

وكذا ينبغي ان تكتم منك فان كنت كبيرا استهزموك

وان كنت صغيراً استعقروك .
وكذلك مقدار مالك ، فانه ان كان كثيراً نسبوك في
نفقتك الى البخل ، وان كان قليلاً طلبوا الراحة منك .
وكذلك المذهب ، فانك ان أظهرته لم تأمن أن يسمعه
مخالف فيقطع بكفرك : وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار :
احفظ لسانك لاتباع بثلاثة سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبلى بثلاثة بموه وبمخوق ومكذب

٢٥٣ - خادم السلطان كراكب البحر

طال تعبي من مؤمن بالله عز وجل مؤمن بجزائه يؤثر
خدمة السلطان مع ما يرى من الجور الظاهر . فواعجباً ما الذي
يعجبه ؟ ان كان الذي يعجبه دينياً فليس ثم الا ان يصاح
بين يديه بسم الله ، وأن يتصدر في المجالس ويلوي عنقه كبيراً
على النظراء ، ويأخذ الأسحات^(١) وهو يعلم من أين حصل .
وربما انبسط في البرطيل^(٢) . ثم يقابل هذا أن يصادر ويعزل ،
فتستخرج منه تلك المرارة كل حلاوة كانت في الولاية .
وربما كان قريب الحال^(٣) فافتقر بالمصادرة جداً ، ثم تنطلق
الالسن المادحة بالذم . ثم لو سلم من هذا فانه لا يسلم من
الرفيق له والحذر منه . فهو كراكب البحر أن سلم بدنه من
للفرق لم يسلم قلبه من الخوف .

(١) يريد بها « سمت » (٢) الرشوة والبرطيل كلمة فصيحة وهي من عامي الشام

(٣) أى ليس بالنفي المتندر . ويقال اليوم « في عامية الشام » فلان ضيف الحال

وان كان ديناً فانه يعلم أنهم لا يمكنونه في الغالب من العمل
بمقتضى الدين . فانهم يأمرونه بترك ما يجب وفعل ما لا يجوز
فيذهب دينه على البارد^(١) . ولعقاب الآخرة أشق .

٢٥٤ - عليك بالقناعة

العجب من الذي أنف من الذل كيف لا يصبر على جاف
الحبز ولا يتعرض لذن الاندال ؟

أترأه ما يعلم أنه مابقي صاحب مروءة ! وانه ان سأل
بخيلاً لا يعطي ، فان أعطى نزرأ فانه يستعبد المعطي بذلك
العمر ، ثم ذاك القدر النزر يذهب عاجلاً ، وتبقى المن والحجل
ورؤية النفس بعين الاحتقار ، اذ صارت سائلة ، ورؤية المعطي
بعين التعظيم أبداً . ثم يوجب ذلك السكوت عن معائب
المعطي والبدار الى قضاء حقوقه وخدمته فيما بقي .

وأعجب من هذا من يقدر أن يستعبد الاحرار بقليل العطاء
الفاني ولا يفعل ، فان الحر لا يشتري إلا بالاحسان قال الشاعر :
تفضل على من شئت واعن بأمره فأنت ولو كان الامير أميره
وكن ذاغنى عن تشاء من الورى ولو كان سلطانا فأنت نظيره
ومن كنت محتاجاً اليه وواقفاً على طمع منه فأنت أسيره^(٢)

(١) اي على امون سبب وهو تعبير عباسي عامي .

(٢) واصله : احسن الى من شئت تكن اميره ، واحتفن عن شئت تكن

نظيره ، واحتج الى من شئت تكن اسيره .

٢٥٥ - نصائح للشباب وعلاقتهم بالنساء

ينبغي للصبي إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ليقبى جوهره فيفقد ذلك في الكبر ، لانه من الجائز كبره والاستعداد للجائز حزم ، فكيف للغالب ؟ كما ينبغي أن يستعد للشقاء قبل هجومه ، ومتى انفق الحاصل وقت القدرة تأذى بالقرى إلى وقت الفاقة .

وليعلم ذو الدين والفهم أن المتعة إنما تكون بالقرب من الحبيب ، والقرب يحصل بالتقيل والضم ، وذلك يقوى المحبة ، والمحبة بلذ وجودها والوطء ينقص المحبة ويعدم تلك اللذة . وقد كان العرب يعشقون ولا يروون وطء المعشوق . وقال قائلهم : ان نكح الحب فقد .

فأما الالتذاد بنفس الوطء فشأن البهائم ^(١) .

ولقد تأملت المراد من الوطء فوجدت فيه معنى عجيباً يخفى على كثير من الناس ، وهو أن النفس اذا عشقت شخصاً أحبت القرب منه ، فهي تؤثر الضم والمعانقة لأنها غاية في

(١) والناس في هذا كالبهائم . هذه طبيعتهم التي طبعهم الله عليها ، لا يد لهم فيها .

القرب ، ثم تريد قربا يزيد على هذا فيقبل الخد . ثم تطلب القرب من الروح فيقبل الفم ، لانه منفذ الى الروح ^(١) ، ثم تطلب الزيادة فيص لسان المحبوب ، وقد كان رسول الله ﷺ يتوشح عائشة ويقبلها ويمص لسانها ^(٢) . فاذا طلبت النفس زيادة في القرب الى النفس استعملت الوطء ^(٣) . فهذا سره المعنوي ، ويحصل منه الالتذاذ الحسي .

٢٥٦ - الرد على المتكلمين

ليس على العوام أضر من سماعهم علم الكلام وإنما ينبغي أن يحذر العوام من سماعة والخوض فيه ، كما يحذر الصبي من شاطئ النهر خوف الغرق . وربما ظن العامي أن له قوة يدرك بها هذا وهو فاسد ، فانه قد زل في هذا خلق من العلماء فكيف العوام ؟

وما رأيت أحق من جمهور قضاة زماننا ، فانه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهونهم عن خمر وزنا وغيبة ، ولا يعلمونهم أركان الصلاة ووظائف التعبد ، بل يملأون الزمان بذكر

(١) بل هو منفذ الى المدة والامعاء وما فيها . ولكن الشهوة تمنع العين وتطمط الفكر (٢) قال الاستاذ الشيخ ناصر : مص اللسان لم يصح .

(٣) أعانها والنفس بعد مشقة اليها وهل بعد العناق تداني وألتم فاما كي تزول صباقي فيشتد ما ألقى من الهيان كان فؤادي ليس يشفى غليله سوى ان يرى الروحين المتعبان

الاستواء وتأويل الصفات ، وأن الكلام قائم بالذات
فيتأذى بذلك من كان قلبه سليماً . وإنما على العامي أن يؤمن
بالأصول الخمسة : بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،
ويقنع بما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق . والاستواء
حق والكيف مجهول . وليعلم أن رسول الله ﷺ لم يكلف
الأعراب سوى مجرد الإيمان ، ولم تتكلم الصحابة في الجواهر
والأعراض . فمن مات على طريقهم مات مؤمناً سليماً من بدعة .
ومن تعرض لساحل البحر وهو لا يحسن السباحة فالظاهر غرقه .

٢٥٧ - وجوب الاستعداد للآخرة وترك لذات الدنيا

أشد الناس جهلاً منهوم بالذات .
والذات على ضربين مباحة ومحظورة ، فالمباحة لا يكاد يحصل
منها شيء إلا بضياح ما هو مهم من الدين . فإذا حصلت منها حبة
قارنها فنظار من المهم . ثم لا تكاد تصفو في نفسها بل مكدراتها
ألف ، فإذا صور عددها الألف صار التصوير مغلفاً للهوى
مجرثاً للنفس ، فإذا أنفت أنفت من الأسف على الدوام ما لا
يجويه صفة فهي نعر الفسّر^(١) وتهدم العمر ، وتديم الأسى .
ومع هذا فالمنهوم كلما عدى عن لذة طلب أختها . وقد عرف

جناية الاولى وخيانتها . وهذا مرض العقل ، وداء الطبع . فلا يزال صاحبه هذا كذلك الى أن يختطف بالموت فيلقى على بساط ندم لا يستدرك . فالعجب من همة هكذا مع قصر العمر ، ثم لا يتم بأخروته التي لزمها عملية من شامت ، منزهة عن غائب دائمة الى الابد ، باقية ببقاء الابد . وانما يحصل تقريب هذه بأبعاد تلك ، وجران هذه بتخريب تلك . فواعجبا لعاقل حصيف حسن التدبير ، فاته النظر في هذه الاحوال ، وغفل عن التمييز بين هذين الامرين .

وان كانت اللذة معصية انضم الى ماذكرناه عار الدنيا ، والفضيحة بين الخلق ، وعقوبة الحدود ، وعقاب الآخرة ، وغضب الخلق سبحانه .

بالله ان المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل فدم ذلك لبيان الحزم ، فكيف بالمحرمات التي هي غاية الرذائل ؟ نسأل الله عز وجل يقظة قمر كنا الى منافعنا ، وترجعنا عن خواصنا انه قريب .

٢٥٨ - التراخي والكسل بعد اليقظة بسماع المواعظ وأسبابه

تأملت على الخلق (١) واذا هم في حالة عجيبة يسكاد يقطع معها

بفساد العقل . وذلك ان الانسان يسع المواعظ وتذكر له
الآخرة فيعلم صدق القائل ، فيبكي وينزعج على تقريطه ، ويعزم
على الاستدراك ، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه . فاذا قيل
له : أنشك فيما وعدت به ؟ قال : لا والله .

فيقال له : فاعمل . فينوي ذلك ثم يتوقف عن العمل . وربما
مال الى لذة محرمة ، وهو يعلم النهي عنها .

ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الذين خلّفوا ولم يكن لهم
عذر وهم يعلمون قبح التأخر . وكذلك كل عاص ومفرط .
فناطت السبب مع أن الاعتقاد صحيح والفعل بطيء ، فاذا
له ثلاثة أسباب (١) :

أحدهما رؤية الهوى العاجل ، فان رؤيته تشغل عن الفكر
فيا يجنيه .

والثاني التسويف بالتوبة . فلو حضر العقل لحذر من آفات
التأخير ، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة ، والعجب من مجرّ
سلب روحه قبل مضي ساعة ولا يعمل على الحزم ، غير ان الهوى
يطيل الامد . وقد قال صاحب الشرع عليه السلام : « صل صلاة مودع »
وهذا نهاية الدواء لهذا الداء ، فانه من ظن انه لا يبقى الى صلاة
اخرى جد واجتهد .

والثالث رجاء الرحمة ، فيؤثر العاصي بقول : « ربي رحيم »

(١) عرض لهذا المعنى في أول الكتاب .

وينسى انه شديد العقاب . ولو علم أن رحمته ليست رقة اذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفوراً ولا آلم طفلاً ، وعقابه غير مأمون ، فانه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط . فتسأل الله عز وجل أن يعيب لنا حزماً بيت المصالح جزماً .

٢٥٩ - ذم لباس الخلاء

نظرت في قول رسول الله ﷺ لما لبس الخاتم ثم رمى به وقال : « شغلني نظري اليكم ونظري اليه » وقوله : « هذا رجل يتبختر في حلته مرجلاً مجتة خسف به الارض ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » ، فرأيت انه لا ينبغي لأحد أن يلبس ثوباً معجباً ولا شيئاً من زينة ، لان ذلك يوجب النظر الى النفس بعين الاعجاب ، ، والنفس ينبغي ان تكون ذليلة للخالق .

وقد كان قدماء الاحبار في بني اسرائيل يمشون على العصي لئلا يقع منهم بطر في المشي . ولبست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها درعاً لها فأعجبت به ، فقال لها رسول الله ﷺ : « ان الله لا ينظر اليك في حالتك هذه » . ولما لبس رسول الله ﷺ خيصة لها أعلام قال : « أهتني هذه عن صلاقي » .

وهذا كله يوجب الاعراض عن الزينة وما يحرك الى الفخر

والزهو والعجب . ولهذا حرم الحرير . وأقول على أسباب
 هذا : ان المرفعات التي يتتوق^(١) فيها المتصوفة بالسوارك
 والتلميع ربما أوجبت زهو اللابس ، إما لحسنها في ذاتها ،
 أو لعلها أنها تنبئ عنه بالتصوف والزهد . وكذلك الخاتم في
 اليد ، وطول الأكام ، والنعال الصرارة^(٢) ، ولا أقول :
 ان هذه الأشياء تحرم ، بل ربما جلبت ما يحرم من الزهو ،
 فينبغي للعاقل أن يتنبه بما قلت في دفع كل ما يجذر من شره .
 وقد ركب ابن عمر نجيباً فأعجبه مشيه فنزل ، وقال :
 يا نافع أدخله في البدن^(٣) .

٢٦٠ - النهي عن مخالطة الناس

من أراد اجتماع همه وإصلاح قلبه ، فليحذر من مخالطة
 الناس في هذا الزمان ، فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع
 فكره ، فصار الاجتماع على ما يضر .

وقد جربت على نفسي مراراً أن أحصرها في بيت العزلة ،
 فتجتمع هي ويضاف إلى ذلك النظر في سير السلف فأرى العزلة

(٢) التي تحدث صوتاً ، أي يكون لها

(١) يتأنق

حرير عند المشي - وكانت من إمارات الشطار (٣) أي في الهدى

حية ، والنظر في سير القوم دواء ، واستعمال الدواء مع الحجة
عن التخطيط نافع .

فاذا فسحت لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم نشئت القلب
الجميع ، ووقع الذهول عما كنت أراعيه ، وانتشيت في القلب ما قد
رأته العين ، وفي الضمير ما سمعته الأذن ، وفي النفس ما تطمع
في تحصيله من الدنيا . وإذا جمهور الخاطلين أرباب غفلة ،
والطبع بمجالستهم يسرق من طباعهم . فإذا عدت أطلب القلب
لم أجد ، وأروم ذاك الحضور (١) فأفقدته ، فيبقى في غمارة
ذلك اللقاء للناس أياماً حتى ما يساو الهوى . وما فائدة تعريض
البناء لانتقض ، فان دوام العزلة كالبناء ، والنظر في سير السلف
يرفضه ، فاذا وقعت الخاطلة انتقض ما بنى في مدة في لحظة ،
وصعب التلاقي وضعف القلب .

ومن له فهم يعرف أمراض القلب ، وإعراضه عن حاجته ،
وخروج طائرته من قفصه ، ولا يؤمن على هذا المريض ان
يكون مرضه هذا سبب التلف ، ولا على هذا الطائر المحصور
ان لا يقع في الشبكة .

وسبب مرض القلب انه كان عمياً عن التخطيط مغتدياً بالعلم ،

(١) اي حضور القلب مع الله

وسير السلف ، فغلط فلم يحصل مزاجه فوقع المرض .
 فالجد الجد فانما هي أيام وما نرى ما يلقى ولا من يؤخذ
 منه ، ولا من تنفع بجالسته ، إلا ان يكون قادراً ما أعرفه :
 ملقى الصحاب أخو وجد نظارحه حديث نجد ولا صب نجاربه
 فالزم خلوتك ، وراع ما بقيت ، واذا قلقت النفس مشتاقة
 الى لقاء الخلق ، فاعلم أنها بعد كدرة فرضها ليصير لقائهم
 عندها مكروهاً ، ولو كان عندها شغل بالخلق لما أحببت الزحمة ،
 كما ان الذي يخلو بحبيبه لا يؤثر حضور غيره ولو انها عشقت
 طريق البين لم قلنت الى الشام .

٢٦١ - هداية الغافلين

تفكرت في سبب هداية من يهتدي وانتباه من يتيقظ من
 رقاد غفلته ، فوجدت السبب الاكبر اختيار الحق عز وجل
 لذلك الشخص ، كما قيل : « اذا أرادك لأمر هيأك له » .
 فتارة تقع اليقظة بمجرد فكر يوجه نظر العقل ، فيتلمح الانسان
 وجود نفسه فيعلم أن لما صانعاً وقد طالبه بحقه ، وشكر
 نعمته ، وخوفه عقاب مخالفته ، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر .
 ومن هذا ماجرى لأهل الكهف ، « إذ قاموا فقالوا ربنا
 رب السوات والارض ، وفي التفسير : ان كل واحد منهم

ألقى في قلبه بقطة فقال : لابد لهذا الخلق من خالق . فاشتد
كرب بواطنهم من وقود نار الحذر ، فخرجوا الى الصحراء ،
فاجتمعوا عن غير موعد ، فكل واحد يسأل الآخر : ما الذي
أخرجك ؟ فتصادفوا .

ومن الناس من يجعل الخالق سبحانه وتعالى لذلك السبب
الذي هو الفكر والنظر سبباً ^(١) ظاهراً ، إما من موعظة
يسمونها أو يراها ، فيحرك هذا السبب الظاهر فكرة القلب
الباطنة . ثم ينقسم المتيقظون فمنهم من يغلبه هواه ، ويقتضيه
طبعه ما يشتهي ، بما قد اعتاده ، فيعود القهقري ولا ينفعه
ما حصل له من الانتباه . فانتباه مثل هذا زيادة في الحجة عليه .

ومنهم من هو واقف في مقام المجاهدة بين صفتين : العقل
الآمر بالتقوى ، والهوى المتقاضي بالشهوات . فمنهم من يغلب
بعد المجاهدات الطويلة فيعود الى الشر ويختم له به ، ومنهم
من يغلب تارة ويغلب أخرى فجراحاته لا في مقتل ^(٢) . ومنهم
من يقهر عدوه فيسجنه في حبس ، فلا يبقى للعدو من الحيلة
إلا الرساوس .

ومن الصفوة أقوام مذ تيقظوا ما ناموا ، ومذ سلكوا
ما وقفوا ، فهم صمود وترق ، كلما عبروا مقاماً الى مقام

(١) أى يجعل للتفكير « الذي هو سبب الهداية » سبباً ظاهراً الخ ...

(٢) أى في غير مقتل .

وأوا نقص ما كانوا فيه فاستغفروا . ومنهم من يرقى عن
الاحتياج الى مجاهدة إما لحسة ما يدعو إليه الطبع عنده ولا
وقع له ، وإما لشرف مطلوبه فلا يلتفت الى عائق عنه .
واعلم أن الطريق الموصلة الى الحق سبحانه ليست بما يقطع
بالاقدام ، وإنما يقطع بالقلوب . والشهوات العاجلة قطاع الطريق
والسبيل كالليل المدهم ، غير أن عين الموفق بصر فرس لأنه
يرى في الظلمة كما يرى في الضوء والصدق في الطلب اينار ^(١)
أين وجد يدل على الجادة ، وإنما يتعثر من لم 'يخلص . وإنما
يتمتع الاخلاص بمن لا يراه . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

٢٦٢- لو عرفت مقدارك ما تكبرت

عجبت لمن يعجب بصورته ، ويحتال في مشيئه ، وينسى
مبدأ أمره . إنما أوله لقمة ضمت اليها جرعة ماء ، فإن شئت
فقل كسرة خبز معها قطرات ، وقطعة من لحم ومذقة من
لبن ، وجرعة من ماء ، ونحو ذلك طبخته الكبد فأخرجت
منه قطرات مني ، فاستقرت في الانثيين فحركتها الشهوة ،
فصبّت فبقيت في بطن الام مدة حتى تكاملت صورتها فأخرجت
طفلاً تتقلب في خرق البول .

وأما آخره فانه يلقي في التراب فيأكله الدود وبصيرفاتها
تسفيه السواقي . وكـم يخرج تراب بدنه من مكان الى مكان
آخر . ويقلب في أحوال الى أن يعود فيجمع .

هذا خبر البدن . انما الروح عليها العمل ، فان تجوهرت
بالادب ، وتقومت بالعلم ، وعرفت الصانع ، وقامت بحقه فما
يضرها نقص المركب . وان هي بقيت على صفتها من الجهالة
شابهت الطين بل صارت أخس حالة منه .

٢٦٣ - نصائح لطالب العلم الفقير

هيات ان يجتمع المم مع التلبس بأمور الدنيا خصوصاً
الشاب الفقير الذي قد ألف الفقر ، فانه اذا تزوج وليس له
شيء من الدنيا اهتم بالكسب ، أو بالطلب من الناس فتشتت همته ،
وجاءه الاولاد فزاد الامر عليه ، ولا يزال يرخس لنفسه فيما
يحصل ، الى أن يلتبس بالحرام ، ومن يفكر فهتته ما يأكل وما
يأكله أهله ، وما يرضي به الزوجة من النقطة والكسوة ، وليس له
ذلك . فاي قلب يحضر له ، وأي هم يجتمع ؟ هيات والله .
لا يجتمع المم والعين تنظر الى الناس ، والسمع يسمع حديثهم ،
واللسان يخاطبهم ، والقلب متوزع في تحصيل ما لا بد منه .

فان قال قائل : فكيف اصنع ؟

قلت : إن وجدت ما يكفيك من الدنيا ، أو معيشة تكفك فاقنع بها ، وانفرد في خلوة عن الخلق بها قدرت ، وان تزوجت بفقيرة تقنع باليسير ، وتصور أنت على صورتها وفقرها ، ولا تترك نفسك تطمع الى من تحتاج الى فضل نفقته فان رزقت امرأة صالحة جمعت همك . وإن لم تقدر لمعالجة الصبر أصنع لك من الخاطرة .

ولبابك والمستعسئات (١) فان صاحبهن اذا سلم كعابدهن وإذا حصل بيدك شيء فانفق بعضه ، فبحفظ الباقي تحفظ شئنا قلبك . واحذر كل الحذر من هذا الزمان وأهله فما بقي مؤاس ولا مؤثر ، ولا من يتم لشدته خلة ، ولا من لو سئل أعطى إلا أن يعطي نزرأ بتضجر ومنة يستعبد بها المعطى بقية العمر ، ويستنقله كلما رآه ويستدعي خدمته له ويتردد اليه . وإنما كان في الزمان مثل أبي عمرو بن نجيح سمع أبا عثمان المغربي يقول يوماً على المنبر : علي ألف دينار ، وقد خاق صدري .

فمضى أبو عمرو اليه في الليل بألف دينار ، وقال : اقض دينك . فلما عاد وصعد المنبر قال : نشكر الله لا يي عمرو فاته أراح قلبي وقضى ديني .

فقام أبو عمرو فقال : أيها الشيخ ذلك المال كان لوالدي وقد شق عليها ما فعلت فان رأيت أن تتقدم ^(١) برده فافعل .
 فلما كان في الليل عاد اليه ، وقال له : لماذا شهرتني بين الناس ؟ فانا ما فعلت ذلك لاجل الخلق ، فخذ ، ولا تذكر في ماتوا غيب في التراب شغوصهم والنشر مسك والعظام وميم
 فالبعد البعد عمن همته الدنيا ، فان زاد هم اليوم الى أن يحصل أقرب منه الى أن يؤثر . ولا تكاد ترى إلا عدواً في الباطن ، صديقاً في الظاهر ، شامتا بباطنه حسوداً على نعمته .
 فاشتر العزلة بما بيعت ، فان من له قلب إذا مشى في الاسواق وعاد الى منزله تغير قلبه ، فكيف ان عرقه بالليل الى أسباب الدنيا ، واجتمع في جمع الهم بالبعد عن الخلق ليخلو القلب بالتفكر في المآب . وتلمح عين البصيرة خيم الرحيل .

٢٦٤ - على المرید ان يزور القبور ولا يتخاط الباطلین

كان المرید في بداية الزمان إذا أظلم قلبه أو مرض لبه قصد زيارة بعض الصالحين فانجلي ما أظلم . واليوم متى حصلت ذرة من الصدق لمرید فردته في بيت عزلة ، ووجد نسبا من روح العافية ، ونوراً في باطن قلبه ، وكاد همه يجتمع وشتانه ينتظم ، فخرج فلقني من يوماً اليه بعلم أو زهد رُئي عند الباطلين

وهو يجري معهم مسلك المذبان الذي لا ينفع ، ورأى صورته
صورة منس (١) ، وأهون ما عليه تضييع الاوقات في الحديث
الفارغ ، فما يرجع المريد عن ذلك الوطن الا وقد اكتسب
ظلمة في القلب وشتاتا في العزم ، وغفلة عن ذكر الآخرة ،
فيعود مريض القلب ، يتعب في معالجته أياماً كثيرة حتى يعود
الى ما كان فيه ، وربما لم يعد لان المريد فيه ضعف ، فاذا
رأى شيخاً قد جرب وعرف ثم يؤثر البطالة ، لم يأمن أن
يتبعه الطبع .

فالاولى للمريد اليوم أن لا يزور إلا المقابر ، ولا يفاوض إلا
الكتب ، التي قد حوت محاسن القوم ، وليستعن بالله تعالى
على التوفيق لمراضيه ، فانه ان اراده هياه لما يرضيه .

٢٦٥ - صفة أولياء الله

تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه .
فقد سمعنا أوصافهم ، ومن نظنه منهم بمن رأيناه ، فوجدته
سبحانه لا يختار الا شخصاً كامل الصورة ، لا عيب في صورته ،
ولا نقص في خلقته ، فتراه حسن الوجه ، معتدل القامة ، سليماً
من آفة في بدنه . ثم يكون كاملاً في باطنه ، سخيلاً جواداً عاقلاً

(١) اي ملبس « مدجل »

غير خب ولا خادع ، ولا حلو ولا حسو ، ولا فيه عيب من
 عيوب الباطن ، فذاك الذي يريه من صفه فتراه في الطفولة
 معتزلا عن الصبيان ، كأنه في الصبا شيخ ينبو عن الرذائل
 ويفزع من النقائص ، ثم لا تزال شجرة منه تنمو حتى يرى ثمرها
 متهدلا على أغصان الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكش
 على العمل ، محافظ للزمات ، مراعي للاوقات ، ساع في طلب
 الفضائل ، خائف من النقائص ، ولو رأيت التوفيق والالهام الرباني
 كيف يأخذ بيده ان عثر ، ويمنعه من الخطأ ان هم ، ويستغفمه
 في الفضائل ، ويستتر عنه حتى لا يراه منه . ثم ينقسم هؤلاء .
 فمنهم من تفقه على قدم الزهد والتعب ، ومنهم من تفقه على العلم
 واتباع السنة . ويندر منهم من يجمع له الكل ويرقيه الى
 منزلة الكاملين .

وعلاوة اثبات الكمال في العلم والعمل ، الاقبال بالكلية على
 معاملة الحق ومحبه واستيعاب الفضائل كلها ، فلو تصوت النبوة
 أن تكسب لدخلت في كسبه . ومراتب هذا لا يحتملها الوصف ،
 لكونه درة الوجود ، التي لا تكاد تعتد في الصدف الا في
 كل ودود . نسأل الله عز وجل توفيقنا لمراضيه وقربه . ونعوذ
 به من طرده وابعاده .

٢٦٦ - أكثر الناس في غفلة عن الآخرة

أكثر الخلابى على طبع ردى لا تقومه الرياضة . لا يدرون
 لم خلقوا ولا المراد منهم . وغاية مهم حصول بغيته من
 أغراضهم . ولا يسألون عند نيلها ما اجتلبت لهم من ذم . يبذلون
 العرّض دون العرّض ، ويؤثرون لذة ساعة ، وأن اجتلبت
 زمان مرض ، يلبسون عند التجارات ثياب مختال ، في شعار
 مختال ، ويُلَبَّسون في المعاملات ، ويستترون الحال .

ان كسبوا فشهة ، وان اكلوا فشهوة ، ينامون الليل وان
 كانوا نياماً بالنهار في المعنى ، ولا نوم بهذه الصورة ، فاذا أصبحوا
 سعوا في تحصيل شهواتهم بحرص خنزير ، وتبصص كلب ،
 وافتراس أمد ، وغارة ذئب ، وروغان ثعلب ، ويتأسفون
 عند الموت على فقد الهوى ، لاعلى عدم التقوى . ذلك مبلغهم
 من العلم . كيف يفلح من يؤثر ما يراه بعينه على ما يبصره
 بعقله ؟ وما يدركه ببصره أعز عنده مما يراه ببصيرته .

تالله لو فتحوا أسماعهم لسمعوا هاتف الرحيل في زمان الاقامة
 يصبح في محرمات الدنيا : تلمعوا تقويض خيام الاوائل . لكن
 غرهم حكر الجهالة ، فلم يفيقوا الا بضرب الحد .

٢٦٧ - المال الحرام

رأيت بعض المتقدمين مثل ممن يكتسب حلالاً وحراماً من السلاطين والامراء ثم يبيي المساجد والاربطة ، هل له فيها ثواب ؟

فأفتى بما يوجب طيب قلب المنفق ، وان له في انفاق مالا يملكه نوع سمرة ، لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيرد .

قلت : واعجباً من متصدين للفتوى لا يعرفون أصول الشريعة . ينبغي أن ينظر في حال هذا المنفق أولاً ، فان كان سلطاناً فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه مصارفه ، فكيف يمنع مستحقه ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط ؟ وان كان المنفق من الامراء ونواب السلاطين ، فانه يجب ان يرد ما يجب رده الى بيت المال ، وليس له فيه الا ما فرض من ايجاب يليق به ، فان تصرف في غير ذلك كان مصروفاً فيما ليس له ، ولو أذن له كان الاذن جائزاً . وان كان قد أقطع مالا يقاوم عمله^(١) كان ما يأخذه فاضلاً من اموال المسلمين لاحق له فيه ، وعلى من أطلقه في ذلك اثم أيضاً ، هذا اذا سلم المال وكان من حله . فاما إذا كان حراماً أو غصباً فكل تصرف فيه حرام ، والواجب رده على من أخذ منه أو على

ورثتهم . فان لم يعرف طريق الرد كان في بيت مال المسلمين
 يصرف في مصالحهم ، أو يصرف في الصدقة ، ولم يحظ أخذه
 بغير الاثم . أنبأنا أحمد بن الحسن بن البنا قال أخبرنا محمد بن
 علي الزجاجي قال أخبرنا عبد الله بن محمد الاسدي قال أخبرنا
 علي بن الحسن قال حدثنا أبو داود قال حدثنا محمد بن عون
 الطائي قال حدثنا أبو المغيرة قال حدثنا الاوزاعي قال حدثني
 موسى بن سليمان قال سمعت القاسم بن خزيمة يقول قال رسول
 الله ﷺ : من اكتسب مالا من مأم ، فوصل رجماً ، أو
 تصدق به ، أو أنفق في سبيل الله ، جمع ذلك جميعاً فقد ذف
 به في جهنم .

فاما اذا كان الباني تاجراً مكتسباً للحلال فبني مسجداً أو
 وقف وقفاً للمتفقه ، فهذا بما يثاب عليه . ويبعد من يكتسب
 الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار ، ويخرج الزكاة مستقصاة ،
 ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء والنفقة . إذ مثل هذا البنيان
 لا يجوز أن يكون من زكاة . وابن سلامة النينة وخلص
 المقصد ؟ وان بناء المدارس اليوم مخاطرة ، إذ قد انعكف
 أكثر المتفقه على علم الجدل ، وأعرضوا عن علوم الشريعة ،
 وتركوا التردد الى المساجد ، وقنعوا بالمدارس والالقاء .
 وأما بناء الاربطة ^(١) فليس بشيء أصلاً ، لأن جمهور

(١) أي التكايا ونحوها

المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل ، ثم يدعى مدعهم
الحبة والقرب ، ويكره التشاغل بالعمل ، وقد تركوا سيرة
سرى^(١) واعدادات الجنيد ، واقتنعوا بأداء الفرائض ، ورضوا
بالمرفعات ، فلا تحسن اعانتهم على بطالتهم وراحتهم ، ولا ثواب
في ذلك .

٢٦٨ - اخلاص القلب وضم الزياء

عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من
قلوبهم ، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له ، فان رضى عنه
ورآه خالصاً لفت القلوب اليه ، وان لم يره خالصاً أعرض بها
عنه . ومق نظر العامل الى التفات القلوب اليه فقد زاحم
الشرك^(٢) ، لانه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له ، ومن
ضرورة الاخلاص إلفات القلوب اليه ، فذاك يحصل لا يقصده
بل بكرأته لذلك^(٣) . وليعلم الانسان أن أعماله كلها يعلمها
الخلق جملة ، وإن لم يطلعوا عليها . فالقلوب تشهد للصالح وان
لم يشاهد منه ذلك . فاما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد

(١) اي القطي

(٢) يريد : قارب الشرك . على انه ليس في ذلك شرك ، ولكن فيه نوع زياء

(٣) الاسلام دين الفطرة ، ومن فطرة الانسان حب التناء . والمطلوب ألا

يكون ذلك قصده كله ، بل يكون مقصده الاول رضا الله وثوابه

مضى العمل ضائعاً ، لانه غير مقبول عند الخلق ، لان قلوبهم قد لغت عنه ، فقد ضاع العمل ، وذهب العمر .

ولقد أخبرنا ابن الحصين قال أخبرنا ابن المذهب قال أخبرنا أحمد بن جعفر قال حدثنا عبد الله بن أحمد قال حدثني أبي قال حدثنا حسن بن موسى قال حدثنا ابن لميعة قال حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج (عمله) الى الناس كأننا ما كان .

فليستق الله العبد ، وليقصد من ينفعه قصده ، ولا يتشاغل بمدح مَنْ عن قليل بلي هو وم .

٢٦٩ - مخالطة العلماء للسلطين واضرارها

قدم علينا بعض الفقهاء من بلاد الاعجام ، وكان قاضياً ببلده فرأيت على دابته الذهب ومعه أتوار (٢) الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات .

فقلت : أي شيء أفاد هذا العلم (٣) . بل والله قد كثرت عليه الحجاج ، وأكبر الاسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول الله ﷺ . لا أنهم يجهلون الجملة ، ولكنهم

(١) جمع تور وهو آفة الشرب (٢) «العالم» فاعل «وهذا» مفعول به .

يتشغلون بعلم الخلاف ، ويقصدون التقدم ، ولا يقصدون سماع
حديث ولا نظرا في سير السلف ، ويخالطون السلاطين فيحتاجون
الى التزبي بزيم ، فربما خطر لهم أن هذا قريب ، وأن لم
يخطر لهم فالهوى غالب بلا صاء ، وربما خطر لهم : أن هذا
يحتل ويفقر في جانب تشاغلنا بالعلم .

ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم ، ولا ينكرون
عليهم . ولقد رأيت من الذين ينتسبون الى العلم من يستصحب
المردان ، ويشترى الممالك ، وما كان من يفعل هذا إلا من قد
يشس من الآخرة .

ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء ، وهو على هذه الحالة .
فأله الله بامن يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة ، إياك
والتأويلات الفاسدة ، والاهواء الغالبة ، فانك ان ترخصت
بالدخول في بعضها جرّك الامر الى الباقي ، ولم تقدر على
الخروج لموضع ألف الهوى ، فاقبل نصحي ، واقنع بالكسرة ،
وابعد عن أرباب الدنيا ، فاذا ضجّ الهوى فدعه لهذا ، وربما
قال لك : « فالأمر الفلاني قريب ، فلا تفعل » ، فانه يدعو الى
غيره ويصعب التلاقي . فالصبر الصبر على شظف العيش . والبعد
عن ارباب الهوى ، فما يتم دين الا بذلك . ومتى وقع الترخص
حمل الى غيره ، كالشاطيء الى اللجة ، وانما هو طعام دون

طعام ، ولباس دون لباس ، ووجه أصبح من وجه ، وانما هي
أبام يسيرة .

٢٧٠- عجز العقل عن ادراك حكمة الخالق ووجوب التسليم

من تفكر في عظمة الله عز وجل طاش عقله لأنه يحتاج أن
يثبت موجوداً لأول لوجوده ، وهذا شيء لا يعرفه الحس ،
وانما يقربه العقل ضرورة ، وهو متعير بعد الاقرار .

ثم يرى من أفعاله ما يدل على وجوده فلا يخفى وجوده ،
ثم يجري في أقداره أمور لولا ثبوت الدليل على وجوده
لأوجبت الجحد ، فانه يفرق البحر لبني اسرائيل ، وذلك شيء
لا يقدر عليه سوى الخالق . وبصير العصا حية ثم يعيدها عصا ،
وتتلف ما صنعوا ولا يزيد فيها شيء . فهل بعد هذا بيان ؟

فاذا آمنت السحرة تركهم مع فرعون بصلبهم ولا يمنع .
والانبياء يبتلون بالجوع والقتل ، وذكربا بنشر ، ويحیی تقتله
زانية . ونبينا ﷺ يقول كل عام : « من يؤدبني من ينصرني ؟ »
فيكاد الجاهل بوجود الخالق يقول : « لو كان موجوداً لنصر
أولياؤه ، فينبغي للعاقل الذي قد ثبت عنده وجوده بالادلة
الظاهرة الجليلة الا يمكن عقله من الاعتراض عليه في أفعاله ،
ولا يطلب بها علة ، اذ قد ثبت انه مالك وحكيم . فاذا خفي
عليه وجه الحكمة في فعله نسبنا العجز الى فهو منا .

وكيف لا وقد عجز موسى عليه السلام أن يعرف حكمة
 خرق السفينة وقتل الغلام ، فلما بان له حكمة ذلك الفساد في
 الظاهر أقر . فلو قد بان الحكمة في أفعال الخالق جحد العقل
 جحد موسى يوم الحضر . فمضى رأيت العقل يقول : لم ؟ فأخرسه
 بان تقول له : يا عاجز أنت لا تعرف حقيقة نفسك . فمالك
 والاعتراض على المالك .

ودعا قال العقل : أي فائدة في الابتلاء وهو قادر أن
 يثيب ولا يبلأ ؟ وأي غرض في تعذيب أهل النار وليس ثم تشفي ؟
 فقل له : حكمته فوق مرتبتك ، فسلم لما لا تعلم ، فان
 أول من اعترض بعقله إبليس ، فرأى فضل النور على الطين فأعترض ؟
 وقد رأينا خلقاً كثيراً وسمعنا عنهم أنهم يقدحون في الحكمة
 لأنهم يحكمون العقول على مقتضاها ، وينسون أن حكمة الخالق
 وراء العقول ، فإياك أن تفسح لعقلك في تعليل أو أن تطلب
 له جواب اعتراض ، وقل : له سلم تسلم ، فانك لا تدري غور
 البحر الا وقد أدركك الغرق قبل ذلك .
 هذا أصل عظيم ، متى فات الآدمي أخرجه الاعتراض
 إلى الكفر .

٢٧١ - الكهولة خير واعظ

المعجب بمن يقول : أخرج الى المقابر فاعتبر بأهل البلى .

ولو فطن^(١) أنه مقبرة ، يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها ، خصوصاً من قد أوغل في السن ، فان شهوته ضعفت ، وقواه قلت ، والحواس كالت والنشاط فتر ، والشعر ابيض ، فليعتبر بما فقد ، وليستغن عن ذكر من فقد ، فقد استغنى بما عنده عن التطلع الى غيره .

٢٧٢- ذكر الآخرة

من تكامل العقل فقدت لذة الدنيا فتضاءل الجسم ، وقوى السقم ، واشتد الحزن ، لأن العقل كلما تلمس العواقب أعرض عن الدنيا ، والتفت الى ما تلمس ولا لذة عنده بشيء من العاجل . وانما يلتذ أهل الغفلة عن الآخرة ، ولا غفلة لكامل العقل . ولهذا لا يقدر على مخالطة الخلق ، لانهم كأنهم من غير جنسه ، كما قال الشاعر :

ما في الديار أخو وجد نظارحه حديث نجد ولا خلّ نجاريه^(٢)

٢٧٣- البعث

ادعى الطبائعيون ان مادة الموجودات الماء والتراب والنار والهواء فاذا كان في القيامة أذهب الاصول ، ثم أعاد الحيوان

(١) المؤلف نفسه ومي « قبل سبعة فصول » بالخروج الى المقابر

(٢) في الفصل « ٢٩٢ » ولا ص ب . وهي الرواية الصحيحة

ليعلم انها كانت بالقدرة لاعن تأثير الكليات . ومن قدح في
البعث فقد بالغ في القدح في الحكمة . ومن قال : الروح
عرض ، فقد جحد البعث لان العرض لا يبقى والاجساد
تصير تراباً ، فان وجد شيء فهو ابتداء خلق . كلا والله ،
بل يعيد النفس بعينها بدليل اعاده مذكوراتها « قال قائل منهم
إني كان لي قرين » .

وعزته ان لطفه في البداية دليل على النهاية . حنن الوالدين ،
وأجرى الابن في الثدي ، وانشأ الاطعمة ، وأطلع العقل على
العواقب . أفصح ان يقال بعد هذا التدبير ، انه جميل بعد
الموت فلا بيعث !

أتوى من أحب أن يُعرَفَ فأنشأ الخلق وقال : « كنت
كنزاً لا أعرف فأحببت ان أعرف ، يؤثر أن يعدمهم فيجهل
قدره .. سبحانه من أعمى أكثر القلوب عن معرفته .

٢٧٤ - دلائل التوحيد

سبحان من ظهر خلقه حتى لم يبق خفاء ، ثم خفى حتى
كانه لا ظهور . أي ظهور أجلى من هذه المصنوعات التي
تنطق كلها بأن لي صانعاً صنعني ورتبني على قانون الحكمة .
خصوصاً هذا الآدمي الذي أنشأه من قطرة ، وبناء على اعجب

فطرة^(١) ورزقه الفهم والذهن واليقظة والعلم ، وبسط له
المهاد ، وأجرى له الماء والريح ، وأنبت له الزرع ، ورفع
له من فوقه السماء ، فأوقد له مصباح الشمس بالنهار ، وجاء
بالظلمة ليسكن ، الى غير ذلك ، مما لا يحصى . وكله ينطق
بصوت فصيح يدل على خالقه . وقد تجلى الخالق سبحانه بهذه
الأفعال فلا خفاء .

ثم بعث الرسل فقراء من الدنيا ، ضعاف الابدان ، فقهر
بهم الجبابرة ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما لا يدخل
تحت مقدور بشر . وكل ذلك ينطق ، وقد تجلى سبحانه بذلك .

ثم يأتي موسى عليه السلام الى البحر فينفرك فلا يبقى منك
في ان الخالق فعل هذا . ويكلم عيسى عليه السلام الميت فيقوم .
ويبعث طيراً أبابيل تحفظ بيته فيهلك قاصديه . وهذا أمر يطول
ذكره كله . يدل على أن تجلى الخالق سبحانه بغير خفاء . فإذا
ثبت عند العقول ذلك من غير ارتياب ولا شك ، جاءت أشياء
كانها تستر الظاهر على ماسبق من تسليط الاعداء على الاولياء ،
وإذا ثبت التجلي بأدلة لا تحتمل التأويل ، علمت ان لهذا الحفا

(١) من درس علم الفريزة «الفسولوجيا» واطلع على تركيب الجسم ووظائف

اعضائه ازداد بالله ايماناً « وفي انفسكم أفلا تنظرون »

سراً لانه لم يفترض على العقل فيه التسليم للحكيم فمن سلم سلم ،
ومن اعترض هلك .

٢٧٥ - الاجتهاد

قد يدعي أهل مذهب الاجتهاد في طلب الصواب
واكثرم لا يقصد الا الحق . فترى الراهب يتعبد ويتجوع ،
واليهودي يذل ويؤدي الجزية ، وصاحب كل مذهب يبالي فيه
ويحتل الضم والاذى طلباً للهدى ، وتحصيل الاجر ، ومع
هذا فيقطع بضلال الاكثرين . وهذا قد يشكل ، وانما كشفه
أنه ينبغي أن يطلب الهدى بأسبابه ، ويستعمل الاجتهاد بالإبانة ،
فأما من فاتته الاسباب ، أو فقد بعض الآلات فلا يقال له
يحتج . فاليهود والنصارى بين عالم قد عرف صدق نبينا ﷺ ثم
يمسك لرأسته (١) فهذا معاند ، وبين مقلد لا ينظر فهذا مهمل ،
فهو يتعبد مع اهمال الاصل ، وهذا لا ينفع . وبين ناظر
منهم لا ينظر حق النظر ، فيقول : في التوراة أن ديننا
لا ينسخ . وهو على غير ثقة أن هذا غير معقول ولا مدخل
فيها (٢) . ويقول بالنسخ فاك لا ينظر في الفرق ، فينبغي أن
ينظر حق النظر .

ومن هذا الجنس تعبد الحوارج مع اقناعهم بعلوم القاصر ،

وهو قولهم : « لاحكم الا لله » ولم يفهموا أن التحكيم من حكم الله ، فعملوا قتال علي رضي الله عنه وقتله ميئاً على ظنهم الفاسد . ولما نهب مسلم بن عقبة المدينة وقتل الخلق قال : ان دخلت النار بعد هذا اني لشقي .

فظن بجهله انهم لما خالفوا بيعة يزيد يجوز استباحتهم وقتلهم . قالويل لعامي قليل العلم لايتهم نفسه في واقعة ، ولايذاكر من هو أعلم منه ، بل يقطع بظنه ويقدم . وهذا أصل ينبغي تأمله ، فقد هلك في اماله خلق لا يحصى وقد رأينا خلقاً من العوام اذا وقع لهم واقعة لم يقبلوا فتوى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ، .

٢٧٦ - ذخائر البدن والنفس

لنفس ذخائر في البدن منها الدم والمني^(١) وأشباه تتقوى بها ، فاذا فقدت الذخائر ولم يبق منها شيء ذهبت . ومن ذخائرها التقوى بالمال والجاه ، وما يوجب الفرح ، فاذا فقدت ذلك وكانت عزيزة ذات أنفة خرجت ، وقد يهجم عليها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يقاومه فتذهب ، ويقلب عليها الفرح فلا تجد من الحزن مايقاومه فتذهب . فاجتهد في حفظ ذخائرها وخصوصاً الشيخ ، فانه ينبغي له الا يفرط باخراج الدم ،

(١) قيل يعني فاعل ، من « مني » وأصل منها ما سال .

ولا اخراج المني وان وجد شبقاً ، الا ان يكون الشبق زائداً في الحد
فيخرج المؤذي في كل حين . وعلامة أن يكون مؤذياً وجود
الراحة عند خروجه . فمتى وجد ضعفاً فقد آذى خروجه .

وليحفظ ذو الالفه على نفسه حشمته ، بأن لا يقف في
موقف يعاب به ، فانه يستع بدخيرة العز والالفه وبضاد
النفس وجود ضد ذلك . وكذلك ينبغي أن يستعد لآخر
مره بالمال مخافة أن يحتاج فيذل ، أو يسعى وقد كلفت الآلة
ولأن يختلف لعدوه أولى من أن يحتاج الى صديقه . ولا يلتفت
الى من يذم المال ، فانهم الحق الجاهل الذي اتكوا على خبز
الراحة ، فاستطابوا الكسل والدعة ، ولم يأفقوا من تناول
الصدقة ، ولا من التعرض للسؤال . وقد كان لكل نبي معاش
ولجميع الصحابة ، وخلفوا أموالاً كثيرة .

فافهم هذا الاصل ، ولا تلتفت الى كلام الجاهل .

٢٧٧ - زهاد زماننا

رأيت في زهاد زماننا من الكبر وحفظ الناموس ^(١) ورتبة
الجاه في قلوب العامة ما كدت أقطع به على أنهم أهل رياء
وتفاق . فترى أحدهم يلبس الثوب الذي يرى بعين الزهد ،
ويأكل أطيب الطعام ، ويتكبر على أبناء الجنس ، ويصادق

(١) أي المظاهر .

الاغنياء ، ويباعد الفقراء ، ويجب الخطاب بـ (مولانا) والمشي
بجانبه ، ويضع الزمان في الهذيان ، ويتقوت بخدمة الناس له
والتسليم عليه .

ولو انه لبس ثوباً يخلطه بالفقهاء لذهب الجاه ، ولم يبق له
متعلق . ولو أن أفعاله ناسبت ثيابه لمان الامر ، لكنهم بهرجوا
علي من لا يخفى عليه من الخلق ، فكيف الخالق سبحانه وتعالى .

٢٧٨ - على المؤمن تأمين معاشه

كثيراً ما أعيد هذا المعنى الذي أنا ذاكره في هذا الكتاب
بعبارات . ينبغي للمؤمن ان يتشاغل بمعاشه ويرفق في نفقته .
فانه قد كان للعلاء شيء من بيت المال ورفق من الاخوان ،
ومعونة من العوام ، فانقطع الكل ، وبقي المتشاغل بالعلم
أو بالتعبد مسكيناً ، خصوصاً ذو العائلة . وما رأينا
مثل هذا الزمان القبيح ، فما بقي من يوماً إليه بمعونة ولا
باستقراض منه ، فيحتاج الانسان ان يدخل في مداخل لا تليق
به ، وان يتعرض بما لا يصلح . فينبغي تقليل العائلة ، وتقويت
القوت ، وترقيع الخلق ، وان أمكن معاش فهو أولى من
التشاغل بالتعبد والتعلم لفضول العلم . وإلا ضاع الدين في
مداخل لا تصلح . او يتعرض لبذل نذل .

٢٧٩ - الاحتراز والايمان بالقدر

ينبغي للعاقل ان يجتوز غاية ما يمكنه . فاذا جرى القدر مع احترازه لم يلم . والاحتراز من كل شيء يمكن وقوعه ، وأخذ العدة لذلك . وهذا يكون في كل حال . قد قص وجل ظفروه فجار عليه فخبثت يده فمات . ومرو شيخنا أحمد الحربي وهو راكب بمكان ضيق فتطأطأ على السرج فانهصر فؤاده فمض فمات . وكان يحيى بن زرار^(١) شيخاً بحضر مجلسي قد طرق عليه ثقل الاذن فاستدعى طريقاً فقص أذنه فجعى شيء من عذ فمات . وانظر الى احتراز رسول الله ﷺ حين مر على حائط مائل فأمرع .

وينبغي ان يجتوز بالكسب في زمن شبابه ادخاراً لزمن شيبه ، ولا ينبغي أن يتق بمعامل الا بوثيقة ، ويبادر بالوصية مخافة ان يطرقه الموت ، ويجتوز من صديقه فضلاً من عدوه ، ولا يتق بمودة من قد آذاه هو ، فان الحقد في القلوب لا يزول . وليجتوز من زوجته فرماً اطلعها على امر ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به .

(١) في التيمورية : زرار

وقد كان ابن أفلح الشاعر بكاتب رئيساً في زمن المسترشد فلم بذلك بوابه ، واتفق أنه صرف بوابه فتمّ عليه ونقض داره . فهذه المذكورات أمثلة تنبه على ما لم يذكر . وأهم الكل أن يجتزأ بأخذ العدة ، وتحقيق التوبة ، وقبل أن يهجم عليه مالا يؤمن هجومه ^(١) وليحذر من لص الكسل ، فانه محتل على سرقة الزمان .

٢٨٠ - الاكتفاء باليسير من أمور الدنيا

تأملت خصومات الملوك وحرص التجار ، ونفاق المتزهدين فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس . وإذا تفكر العاقل في ذلك علم أن أمر الحسيات قريب يندفع بأقل شيء ، وأن الغاية لا يمكن نيلها ، وان بالغ عاد بالاذى على نفسه اضعاف مائاته من اللذة ، كمن يأكل كثيراً أو ينكح كثيراً .

فالسعيد من اهتم لحفظ دينه ، واخذ من ذلك بمقدار الحاجة . واعجباً ، هذا الملبوس إذا كان وسطاً خدّم ، وإذا كان مرتفعاً خدّم ، فان نظر اللابس اليه معجباً به فان الله لا ينظر اليه حينئذ . وفي الصحيح : بينا رجل يتبختر في بردته خسف به . والمشروب ان كان حراماً فعبابه اضعاف لذته . وهتكه

(١) يريد الموت ، الذي لا بد منه ، ولا يعرف وعده .

العرض بين الناس عقاب آخر ، وإن كان مباحاً فالشره فيه يؤذي البدن .

وأما المنكوح فمدارة المستحسن يؤذي فوق كل أذى ، ومقاساة المستقبح أشد أذى .

فعليك بالتوسط ، وتفكر في أحوال السلاطين ، كم قتلوا ظلماً ، وكم ارتكبوا حراماً ، وما نالوا إلا يسيراً من لذات الحس ، فانقشع غيم العمر عن حشرات الفضائل ، وحصول العقاب ، فليس في الدنيا أطيب عيشاً من منفرد عن العالم بالعلم ، فهو أنيسه وجليسه ، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الخاصة ، لا عن تكلف ولا تضيق دين ، وارثدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها ، والتخف بالقناعة باليسير ، إذا لم يقدر على الكثير فوجده يسلم دينه وديناه . واشغاله بالعلم يبدله على الفضائل ، ويفرجه في البساتين . فهو يسلم من الشيطان والسلطان والموام بالعزلة . ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم ، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتغبط .

٢٨١ - نصائح لطلاب العلم

تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود ، وهو حرصهم على الكتابة ، خصوصاً المحدثين فيستغرق ذلك

زماهم عن ان يحفظوا ويفهموا ، فيذهب العمر وقد عروا عن العلم إلا اليسير . فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفاً في الاعادة والحفظ ، وجعل وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد . والموفق من طلب المهم ، فان العمر يعجز عن تحصيل الكل ، وجمهور العالم يوم الفقه . وفي الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه ، وكأنه ما حصل شيئاً . نعوذ بالله من الخذلان .

٢٨٢ - الاستشارة

ما اعتد أحد أمراً اذا لم بشيء مثل التثبت ، فانه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم . ولهذا أمر بالمشاورة لان الانسان بالتثبت يفكر فتعرض على نفسه بالتفكير الاحوال وكأنه مشاور وقد قيل : خير الرأي خير من فطيره . وأشد الناس تفريطاً من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة ، خصوصاً فيما يوجب الغضب فانه طلب الهلاك أو الندم العظيم . وكم من غضب قتل وضرب ثم لا سكن غضبه بقي طول دهره في الحزن والبكا والندم . والغالب في القاتل أنه يقتل فتفوت الدنيا والآخرة . فكذلك من عرض له شهوة فاستعجل لديها ونسي عاقبتها ، فكمن من

قدم يتجرعه في باقي عمره ، وعقاب يستقبله من بعد موته ، وعقاب لا يؤمن وقوعه .

كل ذلك لسلة لحظة كانت كبرق . فافه الله . التثبت التثبت في كل الامور والنظر في عواقبها . خصوصاً الغضب المثير للخصومة وتعجيل الطلاق .

٢٨٣- من لم يحترز بعقله هلك بعقله

سألني سائل ، قد قال بعض الحكماء : من لم يحترز بعقله هلك بعقله . فما معنى هذا ؟

فبقيت مدة لا ينكشف لي المعنى . ثم اتضح .

وذلك أنه اذا طلبت معرفة ذات الخالق سبحانه من العقل فزرع الى الحس فوق التشبيه ، فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر فيعلم أنه لا يجوز ان يكون جسماً ولا شيئاً لشيء . واذا نظر العاقل الى أفعال الباري سبحانه رأى أشياء لا يقتضها العقل ، مثل الآلام ، والذبح للحيوان ، وتسليط الاعداء على الاولياء مع القدرة على المنع ، والابتلاء بالمجاعة للصالحين ، والمعاقبة على الذنب بعد البعد بزلة ، وأشياء كثيرة من هذا الجنس يعرضها العقل على العادات في تديبره فيرى أنه لاحكمة تظهر له فيها . فالاحتراز من العقل به أن يقال له : أليس قد ثبت عندك

انه مالك وانه حكيم وانه لايفعل شيئاً عبثاً ؟

فيقول بلى .

فيقال : فنحن نحترز من تديورك الثاني بما ثبت عندك في الاول ، فلم يبق إلا أنه خفي عليك وجه الحكمة في فعله ، فيجب التسليم له ، لعلنا أنه حكيم .

حينئذ يدعن ويقول : قد سلمت .

وكثير من الخلق نظروا لمقتضى واقع العقل الاول فاعترضوا . حتى ان العامي يقول : كيف قضى عليّ سوء عاقبتي ، ولم أضيق وزقي ، وماوجه الحكمة في ابتلائي بفنون البلاء ؟

ولو أنه تلمح أنه مالك حكيم لم يبق إلا التسليم لما خفي . ولقد أنس ببديهة العقل خلق من الاكابر أولهم ابليس (١) ، فانه اعتقد تفضيل النار على الطين ، فاعترض . ورأينا خلقاً ممن نسب الى العلم قد زلوا في هذا واعترضوا ورأوا أن كثيراً من الافعال لاحكمة تحتها .

والسبب ما ذكرنا ، وهو الانس بنظر العقل في البدية والعادات ، والقياس على أفعال المخلوقين ، ولو استخرجوا علم العقل الباطن (٢) ، وهو أنه قد ثبت الكمال للمخلوق ، وانتفت

(١) ابليس من الاكابر ؟ (٢) الباطن صفة للم

عنه النقائص وعلم أنه حكيم لا يعبث ، لبقى التسليم لما لا يعقل .
واعتبر هذا بحال الخضر وموسى عليهما السلام فإنه لما فعل الخضر
أشياء تخرج عن العادات ، أنكر موسى ونسي إعلامه له بأني
انظر فيم لا تعلمه من العواقب . فاذا خفيت مصلحة العواقب
على موسى عليه السلام مع مخلوق ، فأولى أن يحقى علينا
كثير من حكمة الحكيم .

وهذا أصل أن لم يثبت عند الانسان اخبرجه الى الاعتراض
والكفر ، وان ثبت استراح عند نزول كل آفة .

٢٨٤ - مناجاة

يا نبي عن بعض الكرماء ان رجلا سأله فقال أنا الذي
أحسن إليك يوم كذا وكذا .
فقال : مرحباً بمن يتوسل إلينا بنا .
ثم قضى حاجته .

فأخذت من ذلك إشارة ففناجيت بها فقلت : أنت الذي
هديتني من زمن الطفولة ، وحفظته من الضلال ، وعصمتني عن
كثير من الذنوب ، وألمتني طلب العلم لأبفهم لشرفه ، لموضع
الصغر ، ولا يحب والده . وورقته فيها لتفقه وتصنيفه ، وهيات
له أسباب جمعه ، ووقت بروزه من غير تعب منه ، ولا ذل

الخلق بالسؤال ، وحاميت عنه الاعداء ، فلم يقصده جبار ،
 وجمعت له مالم يجمع لاكثر الخلق من فنون العلم التي لا تكاد
 تجتمع في شخص ، وأضفت اليها تعلق القلب بمعرفتك ومحبتك ،
 وحسن العبادة ، ولطفها في الدلالة عليك ، ووضعت له في
 القلوب القبول ، حتى أن الخلق 'يقبلون عليه ويقبلون مايقوله ،
 ولا يشكون فيه ، ويشتاقون الى كلامه ، ولا يدركهم الملل
 منه ، وصننه بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح . وآتسته في خلوته
 بالعلم تارة وبمناجاتك أخرى . وان ذهبت أعد لم أقدر على
 احصاء عُسْرِ العُسْرِ . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ،
 فيا محسنا الي قبل أن أطلب لانتخب أملي فيك وأنا أطلب .
 فبانعامك المتقدم أنوسل اليك .

٢٨٥ - قصص عن البخلاء

سبعان من جعل الخلق بين طرفي تقيض والمتوسط منهم
 يندر . منهم من يفضب فيقتل ويضرب . ومنهم من هو إليه
 أو قوي الحلم لا يؤثر عنده السب . ومنهم شره يتناول كلما
 يشتهي . ومنهم متزهّد يتجفف فيمنع النفس حقها . وكذلك
 خائر الاشياء المحمود منها المتوسط فالمنفق كل ما يجد مبذر مخفي
 المال ويمنع نفسه حظها . ومعلوم أن المال لا يراود لنفسه بل

للصالح ، فاذا بذر الانسان فيه احتاج الى بذل وجهه ودينه
ومنة البخله عليه ، وهذا لا يصلح . ولأن يخلف الانسان
لعدوه أحسن من أن يحتاج الى صديقه .

ومن الناس من يبخل . ثم يتفاوتون في البخل حتى ينتهي بالبخله
الامر الى عشق عين المال ، فربما مات أحدهم هز الا ولا ينطقه ، فيأخذه
الغير ويندم الخلف . ولقد بلغني في هذا ما ليس فوقه مزيد ذكره
لتعتبر به . فحدثني شيخنا أبو الفضل بن ناصر عن شيخه
عبد المحسن الصوري ، قال :

كان بصور تاجر في غرفة له يأخذ كل ليلة من البقال
ورغيفين وجوزة فيدخل الى غرفته وقت المغرب فيضرم النار
في الجوزة فتضيء بمقدار ما يترع ثوبه ، وفي زمان احراق القشر
قد استوت فيمسح بها الرغيفين ويأكلهما ، فبقي على هذا مدة
فمات ، فآخذ منه ملك صور ثلاثين ألفاً .

ورأيت أن رجلا من كبار العلماء قد مرض فاستلقى عند
بعض اصدقائه ليس له من يخدمه ولا يرافقه وهو مضر ، فلما
مات وجدوا بين كتبه خمسة دينار .

وحدثني أبو الحسن الراندي قال : مرض رجل عنده
فبعث الى فحضرت فقال ، قد ختم القاضي على مالي فقلت ،
ان شئت فمت وفتحت الحتم وأعطيتك الثلث تفرقه وتعمل به ما تشاء .

فقال : لا والله ما أريد أن أفرقه ، بلى أريد مالي يكون
عندي . فقلت : ما يعطونك . بلى أنا آخذ لك الثلث .
فقلت : لا أريد .

فأت وأخذ ماله . قال : وجاء رجل فحدثني بمعية (قال)
مرضت حماتي فقالت لي . أريد أن تشتري لي خيصة
فاشتريت لها ، وكانت ملقاة في صفة ونحن في صفة أخرى فجاءني
ولدي الصغير وقال :

باسيدي ، أنا تبيع الذهب .

فقلت وإذا بها تجعل الدينار في شيء من الحبيص فتبلعه ،
فامسكت يدها وزجرتها عن هذا فقالت : أنا أخاف أن
تتزوج على بنني .

فقلت : ما أفعل .

فقالت : احلف لي فعلفت ، فاعطتني باقي الذهب ثم ماتت
فدفنتها ، فلما كان بعد أشهر مات لنا طفل فحملناه إليها ،
وأخذت معي خرقه خام وقلت للحفار اجمع لي عظام تلك العجوز
في الخرقه ، فبحث بها إلى البيت وتركها في اجانة وصبت
عليها الماء وحركتها ، فاخرجت ثمانين ديناراً أو نحوها كانت
قد ابتلعها . وحكى لي صديق لنا ، أن رجلاً مات ودفن
في الدار ، ثم نبش بعد مدة ليخرج فوجد تحت رأسه لينة

مقبرة^(١) فستل أهلها فقالوا : هو قبر هذه البنت وأوصى
أن تترك تحت رأسه في قبره وقال : ان ابن يبلى سريعاً
وهذه لموضع القار لاتبلى . فاخذوها فوجدوها وزينة^(٢)
فكبروها فوجدوا فيها تسعة دينار فتولاها أصحاب التركات
وبلغني أن رجلاً كان يكنس المساجد ويجمع تراها ثم ضربه
لبنا فقبل له : هذا لأي شيء ؟

فقال : هذا تراب مبارك ، وأريد أن يجعلوه على لحدي .
فلما مات جعل على لحده ، ففضل منه لبنات ، فرموا
في البيت ، فجاء المطر فتسخت اللبنات فاذا فيها دنائير ،
فضوا وكشفوا اللبن عن لحده وكله ملوء دنائير .

ولقد مات بعض اصدقائنا وكنت أعلم له مالا كثيراً ،
وطال مرضه فما أطلع أهله على شيء ولا أكاد أشك أنه من
شعه وحرره على الحياة ورجائه أن يبقى لم يعلمهم بمدفونه
خوفاً أن يؤخذ فيجبا هو وقد أخذ المال .

وما يكون بعد هذا الحزني شيء .

وحدثني بعض أصحابنا عن حالة شاهدها من هذا الفن . قال :

(١) مدفونة بالقار وهو الطمران « مزقة »

(٢) أي ثلج

كان فلان له ولدان ذكران وبنت وله ألف دينار مدفونة
فمرض مرضاً شديداً فاحتوشته أهله ، فقال لأحد ابنيه :
لا تبرح من عندي .

فلما خلا به قال له :

إن أخاك مشغول باللعب بالطيور ، وإن اختك لها زوج
تركي ، ومتى وصل من مالي اليها شيء انتقوه في اللعب ،
وأنت على سيرتي وأخلاقي ، ولي في الموضع الفلاني ألف دينار ،
فاذا أتت فخذها وحدك .

فاشتمد بالرجل الممرض فمضى الولد فاخذ المال فعوفي الاب ،
فجعل يسأل الولد ان يرد المال إليه فلا يفعل . فرض الولد
واشفي (١) فجعل الاب يتضرع اليه ويقول :

ويحك خصصتك بالمال دونهم فتموت فيذهب المال ، ويحك
لا تفعل ، فما زال به حتى أخبره بمكانه ، فأخذه .

ثم عوفي الولد ومضت مدة فرض الاب ، فاجتهد الولد
أن يخبره بمكان المال وبالع فلم يخبره ومات وخاع المال .
فسبحان من أعدم هؤلاء العقول والفهوم . مات ثم لا
كالانعام بل هم أضل سبيلا .

٢٨٦- الفرق بين المعارف والاصدقاء

كان لنا اصدقاء واخوان اعتد بهم . فرأيت منهم من الجفاء وترك شروط الصداقة والاخوة عجائب فاخذت اعتب ، ثم اتقيت لنفسي فقلت :

وما ينفع العتاب ، فانهم إن صلحوا فللعتاب لا لالصفا فهمت بمقاطعتهم ، ثم تفكرت فرأيت الناس بين معارف واصدقاء في الظاهر واخوة مباشرين ، فقلت : لاتصلح مقاطعتهم ، انما ينبغي أن ننقلهم من ديوان الاخوة الى ديوان الصداقة الظاهرة ، فان لم يصلحوا لما نقلتهم الى جملة المعارف ، وعاملتهم معاملة المعارف ، ومن الغلط ان تعاتبهم ، فقد قال يحيى بن معاذ: بئس الاخ اخ تحتاج ان تقول له اذكرني في دعائك .

وجهور الناس اليوم معارف ويندر فيهم صديق في الظاهر أما الاخوة والمصافة فذاك شيء نسخ فلا يطمع فيه . وما أرى الانسان يصفو له أخوة من النسب ولا ولده ولا زوجته ، فدع الطمع في الصفا ، وخذ عن الكل جانباً ، وعاملهم معاملة الغرباء .

وياك ان تتخضع بمن يظهر لك الود ، فانه مع الزمان

يبين لك الحال فيما اظهره وربما اظهر لك ذلك لسبب يناله منك ، وقد قال الفضيل بن عياض :

وإذا أردت أن تصادق صديقاً فأغضبه فإن رأيت كما ينبغي فصادقه . وهذا اليوم مخاطرة ، لأنك إذا أغضبت أحداً صار عدواً في الحال . والسبب في نسخ حكم الصفا ، ان السلف كانت مهمتهم الآخرة وحدها فصفت نياتهم في الآخرة والمخالطة فكانت ديناً لادنيا . والآن فقد استولى حب الدنيا على القلوب ، فإن رأيت متعلقاً في باب الدين فاخبر ثقله ^(١) .

٢٨٧ - المتزوج الذي يتعلق بامرأة أخرى

رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا في المرض . كما لا يعرف شكر الاطلاق إلا في الحبس . وتأملت على الآدمي حالة عجيبة . وهو أن يكون معه امرأة لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بحببتها تعلقاً يلتذ به ، ولذلك سبيان . أحدهما أن تكون غير غاية في الحسن .

والثاني أن كل مملوك مكروه ، والنفس تطلب ما لا تقدر عليه ، فتراه يضح ويستهني شيئاً يحبه أو امرأة يعشقها ، ولا

(١) أي اختبره بنفسه ، من القلى الذي هو البفض . وهو مثل من امثال العرب

يدري انه انما يطلب قيئداً وثيقاً يمنع القلب من التصرف
في أمور الآخرة ، أوفي علم أو عمل ، ويحبطه في تصرف
الدنيا ، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق ، همه كله معه
فالعجب لمطلق يؤثر القيد . ومستوبح يؤثر التعب .

فان كانت تلك المرأة تحتاج ان تحفظ ^(١) فالويل له لافراد
له ولاسكون .

وان كانت من المتبرجات اللواتي لايؤمنن فسادهن فذاك
هلاكه بكرة ، فلاهو ان قام بتلذذ بنومة ، ولا ان خرج من
الدار يأمن من محنة .

وان كانت تريد نفقة واسعة وليس له ، فكم يدخل مدخل
سوء لاجلها .

وان كانت تؤثر الجماع وقد علت سنه فذاك الهلاك العظيم .
وان كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية فيكون
هذا ساعياً في تلف نفسه كما قال القائل :

نحب القدود ونهوى الحدود ونعلم اننا نحب المنو
وهذا على الحقيقة كعابد صنم . فليترك الله من عنده امرأة
لابأس بها وليعرض عن حديث النفس ومناها فماله منتهى .

(١) اي ان ترافق ونحرس

ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب ثالثه ، ثم يقع الملل ويطلب رابعة ، وما لهذا آخر . انما يفيد بالعاجل تعلق قلبه وأسر له ، فيبقى كالمهوت ، فكره كله في تحصيل ما يريد محبوبه ، فان جرت فرقة أو آفة فتلك الحشرات الدائمة ان بقي او التفت عاجلا . وأين المستحسن المصون الدين ، القنوع ، المحب لمن يحبه ؟ هذا أقل من الكبريت الاحمر . فلينظر في تحصيل ما يجمع معظم المهم . ولا يلتفت الى سوائه الهوى وغاية المني ، وقد سلم .

٢٨٨ - التقرب إلى الله تعالى

اذا تم علم الانسان لم يرى لنفسه عملا وانما يرى لانعام الموفق لذلك العمل الذي يمنح العاقل ان يرى لنفسه عملا أو يعجب به ، وذلك بأشياء .

منها انه وفق لذلك العمل «وحب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم» ومنها أنه اذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عشرينها . ومنها أنه اذا لوحظت عظمة التهدوم احتقر كل عمل وتعب . هذا اذا سلم من شائبة ، وخلص من غفلة . أما والغفلات تحيط به فينبغي أن يغلب الحذر من رده ، ويخاف العتاب على التصير فيه ، فيشتغل عن النظر اليه ؛ وتأمل على الفطناء احوالهم في ذلك ،

طاللائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون قالوا : ما عبدناك
حق عبادتك . والحليل عليه السلام يقول : والذي اطمع أن
يغفر لي ، وما أدل ^(١) بنصّره على النار وتسليمه الولد الى الذبح .
ورسول الله ﷺ يقول : ما منكم من ينجي عمله .
قالوا : ولا أنت .

قال : ولا أنا الا أن يتغديني الله برحمته .
وأبو بكر رضي الله تعالى عنه يقول : وهل أنا ومالي إلا
لك يا رسول الله . وعمر رضي الله عنه يقول : لو أن لي طلاع
الارض ^(٢) لا فتديت بها من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبز .
وابن مسعود يقول : ليتني اذا امت لأبعث . وعائشة رضي الله
عنها تقول : ليتني كنت نسياً منسياً .

وهذا شأن جميع العقلاء فرضي الله عن الجميع .
وقد روي عن قوم من صلحاء بني اسرائيل ما يدل على قوة
الافهام لما شرحته لأنهم نظروا الى أعمالهم فأدلوها بها . فمنه
حديث العابد الذي تعبد خمسمئة سنة في جزيرة وأخرج له كل
ليلة رمانة ، وسأل الله تعالى أن يميت في سجوده . فاذا حشر
قيل له ادخل الجنة برحمتي قال : بل بعلي : فيوزن جميع عمله
بنعمة واحدة فلا يفي ، فيقول : يارب برحمتك .

وكذلك اهل الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة فان اعدم
توصل بعمل كان ينبغي أن يستحي من ذكره ، وهو أنه عزم
الزنا ثم خاف العقوبة فتركه . فليت شعري بماذا يدل من خاف
أن يعاقب على شيء فتركه لحوف العقوبة ، انما لو كان مباحاً
فتركه كان فيه مافيه ، ولو فهم لشغله خجل المسة عن الادلال ،
كما قال يوسف عليه السلام : وما أبرئ نفسي . والآخر ترك
حياته يتضاغون الى الفجر ليسقي ابويه اللبن ، وفي هذا البر
أذى للأطفال (١) ، ولكن الفهم عزيز . وكأنهم لما أحسنوا قال
لسان الحال : أعطوهم ما طلبوا ، فانهم يطلبون أجرة ما عملوا .
ولولا عزة الفهم ما تكبر متكبر على جنسه ولكان كل
كامل خائفاً محترماً لعله حذراً من التصير في شكر ما انعم
عليه . وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبير ، ويوجب
مساكنة الذل . فتأمله فانه اصل عظيم .

٢٨٩ - لا تسكن إلى توبتك ولو قبلت

ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وان تاب منها

(١) مقتضى الحديث فيه مدح لهم على ما فعلوا - وفيه جواز توصل المرء بمسألة الصالح ،
ومن جاء الحديث بمدحه ليس لنا ان نلزمه بآرائنا ، وكيف يقبل ما يقول المؤلف ،
وحديث السبعة الذين يظلمهم الله بظل العرش معروف ، ومن هؤلاء السبعة ذاك
الذي دغته امرأة حتى قعد منها .. ثم ذكر العقوبة فقام عنها !

وبكى عليها . واني رأيت اكثر الناس قد سكنوا الى قبول التوبة ، وكانهم قد قطعوا على ذلك ، وهذا أمر غائب . ثم لو غفرت بقي الحجل من فعلها . ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصباح : أن الناس يأتون الى آدم عليه السلام فيقولون : استغ لنا فيقول : ذنبي . والى نوح عليه السلام فيقول : ذنبي . والى ابراهيم . والى موسى . والى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم فهؤلاء اذا اعتبرت ذنوبهم لم تكن اكثرها ذنوبا حقيقة . ثم ان كانت فقد تابوا منها واعتذروا وهم بعد على خوف منها . ثم ان الحجل بعد قبول التوبة لا يرتفع . وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : واسوأناه منك وان عفوت . فافـ والله تختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لا تزول عن قلب المؤمن وان غفر له ^(١) .

فالخذر الخذر من كل ما يوجب خجلا . وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد ، لانه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة ، وما ذكرته يوجب دوام الخذر والحجل .

٢٩٠ - تفسير حديث

نعوذ بالله من سوء الفهم وخصوصاً من المتسبين بالعلم .

(١) التائب من الذنب كمن لا ذنب له - بل ربما كانت التوبة في ذاتها حسنة من أكبر الحسنات . والوقوف عند التصوص اول من تحكيم الرأي .

روى أحمد في مسنده أنه تنازع أبو عبد الرحمن السلمي^(١)
وحبان بن عبد الله . فقال أبو عبد الرحمن لحبان :
قد علمت ما الذي حدا صاحبك (يعني علياً)

قال : ما هو ؟

قال : قول النبي ﷺ : لعل الله اطلع الى أهل بدر
فقال ، اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وهذا سوء فهم من أبي عبد الرحمن حين ظن أن علياً
قاتل وقتل اعتماداً على أنه قد غفر له . وينبغي أن يعلم إنما
معناه (لتكن أعمالكم المتقدمة ما كانت فقد غفرت لكم) .
فاما غفران ما سيأتي فلا يتضمنه ذلك . أتراه لو وقع من
أهل بدر (وحاشاهم) الشرك اذ ليسوا بمعصومين ، أما كانوا
يؤاخذون به ؟ فكذلك المعاصي .

ثم لو قلنا : أنه يتضمن غفران ما سيأتي ، فالعنى أن
مآلكم الى الغفران .

ثم دعنا من معنى الحديث ، كيف يحمل لمسلم أن يظن في
أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه فعل مالا يجوز اعتماداً على
أنه سيغفر له ؟

(١) هو عبد الله بن حبيب كان احتاذ عصره في قراءة القرآن تولى حنة هـ

حوشي من هذا . وانما قاتل بالدليل المضطر له الى القتال
فكان على الحق . ولا يختلف العلماء أن علياً رضي الله عنه
لم يقاتل احداً الا والحق مع علي (١) . كيف وقد قال رسول
الله ﷺ : اللهم ادر معه الحق كيفما دار .
فقد غلط أبو عبد الرحمن غلطاً قبيحاً ، حملة عليه أنه
كان عثمانياً .

٢٩١- زهاد مراؤوت

تاملت على متزهدي زماننا اشياء تدل على النفاق والرياء
وهم يدعون الاخلاص . منها أنهم يلزمون زاوية فلا يزورون صديقا،
ولا يعودون مريضاً ، ويدعون أنهم يريدون الانقطاع عن الناس
اشتغالا بالعبادة . وانما هي اقامة نواميس (٢) ليسار اليهم بالانقطاع .
اذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتهم . وما كان الناس كذلك .
كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويشقوي الحاجة من
السوق . وابوبكر رضي الله عنه يتجر في البر (٣) . وابو عبيدة

(١) افكان الباطل اذن مع عائشة ؟ مالنا ولهذا الكلام ؟ ليس أسلم لنا إلا -

نحوض فيه ؟ على ان الحقيقة انه لم يكن احد من الطرفين ينوي القتال - وقد باء
على ود و سلام - وما أثار القتال إلا المجرمون الذين قتلوا عثمان .

(٢) أي الحرم على المظاهر .

(٣) الصحيح انه كان يتجر بالبر أي القماش .

ابن الجراح يحفر القبور ، وابو طلحة ايضا . وابن سيرين يغسل الموتى (١) وما كان عند القوم اقامة ناموس . واصحابنا يلزمون الصمت بين الناس والتخشع والتأوت ، وهذا هو النفاق . فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار وبين الناس ويبكي بالليل ، وقد رأيت من المتزهدين من يلزم المسجد ويصلي فيجتمع الناس فيصلون بصلاته ليلا ونهاراً ، وقد شرع هذا له فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة .

والنبي ﷺ قال في صلاه التطوع : اجعلوا هذه في البيوت ، وفي اصحابنا من يظهر الصوم الدائم ، ويتقوت بقول الناس : فلان مايفطر اصلا .

وهذا الابله مايدري أنه لايجل الناس بفعل ذلك ، ولولا هذا كان يفطر والناس يرونه يومين أو ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسم ثم يعود الى الصوم ، وقد كان ابراهيم بن آدم اذا مرض يتوك عنه من الطعام ماياكله الاصحاء . ورأيت في زهادنا من يصلي الفجر يوم الجمعة بالناس ويقرأ المعوذتين والمعوذ قد ختمت ، فان هذه الاعمال هي صريحة في النفاق والرياء . وفيهم من يأخذ الصدقات وهو غني ، ولايبالي أخذ من

الظلمة أو من أهل الخير ، ويمشي الى الامراء يسألهم ، وهو يدري من أين حصلت اموالهم^(١) .

فأله الله في اصلاح النيات فان جمهور هذه الاعمال مردودة . قال مالك بن دينار :

وقولوا لمن لم يكن صادقاً لا يتعنى . وليعلم المرائي ان الذي يقصده يفوته ، وهو التفات القلوب اليه ، فانه متى لم يخلص حرم محبته في القلوب ، ولم يلتفت اليه . واخلص محبوب . فلو علم المرائي ان قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه لما فعل .

وكم من قد رأينا من يلبس الصوف ، ويظهر النسك ، لا يلتفت اليه . وآخر يلبس جيد الثياب ويتبسم والقلوب تحبه . نسأل الله عز وجل اخلاصاً مخلصنا ، ونستعبد به من رياء يبطل اعمالنا انه قادر .

٢٩٢ - الحكمة في عدم إجابة الدعاء

من الجبل أن يخفى على الانسان مراد التكليف فانه موضوع على عكس الاغراض ، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الاغراض ، فان دعا وسأل بلوغ غرض تعبد بالدعاء ، فأن أعطى مراده شكر ، وان لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلج في الطلب ، لان الدنيا ليست لبـلـوغ الاغراض ، وليقل لنفسه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ومن اعظم الجبل

(١) اي يدري بكونها حصلت من حرام .

أن يتنفس في باطنه لانعكاس اغراضه ، وربما اعترض في الباطن ،
وربما قال : حصول غرضي لا يضر ، ودعائي لم يستجب .

وهذا كله دلائل على جهله ، وقلة ايمانه ، وعدم تسليبه للحكمة .
وَمَنْ الذي حصل له غرض ثم لم يكدر ؟ هذا آدم طاب عيشه
في الجنة واخرج منها ، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده ،
والخليل ابتلي بالنار ، واسحاق بالذبح ^(١) ، ويعقوب بفقد الولد ،
ويوسف بمجاهدة الهوى ، وأيوب بالبلاء ، وداود وسليمان بالفتنة .
وجميع الانبياء على هذا . ومالقي نبينا محمد ﷺ من الجوع
والأذى وكدر العيش فعلوم .

فالدنيا وضعت للبلاء فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على
الصبر ، وإن يعلم أن ما حصل من المراد فلفظ ، وما لم يحصل
فعلى أصل الخلق والجلبة للدنيا كما قيل :

طبع على كدر وأنت تريد ما صفوا من الاقضاء والاكدار ^(٢)
ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة ناز
وهاهنا يتبين قوة الايمان وضعفه . فليستعمل المؤمن من
أدوية هذا المرض التسليم للمالك ، والتحكيم لحكمته ، وليقل :

(٢) لتهامني وأول القصيدة :

ما هذه الدنيا بدار قرار

(١) اذبيح هو اسماعيل لا اسحاق

حكم النية في البرية جاري

وهي من اجود مراتي العرب

قد قيل لسيد الكل " ليس لك من الامر شيء " ثم ليس نفسه بان المنع ليس عن بخل ، وانما هو لمصلحة لا يعلمها ، وليؤجر الصابر عن أغراضه ، وليعلم الله الذين سلموا ورضوا ، وان زمن الابتلاء مقدار يسير ، والاغراض مدخرة تلقى بعد قليل ، وكأنه بالظلمة قد انجلت ، وبفجر الاجر قد طلع .

ومتى ارتقى فهمه الى أن ماجرى مراد الحق سبحانه ، اقتضى ايمانه ان يريد ما يريد ، ويرضى بما يقدر ، اذ لو لم يكن كذلك كان خارجاً عن حقيقة العبودية في المعنى . وهذا أصل ينبغي أن يتأمل ويعمل عليه في كل غرض انعكس .

٢٩٣- مخالطة العلماء للسلطين وضررها

رأيت خلقاً من العلماء والقصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون الى مخالطة السلطين لينالوا من أموالهم ، وهم يعلمون ان السلطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها ، ولا يخرجونها في حقها . فان اكثروا اذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف الى المصالح وهبه لشاعر ، وربما كان معه جندي يصلح أن تكون مشاهيرته عشرة دنانير فاعطاء عشرة آلاف ، وربما غزا فآخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه ، هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات .

وأول ما يجري على ذاك العالم انه قد حرم النفع بعلمه .
وقد رأى بعض الصالحين رجلاً عالماً يخرج من دار يحيى بن
خالد البرمكي فقال : أحمّد بالله من علم لا ينفع ، ألم ير
المنكرات ولا ينكر ؟ ويتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصل
الا بظلم فينطمس قلبه ، ويجرم لذة المعاملة للحق سبحانه ،
ولا يقدر له أن يهتدي به أحد ؟ بل ربما كان فعله هذا سبباً لإضلال
الناس في الاقتداء به ، فهو يؤذي نفسه ويؤذي أميره ، لانه يقول
لولا انني على صواب ما صحتني هذا وما انكر علي . ويؤذي العوام
تارة بأن يروا أن ما في الأمير صواب وأن الدخول والسكوت
عن الانكار جائز . وبحسب العلم الدنيا . ولاخير والله في
سعه من الدنيا ضيقت طريق الآخرة .

وأنا أفندي أقواماً صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات
زمان العمر حتى رورا يوم الموت من شراب الرضى ، وبقيت
أذكّارهم تروى فتروى صدى القلوب وتجملوا صداها .

هذا الامام أحمد يحتاج ليخرج الى اللقاط ^(١) ولا يقبل مال
سلطان ، وهذا ابراهيم الحربي ^(٢) يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم ^(٣)

(١) أي للسبل في الحقول يوم الحصاد

(٢) المحدث الزاهد النقيب الملم كان من اصحاب احمد توفي سنة ٢٨٥

(٣) الصحيح انه ردّها على المعتصم . وابن المعتضد من المعتصم ؟

الف دينار . هذا بشر الحافي يشكو الجوع فيقال له : يصنع لك حساءً من دقيق فيقول : اخاف أن يقول لي هذا الدقيق من أين لك^(١) ؟

بقيت رافقه أذكّر القوم ، وما كان الصبر الا غفوة نوم ، ومضت لذات المرخصين وبليت الابدان ، ووهن الدين فالصبر الصبر يامن وفق . ولا تغبطن من اتسع له أمر الدنيا ، فانك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقاً في باب الدين . ولا ترخص لنفسك في تأويل ، فعرك في الدنيا قليل : وسواء اذا انقضى يوم كسرى في سرور ويوم صابر كسرة ومتى ضجت النفس لقلّة الصبر فانل عليها اخبار الزهاد ، فانها ترعوى وتستحي وتتكسر ان كانت لها همة او فيها نقطة ومثل لها بين ترخص علي بن المديني وقبوله مال ابن أبي هرواد ، وصبر احمد . وكم بين الرجلين والذكرين . وانظر ما يروى عن كل واحد منها وما يذكّران به وسيندم ابن المديني اذا قال احمد سلم ديني^(٢) .

٢٩٤ - أكثر الناس على غير الجادة

تأملت أحوال الناس فرأيت جمهورهم منسلا من رتبة

(١) مر من كلام المؤلف ما يشكر فيه علي من يصنع مثل هذا

(٢) من جاءه شيء من هذا المال بلا طلب ولا استئذاف نفس فلْيأخذه .

هذا ما جاءت به السنة

العبودية ، فان تعبدوا فعادة او فيما لا ينافي أغراضهم منافاة
لؤذي القلوب . فاکثر السلاطين يحصلون الاموال من وجوه
ردية وينفقونها في وجوه لاتصلح ، وكأنهم قد غلبوها وليست
مال الله . اذا غزا احدهم فغنم الاموال اصطفاها لنفسه ،
واعطاها اصحابه كيف اشتهى . والعلماء لقوة فقرهم وشدة
شرهم ، يوافقون الامراء وينغشطون في سلوكهم . والتجار
على العقود الفاسدة . والعوام في المعاصي والاممال جانب
الشريعة . فان فات بعض أغراضهم فرما قالوا: ما نريد نصلي
لاصلى الله عليهم .

وقد منعوا الزكاة وتركوا الامر بالمعروف . فمن الناس
من يفره تأخير العقوبة . ومنهم من كان يقطع بالعمى واكثرهم
هزول الايمان . فنسأل الله أن يمتننا مسلمين .

٢٩٥ - العالم الفقير بين اللثام

من المعجيب سلامة دين ذي العيال اذا خاق به الكسب .
فما مثله الا كمثل الماء اذا ضرب في وجهه سكر^(١) فانه يعدل باطنه
ويبالغ حتى يفتح فتحة . فكذلك صاحب العيال اذا خاق به
الامر لا يزال يجتال ، فاذا لم يقدر على الحلال ترخص في تناول
الشهات ، فان ضعف دينه مد يد به الى الحرام . فالمرء اذا

(١) السكر : سدء المام . والكلمة مستعملة في اللثام الى اليوم .

علم ضعفه عن الكسب اجتهد في التعفف عن النكاح ، وتقليل
الثقة اذا حصل الاولاد ، والقناعة باليسير . فاما من ليس له
كسب كالعلماء والمتزهدين ، فسلامتهم طريقة ^(١) ، إذ قد انقطعت
مواد السلاطين ومراعاة العوام ، فاذا كثرت عائلتهم لم يؤمن
عليهم شر مما يجري على الجبال . فمن قدر منهم على كسب بالنسخ
وغيره فليجتهد فيه مع تقليل الثقة والقناعة باليسير ، فان من
ترخص منهم اليوم أكل الحرام ، لانه يأخذ من الظلمة خصوصاً
إن اخذ بحجة التمس والتزهد . ومن كان له منهم مال
فليجتهد في تنميته وحفظه ، فما بقي من يؤثر ولا من يقرض .
وقد صار الجمهور يل الكل ^(٢) كأنهم يعبدون المال ، فمن حفظه
حفظ دينه . ولا يلتفت الى قول الجبهة الذين يأمررون باخراج
المال ، فما هذا وقته .

واعلم أنه إذا لم يجتمع المسم ، لم يحصل العلم ولا العمل
ولا التشاغل بالفكر في عظمة الله وقد كان هم القدماء يجتمع بأشياء
جهودها ^(٣) انه كان لهم من بيت المال نصيب في كل عام ،
وكان يصلهم فيفضل عنهم ، وفيهم من كان له مال يتجر به

(١) اي عجيبة

(٢) تقدم ان « غير » لا يدخلها « ال » التعريف ابدأ ، وان « كل »

و « بعض » ملحقان بها في ذلك عند بعض أهل الله

(٣) اي معظمها : معظم هذه الاشياء

كسعيد بن المسيب وسفيان وابن المبارك وكان همه مجتمعاً ، فقال
سفيان : لولاك لهدلوني^(١) وفقدت بضاعة لابن المبارك فبكى ،
وقال : هو قوام ديني .

وكان جماعة يسكنون إلى عطاء الاخوان الذين لا يمتنون .
وكان ابن المبارك يبعث الى الفضيل وغيره . وكان الليث بن
سعد يتفقد الاكابر ، فبعث الى مالك الف دينار ، وإلى ابن
لهيعة^(٢) الف دينار ، وأعطى منصور بن عمار الف دينار وجارية
بثلاثمئة دينار .

وما زال الزمان على هذا إلى أن آل الامر على انمحاق
ذلك ، فقلت عطابا السلاطين ، وقل من يؤثر من الاخوان ،
إلا أنه كان في ذلك التقليل ما يدفع الزمان . فاما زماننا هذا
فقد انقبضت الايدي كلها ، حتى قل من يخرج الزكاة الواجبة ،
فكيف يجتمع هم من يريد من العلماء والزهاد أن يعمل همه
ليلاً ونهاراً في وجوه الكسب وليس من شأنه ولا يبتدى له .
فقد رأينا الامر احوج إلى التعرض للسلاطين والترخص في أخذ
مالا يصلح ، وأخرج المتزهدين إلى التصنع لتعصيل الدنيا .

(١) كذا وهو تحريف وصواب قوله « لتندلوا لي » وقد تقدم شرحه

(٢) كان الليث وابن لهيعة عدوي مصر وقيسها انظر الكلام عن الليث في

كتابي « رجال من التاريخ »

فإن الله يأمن بربده حفظ دينه ، قد كرت عليك الوصية بالتقليل
 جهدك ، وخفف العلائق منها أمكنك ، واحتفظ بدمك يكون
 معك فإنه دينك . وإنهم ما قد شرحته ، فإن ضجت النفس
 لمراءاتها فقل لها : إن كان عندك إيمان فاصبري ، وإن أردت
 التحصيل لما يفني ببذل الدين فما نفعا . فتفكري في العلماء
 الذين جمعوا من غير وجه وفي المتسعين ^(١) الذين ذهب دينهم ،
 وزالت دنياهم . وتفكري في العلماء الصادقين كأحمد وبشر ،
 اندفعت الأيام وبقي لهم حسن الذكر . وفي الجملة « من يتق
 الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ورزق الله
 طرة بإيعاد ^(٢) الصبر على البلاء والأيام تتدفع ، وعاقبة الصبر
 الجليل جمة .

٢٩٦ - كيف تعامل زوجة لاتبها

شكا رجل من بغضه لزوجته وقال : ما أقدر على فراقها
 لأمر منها كثرة دينها علي وصبري قليل ، ولا أكاد أسلم من
 فلتات لسانها في الشكوى ، وفي كلمات تعلم بغضها لها .
 فقلت له : هذا لا ينفع وإنما تؤذي السيوت من أوبائها ،

(١) أي اللبسين - المدجلين - الذين يأكلون الدنيا بالدين وما أكثرهم .

(٢) كذا

فينبغي أن تخلو بنفسك فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك
فتبالغ في الاعتذار والتوبة ، فأما التضجر والاذى لها فما ينفع
كما قال الحسن بن الحجاج : عقوبة من الله لكم فلا تقابلوا
عقوبته بالسيف وقابلوها بالاستغفار .

واعلم أنك في مقام مبتلى ولك اجر بالصبر ، وعسى ان
تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، فعامل الله سبحانه بالصبر على
ما قضى واسأله الفرج .

فاذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر
على القضاء وسؤال الفرج ، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تنال
على كل منها . ولا تضع الزمان بشيء لا ينفع ، ولا تحتل^(١) ظناً
منك أنك تدفع ما قدر : « وان يمك الله بضر فلا كاشف
له إلا هو » .

وقد روينا ان جندياً نزل يوماً في دار ابي يزيد^(٢) ، فجاء
ابو يزيد فرآه فوقف وقال لبعض أصحابه : ادخل الى المكان
الفلاني فاقطع الطين الطري فانه من وجهه فيه شبهة فقلعه ،
فخرج الجندي .

وأما أذاك للمرأة فلا وجه له لأنها مسلطة فليكن مثلك

(١) لا بل يحتال ان يتخذ الوسائل كلها ، ثم يرضى بما يكون ، اعطها وتوكل

(٢) اي البطامي

بغير هذا . وقد روي عن بعض السلف ان رجلا شبه فوضع خده
على الارض وقال اللهم اغفر لي الذنب الذي سلطت هذا به علي^(١) .
قال الرجل : وهذه المرأة تحبني زائداً في الحد ، وتبالغ
في خدمتي ، غير أن البغض لها مركوز في طبعي .

قلت له : فعامل الله سبحانه بالصبر عليها فانك تثاب . وقد
قيل لابي عثمان النيسابوري : ما ارجى عليك عندك ؟

قال : كنت في صبوتي يجتهد أهلي أن اتزوج فأبى فجاءتني
امراة فقالت : يا أبا عثمان اني قد هويتك ، وأنا أسألك بالله
ان تتزوجني .

فأحضرت أباهما وكان فقيراً فزوجني وفرح بذلك . فلما
دخلت إلى رأيتهما عوراء عرجاء مشوهة ، وكانت المحبة علي
تمنعني من الخروج فأقعد حفظاً لقلبها ولا أظهر لها من البغض
شيئاً ، وكأني على جمر الغضا من بغضها .

فبقيت هكذا خمس عشرة سنة حتى ماتت فما من علي
هو أرجى عندي من حفظي قلبها .

قلت له : فهذا عمل الرجال . وأي شيء ينفع ضجيع

(١) هذا من ادب النصرانية ، من ضربك على خدك ... أما في الاسلام فإما
ان ترد العبدان بيمينه وإما ان تعرض وتنفو ، أما هذا الفعل فاقراءمته لأحد
من الصدر الاول .

المبتلى بالتضجر باظهار البغض ؟ وإنما طريقه ما ذكرته لك من
التوبة والصبر وسؤال الفرج . وتذكر ذنباً كانت هذه عقوبتها
فلأن وقع فرج في الحساب ، وإلا فاستعمال الصبر على القضاء
عبادة ، وتكلف اظهار المودة لها وإن لم يكن في قلبك تثبت
على هذا ، وليس للقيد ذنب فيلام ، إنما ينبغي التشتاغل مع
من قيده والسلام .

٢٩٧- على المؤمن أن يجمع همه ويعتزل الناس

لا ريب أن القلب المؤمن بالإله سبحانه وبأوامره محتاج الى
الانكاف على ذكره وطاعته ، وامتنال أوامره ، وهذا يقتدر
الى جمع الهم ، وكفى بما وضع في الطبع من المنازعة الى
الشهوات مشتتاً لهم المجتمع . فينبغي للانسان أن يجتهد في جمع
همه لينفرد همه بذكر الله سبحانه وتعالى وأوامره والتهوؤ
لقائه . وذلك إنما يحصل بقطع القواطع والامتناع عن الشواغل .
وما يمكن قطع القواطع جملة ، فينبغي ان يقطع ما يمكن .
وما رأيت مشتتاً لهم مبدداً للقلب مثل شينين : أحدهما
ان تطاع النفس في طلب كل شيء تشتهيه وذلك لا يوقف على
حد فيه ، فيذهب الدين والدنيا ولا ينال كل المراد ، مثل

ان تكون الهمة في المستحسنات ^(١) أو في جمع المال أو في طلب الرياسة وبما يشبه هذه الاشياء . فياله من شتات لا جامع له ، يذهب العمر ولا ينال بعض المراد .

والثاني محالطة الناس خصرصاً العوام والمشى في الاسواق فإن الطبع يتقاضى الشهوات وينسى الرحيل عن الدنيا ، ويجب الكسل عن الطاعة والبطالة والغفلة والراحة فيثقل على من ألف محالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة . ولا يزال بمخالطهم حتى تمون عليه الغيبة ، وتضيع الساعات في غير شيء . فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة بحيث لا يسمع صوت أحد ، فحينئذ يخلو القلب بعارفه ولا تجذب النفس رفيقاً مثل الهوى يذكرها ما تشتهي ، فاذا اضطر الى المحالطة كان معها على وفاق ، كما تنهوى ^(٢) الضفدع لحظة ثم تعود الى الماء فهذه طريق السلامة ، فتأمل فوائدها تطب لك .

٢٩٨ - لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر

مارأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان وعيهم للدهر . وقد كان هذا في الجاهلية . ونهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر .

(١) يقصد بالمستحسنات كلها قالها النساء الجليلات

(٢) يريد أنها تطلب الهواه

ومعناه أنتم تسبون من فرق شملكم وأمات أهاليكم ، وتنسبونهم
الى الدهر ، والله تعالى هو الفاعل لذلك . فتعجبت كيف أعلم
اهل الاسقام بهذه الحال وهم على ما كان اهل الجاهلية عليه ،
ما يتغيرون ، حتى ربما اجتمع الفطناء الادباء الظراف على زعمهم
فلم يكن لهم شغل الا اذم الدهر وربما جعلوا الله الدنيا ويقولون
فعلت وصنعت حتى رأيت لابي القاسم الحريري يقول :

ولما تعامى الدهر وهو ابو الردى عن الرشد في انحنائه ومقاصده
تعامت حتى قيل اني اخو عمى ولاغروان يحذروا الفتى حذو والده

وقد رأيت خلقاً يعتقدون أنهم فقهاء وفهاء ولا يتحاشون من
هذا . وهؤلاء إنما أرادوا بالدهر مرور الزمان ، فذاك لا اختيار له
ولا مراد ولا يعرف رشداً من ضلال ، ولا ينبغي أن يلام ، فانه
زمان مدبر لا مدبر فيُتصرف فيه ولا يتصرف . وما يظن بما قل
انه يشير الى أن المذموم المعرض عن الرشد السيء الحكم هو
الزمان . فلم يبق الا أن القوم خرجوا عن رتبة الاسلام ،
ونسبوا هذه القبائح الى الصانع ، فاعتقدوا فيه قصور الحكمة
وفعل ما لا يصح ، كما اعتقده ابليس في تفضيل آدم . وهؤلاء
لا يتفهم مع هذا اعتقاد اسلام ، ولا فعل صلاة ، بل هم شر من
الكفار ، لا أصلح لهم شأن ، ولا هدام الى رشاد .

٢٩٩ - اغتتم ساعات عمرك

من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما في أيدينا مع العلم بقصر العمر ، وأن زيادة الثواب هناك بقدر العمل هنا .

فيا قصر العمر اغتتم يومي مني ، وانتظر ساعة النقر ، وإياك أن تشغل قلبك بغير ما خلق له ، واحمل نفسك على المر واقمها إذا ابت ، ولا تسرح لها في الطول ^(١) ، فما أنت إلا في مرعى ، وقبيح بمن كان بين الصفين ^(٢) إذا تشاغل بغير ما هو فيه .

٣٠٠ - احفظ شرك واحترز من الناس

قد كررت هذا المعنى في هذا الكتاب . وهو الأمر بحفظ السر والحذر من الانبساط فيما لا يصلح بين يدي الناس . فرب منبسط بين يدي من يظنه صديقا بقول في صديق أو في سلطان لا ينهم في ذلك فيكون سبب هلاك ذاك . فأوصي السليم الصدر الذي يظن في الناس الخير أن يحترز من الناس ، وأن لا يقول في الخلق كلمة لا تصلح للخلق . ولا يفتقر بمن يظهر الصداقة أو التدين فقد عم الحث .

(١) أي لا غفلة لها الرسن (٢) أي في ساحة المعركة

٣٠١ - التفكير في عظمة الخالق تسييح المتيقظين

تأملت على أكثر الناس ^(١) عباداتهم فإذا هي عادات ، فأما
 آرباب اليقظة فعادتهم عبادة حقيقة . فإن الغافل يقول (سبحان
 الله) عادة والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في
 عظمة الخالق ، فيحركه الفكر في ذلك فيقول : سبحان الله .
 ولو أن انسانا تفكر في رمانة فنظر في تصفيف حبها وحفظه
 بالأغشية لثلا يتضائل ، وإقامة الماء على عظم العجم ^(٢) ، وجعل
 الغشاء عليه يحفظه . وتصوير الفرخ في بطن البيضة ، والآدمي
 في حشا الام ، الى غير ذلك من المخلوقات ، ازعجه ^(٣) هذا الفكر
 إلى تعظيم الخالق ، فقال : سبحان الله ، وكان هذا التسييح
 ثمرة الفكر . فهذا تسييح المتيقظين . وماتزال أفكارهم تجول
 فتقع عباداتهم بالتسييحات محقة . وكذلك يتفكرون في قبائح
 ذنوب قد تقدمت فيوجب ذلك الفكر حركة الباطن وقلق القلب
 وندم النفس ، فيشمر ذلك أن يقول قائلهم : أستغفر الله ، فهذا
 هو التسييح والاستغفار . فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة
 وستان مابين الفريقين .

(١) تأمل على كذا من غير الفصيح

(٢) اي ذمة

(٣) العجم « يفتح الجيم » النوى والبذر

٣٠٢ - مخالطة الناس تظلم القلب

لا يصفو التعب والتزهد والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع
الكلي عن الخلق ، بحيث لا يبصرم ولا يسمع كلامهم إلا في
في وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة ^(١) . ويجتزئ في تلك
الساعات منهم . وإن كان عالماً يريد نفعهم وعدم وقتاً معروفاً
واحتز في الكلام . وأما من يثني في الاسواق اليوم ويبيع
ويشتري مع هذا العالم المظلم ، ويرى المنكرات والمستهجنات
فما يعود الى البيت إلا وقد أظلم القلب . فلا ينبغي للمريد أن
يكون خروجه إلا الى الصحراء والمقابر . وقد كان جماعة من
السلف يبيعون ويشترون ويجتزئون ، ومع هذا ماصفاً لصفهم
وقت حتى قاطع الخلق . قال ابو الدرداء : زاولت العبادة
والتجارة فلم يجتمعا فاخترت العبادة .

وقد جاء في الحديث : الاسواق تلهي وتغني ^(٢) فمن قدر
على الحمية النافعة واضطر الى المخالطة والكسب للعائلة ، فليحتز
احتراز المائي في الشوك . وبعيد سلامته .

(١) مرّ من كلامه ما يفتح فيه الذي يحسنه هنا

(٢) راجع « ثبت الاحاديث » وتعليق الاستاذ الشيخ فامر الالباني عليه

٣٠٣- وجوب الورع عن الشبهات لتبقى لذة التقوى

من رزق قلباً طيباً ولذة مناجاة فليراع حاله وليحذر من التغير ،
ولئلا قدوم له حاله بدوام التقوى . وكنت قد رزقت قلباً طيباً ،
ومناجاة خلوة ، فأحضرني بعض ارباب المناصب الى طعامه ،
فما أمكن خلافه ، فتناولت واكثت منه فلبقت الشدائد ،
ورأيت العقوبة في الحال ، واستمرت مدة ، وغضبت على
قلبي ^(١) ، وفقدت كل ما كنت أجده فقلت :

واعجبا كنت في هذا كالمكره . فتفكرت ، واذا به قد يمكن
مداراة الامر بلبقيات بسيرة . ولئلا التأويل تناول بشهوة اكثر
حما يدفع المداراة .

فقلت النفس : ومن أين لي ان عين هذا حرام ؟

فقلت اليقظة : واين الورع عن الشبهات ؟

فلما تناولت بالتأويل لقمة استجلبتها بالطبع فلقده لقيت
الامر بن يفقد القلب . فاعتبروا يا أولي الابصار .

٣٠٤- المؤمن دائم اليقظة

همة المؤمن متعلقة بالآخرة فكل ما في الدنيا يحركه الى

ذكر الآخرة . وكل من شغله شيء فبهته شغله .

الا ترى أنه لو دخل ارباب الصنائع الى دار معبورة
وأيت البزاز ينظر الى الفرش ويجز قيسه ، والنجار الى
السقف ، والبناء الى الحيطان ، والحائك الى نسج الثياب .
والمؤمن اذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر . وان رأى مؤلماً
ذكر العقاب . وان سمع صوتاً فظيماً ذكر نفخة الصور .
وان رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور . وان رأى
لذة ذكر الجنة فبهته متعلقة بما ثمّ وذلك يشغله عن كل مانع .

واظم ما عنده انه يتخايل دوام البقاء في الجنة ، وان
بقاءه لا ينقطع ولا يزول ولا يعتريه نقصة ، فيكاد اذا تخايل نفسه
متقلبا في تلك اللذات الدائمة التي لا تنفنى يطيش فرحاً وبسلاً
عليه مافي الطريق اليها من ألم ومرض ، وابتلاء ، وفقد
محبوب ، وهجوم الموت ، ومعالجة غصصه ، فان المشتاق الى
الكعبة يحزن عليه رمل زروده ، والناثق الى العاقبة لا يبالي
بمرارة الدواء ، ويعلم ان جودة الثمر ثمّ ، على مقدار جودة
البذر هنا ، فهو يتخير الاجود ، ويغتم الزرع في تشرين العمر
من غير فتور .

ثم يتخايل المؤمن دخول النار والمعوية فيتنفص عيشه
ويقوى قلقه ، فعنده بالخالين شغل عن الدنيا وما فيها ، فقلبه

حائم في بيده الشوق تارة وفي صحراء الخوف أخرى ، فيأبى
 البنيان ، فإذا نازله الموت قوى ظنّه الملائكة بالسلامة ،
 ورجا لنفسه النجاة فيهن عليه ، فإذا نزل الى القبر وجاءه
 الملائكة يسألونه ، قال بعضهم لبعض : دعوه فما استراح الا الساعة .
 نسأل الله عز وجل نقطة تامة نحر كنا الى طلب الفضائل ،
 ونمتنعنا من اختيار الرذائل ، فانه ان وفق ، والا فلا نافع .

٣٠٥ - لا يختار الله عز وجل لمحبة الا الكاملين

لقد اعتبرت على مولاي سبحانه وتعالى أمراً عجيباً وهو
 أنه تعالى لا يختار لمحبة والقرب منه الا الكامل صورة ومعنى .
 ولست أعني حسن التغاطيط وانما كال الصورة اعتدالها ،
 والمعتدلة ما تخلو من حسن ، فتنبعها حسن الصورة الباطنة ،
 وهو كال الاخلاق وزوال الاكدار ، ولا يرى في باطنه خبثاً
 ولا كدراً ، بل قد حسن باطنه كما حسن ظاهره . وقد كان
 مومناً عليه السلام كل من رآه يحبه . وكان نبينا ﷺ كالقمر
 ليلة البدر . وقد يكون الولي أسود اللون ، لكنه حسن
 الصورة لطيف المعاني . فعلى قدر ما عند الانسان من التمام في
 كال الخلق والخلق ، يكون عمله ^(١) ، ويكون تقريبه الى

(١) مر من المؤلف هذا المعنى . وهو حكماً لا يصح احاطة به بدليل من النقل ولا من العقل

الحضرة بحسب ذلك . فمنهم كالخادم على الباب ، ومنهم حاجب ،
ومنهم مقرب ، ويندر من يتم له الكمال . ولعله لا يوجد في
مئة سنة منهم غير واحد .

وهذه حكاية ماتحصل بالاجتهاد ، بل الاجتهاد يحصل منها .
لانه اذا وقع تمام حث على الجد على قدر نقصانه . وهذا لاجبة
في أصله ، انما هو جبة . واذا ارادك لأمر هياك له .

٣٠٦ - الرد على الذين يعترضون على حكمة الخالق

تأملت على قوم يدعون العقول ، يعترضون على حكمة
الخالق . فينبغي أن يقال لهم هذا الفهم الذي دلکم على رد
حكمته أليس هو من منحه ؟ أفأعطاكم الكمال ورضي لنفسه
بالنقص ؟ هذا هو الكفر المحض الذي يزيد في القبح على الجحد .

فأول القوم ابليس ، فإنه رأى بعقله أن جوهر النار
أشرف من جوهر الطين فرد حكمة الخالق ، ومر على هذا
خلق كثير من المعترضين ، مثل ابن الراوندي والبكري وهذا
المعري اللعين يقول : كيف يعاب ابن الحجاج بالسفخ^(١)
والدهر أقبح فعلا منه .

(١) كذا . ولعلها « بالسيف » ولا اهرق للمعري قولا كهذا . وان كان له شر منه

أترى يعني به الزمان ؟ كلا . فان سمر الاوقات لايفعل شيئاً وإنما هو تسقيف^(١) . وكان يستعجل الموت ظناً منه انه يستريح ، وكان يوصي بترك النكاح والنسك ، ولا يرى في الایجاد حكمة إلا العناء والتعب ومصير الابدان الى البلى . وهذا لو كان كما ظن كان الایجاد عبثاً ، والحق منزه عن اللعب . قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّهَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) فاذا كان ماخلق لنا لم يخلق عبثاً . أفنكون نحن ، ونحن مواطن معرفته ومحال تكليفه ، قد وجدنا عبثاً . ومثل هذا الجهل انما يصدر ممن ينظر في قضايا العقول التي يحكم بها على الظواهر ، مثل ان يرى مبنياً ينقض ، والعقل بمجرد لا يرى ذلك حكمة ، ولو كشفت له حكمة ذلك لعلم أنه حواب . كما كشف لموسى مراد الخضر في خرق السفينة وقتل الغلام . ومعلوم ان ذبح الحيوان وتقطيع الرغيف ومضغ الطعام لا يظهر له فائدة سوى الاطلاق^(٢) فاذا علم انه غذاء لبدن من هو اشرف بدنا من المذبح حسن ذلك الفعل .

واعجباً أو ما تقتضي العقول بوجوب طاعة الحكيم الذي يعجز عن معرفة حكم مخلوقاته ؟ فكيف يعارضه في افعاله ؟ نعوذ بالله من الخذلان .

٣٠٧ - يجب على من يعظ السلطان ان يتلطف به

ينبغي لمن وعظ سلطاناً أن يبالغ في التلطف ولا يواجهه بما يقتضى انه ظالم ، فان السلاطين حظه الفرد بالقهر والغلبة فاذا جرى نوع توبيخ لهم كان اذلاً وهم لا يجتنبون ذلك . وانما ينبغي أن يمزج وعظه بذكر شرف الولاية ، وحصول الثواب في رعاية الرعايا ، وذكر سير العادلين من أسلافهم . ثم لينظر الواعظ في حال الموعوظ قبل وعظه ، فان كانت سيرته حميدة كما كان منصور بن عمار وغيره يعطون الرشيد وهو يبيكي . وقصده الخير زاد في وعظه ووصيته . وان رآه ظالماً لا يلتفت الى الخير ، وقد غلب عليه الجهل ، اجتهد في ان لا يراه ولا يعظه لأنه ان وعظه خاطر بنفسه ، وان مدحه كان مدهامنا ، فان اضطر الى موعظته كانت كالاشارة .

وقد كان اقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة ويجتنبون الواعظين . حتى أنه قد كان المنصور يواجه بأنك ظالم فيصبر . وقد تغير الزمان ، وفسد أكثر الولاة وداهمهم العلماء ، ومن لا يداهم لا يجد قبولاً للصواب فيكست . وقد كانت الولايات لا يسألها إلا من أحسنه العلوم ، وتفتت التجارب ، فصار أكثر الولاة يتساوون في الجهل فتأتي

الولاية على من ليس من أهلها . ومثل هؤلاء ينبغي الحذر منهم والبعد عنهم . فمن ابتلي بوعظهم فليكن على غاية التحرز فيما يقول ، ولا ينبغي أن يغتر بقولهم : عظما . فانه لو قال كلمة لاتوافق أغراضهم ثارت حراراتهم .

وليحذر مذكر السلطان أن يعرض له بآداب الولايات فانهم اذا سمعوا بذلك صار الواعظ مقصوداً لهم بالاهلاك خوفاً من أن يعتبر السلطان أحوالهم فتفسد أمورهم . والبعد في هذا الزمان عنهم اصلح ، والسكوت عن المواعظ لهم أسلم ، فمن اضطر تلتطف غاية التلطف ، وجعل وعظه للعوام وهم يسمعون ولا يعبئون منه بشيء . والله الموفق .

٣٠٨ - أخبار عن بعض من ادّعوا النبوة

الحق لا يشتهه بباطل . انما يمويه الباطل عند من لا فهم له . وهذا في حق من يدعي النبوات ، وفي حق من يدعي الكرامات . أما النبوات فانه قد ادّعاها خلق كثير ظهرت قبائحهم ، وبانت فضائحهم . ومنها ما يوجب خسة الممة والتهتك في الشهوات ، والتمافت في الاقوال والافعال حتى افتضحوا . فمنهم الاسود العنسي ، ادعى النبوة ولقب نفسه ذا الحمار لأنه كان يقول يا بني ذو الحمار ، وكان أول أمره كاهنا يشعوز فيظهر الاحاجيب .

فخرج في أواخر حياة النبي ﷺ فكانت به مذحج ونجران وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد صاحبي رسول الله ﷺ ، وصفا له اليمن ، وقاتل شهر بن باذام فقتله وتزوج بنته فأعانت على قتله فهلك في حياة رسول الله ﷺ . وبأن للعقلاء أنه كان يشعبد . ومنهم مسيلة ، ادعى النبوة وتسمى رحمان اليامة لأنه كان يقول : الذي يأتيني رحمان . فأمن برسول الله ﷺ وادعى أنه قد أشرك معه . فالعجب أنه يؤمن برسول ويقول أنه كذاب . ثم جاء بقرآن يضعك الناس ، مثل قوله : يا ضفدع بنت ضفدعين تقسي مائتين ، اعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، ومن العجائب شاة سوداء تحلب لبناً أبيض .

فأنتك سترو في هذه الفصاحة . ثم مسح بيده على رأس صبي فذهب شعره ، وبصق في بئر فيبست ، وتزوج سجاح التي ادعت النبوة . فقالوا : لا بد لها من مهر .

فقال : مهرها اني قد اسقطت عنكم صلاتي الفجر والعنة^(١) . وكانت سجاح هذه قد ادعت النبوة بعد موت رسول الله ﷺ ، فاستجاب لها جماعة . فقالت : اعدوا الركاب ، واستعدوا قناب ، ثم اعبروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب .

فقاتلوه . ثم قصدت اليامة فهاها مسيلة فراسلها وأهدى لها

فحضرت عنده فقالت :

اقرأ علي ما يأتيك به جبريل .

فقال : انكن معشر النساء خلقتن افواجا ، وجعلتن لنا
ازواجا ، نولج فيكن ابلاجا .

فقلت : صدقت انت نبي .

فقال لها : ألا قومي إلى الخدع ، فقد هبى لك المضجع ،
فان شئت فملقاة ، وان شئت على أربع ، وان شئت بثلثيه ، وان
شئت به اجمع .^(١)

فقلت : بل به اجمع فهو للشل اجمع .

فاقتضعت عند العقلاء من أصحابها ، فقال منهم عطار

ابن حاجب :

اضعت نيتنا انى يطاف بها	واصبحت انبياء الناس ذكرا
فلعنة الله رب الناس كلهم	على سجاح ومن بالافك اغوا
اعني مسيلة الكذاب لاسقيت	اصداؤه من رعيث حيثما كانا ^(٢)

ثم انها رجعت عن غيرها وأسلمت ، وما زالت تبين فضائح
مسيلة حتى قتل .

ومنهم طليعة بن خويلد ، خرج بعد دعوى مسيلة النبوة
ولجعه اقوام ونزل مميرا ، قسمي بذى النون ، يقول : ان الذي
بأبيه يقال له ذو النون ، وكان من كلامه :

(١) هذا رجز موزون (٢) روى البيت الاول فقط ، راجع الطبري .
والبيتان الآخران ممنوعان اثر الصنعة والضعف ظاهر فيها .

ان الله لا يصنع بتغيير وجوهكم ولا فتح ادياركم شيئاً (١) فاذكروا
الله أعة قياما .

ومن قرآه : والحمام واليام ، والصد الصوام ، ليبلغن ملكنا
المراق والشام . وتبعه عينة بن حصين ، فقال له خالد بن الوليد
فجاء عينة الى طليحة فقال : ويحك أجاك الملك ؟ قال : لا فارجع
فقاتل . فقاتل ثم عاد ، فقال : أجاك ؟ فقال لا . فعاد فقاتل فقال :
أجاك قال نعم . قال : ما قال لك ؟ قال : ان لك جيشاً لاتنساه .
فصاح عينة : الرجل والله كذاب .

فانصرف الناس منهزمين ، وهرب طليحة الى الشام . ثم أسلم
وصح اسلامه وقتل بها وند .

وذكر الواقدي : أن رجلا من بني يربوع يقال له جندب
بن كثوم ، كان يلقب (كردانا) ادعى النبوة على عهد
رسول الله ﷺ . وكان يزعم ان دليله على نبوته انه يسرج
مسامير الحديد والطين . وهذا لانه كان يطلي ذلك بدهن
اليلسان فتعمل فيه النار .

وقد تنبأ رجل يقال له كهش الكلاي ، وكان يزعم
ان الله تعالى اوحى اليه : يا أيها الجائع اشرب لبنا تشبع ،
ولا تضرب الذي لا ينفع ، فانه ليس بمنفع . وزعم ان دليله على

فبوته أنه يطرح بين السباع الضاربة فلا تأكله . وحيلته في ذلك أنه يأخذ دهن الفار وحجر البرسان وقنفذاً محروقاً وزبد البحر وصدفاً محرقاً مسحوقاً وشبثاً من الصبر والحبط فيطلي به جسده ، فإذا قربت منه السباع فشمت تلك الأرباح وذفورتها نفوت .

وتنبأ بالطائف رجل يقال له أبو جعوانة العامري ، وزعم أن دليله أنه يطرح النار في القطن فلا يحترق . وهذا لأنه يدهنه بدهن معروف .

ومنهم هذيل بن يعفور من بني سعد بن زهير ، حكى عنه الأصمعي أنه عارض سورة الاخلاص فقال : قل هو الله أحد ، انه كالاسد ، جالس على الرصد ، لا يفوته أحد .

ومنهم هذيل بن واسع كان يزعم انه من ولد النابغة الذبياني ، عارض سورة الكوثر فقال له رجل : ما قلت :

فقال : انا اعطيتك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، فما يردك الا كل فاجر .

فظهر عليه السنوي فقتله وصلبه على العمود .

فصر عليه الرجل فقال : انا اعطيتك العمود ، فصل لربك من قعود ، بلا ركوع ولا سجود ، فما اراك تعود .

ومن ظهر فادعى انه يوحى اليه المختار بن ابي عبيد ، وكان متخبطا في دعواه ، وقتل خلقا كثيرا وكان يزعم انه ينصر الحسين وضوان الله عليه ثم قتل .

ومنهم حنظلة بن يزيد الكوفي ، كان يزعم ان دليله انه يدخل البيضة في القنبنة ويخرجها منها صحيحة . وذلك انه كان ينقع البيضة في الحل الحامض فيأين قشرها ثم يصب ماء في قنبنة ، ثم يدس البيضة فيها ، فاذا لقيت الماء صلبت . وقد تنبأ اقوام قبل نبينا ﷺ كزرادشت (١) وماني ، واقتضعوا ، ومامن المدعين الامن خذل .

وقد جاءت القرامطة بحيل عجيبة . وقد ذكرت جمهور هؤلاء وحيلهم في كتابي التاريخ المسمى بالمنتظم . وما فهم من يتم له الامر الا ويفتضح . ودليل صحة نبينا ﷺ اجلي من الشمس . فانه ظهر فقيراً والخلق أعداؤه فوعده بالملك فملك . واخبر بما سيكون فكان . وصين من زمن النبوة عن الشره وخساسة الهمة والكذب والكبر . وايد بالثقة والامانة والنزاهة والعفة . وظهرت معجزاته للبعيد والقريب . وانزل عليه الكتاب العزيز الذي حارت فيه عقول الفصحاء . ولم يقدروا

(١) لم يثبت ان زرادشت ادعى النبوة وما يدري ما حقيقته ، وأصل مذهبه التوحيد ثم خلطه اتباعه بالكفر : وكتابه « زندا فستا »

على الاتيان بآية تشبه فضلا عن سورة . وقد قال قائلهم
 واقتصر . ثم أخبر أنه لا يعارض فيه فكان كما قال . وذلك
 قوله تعالى « فأتوا بسورة » . ثم قال « فان لم تفعلوا ولن
 تفعلوا » . وكذلك قوله « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين
 ولن يتمنونه » فامتناه أحد إذ لو قال قائل قد تمنيت لبطلت دعواه .
 وكان يقول ليلة غزاة بدر : غدا مصرع فلان ههنا فلا يتعداه .
 وقال : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده . واذا هلك
 قيصر فلا قيصر بعده ^(١) فاملك بعدهما من له كبير قدر ،
 ولا من استتب له حال .

ومن اعظم دليل على صدقه انه لم يرد الدنيا ، فكان يبيت
 جائعا ، ويؤثر اذا وجد ، ويلبس الصوف ويقوم الليل .
 ولما تطلب التواميس لاجتلاب الشهوات ، فلما لم يرد لها دل
 على أنه يدل على الآخرة التي هي حق . ثم لم يزل دينه يعا
 حتى عم الدنيا . وان كان الكفر في زوايا الارض الا انه
 مخذول . وصار في تابعيه من امته الفقهاء الذين لو سمع كلامهم
 الانبياء القدماء تحيروا ^(٢) في حسن استخراجهم ، والزهاد الذين

(١) انظر ثبت الاحاديث في آخر الكتاب .

(٢) انا لا استحسن من المؤلف هذه الجرأة على الانبياء ، ولا احسبها

لو راكم الرهبان تحيروا في صدق زهدهم . واللفظاء الذين
لا نظير لهم في القدماء .

أوليس قوم موسى يعبدون بقرة ، ويتوقفون في ذبح
بقرة ، ويعبرون البحر ، ثم يقولون : اجعل لنا الما
وقوم عيسى يدخرون من المائدة وقد نهوا .
والمعتدون في السبت يعصون الله لأجل الحيتان .

وامتنا بحمد الله تعالى سلبية من هذه الاشياء ، وإنما في
بعضها ميل الى الشهوات المنهي عنها . وذلك في الفروع لا في
الاصول . فاذا ذكروا بكوا وندموا على تفريطهم .

فبحمد الله على هذا الدين وعلى أننا من أمة هذا الرسول
ﷺ . وقد كان جماعة من المتصنعين بالزهد مالوا الى طلب
الدنيا والرياسة . فاستغوام المعوى فخرقوا^(١) باظهار ما يشبه
الكرامات كالحلاج وابن الشاش وغيرهما ممن ذكرت حال
فليس في كتاب تليس ابليس . وإنما فعلوا ذلك لاختلاف
أغراضهم . ولم يزل الله ينشئ في هذا الدين من الفقهاء من
يظهر ماستره المتعلمون ، كما ينشئ من علماء الحديث من يترك
ما أخفاه الواضعون ، حفظاً لهذا الدين ، ودفعاً للشبهات عنه .

فلا يزال الفقيه والمحدث يظهران عوار كل ملبس بوضع حديث
أو باظهار دعوى تزهد وتنسب ، فلا يؤثر ما ادعياه الا عند
جاهل بعيد من العلم والعمل ، ليعق الحق ويبطل الباطل ولو
كره الكافرون .

٣٠٩ - عمر ك قصير فاغتم ساعاته

واعجبا من موجود لا يفهم معنى الوجود ، فان فهم لم
يعمل بمقتضى فهمه ، يعلم أن العمر قصير ، وهو يضيعه بالنوم
والبطالة والحديث الفارغ وطلب اللذات . وإنما أيامه أيام عمل
لا زمان فراغ . وقد كلف بذل المال بمخالفة الطبع من الشرع
فيخل به الى أن تضايق الحقائق فيقول حينئذ : فرقوا عني
بعد موتي وافعلوا كذا ، فإن يقع هذا لو فعل ، وبعيد
أن يفعل ، وإنما يراود بانفاقك في صنعتك مخالفة للطبع في تكلف
مشاق الاخراج في زمن السلامة ، فافرق بين الحالتين مات
كان لك فهم .

فالسعيد من اتبه بنفسه وعمل بمقتضى عقله ، واغتم زمنا
نهائيه الزمن^(١) وانتهب عمرا ياقرب انقطاعه .

ويحك ماتصنع بادخار مال لا يؤثر حسنة في صحيفة
ولامكرمة في تاريخ . اما سمعت بانفاق أبي بكر ومخل ثعلبة

لما رأيت تأثير مدح حاتم وبخل الجبابرة وبجك لو ابتلاك
في مالك فقل "لا تستفت"، أو في بدنك ليلة بمرض لشكوت .
فانت تستوفي مطلوباتك منه ، ولا تستوفي حقه عليك ، ويل
للطففين ، ولتعلم أن هذا اللقندر المفرط فيه يحل الخلود الدائم
في ثواب العمل فيه .

فسبحان من منّ على أقوام فهموا المراد فأتعبوا الاجساد
وغطى على قلوب آخرين فوجدوا كالعدم . وكيف لا يتعب
العاقل بدنه اتعاب البدن^(١) والمقصود مني . أتري ما بال الحق
متجلياً في ايجادك أيها العبد ا بلى . والله ان وجودك دليل
وجوده . وان نعمه عليك دليل جوده . فكما قدمك على
سائر الحيوانات . فقدمه في قلبك على كل المطلوبات . واخيه
من جهله ، وافقر من اعرض عنه ، واذل من اعتز بغيره ،
واحسرة من اشتغل بغير خدمته .

٣١٠- وجوب الاستعداد للموت

اني أعجب من عاقل يرى استيلاء الموت على اقاربه
وجيرانه كيف يطيب عيشه ، خصوصاً إذا علت سنه . واعجبا
لمن يرى الافاعي تدب اليه وهو لا ينزعج . أما يرى الشيخ
ديب الموت في أعضائه ، قد اخرج سكين القوى وانزل

(١) جمع بدنة وهي الناقة

متغشرم الضعف ^(١) ، وقلب السواد بياضا ، ثم في كل يوم يزيد الناقص . ففي نظر العاقل الى نفسه ما يشغله عن النظر الى خراب الدنيا وفراق الاخوان وان كان ذلك مزعجا . ولكن شغل من احترق بيته بنقل متاعه يليه عن ذكر بيوت الجيران . وانه لما يسلي عن الدنيا ويهون فراقها استبدال المعارف بمن تنكره ^(٢) فقد رأينا أغنياء كانوا يؤثرون ، وفقراء كانوا يصبرون ، وعاسيين لانفسهم يتورعون ، فاستبدل السفهاء عن العقلاء ، والبغلاء عن الكرماء . فياسهولة الرحيل ، لعل النفس تلقى من فقدت ، فتلحق بمن أحبت .

٣١١- سجود الجمادات لله عز وجل واستثناء بعض العقلاء منه

نظرت في قول الله تعالى « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب » ثم قال « وكثير من الناس » فرأيت الجمادات كلها قد وصفت بالسجود ، واستثنى من العقلاء . فذكرت قول بعضهم :

ما جحد الصامت من أنشاء ومن ذوي النطق أتى هذا الجحود

فقلت : ان هذه لقدرة عظيمة ، يوهب عقل الشخص ثم يسلب فائدته ، وان هذا لأقوى دليل على قادر قاهر ، وإلا فكيف يحسن من عاقل ألا يعرف بوجوده وجود من أوجده ؟ وكيف ينحت صنما بيده ثم يعبده ؟

غير أن الحق سبحانه وتعالى وهب لأقوام من العقول ما يثبت عليهم الحجة ، وأعمى قلوبهم كما شاء عن الحجة (١) .

٣١٢ - وجوب العزلة وضم الصوفية

مارأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح ، فان الطبع يسرق ، فان لم يشبه بهم ، ولم يسرق منهم ، فتر عن عمله . فان رؤية الدنيا تحت على طلبها . وقد رأى رسول الله ﷺ ستراً على بابه فتهكه وقال : مالي والدنيا ؟ ولبس ثوباً له طراز فرماه وقال : شغلني أعلامه . ولبس خاتماً فرماه وقال : نظرت اليكم ونظرت اليه .

وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم واحوالهم ، خصوصاً لمن له نفس تطلب الرفعة وكذا سماع الاغاني ، ومخالطة الصوفية اليوم الذين لانظر لهم في الرزق الحاصل ، بل لو كان من اين كان قبلوه ، ولا يتورعون أن يأخذوا من ظالم ، وليس عندهم

خوف كما كان أوائلهم . فقد كان سري السقطي يبكي طول الليل ، وكان يبالي في الورع ، ولا لهم تعبد الجنيـد ، وإنما تم^(١) أكل ورقص وبطالة وسماع اغاني من المردان ، حتى قال بعض من يعتبر قوله حضرت مع رجل كبير يوماً اليه من مشايخ الربط^(٢) ومغنيهم أمرد ، فقام الشيخ ونقطه بدينار على خده . وادعاهم ان سماع هذه الاشياء تدعو الى الآخرة فوق الكذب . وليس العجب منهم ، إنما العجب من جهال ينفقون عليهم فينفقون عليهم . ولقد كان جماعة من القدماء يرون أوائل الصوفية يتعبدون ويتورعون فيعجبهم حالهم ، وهم معذورون في اعجابهم بهم ، وان كان اكثر القوم في تعبدهم على غير الجادة ، كما ذكرت في كتابي المسمى بتليس ابليس . فأما اليوم فقد برح الحفاء . أحدم يترده الى الظلمة وبأكل اموالهم ، وبصافحهم بقميص ليس فيه طراز ، وهذا هو التصوف فحسب . أولاً يستحي من الله من زهد في رفيع الاثواب لاجل الخلاق لا لأجل الحق ، ولا يزهد في مطعم ولا في شربة .

فالبعد عن هؤلاء لازم . وينبغي للمنفرد لطاعة الله تعالى عن الخلق ان لا يخرج الى سوق جهدة ، فان خرج ضرورة غض بصره . وان لا يزور صاحب منصب ولا يلقاه ، فان اضطر دأوى الامر . ولا يخاطب عامياً إلا لضرورة مع التحرز . ولا

(١) ثم وثقة : هناك (٢) جمع رباط : تكة او زاوية اي دار الكسالى

يقتح على نفسه باب الزوج^(١) بل يقنع بامرأة فيها دين فقد
قال الشاعر :

والمرء مادام ذا عين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ماض مهجته لا مرجحاً بسرور عاد بالضرر

فإن كان يغلب عليه العلم انفراد بدراسته ، واحتراز عن
الاتباع للمتعلمين . وإن غلبت عليه العبادة ، زاد في احترازه .
وليجعل خلوته أنيسه . والنظر في سير السلف جليسه . وليكن
له وظيفة من زيارة قبور الصالحين^(٢) والخلوة بها . وينبغي ألا
يفوته ورد قيام الليل ، وليكن بعد النصف الاول . فليطل
مها قدر ، فانه زمان بعيد المثل^(٣) . وليستل وجهه عن قرب
ليقصر أمه . وليتزود في الطريق على قدر طول السفر .
نسأل الله عز وجل يقظة من فضله . واقبالاً على خدمته .
وان لا يخذلنا بالالتفات عنه . انه قريب مجيب .

٣١٣ - الله عز وجل غني عن طاعتنا ولأنفسنا نعمل

كلما نظرت في تواصل النعم عليّ تحيرت في شكرها .
وأعلم أن الشكر من النعم فكيف أشكر^(٤) ، لكني معترف

(١) أي تكراره والاكتثار منه

(٢) أي الزيارة المشروعة للسؤال من فيها واعتقاد انه يضر وينفع

(٣) أي قليل النظير

(٤) أي كيف يشكر الله على ان انعم عليه فوفقه للشكر

بالتصير . وأرجو أن يكون اعترافي قائماً ببعض الحقوق .
وعندي خلة أرجو بها كل خير ، وهي أن من يصوم أو يصلي
يرى أنه تعبد ، ويخدم كأنه يقضي حق المخدم . وأنا أرى
أني إذا صليت ركعتين فأنا قمت اكدي^(١) فلنفسى أعمل ، إذا
المخدم غني عن طاعتي .

وكان بعض المشايخ يقول : جاء في الحديث : الدعاء
عبادة . وأنا أقول : العبادة دعاء^(٢) . فالمعجب بمن يقف
للخدمة يسأل حظ نفسه ، كيف يرى أنه قد فعل شيئاً . إنما
أنت في حاجتك ، ومنة من أبىظك لا تقاومها خدمتك فأنا
أقول كما قال الاول :

يا منتهى الآمال أنت كفلتني وحفظتني	
وعدا الزمان علي كي	يجتاحني فمنعتني
فانقاد لي متخشعا	لما وآك نصرتني
وكسوتني ثوب الغنى	ومن المطالب صنتني
فاذا سكنت بدأتني	واذا سألت اجبتني
واذا شكرتك زدتنني	فمنعتني وبهرتني
أو إن أجد بالمال فا	لاموال أنت أفدتني

(١) أي استجدي رسول الله صلى الله عليه وسلم والافان به بارضه؟
(٢) أيظن الاحق انه جاء باحسن من حديث

٣١٤ - نقاض العلماء

رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم . فهم الفقيه
 التدريس ، وهم الواعظ الوعظ . فهذا يرى دوسه فيفرح بكثرة
 من يسمعه ، ويقدم في كلام من يخالفه ، ويمضي زمانه في
 التفكير في المناقضات ، ليقرر من يجادل ، وعينه الى التصدر
 والارتفاع في المجالس . وربما كانت همه جمع الحطام ، وغالبه
 السلاطين . والواعظ همه مايزوق به كلامه ويكثر جمعه ويحب
 به قلوب الناس الى تعظيمه ، فان كان له نظير في شغله أخذ
 يطعن فيه . وهذه قلوب غافلة عن الله عز وجل ، اذ لو
 كانت لما به معرفة لاستغلت به ، وكان انسها بمناجاته ، وايقارها
 لطاعاته ، واقبالها على الخلوة به ، لكنها لما خلت من هذا تشاغل
 بالدنيا وذاك دنيا مثلها . فاذا خلت بخدمة الله تعالى لم تجد لها
 طمعا ، وكان جمع الناس أحب اليها ، وزيارة الخلق لها أثر
 عندها . وهذه علامة الخذلان . وعلى ضد هذا متى كان العالم
 مقبلا على الله سبحانه مشغولا بطاعته ، كانت أصعب الاشياء
 عنده لقاء الخلق ومخادتهم ، وأحب الاشياء اليه الخلوة . وكان
 عنده شغل عن القدر في النظر أو عن طلب الرئاسة ،
 فان ما علق به همه من الآخرة اعلى من ذلك . والنفس
 لا بد لها بما تشاغل به . فمن استغنى لخدمة الخلق أعرض عن

الحق ، فانما يرثي رياسته ، وذلك يوجب الاعراض عن الحق
وما جعل الله لرجل من قلوب في جوفه .

٣١٥- اكثر الناس لا يرون الاشياء كما هي

قد جاء في الاثر ، اللهم أرنا الاشياء كما هي . وهذا كلام
حسن غاية . واكثر الناس لا يرون الاشياء بعينها ، فانهم يرون
الفاني كأنه باق ، ولا يكادون يتخيلون زوال ماسم فيه وان
علموا ذلك . إلا ان عين الحس مشغولة بالنظر الى الحاضر ،
ترى زوال اللذة وبقاء أمثا . ولو رأى اللص قطع يده هناك
عنده المسروق . فمن جمع الاموال ولم ينفقها فما رآها بعينها ،
اذ هي آلة لتحصيل الاغراض ، لاتراد لذاتها . ومن رأى
المعصية بعين الشهوة فما رآها ، اذ فيها من العيوب ما شئت ، ثم
غرنتها عقوبة آجلة ، وفضيحة عاجلة .

وانظر الى اكبر شهوات الحس وهو الوطء فان الماء لا يحصل
الا بعد مطعم ومشرب ، ومن تفكر في المطعم نظر الى
حرث الارض ، وانما تقتقر الى بقر للحراثة عليهن المحراث ،
وهو حديد ومعه خشب ويتعلق به حبال ، فمن تفكر في حمل
الجبال نظر في زرع القنب وتسريحه وقتله والحديد وجلبه
وضربه ، والخشب ونباته ونجارته ، ودوران الدولاب وعمله ،

ثم استعصا الزرع وحصده وتذويته وطحنه وعجنه وخبزه ،
ومن عمل التنور وجلب الشوك . ومن هذا الجنس اذا نظر
فيه كثير جداً حتى قالوا لا تنال لقمة الا وقد عمل فيها ثلاثة
نفس أو نحوهم . فاذا أكل تلك اللقمة فليفكر في خلق
الاسنان لقطعها ، والاضراس لطحنها ، وعذوبة ماء الفم لخلطها ،
واللسان ليقبها ، وعضلات الفم يصعد منها شيء ويبقى شيء حتى
يصلح البلع . ثم يتناولها المعى فيوصلها الى الكبد فيقوم طابحاً
لها ، فاذا صارت دما نقت رسوبها الى الطحال ، ومائتها الى
المثانة ، واستخلصت من أخلص الدم وأصفاه للكبد والدماغ
والقلب ، وأخذت أجود ذلك فحدرته الى الاثنين معداً لخلق
آدمي . فاذا تحركت نيران الشهوة برزت تلك النطفة ، وقد
حكم الشرع بطهارتها^(١) ، وحكم لها بطهارة الرحم والمحل الذي
يباشره الذكر ، فيخلق منها الآدمي الموحد .

فما جاء هذا الشخص الا باغلى الغلاء وبعد عجائب أضرنا
الآلها ، لا أنا عددناها . أفمن فهم هذا يحسن منه أن يبدو
تلك النطفة في حرام ، وان بطلاً في محل نجس فتضيع ؟ فكيف
يتعلق بالزنا من عن لا يفي معشار عشرها بلذة لحظة . منها

(١) الذي ورد في الشرع وعليه مذهبنا «الحنفى» حديث : اغسله وطباً
والركبة يابساً . فلو كان طاهراً فلماذا نفسه او لفركه ؟

هناك العرض بين الناس ، وكشف العورات المحرمة ، وخيانة
 الاخ المسلم في زوجته إن كانت متزوجة ، وفضيحة الزنى بها
 وهي كآخت أو بنت ، فان علفت منه ولها زوج الحق ، بذلك الزوج .
 وكان هذا الزاني سبباً في ميراث من لا يستحق ومنع من يستحق
 ثم يتسلسل ذلك من ولد الى ولد . وأما سخط الحق سبحانه فمعلوم
 قال تعالى « ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » وقال
 ﷺ : ما من ذنب بعد الشرك اعظم عند الله تعالى من نطفة
 وضعها رجل في رحم لانهل له .

ومن له فهم فهو يعلم أن المراد من النطفة ايجاد الموحدين
 ولو لا تركيب الشهوة لم يقع الوطء ، لانه التقاء عضوين غير
 مستحسنين ولا صورتها حسنة ولا ريحها طيب ، وانما الشهوة
 تغطي عين الناظر ليحصل الولد اصلا فهي عاوض فمن طلب
 الشهوة ونسي جنائته بالزنا فما رأى الاشياء على ما هي ^(١) . وقس
 على هذا المطعم والمشرب وجمع المال وغير ذلك .

٣١٦ - الفائدة في خلق ما يؤذي

إن قال قائل أي فائدة في خلق ما يؤذي ؟ فالجواب انه

(١) صحيح والله - فليبتعد الشاب عن الزنا بالابتعاد عن دواعيه وهي النظر
 الى الاجنبيات والاختلاط بهن ومعاشرته من يسهل الطريق اليهن .

قد ثبتت حكمة الخالق فاذا خفيت وجب التسليم . ثم لما
المستحسنات في الجملة انموج ما أعد من الثواب ، والمؤذيات
انموج ما أعد من العقاب . وما خلق شيء يضر الا وفيه
منفعة . قيل لبعض الاطباء : إن فلانا يقول انا كالعقرب
اخر ولا أنفع .

فقال : ما أقل علمه . انها لتنفع إذا شق بطنها ثم شدت
على موضع السعة . وقد توضع في جوف فخار مسدود الرأس
مطبق الجوانب ، ثم يوضع الفخار في تنور فاذا حارت رماداً
سقى من ذلك الرماد مقدار نصف دانق أو أكثر من به
الحصاة فيفتحها من غير أن يضر بشيء من سائر الاعضاء (١) .
وقد تلع العقرب من به حمى عتيقة فتزول وتسعد رجلاً
مفلوجاً فزال عنه الفالج . وقد تلقى في الدهن حتى يجتذب
قواها فيزيل ذلك الدهن الاورام الغليظة ، ومثل هذا كثير .
فالجامل عدو لما جهله . وأكبر الحماقة رد الجامل على العالم .

٣١٧- كلما ازداد الايمان قويت محبة الخالق

كلما اوغلت الفهوم في معرفة الخالق فشاهدت عظمته
ولطفه ورفعته ، تاهت في محبته فخرجت عن حد الثبوت .

(١) فإراعي الاطباء ؟

وقد كان خلق من الناس غلبت عليهم محبته فلم يقدرُوا على مخالطة الخلق . ومنهم من لم يقدر على السكوت عن الذِّكْر ، وفيهم من لم يتم الا غلبة ، وفيهم من هَام في البراري ، وفيهم من احترق في بدنه . فياحسن مخورهم ما الذِّكْر ، وباعبرش قلوبهم ما احسن وجده .

كان ابو عبيدة الخواص قد غلبه الوجد فكان يمشي في الاسواق ويقول : واشوقاه الى من يراني ولا اراه . وكان فتح بن سغرف يقول : قد طال شوقي اليك ، فعجل قدومي عليك ^(١) . وكان قيس بن الربيع كأنه مخور من غير شراب وكان ابن عقيل يقول : ان التبدل فيه سبحانه احسن من التجل في غيره . هل رأيت قط عراة احسن من المحرمين ؟ هل رأيت للمتزينين برباش الدنيا كاثواب الصالحين ؟ هل رأيت تخماراً احسن من شعاس المنهجين ؟ هل رأيت سكرأ احسن من صق الواجدين ؟ هل شاهدت ماء صافياً اصفى من دموع المتأسفين ؟ هل رأيت رؤوساً مائلة كروؤوس المنكسرين ؟ هل لصق بالارض احسن من جباه المصلين ؟ هل حرك نسيم

(١) السنة ان يقول : اللهم احبني ماكالت الحياة خيراً لي وأمتني ان كان الموت خيراً لي .

الاسعار أوراق الاشجار فبلغ مبلغ تحريكه اذبال المنهجين ؟
 هل ارتفعت اكف وانبسطت أيدي فضاضت أكف الراغبين ؟
 هل حرك القلوب صوت ترجيع لحن أو رنة وكتر كما حرك
 حنين المشتاقين ؟ وإنما يحسن التبذل في تحصيل أوفى الاغراض
 فلذلك حسن التبذل في خدمة المنعم .

٣١٨ - فساد أولي الامر

في سبب تبذير الولاة . اكثرم لايعرف ولا يتأدب
 بأدابه برة . يتفق له قلة العقل في أصل الوضع ، ثم ذلك القليل
 لايعاون بل يعان عليه . وذاك أن الجارحة إذا دام تعطلها
 عن عملها الذي هيئت له تعطلت وخذت ، ولهذا تنقص أبصار
 النساخ والرفاقين^(١) وتخذت أبصار أهل البوادي ، لانه لا صادم
 لأبصارهم . وشغل العقل التفكير والنظر في عواقب الاحوال
 والاستدلال بالشاهد على الغائب . وهم يمتثلون من الطعام دائماً
 وذلك يؤذي العقل . ثم يطيلون النوم ، فاذا انتبهوا شربوا
 المسكر فانفق للعقل تعطيل وتغطية فساء التدبير .

(١) المثال لايطابق المثال ، فابصار النساخ انما كلك من كثرة العمل

لا من قلته .

٣١٩ - لاتحدثوا العوام بما لا تحتمله عقولهم

من المخاطر العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم ،
أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده . مثاله أن قوماً قد رسخ في
قلوبهم التشبيه ، وأن ذات الخالق سبحانه ملاصقه للعرش ،
وهي بقدر العرش ، ويفضل من العرش أربع أصابع ، وسموا
مثل هذا من أشياخهم ، وثبت عندهم أنه إذ نزل انتقل الى
السماء الدنيا ، فخلت منه ست سموات ، فاذا دعى أحدهم الى
التنزيه وقيل له لبس كما خطر لك ، إنما ينبغي أن تقرأ الأحاديث
كما جاءت من غير مساكنة ماتومهم ، صعب هذا عليه لوجين :
أحدهما لغلبة الحس عليه والحس على العوام أغلب . والثاني
لما قد سمعه من ذلك من الأشياخ الذين كانوا أجمل منه .
فالتحاطب لهذا مخاطر بنفسه . ولقد بلغني عن بعض من كان
يتدين أنه ممن قد رسخ في قلبه التشبيه أنه سمع من بعض
العلماء شيئاً من التنزيه فقال : والله لو قدرت عليه لقتلته .
فإنه الله أن تحدث مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله ^(١) ، فانه

(١) ماذا يريد أن يقول ؟ هل ندع العامي المشبه على تشبيهه لابن له ؟ ولم لا ؟
أو لم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم التوحيد بأن رسخ في نفسه الشرك ؟

لا يزول ما في نفسه ، ومخاطر الحدث له بنفسه فكذلك كل ما يتعلق بالاصول .

٣٢٠ - حفظ الحدود واخلاص العمل هما ميزان المؤمن

لا يترك من الرجل طنطنته وماتواه يفعل من صلاة وصوم وصدقة وعزلة عن الخلق . إنما الرجل هو الذي يراعي شئنين ، حفظ الحدود ، واخلاص العمل .

فكم قد رأينا متعبداً يخرق الحدود بالغبية وفعل مالا يجوز مما يوافق هواه . وكم قد اعتبرنا على صاحب دين أنه يقصد بفعله غير الله تعالى . وهذه الآفة تزيد وتنقص في الخلق . فالرجل كل الرجل هو الذي يراعي حدود الله ، وهي ما فرض عليه وألزم به ولا يتعداها الى هواه ويحسن القصد ، فيكون عمله وقوله خالصاً لله تعالى ، لا يريد به الخلق ولا تعظيمهم له .

قرب خاشع ليقال ناسك ، وصامت ليقال خائف ، وتارك للدنيا ليقال زاهد . وعلامة الخالص أن يكون في جلوته كخلوته . وربما تكلف بين الناس التبسم والانسباط لينسجم عنه اسم زاهد . فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار فاذا جن الليل فكانه قتل أهل القرية .

واعلم أن المعمول معه^(١) لا يريد الشركاء . فالخالص مفرد له

(١) أي الله سبحانه وتعالى .

بالقصد ، والمرائي قد أشرك ليحصل له مدح الناس ، وذلك
 ينتقلب . لأن قلوبهم بيد من أشرك معه ، فهو يقلبها عليه لآله .
 فالموفق من كانت معاملته باطنة واعماله خالصة ، وذلك
 الذي تحبه الناس وان كرهوا ، كما يعتقدون المرائي وان زاد
 تمبده . ثم ان الرجل الموصوف بهذه الحصال لا يتناهى عن
 كمال العلوم ولا يفسر عن طلب الفضائل ، فلأ الزمان أكثر
 مما يسعه من الخير ، وقلبه لا يفتقر عن العمل القلبي . الى أن
 يصير شغله بالحق سبحانه وتعالى .

٣٢١ - الدفن في مقبرة احمد بن حنبل

رأيت خلقاً يفرطون في أديانهم ثم يقولون : احملونا اذا متنا
 الى مقبرة أحمد . أتوهم ما سمعوا أن رسول الله ﷺ استمع
 من الصلاة على من عليه دين وعلى القال^(١) وقال : ما ينفعه
 حلالي عليه . ولقد رأيت أقواماً من العلماء حملهم حب الصيت
 على أن استخرجوا اذا من السلطان فدفنوا في دكة أحمد بن حنبل
 وهم يعلمون أن هناك خلقاً بعضهم على بعض ، وما فهم الا من
 يعلم أنه ما يستحق القرب من مثل ذلك فابن احتقار النفوس ؟
 أما سمعوا أن عمر بن عبد العزيز قيل له تدفن في الحجرة

(١) اللؤلؤ السرقة من الغنيمة ، ولعل منه اخذ اموال الدولة بلا حق

فقال : لأن القى الله بكل ذنب ما خلا الشرك أحب الي من ان أرى نفسي أهلاً لذلك . لكن العادات وحب الرياسة غلبت على هؤلاء ، فبقي العلم يجري على الألسن عادة لا للعمل به ، ثم آل الامر الى جماعة خالطوا السلاطين ، وبأثروا الظلم ، يزاحمون على الدفن بمقبرة أحمد ، وبوصوت بذلك ، فليتهم أوصوا بالدفن في موضع فارغ ، إنما يدفنون على موتى ، ويخرج عظام أولئك فيحشرون على ما ألقوا من الظلم حتى في موتهم ، وينسون أنهم كانوا من أعوان الظلمة . اتري ما علموا أن مساعد الظالم ظالم ؟ وفي الحديث : كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للظلمة .

قال السجبان لأحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟ فقال : لا أنت من الظلمة . إنما أعوان الظلمة من أعانك في أمر .

٣٣٢ - الحسد في طبيعة ابن آدم ولكن عليه أن لا يعمل به

رأيت الناس يذمون الحاسد ويبالفون ويقولون : لا يحسد إلا شرير بعادي نعمة الله ، ولا يرضى بقضائه ، ويبخل على أخيه المسلم . فتظرت في هذا فما رأيته كما يقولون . وذاك ان الانسان لا يجب أن يرتفع عليه أحد ، فاذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو ولم يجب أن يرتفع عليه ، وود أن لو

لم ينل صديقه ما ينال ، أو أن ينال هو ما نال ذلك لئلا يرتفع عليه . وهذا معجون في الطين . ولا لوم على ذلك ، إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل . وكنت أظن أن هذا قد وقع لي عن سرّي وفحصي ، فرأيت الحديث عن الحسن البصري قد سبقني إليه .

قال أخبرنا عبد الحائق بن عبد الصمد قال أخبرنا ابن النقوم قال أخبرنا الخالص^(١) قال حدثنا البغوي قال حدثنا أبو روح قال حدثنا محمد بن الحسين عن هشام عن الحسن ، قال : ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خلق معه الحسد ، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء .

٣٣٣- كثرة النساء مضرة على المرء

من أعظم الضرر الداخل على الانسان كثرة النساء ، وانه أولاً يتشتت همه في محبتهم ، ومداراتهم وغيرتهم ، والاتفاق عليهم ، ولا يأمن إحداهم أن تكرهه وتريد غيره ، فلا يتخلص إلا بقتله ، ولو سلم من جميع ذلك لم يسلم في الكسب لمن ، فان سلم لم ينج من السامة لمن أو لبعضهم ، ويطلب مالا بقدر عليه من غيرهم ، حتى أنه لو قدر على نساء بغداد كلهن ، فقدمت امرأة مستورة من غير البلد ، ظن أنه يجد (١) لم أحقق هذه الاسماء وما أدري لعل فيها تحريفاً .

عندها مالبس عندهن . ولعمري إن في الجدة لذة ، ولكن رب مستور إذا انكشف اقتضح ، وإذا سلم من كل أذى يتعلق بهن أنك بدنه في الجماع ، فيكون طلبه للالتذاذ مانعاً من دوام الالتذاذ ، ورب لقمة منعت لقمات ، ورب لذة كانت سبباً في انقطاع لذات . والعاقل من يقتصر على الواحدة إذا وافقت غرضه ، ولا بد أن يكون فيها شيء لايوافق ، إنما العمل على الغالب . فتوهب الحلة الرديئة للمجيدة ^(١) ، وينبغي أن يكون النظر الى باب الدين قبل النظر الى الحسن ، فإنه إذا قل الدين لم ينتفع ذو مروءة بتلك المرأة .

وما يهلك الشيخ سريعاً الجماع ، فلا يغتر بما يرى من انبساط الآلة وحصول الشهوة ، فإن ذلك مستخرج من قوته مالا يعود مثله ، فلا ينبغي أن يغتر بحركة وشهوة ولا يقرب من النساء ان كان له رأي في البقاء .

٣٢٤- لا يرجح خير من قليل العقل

إذا رأيت قليل العقل في أصل الوضع فلا ترج خير . فاما ان كان وافر العقل لكنه يغلب عليه الهوى فارجح . وعلامة ذلك أنه يدبر أمره في جهله فيستتر من الناس إذا أتته فاحشة ، ويراقب في بعض الاحوال ، ويبكي عند الموعظة ،

(١) أي يتفر لها الصفة السيئة ليها من اهل الصفة الحسنة .

ويحترم أهل الدين ، فهذا عاقل مغلوب بالهوى . فإذا انتبه
بالندم خنس شيطان الهوى ، وجاء ملك العقل . فاما اذا
كان قليل العقل في الرضع ، وعلامته أن لا ينظر في عاقبة عاجلة
ولا آجلة ولا يستحي من الناس أن يروه على فاحشة ، ولا
يدبر أمر دنياه ، فذاك بعيد الرجاء . وقد يندر من هؤلاء
من يفلح ، ويكون السبب فيه خيرة من العقل غطى عليها
كثرة الهوى . فمثلهم كمثل مصروع أفاق .

٣٢٥- يجب الاحتراز مما يجوز أن يقع

ينبغي الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون ، ولا ينبغي
أن يقال : الغالب السلامة . وقد رأينا من نزل مع الحبل في
سفينة فاضطربت ففرق من في السفينة وان كان الغالب السلامة
وكذا ينبغي أن يقدر الانسان في نفقته وان رأى الدنيا مقبلة
لجواز ان تنقطع تلك الاسباب . وحاجة النفس لا بد من قضائها ،
فاذا بذّر وقت السعة فجاء وقت الضيق لم يأمن أن يدخل
في مداخل سوء ، وان يتعرض بالطلب من الناس . وكذلك
ينبغي للمعافي أن يعد للرض ، وللقوي ان يتنبا للهزم .

وفي الجملة فالنظر في العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن
العقلاء . فاما النظر في الحالة الراهنة فحسب فعالة الجهة المحي

مثل أن يرى نفسه معافى وينسى المرض ، أو غنياً وينسى الفقر ، أو يرى لذة عاجله وينسى ما تجني عواقبها ، وليس للعقل شغل إلا النظر في العواقب ، وهو يشير بالصواب من أين يقبل .

٣٢٦ - اصبر على البلاء وتعبّد بالدعاء

يبين ايمان المؤمن عند الابتلاء ، فهو يبالي في الدعاء ولا يرى أثراً للاجابة ، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس ، لعلمه أن الحق ^(١) أعلم بالمصالح ، أو لأن المراد منه الصبر أو الايمان فانه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره ، أو يريد كثرة اللجوء والدعاء . فاما من يريد تعجيل الاجابة ويتذمر إن لم تتعجل فذاك ضعيف الايمان . يرى أن له حقاً في الاجابة ، وكأنه يتقاضى اجرة عمله . أما سمعت قصة يعقوب عليه السلام ؟ بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير فلما ضم الى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله ^(٢) وقال : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » . وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى « أم حسبكم أن تدخلوا

(١) الله عز وجل (٢) انظر الفصل « ١٠١ »

الجنة ولا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه من نصر الله ألا إن نصر الله قريب .

ومعلوم ان هذا لا يصدر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج .

ومن هذا قول رسول الله ﷺ : « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل » .

قيل له : وما يستعجل ؟

قال : يقول ، دعوت فلم يستجب لي .

فياك إياك ان تستطيل زمان البلاء ، وتضجر من كثرة الدعاء ، فانك مبتلى بالبلاء ، متعبد بالصبر والدعاء ، ولا قياس من روح الله وان طال البلاء .

٣٢٧- لذات الدنيا منغصة ولا تقي بعواقبها في الآخرة

تفكرت في سبب دخول جهنم فاذا هو المعاصي ، فنظرت في المعاصي فاذا هي حاصلة من طلب اللذات ، فنظرت في اللذات فرأيتهن خدعاً ليست بشيء ، وفي ضمنها من الاكدار ما يصيرها نغصاً فتخرج عن كونها لذات ، فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الاكدار ؟ فمن اللذات

الزنا ، فان كان المراد اراقة الماء فقد يراق في حلال ، وان كان
في معشوق فراد النفس دوام البقاء مع المعشوق ، فاذا كان ملكك
فالمملوك مملوك ، وان هو قارب ساعة ثم فارقه فحسرة الفراق
تربي على لذة القرب . وان كان ولد من الزنا فالفضيحة الدائمة .
والعقوبة التامة ، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق .

وأما الجاهل فيرى لذته في بلوغ ذلك الغرض ، وينسى
ما يجني بما يكدر عيش الدنيا والآخرة .

ومن ذلك شرب الخمر ، فانه تنجيس للقم والثوب ، وابعاد
للعقل ، وتأثيراته معلومة عند الخالق والمخلوق . فالعجب ممن
يؤثر لذة ساعة تجني عقاباً وذهاب جاء . وربما خرج بالعريضة
الى القتل .

وعلى هذا ففس جميع المذوقات ، فان لذاتها اذا وزنت
بميزان العقل لا تفي بمعايير عواقبها القباح في لذة الدنيا
والآخرة . ثم هي نفسها ليست بكبير شيء . فكيف تباع
الآخرة بمثل هذا ؟

سبحان من أنعم على أقوام كلما لاحت لهم لذة نصبوا
ميزان العقل ونظروا فيما يجني وللمعوا ما يؤثر تركها فرجعوا
الاصح . وطمس على قلوب فهي ترى صورة الشيء وتنسى جنائياته .
ثم العجب انا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليعدو

في الطريق فيقال : ساع^(١) .

فيغلب هواه لطلب ما هو أعلى وهو المدح . كيف لا يترك محرماً ليمدح في الدنيا والاخرى ؟

ثم قدر^(٢) حصول ما طلبت من الذات وفعالها ، واحسب انها قد كانت وقد هانت وتخلصت من محنها . وأين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة ؟ ذهب التعب وحصل العلم . وأين لذة البطال ؟ ذهبت الراحة واعقت الندم .

٣٢٨ - اعمل بمقتضى عقلك لا بمجرد الحس

من وقف على موجب الحس هلك ، ومن تبع العقل سلم . لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا . وأما العقل فإنه ينظر الى المخلوقات ، فيعلم وجود خالق قد منع وأباح وأطلق وحظر ، وأخبر : أني سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودي عندكم بترك ما تشتهون طاعة لي . واني قد بنيت لكم داراً غير هذه لاثابة من بطيع ، وعقوبة من يخالف . ثم لو ترك الحس وما يشتهي مع أغراضه قرب الامر ، إنما يزني فيجلد . ويشرب الخمر فيعاقب . ويسرق فيقطع

(١) اي عداء : بطل في المدح (٢) اي الغرض

ويفعل زلة فيفضح بين الخلق . ويعرض عن العلم الى البطالة
 فيقع الندم عند حصول الجهل .
 ثم انا نرى الكثير من عمل بمقتضى عقله قد سلت دنياه
 وآخوته . ومميز بين الخلق بالتعظيم . وكانت عيشه في لذاته
 (غالباً) خيراً من عيش موافق للهوى . فليعتبر ذو الفهم بما قلت
 وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم .

٣٢٩ - العاقل من حفظ دينه بترك الحرام

العجب لمؤثر شهوات الدنيا ألا يتدبر أمرها بالعقل قبل ان
 يصير الى منقولات الشرع ؟
 إن أعظم لذات الحس الوطء فالمرأة المستحسنة إنما يكون
 حال كمالها من وقت بلوغها الى الثلاثين فاذا بلغت أثر فيها ،
 وربما ابيضت شعرات من رأسها فينفر الانسان منها . وقد
 يقع اللمل قبل ذلك ، وطول الصعبة يكشف العيوب .
 وما عيب نساء الدنيا بابلغ من قوله تعالى « لهم فيها أزواج
 مطهرة » . فلو تفكر الانسان في جسد ملوئ بالنجاسة ما طاب
 له ضمّه (١) ، غير أن الشهوة تغطي عين الفكر . فالعاقل من
 حفظ دينه ومروءته بترك الحرام ، وحفظ قوته في الحلال
 فأنفقها في طلب الفضائل من علم أو عمل ، ولم يسع في اقتناء
 عمره وتشيت قلبه في شيء لا تحسن عاقبته :

(١) جسد الفتاة الفاتنة ، كيس من الحرير الناعم ، فيه الدم وبقايا الطعام
 والافذار ... فن تصور ماذا فيه ، لم تفتنه نومة الكيس .

ما في موادجكم من مهجتي عوض إن مت شوقا ولا فيها لما ثمن
ومعوم من رأينا من الكبار غلبت عليهم شهوة الوطء فانهم دمت
اعمارهم ، ورحلوا سريعا . وقد رأينا من العقلاء من زجر
نفسه عن هذه المحنة ولم يستعملها الا وقت الحاجة ، فبقي لهم
سواد شعورهم وقوتهم حتى تمتعوا بها في الحياة وحصلوا المناقب ،
وعرفت منهم النفوس قوة العزيمة فلم تطالبهم بما يؤذي .

٣٣٠ - رؤية النبي عليه السلام في المنام وكييفيتها

قد أشكل على بعض الناس رؤية النبي ﷺ وقوله : من
رآني في المنام فقد رآني . فقال : ظاهر الحديث انه يراه
حقيقة ، وفي الناس من يراه شيخاً وشاباً ومريضاً ومعافى .
فالجواب انه من ظن أن جسد رسول الله ﷺ المودع
في المدينة خرج من القبر وحضر في المكان الذي رآه
فيه فهذا جهل لا جهل يشبهه . فقد يراه في وقت واحد الف
شخص في الف مكان على صور مختلفة ، فكيف يتصور بهذا
في شخص واحد ! وإنما الذي يرى مثاله لا شخصه . فيبقى
(من رآني فقد رآني ، معناه قد رأى مثالي الذي يعرفه
الصواب وتحصل به الفائدة المطلوبة .

فان قيل : فما تقولون في رؤية الحق سبحانه ؟ فنقول :

يرى مثالا لا مثالا. والمثال لا يفتقر الى المساواة والمشابهة كما قال تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فغربه مثالا للقرآن وانتفاع الخلق به . ويوضح هذا أنه إنما يرى من رأى الحق سبحانه وتعالى على هيئة مخصوصة والحق سبحانه وتعالى منزّه قد توحّد فوضع ماقلنا (١) .

٣٣١ - ماذا يجب أن يدرس طالب العلم

هذا فصل غزير الفائدة . اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الايغال في كل علم الى منتهاه . غير أن العمر قصير ، والعلم كثير . فينبغي للانسان أن يقتصر من القراءات اذا حفظ القرآن على العشر (١) . ومن الحديث على الصحاح ، والسنن والمسائيد المصنفة . فان علوم الحديث قد انبسطت زائدة في الحد ، وما في هذا الجزء ، وإنما الطرق تختلف ، وعلم الحديث يتعلق ببعضه ببعض وهو مشتهى ، والفقهاء يسون علم الكسالى ، لانهم يتشاغلون بكتابته وسماعه ، ولا يسكادون يعانون حفظه ، ويفوتهم المهم وهو الفقه . وقد كانت المحدثون قديماً هم الفقهاء ، ثم صار الفقهاء

(١) اما في العقل فالرؤية مستحيلة ، اما في النصوص فنيا « الى ربها فاطرة » ونفيا « لا تدركه الابصار » وامور الآخرة لا تقاس على امور الدنيا .
(١) ومازاد عن الشر شاذ

لا يعرفون الحديث ، والمحدثون لا يعرفون الفقه ، فمن كان ذاهمة
ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم ، وجعل جل شغله الفقه ،
فهو أعظم العلوم وأهمها . وقد قال أبو زرعة (١) :

كتب إلي أبو ثور (٢) : فإن هذا الحديث قد رواه ثمانية
وتسعون رجلا عن رسول الله ﷺ ، والذي صح منه طرق
بسيرة ، فالتشاغل بغير ماصح يمنع التشاغل بما هو أهم ، ولواتسع
العمر كان استيفاء كل الطرق في كل الاحاديث غاية في الجودة ،
لكن العبر قصير .

ولما تشاغل بالطرق مثل يحيى بن معين فاته من الفقه كثير ،
حتى أنه سئل عن الحائض أيجوز أن تغسل الموتى ؟ فلم يعلم ،
حتى جاء أبو ثور فقال : يجوز ، لأن عائشة رضي الله عنها قالت :
كنت أوجّل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض . فيحیی أعلم
بالحديث منه ، ولكن لم يتشاغل بفقهه (٣) . فإنا أنهى أهل الحديث
أن يشغلهم كثرة الطرق .

ومن أقبح الاشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد
كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها (٤) .

(١) هما اثنان من اعلام المحدثين : الرازي والدمشقي

(٢) ابراهيم بن خالد ائمة الفقه والحديث توفي سنة ٢٤٠

(٣) المحدثين صياغة والفقهاء اطباء

(٤) وأقبح منه ان يفتي بلا علم .

وكذلك انهى من يتشاغل بالتزهد والانقطاع عن الناس ان يعرض عن العلم . بل ينبغي أن يجعل لنفسه منه حظا ليعلم ان زل كيف يتخلص .

٣٣٢ - التقلل من الطعام وليس من الدين

معرفة الله سبحانه لا تحصل إلا لكامل العقل ، صحيح المزاج . والترقي الى محبته بذلك يكون . وان أقواماً قلت عقولهم وفسدت أمزجتهم ، فساءت مطاعهم ، وقلّت فتخيلات لهم الخيالات الفاسدة ، فادعوا معرفة الحق ومحبته ، ولم يكن عندهم من العلم ما يصددهم عما ادعوا فهلكوا .

وليعلم ان في المأكولات افساد العقل ، وفيها ما يزيد في السوداء ، فيوجب الما ليخوليا ، فترى صاحبها يحب الحلوة ، ويهرب من الناس ، ويقلل الطعام ، فيقوى مرضه فيتخايل له خيالات يظنها حقاً .

فمنهم من يقول : اني رأيت الملائكة .

وفهم من يخرج به الامر الى دعوى محبة الحق والوله فيه ولا يكون ذلك عن أصل معتمد عليه . وانما العاقل العالم يسير في الطريق بين الرقيقين العلم والعقل . فان تقلل من الطعام فبعقل . وحدث التقلل ترك فضول الطعام ، وما يخاف ثمره ، من

شبهة أو شهوة ، يجذر تعودها ، وأما زيادة التثقل مع القدرة
فليس لعقل ولا شرع ، إلا أن يكون الفقر عم فيتثقل ضرورة .

ومن تأمل حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجددم يأخذون
بمقدار ، ولا يتركون حظوظ النفس التي تصلحها . وأحسن
الامر وأعدله قول رسول الله ﷺ : ثلث طعام ، وثلث شراب ،
وثلث نفس .

وقد قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض :
أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا .

وكان ﷺ يشاور الأطباء ويحتجهم ويحث على التداوي
ويقول : ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء فتداؤوا .

فجاء أقوام جهلوا العلم والحكمة في بنيان الابدان . ففهم
من أقام في الجبال يأكل البلوط فأصابه القولنج . ومنهم من
قلل المطعم إلى أن ضعفت قواه . ومنهم من اقتصر على نبات
الصحراء . ومنهم من كان لا يتقوت إلا الباقلاء والشعير .
فأوجبت هذه الأفعال أمراضاً في البدن ، وترقت إلى إفساد
العقل . واتفق لهم قلة العلم ، إذ لو علموا لفهموا أن الحكمة
تنهى عن مثل هذا ، فإن البدن مبني على اخلاط إذا اعتدلت
وقعت السلامة ، وإذا زاد بعضها وقع المرض . وأكثر هؤلاء
مرضوا وتعجل لهم الموت .

وفيه من خرج إلى التسودن^(١) . وفيهم من لاحت له
لوائح غادى رؤية الملائكة إلى غير ذلك .

فأما أهل العلم والعقل فهريهم من الخلق لحوف المعاصي
ورؤية المنكر . وفيهم من قويت معرفته فشغلته معرفة الحق
ومحبته عن ملاقاته الخلق .

فهذه هي الخلوات الصافية ، لأنها تصدر عن علم وعقل
فتمتص البذر ، لأنه ناقة توصل . ولا ينبغي أن يتماون
بالمأكولات ، خصوصاً من لم يعتده ، ولا يلبس الصوف على
البدن من لم يعتده . ولينظر في طريق رسول الله ﷺ
وصحابته ، فانهم القدوة . ولا يلتفت إلى بنيات الطريق ، فيقال :
فلان الزاهد قد أكل الطين ، وفلان كان يمشي حافياً ، وفلان
بقي شهراً ما أكل ، فان المحققين من هؤلاء المخلصين لله تعالى
على غير الجادة ، لأن الجادة اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه
وما كانوا يفعلون . هذا ولعمري انه قد كان فيهم من يقنع
بالمذقة من اللبن ، ويصبر الأيام عن الطعام . ولكن اما لضرورة ،
أو لأنه معتاد لذلك ، كما يعتاد البدوي شرب اللبن وحده
ولا يؤذيه ذلك . وفي الحديث : « عودوا كل بدن ما اعتاده »
وفي المتزهدين من أخرج ماله كله عن يده زهداً . ومعلوم أن

(١) كلمة عامية عباسية لا تزال مستعملة في عامية الشام .

الحاجات لا تنقضي ، فلما احتاج تعرض للطلب ، وافتقر الى اخذ مال من يد من يعلم أنه ظالم وبذل وجهه . وقد كانت الصعابة تتجر وتحفظ المال . وجهال المتزهدين يرون جمع المال ينافي الزهد . فمختصة هذا الفصل أن أقول :

ينبغي لمن رزق فيها أن يسعى في صلاح بدنه ، ولا يحمل عليه ما يؤذي ، ولا يناول من القوت ما لا يوافقه ، ولا يضع ماله ، وليجتهد في استثماره لئلا يحتاج ، فانه مانافق زاهد إلا لأجل الدنيا .

ولينظر في سير الكاملين من السلف ولينشغل بالعلم ، فانه الدليل . فحينئذ يحمله الامر على الخلوة بربه ، والاشتغال بحبه ، فيكون مظهر منه ثمرة نضجة لافجة . والله الموفق .

٣٣٣ - لاتنق صدراً بقلّة المال، وعليك بالصبر

ما رأيت أظرف^(١) من لعب الدنيا بالعقول . وقد سمعنا ورأينا جماعة من الفطناء الكاملين العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالجنانين . فولوا الولايات فخرجوا الى القتل والضرب والحبس والشم وذهاب الدين ، والمباشرة للظلم كله لأجل دنياه تذهب سريعاً . وهي في مدة اقامتها معجونة بالنفص .

فيا أيها المرزوق عقلاً لاتنفسه حقاً ، ولا تطفئ نوره ،

واسمع مانشير به ، ولا قلنت الى بكاء طفل الطبع لفوات
غرضه ، فانك ان رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه ، ولم يمكنك
تأديبه ، فيبلغ جاهلا فقيراً :

لانه عن أدب الصغير ولو شكا ألم التعب
ودع الكبير لشأنه كبر الكبير عن الادب

واعلم أن زمان الابتلاء ضيف قراء الصبر ، كما قال أحمد
ابن حنبل : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ،
وانما أيام قلائل .

فلا تنظر الى لذة المترفين ، وتلج عواقبهم ، ولا تضق
صدراً بضيق المعاش ، وعلل الناقة بالحدو تسير :

طاول بها الليل مال النجم أم جنحاً وماطل النوم ضن الجفن أم سمحاً
فان تشكت فعلها المجرة من ضوء الصباح وعدّها بالرواح ضحى
وقد كان اهدي الى أحمد بن حنبل هدية فردّها ، ثم قال
بعد سنة لاولاده : لو كنّا قبلناها كانت قد ذهبت .

ومر بشر على بشر فقال له صاحبه : أنا عطشان . فقال :
البشر الاخرى . فمرّ عليها فقال له : الاخرى .

ثم قال : كذا تقطع الدنيا .

ودخلوا الى بشر الخافي وليس في داره حصير ، فقيل له :
ألا بهذا تؤذى . فقال : هذا امر ينقضي . وكان لداود الطائي

دارياوي اليها ، فوقع سقف فانتقل الى سقف ، الى أن مات في الدهليز .
 فهؤلاء الذين نظروا في عواقب الامور . وبعد هذا فلا اطالبك
 بهذه الرتبة ، بل أقول لك : إن حصل لك شيء من المباح لا من
 فيه ولا أذى ، ولانثته بسؤال ، ولا من يد ظالم تعلم أن
 ماله حرام أو شبهة ، فافسح لنفسك في مباحاتها بمقدار ما تحتاج
 اليه . وكن مقدراً للنفقة غير مبذر . فإن الحلال لا يحتل
 السرف ، ومتى أسرفت احتجت الى التعرض للخلق والتناول
 من الاكدار . وإن ضاق بك أمر فاصبر ، فإن ضعف الصبر
 فسل فاتح الابواب ، فهو الكريم وعنده مفاتيح الغيب .

واباك أنت تبذل دينك بتضع للخلق ، أو بتقرب الى الامراء
 وتستعطي أموالهم . واذكر طريق السلف . كان ابن سمعون^(١)
 له ثياب يجلس فيها للناس ثم يطويها الى المجلس الآخر ورثها عن
 أبيه بقيت أربعين سنة . وكانت ميمونة بنت ساقولة^(٢) تعظ
 الناس ولها ثياب قد بقيت أربعين سنة .

ومن صفا نظره وتمذب لفظه ، نفع وعظه ، ومن كدر
 كدّر عليه . والحالة العالية في هذا اقبال القلب على الله

(١) وفي نسخة ابن مسعود وهو غلط . وابن سمعون هو محمد بن احمد مولده
 ووفاته ببغداد كان يضرب به المثل فيقال : اوعظ من ابن سمعون توفي سنة ٣٨٧
 (٢) او ساقولة واعظة مشهورة توفيت سنة ٣٩٣

عز وجل ، والتوكل عليه والنظر اليه ، والتفات القلب عن
الخلق ، فان احتجت فاسأله ، وان ضعفت فارغب اليه .
ومنى ما كنت الاسباب انقطعت عنه ، ومنى استقام باطنك
استقامت لك الامور .

٣٣٤ - لاتحسن الظن بالاصدقاء وعلق قلبك بالله

رايت نفسي تأنس بمخطاء نسيم اصدقاء فبعثت التجارب
عنهم فاذا اكثروم حساد على النعم ، واعداء لا يسترون زلة ،
ولا يعرفون جليس حقاً ، ولا يواسون من مالم صديقاً .
فتأملت الامر ، فاذا الحق سبحانه يغار على قلب المؤمن أن
يجعل له شيئاً يأنس به ، فهو يكدر عليه الدنيا وأهلها ليكون
أنسه به . فينبغي أن يعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق
بل تحسبهم اعداء . ولا تظهر شرك لخلق منهم ، ولا تعدن
من يصلح لشدة لا ولداً ولا أخاً ولا صديقاً ، بل عاملهم
بالظاهر ، ولا تخالطهم إلا حالة الضرورة بالتوقي لحظة ثم انفر
عنهم وأقبل على شأنك متوكلاً على خالقك ، فانه لا يجلب الخير
سواه ، ولا يصرف السوء إلا إياه ، فليكن جليستك وأنيسك
وموضع توكلك وشكواك ، فان ضعف بصرك
فاستغث به ، وان قل بقيتك فسه القوة ،

ولياك أن تميل الى غيره ، فانه غيور ، وأن تشكو من
اقداره ، فربما لم يجتعل^(١) . أوحى الله عز وجل الى يوسف عليه
السلام : من خلصك من الجب ؟ من فعل ما فعل ؟
قال : انت .

قال : فلم ذكرت غيري . فلا طيلن حبسك ، أو كما قال .
هذا وإنما تعرض يوسف عليه السلام بسبب مباح « اذكرني
عند ربك » « ويوم حين اذ اعجبتمكم كثرتكم » ، وما أعرف
العيش إلا لمن يعرفه ، ويعيش معه ، ويتأدب بين يديه ، في
حركاته وكلماته كأنه يراه ، ويقف على باب طرفه حارساً من
نظرة لا تصلح . وعلى باب لسانه حافظاً له من كلمة لا تحسن
وعلى باب قلبه حماية لمسكنه من دخول الاغيار . ويستوحش
من الخلق مشغلاً به . وهذا يكون على سيرة الروحانيين .
فاما الخلط فالكدر غالب عليه . والحق لا يطلب إلا الارتفاع
قال القائل :

الا لأحب السير إلا مصاعداً ولا البرق إلا ان يكون يمانياً

٣٣٥ - انظر الى المقصود من العلم لا الى صورته فحسب

رأيت أكثر العلماء مشغولين بصورة العلم دون فهم حقيقته
ومقصوده . فالقارئ مشغول بالروايات ، هالكف على الشواذ

(١) الذي اعرفه انه لا يجوز ان يسمى الله او يوسف إلا بما وصف به نفسه
فان سمى نفسه حكيماً لم نسمه عاقلاً ، وان كانت الحكمة عندنا هي العقل .

يرى أن المقصود نفس التلاوة ، ولا يتلح عظمة التكلم ،
ولا زجر القرآن ووعده وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع
عنه ، فتراه يتروخ في الذنوب ، ولو فهم لعلم ان الحجة عليه
أقوى ممن لم يقرأ .

والحدث يجمع الطرق ، ويحفظ الاسانيد ، ولا يتأمل
مقصود المنقول ، ويرى أنه قد حفظ على الناس الاحاديث .
فهو يرجو بذلك السلامة . وربما ترخص في الخطايا ظنا منه ان
ما فعل في الشريعة يدفع عنه .

والفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدال الذي
يقوّي به خصامه ، والمسائل التي قد عرف فيها المذهب قد
حصل بما يفتي به الناس ما يرفع قدره ، ويمحو ذنبه ، وربما
هجم على الخطايا ظنا منه ان ذلك يدفع عنه ، وربما لم يحفظ
القرآن ولم يعرف الحديث وانها ينهيات عن الفواحش بزجر
ورق ، وينضاف إليه مع الجهل بها حب الرياضة ، وإثارة
الغلبة في الجدل ، فتزيد قسوة قلبه . وعلى هذا اكثر الناس ،
صور العلم عندهم صناعة ، فهي تكسبهم الكبر والحماقة .

وقد حكى بعض المعتبرين عن شيخ افني عمره في علوم
كثيرة ، أنه فتن في آخر عمره بفسق اصر عليه ، وبارز الله
به ، وكانت حاله تعطي بمضونها ان علمي يدفع عني شر ما أنا

فيه ولا يبقى له أثر . وكان كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة ،
فلا يرى عنده أثر الخوف ، ولا ندم على ذنب .

قال : فتغير في آخر عمره ولازمه الفقر ، فكان يلقي
الشدائد ولا ينتهي عن قببح حاله ، الى ان جمعت له يومه
قراربط على وجه الكذبة فاستحيا من ذلك وقال : يارب الى
هذا الحد ؟

قال الحاكي ^(١) : فتعجبت من غفلته كيف نسي الله عز
وجل ، وأراد منه حسن التدبير له والصيانة وسعة الرزق ،
وكانه ماسمع قوله تعالى : وأن لو استقاموا على الطريقة
لاستقينام ماء غدقا ، ، ولا علم ان المعاصي تسد أبواب الرزق .
وان من ضيع امر الله ضيعه الله . فما رأيت علماً ما افاد كعلم
هذا ، لان العالم إذا زل انكسر ، وهذا مصر لا تؤله معصية ،
وكانه يجوز له ما يفعل ، أو كان له التصرف في الدين تحليلًا
وتحريراً . فمرض عاجلاً ومات على أقبح حال .

قال الحاكي : ورأيت شخصاً آخر حصل صور علم فله
افادته . كان أي فسق أمكنه لم يتعاش منه ، وأي أمر
لم يعجبه من القدر عارضه بالاعتراض على المقدّر واللوم .

فماش اكدر عيش ، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج . وهؤلاء
لم يفهموا معنى العلم ، وليس العلم صور الالفاظ ، انما المقصود
فهم المراد منه ، وذلك يورث الخشية والخوف ، ويرى المنة
للنعم بالعلم ، وقوة الحجة له على المتعلم . نسأل الله عز وجل
مقظة تفهمن المقصود ، ونعرفنا المعبود .

ونعوذ بالله من سبيل رعاي يتسمون بالعلماء لاينهم
مايملون ، ويعلمون ولايعملون ، ويتكبرون على الناس
ما لايعملون ، ويأخذون عرض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون ،
غلبتهم طباعهم ، وماراضتهم علومهم التي يدرسون ، فهم أخس
حالا من العوام الذين يجهلون « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا
وهم عن الآخرة هم غافلون ،

٣٣٦ - على الفقيه أن يأخذ من كل علم بطرف

الفقيه أن يطالع من كل فن طرفاً من تاريخ وحديث ولغة
وغير ذلك . فان الفقه يحتاج الى جميع العلوم . فليأخذ من
كل شيء منها مهتاً .

ولقد رأيت بعض الفقهاء يقول : اجتمع الشبلي وشريك
القاضي (١) فاستعجبت له كيف لايدري بعد ماينها .

«١» القاضي المالم ولي قضاء الكوفة المهدي ، وله الحادثة المشهورة مع عيسى
ابن موسى الوالي ، وهو احدهن نبع من قبيلة النخع .

وقال آخر في مناظرة : كانت الزوجية بين فاطمة وعلي رضي الله عنها غير منقطعة الحكم ، فلماذا غسلها فقلت له : وبحبك فقد تزوج أمانة بنت زينب وهي بنت اخنأ فانقطع . ورأيت في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي من هذا ما يدهش من التخليط في الاحاديث والتواريخ فجمعت من التخليط في كتاب .

وقد ذكر في كتاب له سماه المستظري وعرضه على المستظهر بالله أن سليمان بن عبد الملك بعث الى أبي حازم فقال له : ابعث لي من فطورك ، فبعث اليه نخالة مقلوبة فأفطر عليها ، ثم جامع زوجته فبعثت بعبد العزيز . ثم ولد له عمر وهذا تخليط قبيح ، فانه جعل عمر بن عبد العزيز ابن سليمان بن عبد الملك ، فجعل سليمان جده ، وانما هو ابن عمه .

وقد ذكر أبو المعالي الجويني في أواخر كتاب الشامل في الاصول . قال : قد ذكرت طائفة من الثقات المعتمدين بالبحث عن البواطن ان الحلاج والجبائي القرمطي وابن المقفع تواصلوا على قلب الدول وافساد المملكة ، واستعطاف القلوب وارتداد كل منهم قطراً . فظن الجبائي في الاحساء ، وتوغل ابن المقفع في اطراف بلاد الترك ، وظن الحلاج ببغداد فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن بلوغ الامنية لبغداد أهل بغداد عن الانخداع ، وتوفر ظنهم وصدق فراستهم .

قلت : ولو أن هذا الرجل أو من حكى عنه عرف التاريخ لعلم أن الحلاج لم يدرك ابن المقفع ، فإن ابن المقفع (١) أمر بقتله المنصور فقتل في سنة أربع وأربعين ومائة . وأبو سعيد الجبائي القرمطي ظهر في سنة ست وثمانين ومائتين . والحلاج قتل سنة تسع وثلاثمائة . فزمان القرمطي والحلاج متقاربان . فاما ابن المقفع فكلا . فينبغي لكل ذي علم أن يساهم بباقي العلوم فيطالع منها طرفا . إذ لكل علم بعلم تعلق ، وما قيل يحدث يُسأل عن حادثة فلا يدري ، وقد شغله منها جمع طرق الاحاديث .

وقبيح بالفقير أن يقال له : ماعنى قول رسول الله ﷺ كذا ؟ فلا يدري صحة الحديث ولا معناه . نسأل الله عز وجل ممة عالية لاترضى بالنقص بمنه ولطفه .

٣٣٧ - القدماء اصحاب همم عليّة لكثرة مصنفاتهم

كانت همم القدماء من العلماء عليه ، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم الا أن اكثر تصانيفهم دثرت ، لان همم الطلاب ضعفت فصاروا يطلبون المختصرات ، ولا ينشطون للطولات . ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها ،

(١) ابن المقفع الكاتب وابن المقفع الذي توغل في بلاد الترك غيره ، ذكره الطبري ، فالتخليط من المؤلف لامن الجويني

غدثت الكتب ولم تنسخ . فسيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات ، فليكثر من المطالعة فانه يرى من علوم القوم وعلومهم ما يشجده خاطره ، ويجرك عزيمة الجهد ، وما يخلو كتاب من فائدة . وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم . لانرى فيهم ذاهمة عالية فيقتدي بها المبتدي . ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد .

فالله الله عليكم بملاحظة سير السلف ، ومطالعة تصانيفهم واخبارهم . فالاستكثار من مطالعة كتبهم روية لهم كما قال :

فاني أن ارى الديار بطرفي قلعي أرى الديار بسعي^(١)

واني اخبر عن حالي ، ما اشبع من مطالعة الكتب . واذا رأيت كتابا لم أراه فكأنني وقعت على كنز . ولقد نظرت في ثبث الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية^(٢) فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد . وفي ثبث كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي^(٣) وكتب شيخنا عبد

(١) لسيد شعراء الفزل العذري : الشريف الرضي ، انظر ما كتبه عنه في كتابي «رجال من التاريخ» .

(٢) اندثرت المدرسة النظامية في بغداد وكان موضعها في ظني في محل جامع مرجان عند مدخل سوق الشورجة .

(٣) الحميدي الذي يقصده هو محمد بن قنوح محدث اندلسي الاصل رحل الى بغداد وتوفي فيها سنة ٤٨٨ وله تصانيف .

الرواهب (١) وابن ناصر وكتب أبي محمد بن الحشاش (٢) وكانت احوالاً
وغير ذلك من كل كتاب اقدر عليه . ولو قلت : اني طالعت عشرين
ألف مجلد (٣) كان أكثر وانا بعد في الطلب . فاستفدت بالنظر فيما من
ملاحظة سير القوم ، وقدر مهمهم ، وحفظهم وعبادتهم وغرائب
علومهم ، عملاً يعرفه من لم يطالع فصرت أستزدي ما للناس
فيه ، واحترق مهم الطلاب . والله الحمد .

٣٣٨- من العجب تعريض المرء نفسه للهلاك فيما لا يفيد

ليس للآدمي أعز من نفسه ، وقد عجت بمن يخاطر بها
ويعرضها للهلاك . والسبب في ذلك قلة العقل ، وسوء النظر .
فمنهم من يعرضها لتلف ليمدح بزعمه . مثل قوم يخرجون
الى قتل السبع .

ومنهم من يصعد الى ايوان كسرى ليقال : شاطر . وسامع
بشمي ثلاثين فرسخاً . وهؤلاء اذا تلقوا حموا الى النار . فان
هلك ذهبت النفس التي يراود المال لأجلها .

(١) الانطاكي حدث بغداد في عمره المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وقد تقدم ذكره في هذا الكتاب
(٢) عبد الله بن احمد من علماء المريية وقف مكتبته على طلبة العلم توفي في
بغداد سنة ٥٦٧ هـ
(٣) يقصد بالمجلد الكتاب

وأعجب من الكل من يخاطر بنفسه في الهلاك ولا يدري ،
مثل ان يغضب فيقتل المسلم فيشفي غيظه بالتعذيب في جهنم .

وأطرف^(١) من هذا اليهود والنصارى ، فان أحدهم يبلغ
فيجب عليه ان ينظر في نبوة نبينا ﷺ فاذا فرط فمات فله
الخلود في جهنم . ولقد قلت لبعضهم : وبحك تخاطر بنفسك
في عذاب الابد ، نحن نؤمن بنبينا فنقول ، لو أن مسلماً آمن
بنبينا وكذب بنبينا أو بالتوراة خلد في النار ، فما بيننا
وبينكم خلاف ، إذ نحن مؤمنون بصدقه وكتابه ، فلو لقيناه لم
نخجل ولو عاتبنا مثلاً ، وقال : هل قم بسبب بالسبت؟ والسبت من
الفروع والفروع لا يعاقب عليها بالخلود . فقال لي رئيس القوم :
ما نطلبكم بهذا لان السبت لما يلزم بني اسرائيل فقلت : فقد
سلمنا باجماعكم وأنتم هالكون ، لانكم تخاطرون بأرواحكم في
العذاب الدائم .

والعجب بمن يحمل النظرة فيما اذا تواني فيه أوجب الخلود
في العقاب الدائم . وأعجب من الكل جاحد الخالق وهو يرى
أحكام الصنعة ويقول : لا صانع !
والسبب في هذه الاشياء كلها قلة العقل وترك إعماله في
النظر والاستدلال .

٣٣٩ - وجوب كتمان السر

لا ينبغي للعاقل أن يظهر سرّاً حتى يعلم أنه إذا ظهر لا يتأذى بظهوره . ومعلوم أن السبب في بث السر طلب الاستراحة بينه ، وذلك ألم قريب فليصبر عليه ، قرب مظهر سرّاً لزوجته فإذا طلقت بنته ومهلك ، أو لصديقه فيظهره عليه حسداً له إذا كان بمائلا ، وإن كان عامياً فالعامي أحق .
ودب سر أظهر فكان سبب الهلاك .

٣٤٠ - دعوة العالم الفقير الى الصبر

ما ينتهي في طلب العلم إلا عاشق العلم . والعاشق ينبغي أن يصبر على المكاء ، ومن ضرورة المشاغل به البعد عن الكسب . ومنذ فقد التقد لهم من الامراء ومن الاخوان لازمهم الفقر ضرورة . والفضائل تنادي « هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فكما خافت من ابتلاء قالت :

لأنجب المجد نمرأ أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ولما آثر أحمد بن حنبل رضي الله عنه طلب العلم وكانت فقيراً ، بقي أربعين سنة يتشاغل به ولا يتزوج . فينبغي للفقير أن يصبر فقره كما فعل أحمد ، ومن يطيق ما أطاق ؟ فقد

ود من المال خمسين ألفا وكان يأكل الكامخ ويتأدم بالملح ، فما
شام له الذكر الجليل جزافاً ، ولا توددت الاقدام الى قبره
الا لمعنى عجيب . فياله ثناء . لأ الآفاق ، وجمال زين الوجود ،
وعزاً نسخ كل ذل . هذا في العاجل ، وثواب الآجل لا يوصف ،
وتلمح قبور أكثر العلماء لا تعرف ولا تزار . ترخصوا وتأولوا ،
وخالطوا السلاطين وذهبت بركة العلم ، وحى الجاه ، ووردوا
عند الموت حياض الندم ، فيالها حسرات لا تتلافى ، وخسراناً
لا ينبجر ، كان صحبة الذات طرفة عين ، ولازم الاسف دائماً .
فالصبر الصبر أيما الطالب للفضائل . فان لذة الراحة بالهوى
أو بالبطالة تذهب ويبقى الالمى . وقال الشافعي رضي الله
تعالى عنه :

يأنفس ماهو إلا صبر أيام كأن مدتها أضغاث أحلام
يأنفس جوزي عن الدنيا مبادرة ونخل عنها فان العيش قد ادمر
ثم أيما العالم الفقير . أيسرك ملك سلطان من السلاطين ،
وان ماتعله من العلم لاتعلمه ؟

كلا ما أظن بالتبليغ ان يؤثر هذا . ثم أنت اذا وقع
لك خاطر مستحسن ، أو معنى عجيب ، تجد لذة لا يجدها
ملتذ بالذات الحسية ، فقد حرم من رزق الشهوات ما قد
رزقت ، وقد شاركهم في قوام العيش ، ولم يبق إلا الفضول
الذي إذا أخذ لم يكد بضر .

ثم هم على المحاطرة في باب الآخرة غالباً . وانت على
السلامة في الاغلب .

فتلح يا أخي عواقب الاحوال ، واقع الكسل المشبط عن
الفضائل ، فان كثيراً من العلماء الذين ماتوا مفترطين يتقلبون
في حسرات وأسف . رأى رجل شيخنا ابن الزاغوني (١) في
المنام ، فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة ، وأكثر
ما عندنا الندامة . فاهرب وفقك الله قبل الحبس ، وافسخ عقد
الغوى على القبن الفاحش . واعلم أن الفضائل لاتنال بالهوى ،
وان يسير التفريط يشين وجه المحاسن . فالبدار البدار ونفس
النفس يتردد ، وملك الموت غائب ما قدم بعد ، وانقض
بعزيمة عازم :

إذا همّ القى بين عينيه عزمه ونكّس عن ذكر الحوادث جانباً
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

وارفض في هذه العزيمة الدنيا واربابها . فبارك الله لاهل
الدنيا في دنياهم ، فمنعنا الاغنياء وهم الفقراء . كما قال ابراهيم
بن آدم : لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيف .
فانبأ الدنيا أحدم لا يسكاد يأكل لقمة إلا حراماً أو شبهة

(١) علي بن عبيد الله المؤرخ الفقيه الحنبلّي له مصنفات كثيرة توفي سنة ٥٢٧ هـ .

وهو وإن لم يؤثر ذلك فوكيله يفعله ، ولا يبالي هو بقلة دين
وكيله . وإن عمرو أداراً سخروا الفعلة ، وإن جمعوا مالا
فمن وجوه لا تصلح . ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل
أو يشتم ، فعبثهم نقص . ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد
له بالاباحة ، ولا نخاف من عدو ، ولا ولايتنا تقبل العزل .
والعز في الدنيا لنا لا لهم . وإقبال الخلق علينا ، وتقبيل
أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير . وفي الآخرة بيننا وبينهم تفاوت
إن شاء الله تعالى فإن لفت أرباب الدنيا اعناقهم يعلمون قدر
مزيقتنا ، وإن غلت أيديهم عن إعطائنا قلذة العفاف الطيب ،
ومرارة المن لا تنفي بالمأخوذ ، وإنما هو طعام دون طعام ،
ولباس دون لباس ، وإنما أيام قلائل . والعجب لمن شرفت نفسه
حتى طلبت العلم ، إذ لا يطلبه إلا ذو نفس شريفة كيف يذل
ليذل من لا عزه إلا بالدنانير ، ولا مقفزه له إلا بالمكنة . ولقد
أنشدني أبو يعلى العلوي :

رب قوم في خلائهم عرو قد صيروا غرورا
ستر المال القبيح لهم سترى إن زال ما سترنا
أيقظنا الله من رقدة الغافلين ، ورزقنا ففكر المتيقظين ،
ووقفنا للعمل بمقتضى العلم والعقل ، إنه قريب مجيب .

٣٤١ - وجوب التلطف بالبدن ليقوى على الطاعة

لا ينبغي للإنسان أن يحمل على بدنه ما لا يطيق فان البدن كالراحة ان لم يرفق بها لم تصل بالراكب . فتروى في الناس من يتزهد وقد ربى جسده على الترف ، فيعرض مما آلفه ، فيتجدد له الامراض ، فتقطعه عن كثير من العبادات . وقد قيل : « هودوا كل بدن ماعناد ، » وقد قرّب إلى رسول الله ﷺ حسب فقال : أجدي أعافه لانه ليس بارض قومي .

وفي حديث الهجرة : ان أبا بكر رضي الله عنه طلب لرسول الله ﷺ الظل ، وفرش له فروة ، وصب على القدح الذي فيه لبن ماء حتى يبرد .

وجاء رسول الله ﷺ على قوم فقال : ان كان عندكم ماء بات في شئ وإلا كرعنا .

وكان ﷺ يأكل لحم الدجاج .

وفي الصحيح : أنه كان يحب الحارثي والغسل . وكان إذا

لم يقدر أكل ما حضر ^(١) . ولعمري أن في العرب وأهل السواد

من لا يؤثروا عنده التخشن في المطعم والملبس ، وذلك اذا جرى

بعد نوبته على عادته لم يستضر . فأما من قد ألب اللطف فانه

إذا غير حاله تغير بدنه ، وقلت عبادته . وقد كان الحسن يديم

(١) كل هذه المأاني تكررو من قبل

أكل اللحم ويقول : لا رغبتي مالك ولا صحتي فرقد (١) . وكان ابن سيرين (٢) لا يخلّي منزله من حلوى . وكانت سفيان الثوري يسافر وفي سفره الحبل المشوي ، والقالودج .

وقالت رابعة (٣) : ما أرى لبدن يراد به العمل لله إذا أكل القالودج عيباً . فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه . وقد عرفت هذا من نفسي ، فاني ربيت في ترف فلما ابتدأت في التقتل وهجر المشتهى ، أثر معي مرضاً قطعني عن كثير من التمتع ، حتى أفي قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن ، فتناولت يوماً ما لا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها ، فقلت : ان لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات ان تناولها لبطاعة عظيمة ، وان مطعماً يؤذي البدن فيفوته فعل خير ينبغي أن يجر .

وقد رأى رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التثقف فقال له : من أمرك بهذا ؟
فالعامل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه كما ينقي الغازي

(١) ذكر هذا من قبل وشرحه

(٢) هما اثنان محمد والحسن والمراد عند الاطلاق الاول

(٣) تولى سنة ١٣٥ كما روى المؤلف في كتابه شذور القور وعند ابن

خلكان وغيره سنة ١٨٥

شعير الدابة . ولا تظن أني أمر بأكل الشهوات ، ولا بالأكلار
من المذوذ ، إنما أمر بتناول ما يحفظ النفس ، وأنه مما يؤدي
إلى البدن . فأما التوسع في الطعام ، فإنه سبب النوم . والشبع
يغشى القلب ، ويهرل البدن ويضعفه . فافهم ما أشرت إليه ،
فالتريق هو الوسطى .

٣٤٢ - كمال الفطنة بكال العقل

إذا تكامل العقل قوى الذكاء والفطنة . والذي يتخلص
إذا وقع في آفة . كما قال الحسن : إذا كان الص ظريفاً لم
يُقطع . فأما المغفل فيجنى على نفسه المحن .

هؤلاء اخوة يوسف عليهم السلام ، أبعده عن أبيه ليتقدموا
عنده ، وماعلموا أن حزنه عليه يشغلهم عنهم ، وتهتم لإفهام
تبعثهم إليه . ثم رموه في الجب فقالوا : يلتقطه بعض السيارة
وليس بطفل ، إنما هو صبي كبير . وماعلموا أنه إذا التفت
يحدث بحاله ، فيبلغ الخبر إلى أبيه ، وهذا تفصيل .

ثم إنهم قالوا : أكله الذئب ، وجازا بقبضه صحيحاً ،
ولو خرقوه احتل الأمر . ثم لما مضوا إليه يمتارون قال :
« انتوني بأخ لكم ، فلو فطنوا علموا أن ملك مصر لا غرض
له في أخيم . ثم حبسه بحجة ، ثم قال : هذا الصواع يخبرني أنه
كان كذا وكذا .

هذا كله وما يفتنون . فلما أحس بهذه الاشياء يعقوب عليه السلام قال « اذهبوا فتحسسوا من يوسف » وكانت يوسف عليه السلام قد نهي بالوحي أن يعلم أباه بوجوده . ولهذا لما التقيا قال له : هلا كتبت إليّ ؟

فقال : ان جبريل عليه السلام منعني . فلما نهي أن يعرفه خبره لينفذ البلاء كان ما فعل باخيه نفيماً . فصار كأنه يعرض بخطبة المعتدة^(١) ، وعلى فهم يوسف والله بكى يعقوب لاعلى مجرد صورته .

٣٤٣ - قلل علائقك وتزود فالعمر قصير

الآدمي موضوع على مطلوبات تشتت المم . العين تطلب المنظور ، واللسان يطلب الكلام ، والبطن يطلب المأكول ، والفرج المنكوح ، والطبع يحب جمع المال . وقد أمرنا بجمع المم لذكر الآخرة والهوى يشتته . فكيف اذا اجتمعت اليه حاجات لازمة من طلب قوت البدن وقوت العيال . وهذا يكر الى دكانه ويقتكر في التحصيل ، ويستعمل آلة الفهم في نيل ما لا بد منه ، فأي مم يجتمع منه خصوصاً ان اخذه الشره في ثوره فيضي العمر ، فينهض من الدكان الى القبر .

(١) ذلك ان المعتد لا يكتب تهريجاً وتخطب لمريضاً

فكيف يحصل العلم أو العمل أو اخلاص القصد أو طلب الفضائل؟
 فمن رزق بقطة ، فينبغي أن يصلح لنيل الفضائل . فان كان
 متردداً بغير عائلة فقد كان السبت^(١) يعمل يوم السبت فيكتفي
 به طول الاسبوع .

فان كان له مال باضع به من يكفيه بدينه ، وثقته أن يتم
 هو ، وان كان له عائلة جمع همه في نية الكسب عليهم فيكون
 متعبداً . أو أن يكون فنية مال كمقدار ناصفه في نفقته ليكفيه
 دخله . وليقلل المم على مقدار ما يمكنه من حذف العلائق جهده
 ليجمع المم في ذكر الآخرة فان لم يفعل أخذ في غفلة ، وندم
 في حفرته .

وأقبح الاحوال حال عالم فقيه كلما جمع همه لذكر الآخرة
 سنته طلب القوت للعائلة ، وربما احتاج الى التعرض بالظلمة وأخذ
 الشبهات وبذل الوجه . فيلزم هذا التقدير في النفقة . واذا حصل
 له شيء من وجه دبر فيه . ولا ينبغي أن يحمله قصر الامل على
 اخراج مافي يده . فقد قال عليه السلام : لأن تترك ورثتك أغنياء
 خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس .
 وأذل من كل ذلك التعرض للبخلاء والامراء . فليدير أمره ،

(١) كان من أبناء هارون الرشيد فرسند ونحلى ولقب بالسبي لانه كان
 يشغل يوم السبت ويتفرغ سائر الاسبوع لعبادة .

ويقلل العلائق ، ويحفظ جاهه ، فالإيام قلائل . وقد بُعث الى أحمد بن حنبل مال فسأله ابنه قبوله فقال : بإصالح صتي ^(١) . ثم قال : استغفر الله ، فأصبح فقال : يا بني قد عزم لي ألا أقبله ، هذا وكان العطاء هنيئاً ، وجاءه من وجوه . فانعكس الأمر اليوم .

٣٤٤ - كيف تعامل صديقك وحاسدك

العزلة عن الخلق سبب طيب العيش ، ولا بد من مخالطة بمقدار . فدار العدو واستحلت ، فربما كادك فأهلكك . وأحسن الى من أساء إليك ، واستعن على أمورك بالكميان ، ولكن الناس عندك معارف . فأما أصدقاء فلا ، لأن أعز ^(٢) الأشياء وجود صديق ، لأن الصديق يجب ان يكون في مرتبة مماثل . فان صادفته عامياً لم تستفد به لسوء أخلاقه وقلة علمه وأدبه . وان صادفت بمائلاً او مقارباً حسدك . واذا كان لك يقظة تلحظ من أفعاله وأقواله ما يدل على حسدك « ولتعرفنهم في لحن القول » واذا أردت تأكيد ذلك فضع عليه من يضعك ^(٣) عنده ، فلا يخرج إليه بما في قلبه .

(١) فل أمر من « صاه » (٢) أي اندر وأقل

(٣) أي يذمك

فان أردت العيش فابعد عن الحسد ، لأنه يورى نعمتك .
 فربما أصابها بالعين ، فان اضطرت الى مخالطة فلا تقش له
 شرك ولا تشاوره ، ولا يفرنك تملقه لك ، ولا مابظهره من
 الدين والتعبد ، فان الحسد يغلب الدين .

وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد الى القتل . وأن
 إخوة يوسف باعوه بشئ نجس . وكان أبو عامر الراهب من
 المتعبدين العقلاء وعبد الله بن أبي من الرؤساء . أخرجهما حسد
 رسول الله ﷺ الى النفاق وترك الصواب . ولا ينبغي أن
 تطلب لحاسدك عقوبة أكثر مما هو فيه ، فانه أمر عظيم متصل
 لا يرضيه إلا زوال نعمتك . وكلما امتدت امتد عذابه ، فلا
 عيش له ، وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نزع الحسد
 والفعل من صدورهم ، ولولا أنه نزع تحاسدوا ونقص عيشهم .

٣٤٥- الاقبال على اللذات وضرره في الدارين

من سار مع العقل ، وخالف طريق الهوى ، ونظر الى
 العواقب ، أمكنه أن يتمتع من الدنيا والذكر الجميل ، ويكون
 ذلك سبباً لقوات مراده من اللذات .

وبيان هذا من وجهين : أحدهما ان مال الى شهوات
 النكاح وأكثر منها قل التذاه ، وفنيت حرارته ، وكان ذلك

سبباً في عدم مطلوبه منها . ومن استعمل ذلك بمقدار ما يجيزه العقل ويحتمله كان النذاه أكثر ، لبعد ما بين الجمعين ، وأمكنه التردد لبقاء الحرارة .

وكذلك من غش في معاملته أو خان ، فإنه لا يعامل فيفوته ربح المعاملة الدائمة لجيانه مرة ، ولو عرف بالثقة دامت معاملة الناس له فزاد ربحه .

والثاني أنه من اتقى الله وتشاغل بالعلم أو بتحقيق الزهد ، فتح له من المباحات ما يلتذ به كثيراً . ومن تقاعد به الكسل من العلم أو الهوى عن تحقيق الزهد لم يحصل إلا اليسير من مراده . قال عز وجل (وَأَنْ لَّوِ اسْتَظَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا) .

٣٤٦ - اعمل لترضي الله ولو أسخطت الناس

ينبغي أن يكون العمل كله لله ، ومعه ، ومن أجله . وقد كافاك كل مخلوق وجلب لك كل خير . وإياك أن تميل عنه بموافقة هوى وارضاء مخلوق ، فإنه يعكس عليك الحال ، ويفوتك المقصود . وفي الحديث : من أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً وأطيب العيش من يعيش مع الخالق سبحانه ، فإن قيل : كيف يعيش معه ؟

قلت : بامثال أمره ، واجتناب نهيه ، ومراعاة حدوده ،
والرضى بقضائه ، وحسن الادب في الخلوة ، وكثرة ذكره ،
وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره ، فإن احتجت سألته ،
فإن أعطى وإلا رضى بالمنع ، وعلمت أنه لم يمنع بخلافه ،
لما نظر لك . ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به ، ومتى
دمت على ذلك رزقك بحبه وصدق التوكل عليه ، فصارت
الحبة تدلك على المقصود ، وأثرت لك محبة إياك ، فحينئذ
تعيش عيش الصديقين . ولا خير في عيش إن لم يكن كذا
فإن أكثر الناس محبطين في عيشه ، يداري الأسباب ويميل
إليها بقلبه ، ويتعب في تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد ،
ويرغبه إلى الخلق ، ويعترض عند انكسار الأغراض ، والقدر
يجري ولا يبالي بسخط ، ولا يحصل له إلا ما قدر ، وقد
فاته القرب من الحق والمحبة له والتأدب معه ، فذلك العيش
عيش البهائم .

٣٤٧- حكمة الطعام والشراب ووجوب الاقتصاد في تناولهما

نظرت في حكمة المطعم والمشرب والملبس والمنكح ،
فرايت أن آدمي لما خلق من أصول تتحلل ، وهي الماء
والتراب والنار والهواء ، وبقاوة إنما يكون بالحرارة والرطوبة
والحرارة تحلل الرطوبة دائماً ، فلم يكن له بد من شيء يخلف

ما بطل ، ولما كان العلم لا ينوب عنه إلا العلم ، اباح ذبح
الحيوان ليتقوى به من هو أشرف منه . ولما كان بدنه
يحتاج الى كسوة وله قدره تميز ، وقدره يصنع بها ما يقبه
الاذى من القطن والصوف ، لم يجعل على جلده ما يقبه خلقه ،
بخلاف الحيوان البهيمة ، فانه لما لم يكن له قدرة على ما يغطي جلده
عوضه بالريش والشعر والوبر . ولما لم يكن بد من فناء الآدمية
والحيوان هيج شهوة الجماع لتخلف النسل . فمقتضى العقل الذي
حرك على طلب هذه المصالح أن يكون تناول الطعام
والشرب مقدار الحاجة والمصلحة ، ليقع الالتذاذ بالعافية .
ومن اليلة طلب الالتذاذ بالطعام وان كان غير صالح والاكتناز
منه والشرب في تناولة ، وكذلك الكسوة والنكاح .
ومن الحزم جمع المال وادخاره لعرض حاجة من ذلك .
ومن التفضل اتفاق الحاصل ، فربما عرضت حاجة فلم يقدر عليها
فانقر عديمها في البدن أو في العرض بطلبها من الاندال . ومن
افصح الامور الانهاك في النكاح طلبا لصور اللذة فاسيا ما يحجر
ذلك من انحلال القوة ويزيد في الحرام بالعقوبة . فمن مال
الى تدبير العقل لم في دنياه وآخره . ومن أعرض عن
مشاورته أو عن القبول منه تعجل عطبه .

فليعلم مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها ، فمن لم
يفهم ولم يعمل بمقتضى ما فهم كان كأجبل العوام . وان كان عالما .

٣٤٨ - ضرر مخالطة الامراء

في مخالطة الامراء . العجب من له مسكة من عقل أو عنده قليل من دين كيف يؤثر مخالطتهم . فانه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون خائفاً من عزل أو قتل أو سم ، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامره . فان أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع فقد باع دينه قطعاً بدنياه ، فمنعه بالخوف ولم يبق بيده إلا عاجل التعظيم وان يقال بين يديه بسم الله ^(١) ، وان ينفذ أوامره وذلك بعيد من السلامة في باب الدين وما يلتذ به منه في الدنيا مزوج بخوف العزل والقتل .

٣٤٩ - احسن الى الناس ولا تظهر العداوة لأحد

من الغلط العظيم أن يتكلم في حق معزول بما لا يصلح فانه لا يومن أن يلي فينتقم . وفي الجملة لا ينبغي أن يظهر العداوة لأحد أصلاً ، فقد يرتفع المحقر وقد لا يتمكن من لا بعد ، بل ينبغي أن يكتم ما في النفوس على الاعداء ، فان

(١) كانوا يقولونها بين يدي الامراء تنبيهاً على وصولهم أو دخولهم ليقام

لهم ويحتفل باستقبالهم .

أمكن الانتقام منهم كان العفو انتقاماً لأنه يذلهم . وينبغي
أن يحسن إلى كل أحد ، خصوصاً من يجوز أن يكون له
ولاية ، وإن يخدم الموزول ، فربما تقع في ولايته ^(١) . وقد
روينا أن رجلاً استأذن على قاضي القضاة ابن أبي دواد ^(٢) وقال :
قولوا له أبو جعفر بالبواب فلما سمع هشّ وقال : إئذنوا له .
فدخل فقام وتلقاه واكرمه وأعطاه خمسة آلاف وودعه .

ف قيل له : رجل من العوام فعلت به هذا ؟
قال : اني كنت فقيراً ، وكان هذا صديقاً فبعثته يوماً فقلت
له : أنا جائع . فقال : اجلس .

وخرج فجاء بشواء وحلوى وخبز فقال : كل .

فقلت : كل معي .

قال : لا . قلت : والله لا آكل حتى تأكل معي .

فأكل فجعل الدم يجري من فمه :

فقلت : ما هذا ؟ فقال : مرض .

فقلت : والله لا بد أن تخبرني .

فقال : انك لما جئتني لم اكُن املك شيئاً ، وكانت اسناني

(١) هذه المأني كلها اعادها مراراً

(٢) انظر الكلام عنه في كتابي « رجال من التاريخ »

مُصَبَّبةً بِشَرِيطٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَتَزَعَتْ وَاسْتَرِثَتْ بِهِ . فَبَلَ كَافِهِ
مِثْلَ هَذَا ؟

وَعَلَى عَكْسِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كَانَتْ ابْنُ الزُّبَايْنِ وَزِيرُ الْوَلَدِ
وَكَانَ يَضَعُ مِنَ التَّوَكُّلِ ، فَلَمَّا وَلِيَ عَذَبَهُ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ .
وَكَذَلِكَ ابْنُ الْجَزْرِيِّ كَانَ لَا يُوقِرُ الْمُسْتَوْشِدَ قَبْلَ الْوَلَايَةِ فَجُرَتْ
عَلَيْهِ الْأَكَاثُ لَمَّا وَلِيَ .

فَالْعَاقِلُ مِنْ تَأْمَلِ الْعَوَاقِبَ وَرَاعَاهَا ، وَصَوِّرْ كُلَّ مَا يَحْجُوزُ
أَنْ يَقَعَ فِعْلُهُ بِمَقْتَضَى الْحَزْمِ .

وَابْلُغْ مِنْ هَذَا تَصَوُّيرَ وَجُودِ الْمَوْتِ عَاجِلًا ، لِأَنَّهُ يَحْجُوزُ
أَنْ يَأْتِيَ بِفِتْنَةٍ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ . فَالْحَازِمُ مِنْ اسْتِعْدَادِهِ وَعَمَلِهِ
مَنْ لَا يَنْدَمُ إِذَا جَاءَهُ ، وَحَذَرُ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّهَا كَعَدُوٍّ مُرَاصِدٍ
بِالْجُزَاءِ ، وَآخِرُ لِنَفْسِهِ صَالِحِ الْأَعْمَالِ فَإِنَّهَا كَصَدِيقٍ صَدِيقٍ يَنْفَعُ
وَقْتُ الشَّدَةِ .

وَابْلُغْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَعْلَمَ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ كَمَا زَادَ عَمَلُهُ فِي
الْفَضَائِلِ عَلَتْ مَرْبَتُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنْ نَقَصَ نَقَصَتْ ، فَهُوَ وَإِنْ
دَخَلَ الْجَنَّةَ مَا يَجِدُ فِي نَقْصٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى كَمَالٍ غَيْرِهِ ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ
رَضِيَ بِهِ وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ فَرَحَهُ اللَّهُ مِنْ تَلَمُّحِ الْعَوَاقِبِ ، وَعَمَلِهِ
بِمَقْتَضَى التَّلَمُّحِ . وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَوْقِفُ .

٣٥٠ - تلاعب الدنيا بالامراء والزهاد وغيرهم

لما جمعت كتابي المسمى بالمنتظم ، في تاريخ الملوك والامم ، اطلعت على سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والادباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم ، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالاكثرين تلاعباً اذهب اديانهم ، حتى كانوا لا يؤمنون بالعقاب . فمن الامراء من يقتل ويصادر ويقطع ويحبس بغير حق ، ثم ينخرط في سلك المعاصي ، كان الامر اليه ، او قد جاءه الأمن من العقاب . فربما تخايل : أن حظي الرعايا يرد عني ؟ وينسى أنه قد قيل لرسول الله ﷺ : « قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم » .

وقد انخرط جماعة ممن يتسم بالعلم في سلك المعاصي لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفهم العلم . ورأينا خلقاً من المتزهدين خالفوا النيل أغراضهم . وهذا لأن الدنيا فنع والناس كعصافير ، والمصغور يريد الحبة وينسى الحق ، قد نسي أكثر الخلق ما لهم ميلاً الى عاجل لذاتهم ، فاقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون الى مشاورة العقل ، فلقد باعوا بلذة بسيرة خيراً كثيراً ، واستحقوا بشهوات مردولة عذاباً عظيماً ، فاذا نزل بأحدم الموت قال : ليتني لم أكن ، ليتني كنت تراباً . فيقال له : آلآن ؟

فوا أسفى لفائت لايمكن استدراكه ، ولمرتهن لايصح فكاكه
ولندم لاينقطع زمانه ، ولمعذب عز عليه ايمانه بالله^(١) .

مانعت العقول إلا لمن يلتفت اليها ويعول عليها ، ولايمكن
قبول مشاورها الا بعزيمة الصبر عما يشتهى . فتأمل في الامراء
ممر بن الخطاب وابن عبد العزيز رضي الله عنها ، وفي العلماء أحمد
ابن حنبل رحمة الله عليه . وفي الزهاد أويس القرني^(٢) . لقد
أعطوا الجد حقه وفهموا مقصود الوجود . وماهلك المالكون
الا لقلة الصبر عن المشتى ، وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث
والعقاب . وليس العجب من ذاك انما العجب من مؤمن يوقن ،
ولاينفعه يقينه . ويعقل العواقب ، ولا ينفعه عقله .

٣٥١ - صاحب الهمة العالية في تعب دائم

من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها كما قال الشاعر :

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام
وقال الآخر :

ولكل جسم في التحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي
وبيان هذا أن من علت همة طلب العلوم كلها ولم يقتصر

على بعضها وطلب من كل علم نهايته ، وهذا لا يجتنبه البدن .
ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار ،
والجمع بين ذلك وبين العلم صعب . ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج
الى ما لا بد منه ، ويجب الايثار ولا يقدر على البخل ، وبتقاضاه
الكرم البذل ، وينعه عز النفس عن الكسب ، فان هو جرى
على طبعه من الكرم ، احتاج وانقصر وتأثر بدنه وعائلته ،
وان أمسك فطبعه يأبى ذلك ^(١) . وفي الجملة يحتاج إلى معاناة
وجمع بين أضداد ، فهو أبدأ في نصب لا ينقضي ، وتعب
لا يفرغ . ثم اذا حقق الاخلاص في الاعمال زاد تعبهُ وقوي
وصبهُ .

فان هو ومن دنت همته . ان كان فقياً فستل عن حديث
قال : ما عرفه . وان كان محدثاً فستل عن مسألة فقهية قال :
ما أدري . ولا يبالي إن قيل عنه : مقصر . والعالي الهمة يرى
التقصير في بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه ، وقد رأت
الناس عورته ، والتقصير الهمة لا يبالي بمن الناس ، ولا يستقبح
سؤالهم ، ولا يأنف من رد ، والعالي الهمة لا يحجل ذلك ،
ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى ، وراحة القصير الهمة
تعب وشين ، ان كان ثم فهم . والدنيا دار سباق الى أعالي

العالى . فينبغي لذي الهمة أن لا يقصر في شوطه ، فان سبق
فهو المقصود . وان كبا بجواده مع اجتهد لم يكتم .

٣٥٢- رضى الانسان عن نفسه مصيبة

المصيبة العظمى رضى الانسان عن نفسه واقتناعه بعلمه .
وهذه عنة قد عمت أكثر الخلق فترى اليهودي والنصراني يرى
أنه على صواب ، ولا يبحث ولا ينظر في دليل نبوة نبينا
ﷺ ، واذا سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب ثبلا
يسمع . وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه ، إما لانه مذهب
أبيه وأمه ، أو لانه نظر نظراً أول فراه صواباً ، ولم
ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطاه . ومن
هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين علي رضى الله تعالى عنه
فانهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا الى من يعلم . ولما
لقيهم عبد الله بن عباس رضى الله عنها فين لهم خطايم رجع
عن مذهبه منهم ألفان ، ومن لم يرجع عن هواه ابن ملجم ،
فراى مذهبه هو الحق ، فاستحل قتل أمير المؤمنين رضى الله
تعالى عنه ورآه ديناً ، حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع ،
فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال : كيف أبقي ساعة في
الدنيا لا أذكر الله ؟

ومثل هذا ماله دواء ، وكذلك كانت الحجاج يقول :
 والله ما أرجو الخير إلا بعد الموت . هذا قوله وكم قد قتل
 من لا يحل قتله ، منهم سعيد بن جبير . وقد أخبرنا عبد
 الوهاب وابن ناصر الحافظ قالا أخبرنا المبارك بن عبد الجبار
 قال أخبرنا الحسين بن محمد النصيبي قال أخبرنا اسماعيل بن
 سعيد قال حدثنا أبو بكر بن الأنباري قال حدثنا أبو عيسى
 الحنلي قال حدثنا أبو يعلى قال حدثنا الأصمعي قال حدثنا أبو
 عاصم عن عباد بن كثير عن قعدم قال : وجد في سجن
 الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفاً ، ما يجب على واحد منهم قطع ولا
 قتل ولا صلب .

قلت : وعموم السلاطين يقتلون ويقطعون ظناً منهم جواز
 ذلك ، ولو سألوا العلماء بينوا لهم . وعموم العوام يبارزون
 بالذنوب اعتماداً على العفو وينسون العقاب . ومنهم من يعتمد :
 أني من أهل السنة ، أو أن لي حسنات قد تنفع ، وكل هذا
 لقوة الجهل .

فينبغي للإنسان أن يبالغ في معرفة الدليل ولا يساكن
 شبهة ، ولا يتق بعلم نفسه . نسأل الله السلامة من جميع الآفات .

٣٥٣ - عقوبة المذنب واقعة ولو بعد حين

فصل ينبغي تأمله - إعلم أن الجزاء بالمرصاد ان كانت حسنة أو كانت سيئة . ومن الاعتذار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح . وربما جاءت العقوبة بعد مدة ، وقل من فعل ذنباً إلا وقوبل عليه . قال عز وجل « من يعمل سوءاً يجز به » . هذا آدم عليه السلام أكل لقمة فقد عرفتم ماجرى عليه . قال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إليه : ألم اصطنعك لنفسى وأحلتك دارى ، واسجدت لك ملائكتى ، فعصيت امرى ونسيت عهدي ، وعزيت لى ملأت الارض كلهم مثلك يعبدون ويسبحون فى الليل والنهار ثم عصوتى ، لانزلهم منازل العاصين . فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الاكليل عن جبينه ، وجذب بتأنيته فأهبط . فبكى آدم ثلاثئة عام على جبل الهند فجوى دموعه فى أودية جبالها ، فنبئت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا . وكذلك داود عليه السلام ، نظرة نظرة فأوجبت عتابه وبكائه الدائم حتى نبت العشب من دموعه . وأما سليمان عليه السلام فان قوما اختصوا إليه ، فكان هواه مع أحد الحصين فعوقب وتغير فى عين

الناس . وكان يقول : « اطعموني » فلا يطعم . وأما يعقوب عليه السلام ، فإنه يقال أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه . فعوقب بفراق يوسف . وأما يوسف عليه السلام فأخذ بالهم . وكل واحد من إخوته ولد له اثنا عشر ولداً ، ونقص هو ولداً لتلك الهممة . وأما أيوب عليه السلام فإنه قصر في الإنكار على ملك ظالم لاجل خيل كانت في ناحيته فابتلى . وأما يونس عليه السلام فخرج عن قومه بغير إذن فالتقمه الحوت . وأوحى الله عز وجل إلى أرميا : ان قومك تركوا الأمر الذي أكرمت به آبائهم ، وعزتي لا هيمن عليهم جنوداً لا يرحمون بكاهم ، فقال : يارب هم ولد خليلك إبراهيم ، وأمة صفيك موسى ، وقوم نبيك داود فأوحى الله تعالى إليه : لما أكرمت إبراهيم وموسى وداود بطاعتي ، ولو عصوني لأنزلتهم منازل العاصين (١) .

ونظر بعض العباد شخصاً مستحسنًا فقال له شيخه : ماهذا النظر ؟ ستجد غبه . فلتسى القرآن بعد أربعين سنة . وقال آخر : عبت شخصاً قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت أسناني . ونظرت إلى امرأة لا تحل لي فنظر إلى زوجتي من لا أريد .

(١) هذه كلها اسرائيليات لم يصح بها خبر

وكان بعض العاقين ضرب أباه وسجبه الى مكان ، فقال له الاب : حسبك ، الى هنا سحبت أبي . وقال ابن سيرين : عيرت رجلا بالافلاس فأفلس . ومثل هذا كثير .

ومن أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام أن المقتدى غضب عليه وأمر بان يؤخذ منه عشرة آلاف دينار ، فدخل عليه أهله محزونين وقالوا له : من أين لك عشرة آلاف دينار ؟

فقال : ما يؤخذ مني عشرة ولا خمسة ولا أربعة .

قالوا : من أين لك ؟

قال : اني ظلمت رجلا فالزمته ثلاثة آلاف فما يؤخذ مني أكثر منها . فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة باطلاقة ومساحته في الباقي .

وأنا أقول عن نفسي . ما نزلت في آفة أو غم أو ضيق صدر إلا يزل أعرفه حتى يمكنني أن أقول ، هذا بالشيء الفلاني ، وربما تأولت فيه بعد ، فأرى العقوبة . فينبغي للإنسان أن يتوقب جزاء الذنوب قبل أن يسلم منه . وليجتهد في التوبة ، فقد روي في الحديث : « ما من شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنة حديثة لذنوب قديم . »

ومع التوبة يكون خائفاً من المؤاخذه متوقفاً لها ، فان

الله تعالى قد تاب على الانبياء عليهم السلام ، وفي حديث الشفاعة : يقول آدم ذنبي ويقول ابراهيم وموسى ذنبي .

فان قال قائل : قوله تعالى « من يعمل سوءاً يجزيه » خبر فهو يقتضي أن لا يجاوز عن مذنب ، وقد عرفنا قبول التوبة والصفح عن الخاطئين . فالجواب من وجهين : أحدهما أن يحمل على من مات مصراً ولم يتب ، فأت التوبة نجب ما قبلها .

والثاني أنه على احلّاقه . فهو الذي اختاره أنا وأستدل بالنقل والمعنى . أما النقل ، فانه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : يا رسول الله أو نجازي بكل ما نعمل ؟ فقال : ألسن تمرض ؟ ألسن تحزن ؟ ألبس بصييك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به .

وأما المعنى فان المؤمن اذا تاب وندم كان أسفه على ذنبه في كل وقت أقوى من كل عقوبة . فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائمة وآثر لذة المعصية لحظة .

٣٥٤ - المؤلف يناجي ربه ويحاسب نفسه

تفكرت في نفسي يوماً تفكر عتيق ، فحاسبنا قبل أن نحاسب ، ووزننا قبل أن نوزن ، فرأيت اللطف الرباني ، فنذ الطفوة والى الآن أرى لطفاً بعد لطف ، وستراً على قبيح

وعفواً عما يوجب عقوبة ، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان
 ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لمكنت سريعاً ،
 ولو كشف للناس بعضها لاستحييت . ولا يعتقد معتقد عند
 سماع هذا أنها من كباثر الذنوب ، حتى يظن في " ما يظن في
 الفساق ، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي ، وقعت بتأويلات
 فاسدة . فصرت اذا دعوت اقول : اللهم مجددك وسترك علي
 اغفر لي . ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي .
 ثم انا أتقاضى القدر مراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه ،
 ولا بشكر على نعمة ، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم .
 وكوني أتلذذ بأيراد العلم من غير تحقيق عمل به . وقد كنت أرجو
 مقامات الكبار ، فذهب العمر وما حصل المقصود . فوجدت
 أبا الوفاء بن عقيل (١) قد نوح نحو ما نحت فاعجبني نياحته
 فكتبها هنا . قال لنفسه :

يارغناء تقرومين الالفاظ ليقال : مُناظر . وثمرة هذا
 (يا مناظر) كما يقال للمصارع : الغارة .

ضيعت أعز الاشياء وانفسها عند العقلاء ، وهي أيام العمر
 حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مُناظر ، ويُنسَى الذاكر
 والمذكور إذا درست القلوب . هذا ان تأخر الامر الى موتك

يل ربنا نشأ شاب أقره منك فهو هو اله وصار الاسم له .
والعلاء عن الله تشاغلو بما إذا انطروا نشرهم وهو
العمل بالعلم ، والنظر الحاصل لنفوسهم . أف لنفسي
وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها
فضيلة . ان نوظرت شملت ، وان نوصحت تعجرفت ، وان
لاحت الدنيا طارت اليها طيران الرخم ، وسقوط الغراب على
الجيف ، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة . توفر في المخالطة
عيوبا تبلى ولا تحتشم نظر الحق اليها . وان انكسر لها غرض
تضجرت ، فان أمدت بالنعيم اشتغلت عن النعم .

أف والله مني اليوم على وجه الارض وغداً تحتها ، والله
ان نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي
وأنا بين الاصحاب . والله اني قد أبهرني حلم هذا الكريم عني
كيف يسترني وأنا أنهتك ؟ ويجمعني وأنا أتشتت ؟

وغداً يقال : مات الجبر العالم الصالح . ولو عرفوني حق
معرفتي بنفسي مادفوني . والله لأنادين على نفسي نداء المكشفين
معائب الاعداء ، ولأنوحن نوح التاكين للابناء إذ لاناخ لي
بنوح علي لهذه المضائب المكتومة ، والحلال المغطاء التي قد
سترها من خبرها وغطاها من عليها .

والله ما أجد لنفسي خلة استحسن أن أقول متوسلاً بها :
اللهم اغفر لي كذا بكذا .

والله ما التفت قط الا وجدت منه سبحانه برأ بيكفيري
ووقاية تحميني ، مع تسلط الاعداء . ولا عرضت حاجة فددت
بيدي الا قضاها .

هذا فعله معي وهو رب غني عني ، وهذا فعلي وأنا عبد
فقير اليه . ولا عذر لي فاقول مادريت أو سهوت . والله لقد
خلقتني خلقاً صحيحاً سليماً ، ونور قلبي بالفطنة ، حتى ان
الغالبات والمكتومات تنكشف لهنبي .

فوا احسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضى . واحرماني
لمقامات الرجال الفطناء . يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله
وشماتة العدو بي . واخيبة من أحسن الظن بي اذا شهدت
الجوارح عليّ ، واخذلاني عند اقامة الحجة . سخر والله مني
الشيطان وأنا الفطن .

اللهم توبة خالصة من هذه الاقدار ، ونهضة صادقة لتصفية
ما بقي من الاكدار ، وقد جئتك بعد الحسين وانا من خلقت
المتاع . وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي الى معدن الكرم .
وليس لي وصية إلا التأسف والندم ، فوالله ما عصبتك جاهلاً بمقدار
نعمك ، ولا فاسياً لما أسلفت من كرمك فاغفر لي سالف فعلي .

٣٥٥- تحمل عداوة اقربائك وتواضع لهم

عداوة الاقارب صعبة . وربما دامت كحرب بكر وتقلب
 لبني وائل ، وعيس وذبيان ابني بغيض ، والاوز والخزرج ابني
 قيلة . قال الجاحظ : تعدت هذه الحرب اربعين عاماً ^(١) .
 والسبب في هذا أن كل واحد من الاقارب يكره أن
 يفوقه قريبه فيقع التحاسد . فينبغي لمن فضل على اقاربه أن
 يتواضع لهم ويرفعهم جهده ، ويرفق بهم لعله يسلم . قال
 رجل لرسول الله ﷺ : يا اقارب أصلهم فيقطعوني .
 فقال : فكأنما تسفهم المل ^(٢) ، ولن يزال معك من الله ظهير
 مما دمت على ذلك .

٣٥٦- المؤمن لا يلتفت الى حاسده

رأيت كلاب الصيد اذا مرت بكلاب المحلة نبعتها وبالغت
 وأسرت خلفها ، وكأنها تراها مكرمة مجللة فتحمسها على ذلك
 ورأيت كلاب الصيد حينئذ لا تلتفت اليها ولا تعيرها الطرف ،
 ولا تعد نباحها شيئاً ، فرأيت أن كلاب الصيد كأنها ليست

(١) تلك حرب البسوس « التي بين بكر وتغلب » . وقد وقت فيها كلها بضع
 جمارك فقط ، وقتل فيها ثلثا بضع مئات .
 (٢) أي أنهم في أيديهم انفسهم بهذا كن يف الرماذ

من جنس تلك الكلاب ، لان تلك غليظة البدن ، كنيضة
 الاعضاء ، لا أمانة لها ، وهذه لطيفة دقيقة الحلقة ، ومعها
 آداب قد ناسبت خلقتها اللطيفة ، وأنها تحبس الصيد على مالِكها
 خوفاً من عقابه ، أو مراعاة لشكر نعمته عليها . فرأيت أن
 الادب وحسن العشرة يتبع لطاقة البدن وصفاء الروح . وهكذا
 المؤمن العاقل لا يلتفت الى حاسده ولا يبعد شئاً ، اذ هو في
 واد وذاك في واد . ذاك يحسده على الدنيا ، وهذا همه الآخرة
 فبا بُعد ما بين الواديين .

٣٥٧ - الحكمة الالهية لا تظهر دائماً فعليك بالتسليم

هذا فصل ملاحظته من أم الاشياء ينبغي لن آمن بالله تعالى أن
 يسلم له في افعاله ، ويعلم أنه حكيم ومالك ، وأنه لا يغيب .
 فان خفيت عليه حكمة فعله نسب الجهل الى نفسه ، وحلم
 للحكيم المالك . فاذا طالبه العقل بحكمة الفعل قال : ما بان
 لي ، فيجب عليّ تسليم الامر للمالك . وان اقواماً نظروا
 بمجرد العقل الى كثير من أفعال الحق سبحانه فأروها لوصدوت
 من مخلوق نسب فيها الى ضد الحكمة ، فنسبوا الخالق الى
 ذلك . وهذا الكفر المحض ، والجنون البارد .

والواجب نسبة الجهل الى النفوس . فان العقول قاصرة

عن مطالعة حكمته . وأول من فعل ذلك إبليس فإنه قد رآه قد فضل طيناً على نار^(١) ، والعقل يرى النار أفضل فعاب حكمته ، ومعت هذه الهنة خلقاً ممن ينسب إلى العلم وكثيراً من العوام فكم قد رأينا عالماً يعترض وعامياً يرد فيكفر .

وهذه محنة قد شملت أكثر الخلق ، يرون عالماً يضيّق عليه وفاسقاً وسّع عليه . فيقولون : هذا لا يليق بالحكمة . وقد علم العلماء أن الله تعالى قد فرض الزكوات والحراج والجزية والغنائم والكفارات ليستغني بها الفقراء ، فاختص بذلك الظلمة ، وصانع من يجب عليه الزكاة باخراج بعضها ، فجاع الفقير .

فينبغي أن نذم هؤلاء الظلمة ولانعتز على من قدر الكفاية للفقراء . وقد حصل في ضمن هذا عقوبة الظالمين في حبسهم الحقوق ، وابتلاء الفقراء بصبرهم عن حظوظهم .

وأكثر هؤلاء المعترضين لا يكادون يسمون وقت خروج الروح من اعتراض يخرج إلى الكفر ، فتخرج النفس كافرة . فكم عامي يقول : فلان قد ابتلي وما يستحق . ومعناه أنه قد فعل به مالا يليق بالصواب وقد قال بعض العلماء :
أبواب تخلق أقمار ليل وأغصان بان وكتبان ومثل

(١) كرر هذه المأثورات غير مرة

وتنهى عبادك أن يعشقوا أيا حاكم العدل ذا حكم عدل ؟

ومثل هذا ينشده جماعة من العلماء ويستحسنونه ، وهو كفر محض .

وما فهم القائلون لهذا ، أنه مانى عن العشق وإنما نهى عن العمل بقتضى العشق من الأشياء المحرمة كالنظر والبس والفعل القبيح ، والامتناع عن المشتهى دليل على وجود الناهي ، كصبر العطشان في رمضان عن الماء . فانه دليل على الايمان بوجود من أمر بالصوم . وتسليم النفوس إلى القتل والجهاد دليل على اليقين بالجزاء . ثم المستحسن ان يزوج ما قد أعد ، فأين العقل المتأمل ؟ كلا ، لو تأمل وصبر قليلا لربح كثيراً .

ولو ذهبت أذكر ما قد عرفت من اعتراض العلماء والعوام لطال . ومن أحسن الناس حالا في ذلك ، ما يحكى عن ابن الراوندي أنه جاع يوماً واستند جوعه فجلس على الجسر وقد أمضته الجوع ، فمرت خيل مزينة بالحريز والديباج . فقال : لمن هذه ؟

فقالوا : لعل بن بللق غلام الخليفة .

فمرت جوار مستحسنات فقال : لمن هذه ؟

فقالوا : لعل بن بللق .

فر به رجل فراه وعليه أثر الضر فرمى إليه وغيبين
فاخذهما ورمى بهما ، وقال : هذه ليلي بن بلتق (١) .

ونسي الجاهل الاحق مايقول ويعترض ويفعل (٢) قبل
هذه المجاعة .

فيا معترضين وهم في غابة النقص على من لا عيب في فعله .
انتم في البداية من ماء وطين ، وفي الثاني من ماء مهين ، ثم
نحبلون الانجاس على الدوام . ولو حبس عنكم الهواء لصرتم
جيفا . ولو ألق (٣) منكم أهلككم . وكم من رأي يراه
حازمكم فاذا عرضه على غيره تبين له قبح رأيه .

ثم المعاصي منكم زائدة في الحد ! فما فيكم إلا الاعتراض
على المالك الحكيم . ولو لم يكن في هذه البلاوي إلا أن
يراد التسليم . ولو أنه أنشأ الخلق ليدلوا على وجوده ثم أهلكهم
ولم يُعَدِّمْ كان ذلك له ، لانه مالك ، لكنه بفضله وعد
بالاعادة والجزاء والبقاء الدائم في النعيم . فتي ماجري أمر
لا تعرف علته فانسب ذلك الى قصور علمك . وقد ترى مقتولا
ظلماً وكم قد قتل وظلم حتى قبل بيعه . وقل أن يجري لاحد

(١) مرت هذه القصة من قبل

(٣) كذا

(٢) يباين بالاصل

آفة الا ويستحقها غير أن تلك الآفات المجازي بها غالبة على
ورأينا الجزاء .

فسلم تسلم ، واحذر كلمة اعتراض أو إضمار ، فربما أخرجتك
من دائرة الاسلام .

٣٥٨ - الناس في الآخرة ، مثل الناس يوم العيد في الدنيا

رأيت الناس يوم العيد فشبهت الحال بالقيامة فانهم لما انتبهوا
عن نومهم خرجوا الى عيدهم كخروج الموتى من قبورهم
الى حشرهم ، فمنهم من زيقته الغاية ومركبه النهاية ، ومنهم
المتوسط ، ومنهم المرفول ، وعلى هذا أحوال الناس يوم
القيامة . قال تعالى « يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ، أي
ركبانا » ونسوق المجرمين الى جهنم وردا ، أي عطاشا . وقال
عليه الصلاة والسلام : يحشرون ركبانا ومشاة وعلى وجوههم .

ومن الناس من يداس في زحمة العيد ، وكذلك الظلمة
يطؤهم الناس بأقدامهم في القيامة . ومن الناس يوم العيد الغني
المتصدق ، كذلك يوم القيامة أهل المعروف في الدنيا هم أهل
المعروف في الآخرة . ومنهم الفقير السائل فقد يعطى « أعددت
شفاعتي لأهل الكبائر » . ومنهم من لا يعطف عليه « فما لنا
من شافعين ولا صديق حميم »

والاعلام منشورة في العيد . كذلك اعلام المتقين في القيامة والبقى يضرب ، كذلك يخبر بحال العبد فيقال : يا اهل الموقف ان فلانا قد سعد سعادة لا شقارة بعدها ، وان فلانا قد شقي شقارة لا سعادة بعدها .

ثم يرجعون من العيد بالخواص الى باب الحجره يجتوبون بامتثال الاوامر « اولئك المقربون » ، فيخرج التوقيع اليهم « وكان سعيهم مشكوراً » ومن هو دونهم يختلف حاله ، فمنهم من يرجع الى بيت عامر « بما أسلفتم في الايام الخالية » ومنهم متوسط . ومنهم من يعود الى بيت فقر « فاعتبروا يا اولي الالباب » .

٣٥٩ - نصيحة للعلماء والزهاد

يا قوم قد علم ان الاعمال بالنيات . وقد فهم قوله تعالى « ألا لله الدين الخالص » وقد سمعتم عن السلف انهم كانوا لا يعملون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح . أيذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح ؟ وترتفع اصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة ؟ أو ما سمعتم : من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليباري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس

إليه ، لم يرح واشتة الجنة ؟ ثم يقدم أحدهم على القتوى وليس
من أهلها ، وقد كان السلف يتدافعونها .

ويامعشر المتزهدين انه يعلم السر وأخفى أنظفرون الفقر في
لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس ؟ وتظهرون التواضع
والبكاء في الجلوات دون الخلوات ؟ كأن ابن سيرين يضعك
ويبهقه فإذا خلا بكى أكثر الليل . وقال صفيان لصاحبه :
ما أوقعك تصلي والناس يرونك .

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبح الحواجيب
آه للرائي من يوم د وحصل ما في الصدور ، وهي النيات ،
فأيقنوا من مكرهم ، وتوبوا من زللكم ، واستقيموا على الجادة
د ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله

٣٣٠ - أكثر الناس حائدون عن الشريعة وكذلك العلماء والزهاد

وأيت جمهور الناس حائدون عن الشريعة جارين على ما ألفوا
من العادة . وقد يخلص منهم فريقان علماء وعباد فتأملت جمهور
العلماء فرأيتهم في تخليط :

منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا ويعرض عن
معاملات الآخرة ، إما لجهلها ، أو لتقل أمرها عليه ، فهو
يجري على ما ينقل عليه بما يوجب العلم ، ويتبع في الباقي العادات

وربما تخيل انه يسامح في الخطايا لكونه عالماً ، وقد نسي
أن العلم حجة عليه .

ومنهم من هو واقف مع صورة العلم ، غافل عن المقصود بالعالم .
وفهم من يخاطب السلطان ؟ فيتأذى المخاطب بما يرى من
الذنوب والظلم ولا يمكنه الانكار ، وربما مدح . ويتأذى
السلطان فيقول : لو لا اتي على صواب ما جالسني هذا . ويتأذى
العوام فيقولون : لو لا أن أمر السلطان قريب ما خالطه هذا العالم^(١)
ورأيت الاشراف يثقون بشفاعه آبائهم وينسون أن اليهود من
بني اسرائيل .

وأما الفريق الثاني وهم المبادئ فرأيت أكثرهم في تخليط . أما
الصحيحو القصد منهم فعلى غير الجادة في اكثر عملهم ، قد
وضع لهم جماعة من المتقدمين كتباً فيها دفاين قبيحة ، واحاديث
غير صحيحة ، وبأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة ، مثل
كتب الحارث المحاسبي ، وأبي عبد الله الترمذي ، وقوت
القلوب لابي طالب المكي ، وكتاب الاحياء لابي حامد الطوسي^(٢)

(١) مرت هذه الماني كلها من قبل

(٢) في هذه الكتب احاديث لم تصح وفيها شيء مما قال ، ولكن فيها خيراً
كثيراً وفيها تهذيب للنفس ، وفيها دلالة على الله ، ولولا ان الاحياء كتاب لا نظير
له ما من المؤلف نفسه واتمهلاً باختصاره في كتابه « منهاج القاصدين »

فاذا فتح المبتي عينه وهم بسلوك الطريق بهذه
الكتب فعلته الى الخطايا ، لانهم قد بنوا على احاديث محالة
ويذمون الدنيا ولا يدرون ما المذموم منها ، فيتصور المبتي
ذم ذات الدنيا ، فيهرب المنقطع الى الجبل ، وربما فاتته الجماعة
والجمعة ، ويقتصر على البلوط والكثري فيورث القولنج ،
ويقنع بعضهم بشرب اللبن فينحل الطبع ، أو يأكل الباقلاء
والعدس فيحدث له قراقر .

واما ينبغي لقاصد الحج أن يرفق أولا بالناقة ليصل .
الا ترى للطن من الاتراك يتم بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه
وربما تصدى القاصد لشرح احوال قوم من السلف والمتزهدين
فيتبعهم المريد فيتأذى بذلك . ومنى ردودا ذلك المنقول وبيننا
خطا فاعله قال الجبال : أترد على الزهاد ؟ وانما ينبغي اتباع
الصواب ولا ينظر الى أسماء المعظمين في النفوس .

فانا نقول : قال ابو حنيفة ثم يخالفه الشافعي وانما ينبغي
ان يتبع الدليل .

قال المروزي : مدح احمد بن حنبل النكاح فقلت له قد
قال ابراهيم بن آدم : فصاح وقال : وقمنا في بنيات الطريق
عليك بما كان عليه رسول الله ﷺ واصحابه .

وتكلم احمد في الحارث المحاسبي ورد على مري السقطي

حين قال : لما خلق الله الحروف وقف الالف وسجدت الياء .
فقال : نقرّوا الناس عنه .

فالحق لا ينبغي أن يجابى فانه جد ، واني ارى أكثر
الناس قد حادوا عن الشريعة ، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة
لهم ، فيقال : قال أبو طالب المكي ، كان من السلف من يزن
قوته بكربة فينقص كل يوم .

وهذا شيء ماعرفه رسول الله ﷺ ولا أصحابه وإنما كانوا
يأكلون دون الشبع . فأما الحمل على النفس بالجوع فهي عنه .
ويقول قال داود الطائي لسفيان : اذا كنت تشرب الماء البارد
متى تحب الموت ؟

وكان ماؤه في دن . وما علم أن للنفس حظاً ، وان شرب
الماء الحار يرهّل المعدة ويؤذي ، وان رسول الله ﷺ كان يبرد
الماء ، ويقول آخر عنهم : منذ خمسين سنة أشتهي الشواء ما صفا
لي درهمه . ويقول آخر : أشتهي أن أغمس جزيرة في دبس
فما صح لي .

أتراهم ارادوا حبة منذ خرجت من المعدن ما دخلت في شبة ؛
هذا شيء ما نظر فيه رسول الله ﷺ وان كان الورع حسناً .
ولكن لاعلى حمل المشاق الشديدة . وهذا بشر الخافي يقول :
لأحدث لاني أشتهي أن أحدث . وهذا تعليل لا يصلح ، لان
الانسان مأمور بالنكاح ، وهو من أكبر المشتهى .

وكان بشر حافياً حتى قيل له الخافي ، ولو ستر أمره بنعلين
كان أصلح ، والحفا يؤذي العين ، وليس من أمر الدنيا في شيء .
فقد كانت لرسول الله ﷺ نعلان وما كانت سيرة رسول الله
ﷺ وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم . فقد كان رسول
الله ﷺ يضحك ويمزح ويختار المستحسنات ويسابق عائشة رضي
الله عنها . وكان يأكل اللحم ، ويحب الحلوى ، ويستعذب له
الماء . وعلى هذا كان طريقة أصحابه . فأظهر المتزهدون طرائق
كأنها ابتداء شريفة ، وكلها على غير الجادة . ويحتجون بقول
الحاسبي والمكي ، ولا يجتنب أحد منهم بصحابي ولا تابعي ولا بإمام
من أئمة الاسلام فان رأوا عالماً لبس ثوباً جميلاً أو تزوج
مستحسنة ، أو أنظر بالنهار ، أو ضحك ، عابوه . فينبغي أن
يعلم أن أكثر من صح قصدوا منهم على غير الجادة لفة عليهم ،
حتى أن بعضهم يقول : منذ ثمانين سنة ما اضطجعت . ويقول
آخر : حلفت لا أشرب الماء سنة . وهؤلاء على غير الصواب ،
فان للنفس حقاً ، فأما من ساء قصده بمن تافق وراءه لاجتلاب
الدنيا وتقبيل الأيدي فلا كلام معه ، وهم جمهور المتصوفة ،
فانهم رقعوا الثياب الملونة ليروا الناس بعين الترك للزينة ،
ومامعهم احسن من السفلاطون ^(١) ، وإنما رقع القدماء للفقير .

فهم في اللذات وجمع المال واخذ الشهات واستعمال الراحة
والعجب ومخالطة السلاطين . وهؤلاء قد كشفوا القناع وباينوا
زهد أوائهم ، بلي ، أعجب منهم من ينشق هذا عليه .

٣٦١ - تشبيه أحوال الآدمي بأطوار القمر ودود القز

إن الله عز وجل جعل أحوال الآدمي أمثلة ليعتبر بها . فمن
أمثلة أحواله القمر الذي يبتدىء صغيراً ثم يتكامل بدرأ ، ثم
يتناقص بانحسار . وقد يطرأ عليه ما يفسده كالسوف . فكذلك
الآدمي أوله نطفة ، ثم يترقى من الفساد الى الصلاح . فاذا تم
كان بمنزلة البدر الكامل ، ثم تتناقص أحواله بالضعف فربما هجم
الموت قبل ذلك هجوم الكسوف على القمر . قال الشاعر :

والمرء مثل هلال عند طلعه يبدو ضئيلاً لطيفاً ثم ينشق
يزداد حتى إذا ما تم أعقبه كراجلدين نقصاً ثم ينشق

ومن أمثلة حاله ، دود القز فإنه يكون حياً الى أن يبتدىء
نبات قوته وهو ورق الفرصاد^(١) ، فاذا اخضر الورق دبت
الروح فيه ثم ينتقل من حال الى حال كانتقال الطفل . ثم يرقد
كغفلة الآدمي عن النظر في العواقب ، ثم ينتبه فيحوص على

الاكل كعصر، الشرء على تحصيل الدنيا ، ثم يسدّ على نفسه كما
يحطب الآدمي الاوزار على دينه ، فيرتنن في ذلك الحبس كما
يرتنن الميت في قبره . ثم يقرض فيخرج خلقا آخر كما تنشر
الموتى غرلاً ' بهماً ، وقد دله على البعث تكون النطفة كالبيت ،
ثم تصير آدمياً ، وإلقاء الحب تحت الارض فيفسد ثم يترخصراً .
إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

٣٦٢- المذنب لا ينظر في العواقب لقلة عقله

إنما فضل العقل بتأمل العواقب . فأما القليل العقل فانه يرى
الحال الحاضرة ، ولا ينظر الى عاقبتها ، فان اللص يرى أخذ المال
وينسى قطع اليد . والبطال يرى لذة الراحة وينسى مايجني من
فوات العلم وكسب المال . فاذا كبر فسئل عن علم لم يدر ،
واذا احتاج سأل فذل ، فقد أوبى ما حصل له من التأسف على
لذة البطالة . ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا .
وكذلك شارب الخمر ، يلتذ تلك الساعة وينسى مايجني من
الآفات في الدنيا والآخرة . وكذلك الزنا ، فان الانسان يرى
قضاء الشهوة ، وينسى مايجني منه فضيحة الدنيا والحد^(١) ، وربما
كان للمرأة زوج فالحقت الحمل من هذا به وتسلسل الامر .

ففس على هذه النبذة وانتبه للعواقب ، ولا تؤثر لذة نفوت خيراً كثيراً ، وصابر مشقة تحصل رجاء وافراً .

٣٦٣ - على العالم والزاهد القناعة بالكفاف

ليس في الدنيا عيش إلا لعالم أو زاهد . بلى ، قد يقع في صفاء حالهما كدر . وهو أن العالم يشتغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكسب ، وقد يكون له عائلة ، وربما تعرض بالسلطان ^(١) ففسد حاله . وكذلك الزاهد . فينبغي للعالم والعابد أن يحوكا في معاش كنسخ بأجرة ، أو عمل الخوص ، أو إن فتح له شيء واقتنع باليسير ، فلا يستعبده أحد . كما كان أحمد بن حنبل له أجرة ^(٢) لعلها لا تبلغ ديناً أو يتقوت بها . ومتى لم يقنع أفست مخالطة السلاطين والعوام دينه .

وفي الناس من يريد التوسع في المطاعم . ومنهم من لا يوافق خشن العيش . وهيات أن يصح الدين مع تحصيل الذات . وإذا قنع العالم والزاهد بما يكفي ، لم يتبذل للسلطان ، ولم يستخدم بالتروء إلى بابه ، ولم يحتاج الزاهد إلى تصنع ، والعيش اللذيد المنقطع الذي لا يتبذل به ولا يحمل منه .

٣٦٤ - التفاوت في الفهم والتفكير

ما أكثر تفاوت الناس في الفهم ، حتى العلماء يتفاوتون
التفاوت الكثير في الاصول والفروع ، فترى أقواما يسمعون
أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحسن كقول قائلهم :
ينزل بذاته الى السماء وينتقل . وهذا فهم رديء ، لان الانتقال
يكون من مكان الى مكان ويوجب ذلك كون المكان
أكبر منه ويلزم منه الحركة وكل ذلك محال على الحق عز وجل .
واما في الفروع فكما يروى عن داود أنه قال في قوله :
لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه .

فقال : ان بال غيره جاز^(١) فما يفهم المراد من التنجيس
بل يأخذ بمجرد اللفظ وكذلك يقول : لحم الخنزير حرام لاجلده .
نعوذ بالله من سوء الفهم

(١) داود امام الظاهرية والظاهرية « ومنهم ابن حزم - ومنهم من يسمى
في زماننا بأهل الحديث » ثم اضيق الناس نظراً وأبدم عن فهم علل التشريع ،
وعن حقيقة الفقه ، حتى بلغ الامر بان حزم ان ألف كتاباً في ابطال القياس
بزعمه ، ولو بطل القياس لبطلت تسعة اعشار احكام الشرع ، لان المعاملات كلها مبنية
احكامها على القياس ، وبذلك كان الاسلام ديناً مرناً يصلح لكل زمان ومكان
وهذه من مزايا الاحلام .

وكذلك يتفاوت الشعراء الذين شغلهم التفطن لدقائق
الاحوال كقول قائمهم :

لنا الجففات الغر يلعبن بالضحى واسيافاً يقطرن من نجدة دما
والجففات عدد يسير فلو قال الجفان لكان أبلغ . ولو قال
بالدجى لكان أحسن ، ويقطرن دليل على القدة وكذلك
قول القائل :

مها العطر والفراش ويعلمها لجن ولؤلؤ منظوم
وهذا قاصر ، فانه لو فعلت هذا سوداء لحسنها . إنما المادح
هو القائل :

ألم تر ألى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وان لم تطيب
وكذا قول القائل :

أدعو الى هجرها قلبي فيتبعني حتى اذا قلت هذا صادق نزعا
ولو كان صادقا في المحبة لما كان له قلب يخاطبه . واذا
خاطبه في الهجر لم يوافقه . إنما الحب الصادق هو القائل :
يقولون لو عاتبت قلبك لا رعى فقلت : وهل للعاشقين قلوب ؟
ومثل هذا اذا نوقش كثير . فأقل موجود في الناس
الفهم والغوص على دقائق المعاني .

٣٦٥ - لذات الدنيا غير صافية

من تأمل الدنيا علم أنه ليس فيها لذة أصلاً ، فان وجدت
اللذة شئت بالنقص التي تريد على اللذة أضعافاً .

فمن اللذات النساء فربما لم تثبت المستحسنة ، وربما لم تحب
الزوج ، فمتى علم ذلك تعزل عنها ، وربما خانت ، وذلك
الملاك . فان تمت المرادات فذكر الفراق زائد في التسالم
على الالتذاذ .

ومن اللذات الولد ومقاساة البنت الى ان تتزوج ، وما
تلقى من زوجها وخوف عارها عن قبيحة . والابن ان مرض
ذاب الفؤاد ، وان خرج عن حد الصلاح زاد الاسف ، وان
كان عدواً فمراده هلاك الاب ، ثم إن تم المراد فذكر فراقه
يذيب القلوب . ولو أن فاسقاً أحب بعض المرد انتهك عرضه
في الدنيا وذهب دينه ، ثم لا يلبث ان تتغير حليته فيصير
مبغوضاً مع ما سبق من المنكحة والاثم .

وكم قد غلبت شهوة رجل وطىء الجواري السود فجاء
الولد أسود فبقي عاراً عليه .

ومن هذا الجنس الالتذاذ بالمال ، وفي تحصيله آثام ،
وفراقه حسرة ، وذهاب العمر فيه غيبة . وهذا أنموذج لما

لم يذكر . فينبغي لمن وفقه الله سبحانه أن يأخذ الضروري الذي يميل الى سلامة الدين والبدن والعافية ، ويهجر الهوى الذي نُقِصَتْ تضاعف على لذته ، ومن صبر على ما يكره قَصِدَ النفع في العاقبة التذاعفاً ، كطالب العلم فانه يتعب سيراً ، وينال خير الدارين ، مع سلامة العاقبة . ولذة البطالة تعقب عدم العلم والعمل فيزيد الاسى على اللذة أضعافاً فانه الله أن يغلبك هواك العاجل . ومتى هم الهوى بالتوئب فامتعه وزن عاجله بأجله . وما يتذكر إلا أولوا الالباب .

٣٦٦ - الرد على المتكلمين والمعتزلة والمبتدعة

رأيت ابليس قد احتال بفنون الحيل على الخلق ، وأمال أكثرهم عن العلم الذي هو مصباح السالك ، فتوهم يتخبطون في ظلمات الجهل ، وشغلهم بأمور الحسن ، فهم يحسنون ما يحسنه الحسن ولا يلتفتون الى مشورة العقل . فاذا خاق بأحدم عيشه أو نكب اعترض فكفر .

فمنهم من ينسب ذلك الى الدهر . ومنهم من يسبب الدنيا وهذا تسقيف^(١) لان الدهر والدنيا لا يقعلان وانما هو عيب للمقدر.

(١) كذا ، وما عرفت لها من هنا ولها من عاملي زمانه او لعلمها بما حفر الناسخ.

ومنهم من يخرج به الامر الى جملة الحكمة ، فيقول : أي فائدة في نقض المبني ؟ وزعم بعضهم أنه لا يتصور عود المنقوض ، وأنكروا البعث . ويقولون : ما جاء من ثم أحد ! ونسوا أن الوجود ما انتهى بعد ولو حلفت لصار الايمان بالغيب عياناً ولا يصلح أن يدل على الاحياء بالاحياء .

ثم نظر ابليس فرأى في المسلمين قوماً فيهم فطنة فأراهم أن الوقوف على ظواهر الشريعة حالة يشاركون فيها العوام . فحسن لهم علوم الكلام وصاروا يحتجون بقول بقراط وجالينوس وفيثاغورس^(١) ، وهؤلاء ليسوا بمشرعين ولا تبعوا نبينا ﷺ . إنما قالوا بمقتضى ما سولت لهم أنفسهم .

وقد كان السلف اذا نشأ لأحدهم ولد شغله بحفظ القرآن وسماع الحديث ، فيثبت الايمان في قلبه . فقد توافى الناس عن هذا فصار الولد الفطن يتشاكل بعلم الاوائل^(٢) وينبذ أحاديث الرسول ﷺ . ويقول أخبار آحاد . وأصحاب الحديث عندهم يسون حشوية^(٣) . ويعتقد هؤلاء ان العلم الدقيق علم الطفرة

(١) كاحتجاج شباب اليوم بديكارت ودارون وبركسون ، يردون الحق ان جاء على لسان شيخ او فقيه ، ويقولون الباطل ان جاء على لسان مستر او مبيوع .

(٢) وربما صدالاب المسلم في ايمانه الى تسليم ولده او بنته الى الرهبان والراهبات

(٣) الحشوية في اصطلاح علمائنا الذين يقفون في المعاند عند ظواهر الادلة —

والهوى والجزء الذي لا يتجزأ ، ثم يتصاعدون الى الكلام في
حفات الخالق ، فيدفعون ماصح عن رسول الله ﷺ بواقعاتهم ،
فيقول المعتزلة إن الله لا يرى لأن المرئي يكون في جهة ،
ومخالفون قول رسول الله ﷺ : انكم ترون ربكم كما ترون
القمر لا تضامون في رؤيته ^(١) . فأوجب هذا الحديث إنباء
رؤيته وإن عجزاً عن فهم كيفيتها .

وقد عزل هؤلاء الاغبياء عن التشاغل بالقرآن ، وقالوا :
مخلوق ، فزالت حرمة من القلوب . وعن السنة قالوا : أخبار
آحاد . وإنما مذاهبهم السرقة من بقراط وجالينوس .
وقد استفاد من تبع الفلاسفة أنه يرفه نفسه عن تعب

— فيشبهون ويقولون ان الله في السماء حقيقة وإنه بدأ حقيقة وامثال هذا مما يكثر
المؤلف الرد عليه هنا وفي كتابه « دفع شبهة التشبيه » أما ان يقال لاهل
الحديث جيباً « حشوية » فهاذ الله ، ولولا اهل الحديث ما حفظ الدين ، ولا تلك
السنة ، ولا عرف حلال من حرام .

(١) الحديث أولاً حديث آحاد ، يعمل بمثله بغلبة الظن ولكن لا يفيد العلم
ولا تثبت بمثله عقيدة لأنه لا يقطع بأنه صلى الله عليه وسلم قاله ، والله لا يرى مثل
رؤيتنا هذه ، لأن الرؤية ارتسام صورة الجسم على شبكية العين والله ليس بعجم ، أما ان
كانت الرؤية على شكل آخر ، وهذا هو المراد ان صح الحديث « لان امور
الآخرة لا تقاس على امور الدنيا » فلا تنازع فيه ، ولوؤمن به من غير بحث
عن كبريته وحقيقته .

الصلاة والصوم ، وقد كان كبار العلماء يذمون علم الكلام ،
حتى قال الشافعي : حكمي فيهم ان يركبوا على البغال
وبشروا ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة
واشتغل بالكلام .

وقد آل بهم الامر الى ان اعتقدوا ان من لم يعرف
تحرير دليل التوحيد فليس بمسلم .^(١)
فأفاه الله من مخالطة المبتدعة . وعليكم بالكتاب والسنة ترشدوا .

٣٦٧ - الزمان أشرف من أن يضيع فيما لا ينفع

رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان وكانت
القدماء يحذرون من ذلك ، قال الفضيل : أعرف من بعد
كلامه من الجمعة الى الجمعة .

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا : لعلنا شغلناك فقال :
أصدقكم كنت أقرأ فتركت القراءة لاجلكم . وجاء رجل من
المتعبدين الى مربي السقطي فرأى عنده جماعة فقال : صرت
مناخ البطالين ، ثم مضى ولم يجلس .

ومنى لان المزود طمع فيه الزائر ، فأطال الجلوس فلم
يسلم من اذى . وقد كان جماعة قعوداً عند معروف فأطالوا
فقال : ان ملك الشمس لا يفتقر في سوقها ألماً تريدون القيام ؟

(١) المؤلف نفسه قال هذا في الفصل « ٢٢١ » ورددت عليه في الحاشية

ومن كان يحفظ المحظرات عامر بن عبد قيس ، قال له رجل قف أكلك ، قال : فأمسك الشمس . وقيل لكُرز ابن وبرة : لو خرجت الى الصحراء ، فقال : يبطل الزوجار^(١) وكان داود الطائي يستف الفتيث ويقول : بين سف الفتيث وأكل الخبز قراءة خمسين آية . وكان عثمان الباقلاوي دائم الذكر لله تعالى ، فقال : اني وقت الافطار أحس بروحي كأنها تخرج لاجل اشتغالي بالاكل عن الذكر^(٢) .

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال : اذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحداكم يقرأ القرآن في طريقه ، ومتى اجتمعتم فحدثتم . واعلم ان الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة ، فان في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة . فكم يضيع آدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل . وهذه الايام مثل المزرعة ، فكأنه قيل للانسان : كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر . فهل يجوز للعافل ان يتوقف في البذر ويتواني ؟

والذي يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة بها أمكن ،

(١) كذا ولم اعرف ما هو

(٢) اذا نوى بالاكل التقوى على الطاعة ولحظ حمد الله عليه كان اكله ذكرا

والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقى ، وقلة الاكل
فان كثرة سبب النوم الطويل وضباب الليل . ومن نظري
سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته .

٣٦٨ - كيف يجب ان تعاشر النساء

ينبغي للعاقل ان يتغير امرأة صالحة من بيت صالح يغلب
عليه الفقر لترى ما يأتيا به كثيراً . ولتزوج من يقاربه
في السن . فاما الشيخ فانه اذا تزوج حية آذاها ، وربما فجرت
أو قتله أو طلبت الطلاق وهو يحبها فيتأذى . وليتم
نقصه بحسن الاخلاق وكثرة النفقة . ولا ينبغي للمرأة
أن تقرب من زوجها كثيراً فتمل ، ولا تبعد عنه فينساها .
ولكن وقت قربها اليه كاملة النظافة متحسنة ، ولتحذر أن يرى
فرجها أو جسها كله فان جسم الانسان ليس بمستحسن^(١) . وكذلك
ينبغي له أن لا يريها جسده وانما الجماع في الفراش .

ورأى كسرى يوماً كيف يسلم الحيوان ويطبخ فتعلبت
نفسه ونفى اللحم . فذكر ذلك لوزيره ، فقال : أيها الملك ،
الطيبخ على المائدة ، والمرأة في الفراش . ومعناه لا تفتش عن ذلك .
قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيته من رسول الله ﷺ

(١) من قال هذا ؟

ولاراة مني ، وقام ليلة عريانا فما رأيت جسده قبلها . وهذا
 الحزم . وكذلك يعجب الرجل بالمرأة لأنه لم ير عيوبها .
 وليكن للمرأة فراش وله فراش ، فلا يجتمعان إلا في حال الكمال .
 ومن الناس من يستهن بهذه الاشياء فيرى المرأة متبذلة تقول :
 هذا أبو أولادي . ويتبدل هو . فيرى كل واحد من الآخر
 مالا يشتهي فينفر القلب وتبقى المعاشرة بغير المحبة . وهذا فصل
 ينبغي تأمله والعمل به فانه أصل عظيم .

٣٦٩ - فائدة القناعة للعالم والزاهد

لا عيش في الدنيا الا للقنوع بالسير ، فانه كلما زاد الحرص
 على فضول العيش زاد الهم وتشتت القلب ، واستعبد العبد .
 وأما القنوع فلا يحتاج الى مخالطة من فوقه ولا يبالي بمن هو
 مثله ، اذ عنده ما عنده . وان أقواما لم يقنعوا وطلبوا لذينة
 العيش فازروا بدينهم وذلوا لغيرهم ، وخصوصاً أرباب العلم فانهم
 ترددوا الى الامراء فاستعبدوهم ، وراوا المنكرات فلم يقدروا
 على انكارها ، وربما مدحوا الظالم اتقاء لشره . فالذي نالهم
 من الذل وقلة الدين اضعاف ما نالوا من الدنيا . ومن أقبح
 الناس حالا من تعرض للقضاء والشهادة ولقد كانتا مرتبتين
 حسنتين ، وكان عبد الحميد القاضي لا يجازي . فبعث الى المعتضد

وقال له : قد استأجرت وقوفاً فأد أجرتها ففعل . وقال له
المعتضد : قد مات فلان ولنا عليه مال .

فقال : أنت تذكر لما وليتني قلت لي ، قد أخرجت هذا
الامر من عنقي ووضعت في عنقك ولا أقبل هذا إلا بشاهدين .
وكذلك كان الشهود ، دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال
الخادم : اشهدوا على مولانا بكذا فشهدوا ، فتقدم المجدوعي
الى الستر فقال : يا أمير المؤمنين أشهد عليك بما في هذا الكتاب
فقال : اشهد ، قال : انه لا يكفي في ذلك ، لا أشهد حتى
تقول : نعم (١) .

قال : نعم

فأما في زماننا فتغيوت تلك القواعد من الكل ، خصوصاً
من يتقرب بالمال ليستشهد فتراه يُسحب ليشهد على ما لا يرى .
قال لي أبو المعالي بن شافع : كنت أحمل الى بعض أهل
السواد وهو محبوس وأشهد عليه ، وأعلم أنه لولا أنه مكره
لجاء اليّ بقدميه . وأنا استغفر الله من ذلك . وليس للشهود
جراية فيحصلون ذلك لاجلها ، وإنما الذي يحصل جر الطيلسان ،
وظرق الباب ، وقول المعروف : حرس الله نعمتك شهادة .

(١) قوله « اشهد » ادل على القصد واصرح من قوله « نعم »

ولما قيل لابراهيم النخعي : تكون قاضيا لبس قميصاً أحمر
وجلس في السوق ، فقالوا : هذا لا يصلح .

ودخل بعض الكبار على الرشيد وقد أحضره ليوليه القضاء
فسلم وقال له : كيف أنت وكيف الصبيان ؟ فقيل : هذا
مجنون . فبأنه جنون هو العقل . وما ظن الايمان بالآخرة الا
متزلزلا في أكثر القلوب . نسأل الله سبحانه سلامة الدين
فانه قادر .

٣٧٠ - مع كل فرحة في الدنيا ترحة

قد تكرر معناه في هذا الكتاب ، إلا أن اعادته على النفوس
مهمة لئلا يغفل عن مثله . ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الله سبحانه
مالك حكيم لا يعيب . وهذا العلم يوجب نفي الاعتراض على
القدر . وقد لمج خلق بالاعتراض قدحا في الحكمة ، وذلك
كفر . وأولهم ابليس في قوله : « خلقتني من نار وخلقته من
طين » ومعنى قوله أن تفضيلك الطين على النار ليس بحكمة .
وقد رأيت من كان فقيها دأبه الاعتراض ، وهذا لان المعارض
ينظر الى صورة الفعل ولو أن صورة الفعل صدرت من مخلوق
مثلنا حسن ان يعترض عليه ، فاما من نقصت الافهام عن
مطالعة حكمته فاعتراض الناقص الجاهل عليه جنون . فاما

اعتراض الخلقاء فدائم ، لانهم يريدون جريان الامور على اغراضهم ، ففى انكسر لاحدم غرض اعتراض . وفيهم من يتعدى الى ذكر الموت فيقول : « بنى ونقض ! » وكانت لنا رفيق قرأ القرآن والقراءات وسمع الحديث الكثير ، ثم وقع في الذنوب وعاش أكثر من سبعين سنة ، فلما نزل به الموت ذكر لي أنه قال : قد ضاقت الدنيا إلا من روحي .

ومن هذا الجنس سمعت شخصاً يقول عند الموت : ربي يظلمني . وهذا كثير .

ويكره أن يحكى كلام الخلقاء في جنونهم واعتراضاتهم الباردة . ولو فهموا أن الدنيا ميدان مسابقة ، ومارستان^(١) صبر ليبين بذلك أثر الخالق لما اعتراضوا . والذي طلبوه من السلامة وبلوغ الاغراض امامهم لو فهموا^(٢) فهم كالزورجاري يتلوث بالطين فاذا فرغ لبس ثياب النظافة . ولما أريد نقض هذا البدن الذي لا يصلح لبقاء نحيث عنه النفس الشريفة ثم بني بناء يقبل الدوام . وبعد هذا فقل للمترض : « فليدود بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كبد مابغيط » قل له : إن اعتراض لم يمنع ذلك جريان القدر وإن سلم جرى

(١) مارستان « بيمارستان » مبنى مستشفى وعند العامة اليوم « دار المجانين »

(٢) أي ان السلامة وبلوغ الاغراض انما تكون يوم القيامة

القدر ، فلأن يجري وهو مأجور خير من أن يجري وهو مأزور . وما أحسن سكوت وضاح البين لما اختبأ في صندوق فقال السلطان : أيها الصندوق ان كان فيك ما نظن فقد عرفت أنك أترك ، وإن لم يكن فليس بدفن خشب من جناح ، فلو أنه صاح ما انتفع بشيء ، ولربما أخرج فقتل أفح قتلة^(١) .

٣٧١- افراح الدنيا لا تصفو من الاكدار

من قلع أحوال الدنيا علم أن مراد الحق سبحانه وتعالى اجتنبها . فمن مال الى مباحها ليلتذ وجد مع كل فرحة ترحه ، وإلى جانب كل راحة تعباً ، وآخر كل لذة نفثاً يزيد عليها ، وما رفع شيء من الدنيا إلا ووضع ، أحب الرسول ﷺ عائشة رضي الله عنها فجاء حديث الافك ، ثم يكفي أنه إذا حصل محبوبه فعين العقل ترى فراقه فينقص عند وجوده كما قال الشاعر :

أتم الحزن عندي في مرور ليقن عنه صاحبه انتقالا
 فيعلم العاقل أن مراد الحق بهذا التكدير التفسير عن الدنيا ، فيبقى أخذ البلفة منها ضرورية ، وترك الشواغل ، فيجتمع المهم في خدمة الحق ، ومن عدل عن ذلك ندم على الفوات .

(١) قصة وضاح البين قصة خبيثة مكذوبة وضمت لظن في العرب والمسلمين .

٣٧٢ - احفظ مالك وتوسط في الاتفاق واكتم امر معيشتك

العاقل يدبر بعقله عيشته في الدنيا ، فان كان فقيرا اجتهد في كسب وصناعة تكفه عن الذل للخلق ، وقلل العلائق واستعمل القناعة فعاش سليما من ممن الناس عزيزا بينهم ، وان كان غنيا فينبغي له أن يدبر في نفقته خوف أن يفقر فيحتاج الى الذل للخلق ، ومن البلية أن يبذر في النفقة ويباهي بها ليكمد الاعداء كأنه يتعرض بذلك (إن أكثر) لاصابته بالعين ، وينبغي التوسط في الاحوال ، وكتان ما يصلح كتمان ، ولقد وجد بعض الفضالين مالا فاكثر النفقة فعلم به فأخذ منه المال ، وعاد الى الفقر ، وانما التدبير حفظ المال ، والتوسط في الاتفاق ، وكتان ما لا يصلح اظهاره ، ومن الغلط اطلاع الزوجة على قدر المال ، فانه ان كان قليلا مان عندها الزوج ، وان كان كثيرا طلبت زيادة الكسوة والحلي ، قال الله عز وجل : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، وكذلك الولد ، وكذلك الاسرار ، ينبغي أن تحفظ منها ومن الصديق ، فرما انقلب فقد قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان اعلم بالضررة

بحمد الله تعالى قد نجز ما توخاه الفكر الفاتر من تقييد
 ما جمعه القلم من صيد الحاطر ، مقتصراً فيه على ما به التخلي من
 الامراض النفسية والتخلي بالآداب الشرعية ، والاخلاق المرضية ،
 جعله الله خير هاد على منبر الوعظ والارشاد ، وانفع كتاب
 تجلى في مرايا الظهور لهداية العباد .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد
 وعلى آله وصحبه وسلم

الفهارس

١ - الأعلام

٢ - الأمكنة

٣ - الأحاديث الشريفة

٤ - الأشعار

٥ - الموضوعات



فهرس الاعلام (الأرقام للفصول)

٤٠ ، ٣٤ ، ٣١ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ٢٥
 ١٠٩ ، ١٠٧ ، ٧١ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥١
 ١٦٤ ، ١٥٥ ، ١٥٢ ، ١٢٣ ، ١٢١
 ٢٠٢ ، ١٩٤ ، ١٧٨ ، ١٧٤ ، ١٦٦
 ٢٨٩ ، ٢٢٩ ، ٢٢١ ، ٢١٨ ، ٢٠٦
 ٣٤٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣
 ٣٦٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥٠ ، ٣٤٣
 أحمد بن خالد الحلال ١٩
 أحمد بن محمد الزعفراني ١٢٩
 أحمد بن محمد العتيقي ١٩
 أحمد الحربي ٢٧٩
 آدم عليه السلام ١٣ ، ١٧ ، ٢٣ ،
 ٤٦ ، ٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٣٥
 ١٥٣ ، ٢١٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٨ ، ٣٥٢
 آدم ١٩
 أرميا عليه السلام ٣٥٣
 أساش ١٨٣
 إسحاق عليه السلام ٢٩٢
 إسحاق (وزير المعتصم) ١٨٣

(أ)

٥٠ ، ٤٢ ، ١٥ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ٢٨٨ ،
 ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٥٣
 إبراهيم بن آدم ١٩ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
 ٤٠ ، ١٠١ ، ١٥٥ ، ٢٠٦ ،
 ٢٩١ ، ٣٤٠ ، ٣٦٠
 إبراهيم الحربي ١٩ ، ٢٩٣
 إبراهيم الخواص ٣٨
 أبوزيد الملك ٢٤٢
 ابن أجود ١٦٧
 ابن أسباط (انظر يوسف)
 ابن أفلح الشاعر ٢٧٩
 أحمد بن أبي الحواري ١٩ ، ١١٨
 أحمد بن أبي خالد ١٨٢
 أحمد بن أبي داود ٢٠٦ ، ٢٩٣ ، ٣٤٩
 أحمد بن جعفر ٢٦٨
 أحمد بن الحسن بن البنا ٢٦٧
 أحمد بن حنبل ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ،

(ب)

البخاري ١٩ ، ١٧٤
 برخ العابد ٢٢٨
 بريرة ١٩
 بشر بن الحارث ٢٥
 بشر الحافي ٥٩ ، ٨٥ ، ١٠٩ ، ١٥٥
 ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥
 ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٦٠
 بشر المريسي ١٩
 البصري (انظر الحسن)
 البغوي ٣٢٢
 بقراط ٣٦٦
 بلعام ٨٦
 بنيامين (ابن يعقوب عليه السلام) ٣٢٦

(ت)

تيم الداري ١٩
 الترمذي ٣٦٠

اسحاق بن راهوية ١٧٤
 اسحاق بن الضيف ١٨١
 اسماعيل عليه السلام ١١٧
 اسماعيل بن سعيد ٣٥٢
 الأسود بن يزيد ٤٠
 الاسود العنسي ٢١٤ ، ٣٠٨
 الاشعري (انظر علي)
 الاصمعي ٣٠٨ ، ٣٥٢
 الاعمش ٢٠٠
 الافشين ١٨٣
 الامين (انظر محمد)
 الاوزاعي ٢٦٧
 امامة بنت زينب ٣٣٦
 أمية بن أبي الصلت ٢٢٧
 انس بن مالك ١٤٧
 انس بن النضر ٨٩
 أنس بن النضير ٢٢٨
 اويس القرني ٣٥٠
 أيتاخ ١٨٣
 ايوب عليه السلام ١٣٥ ، ٢٩٢ ، ٣٥٣
 ايوب السخيتاني ١٧٨

(ح)

- حاتم الطائي ٣٠٩
 الحارث المحاسبي ٣٦٠ ، ٦٠
 ابو حازم ٣٣٦
 الحاكم (ابو عبدالله صاحب المسند)
 ١٧٤
 ابو حامد الطوسي الغزالي ٢٥١ ،
 ٣٣٦ ، ٣٦٠
 الحباب ٣٠٩
 حبيب العجمي ٩٧
 الحجاج ٤٩ ، ٣٥٢
 ابن الحجاج ٣٠٦
 حذيفة ٢١٨
 الحريري ابو القاسم ٢٩٨
 الحسن بن ابي طالب (من المحدثين)
 ١١٩
 ابو الحسن البسطامي ٢١١
 ابو الحسن الراندي ٢٨٥
 ابو الحسن القزويني ٢٠٦
 الحسن بن علي ١٩ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٣١٤

(ث)

- ابن ثابت البناني ١٤
 ثعلبة (صحابي) ٣٠٩

(ج)

- الجاحظ ٣٥٥
 جالينوس ١٩٧ ، ٣٦٦
 الجبائي ٣٣٦
 جبريل عليه السلام ١٠٦ ، ١٢٣ ،
 ٣٠٨ ، ٣٤٢ ، ٣٥٣
 جحاش ٧١
 جذاذاد ٧١
 جريج ٣٦
 ابن الجزري ٣٤٩
 جعفر ٥٨
 ابو جعوانه العامري ٣٠٨
 ابن الجلاء ١٨ ، ١٢٢ ، ١٣٣
 جندب ٣٠٨
 ابن جني (انظر عثمان)
 الجنيدي ٧١ ، ٩٨ ، ٣١٢
 ابو جهل ٢٢٧ ، ٢٣٧

حمزة ٥

حنبل بن اسحاق ١٧٤

حنظلة ١

حنظلة بن يزيد الكوفي ٣٠٨

ابو حنيفة ٢٥ ، ٤٠ ، ١٢١ ، ١٥٢

٣٣٦ ، ٣٦٠

حيان بن عبد الله ٢٩٠

(خ)

خالد بن سعيد (صحابي) ٣٠٨

خالد بن سلام ٢٨

خالد بن عيينة ٣٠٨

الخضر عليه السلام ٣١ ، ١٠١ ، ١٩٧

٢٣٧ ، ٢٧٠ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦

الخنساء ٤٩

الخيزران ٢١٤

(د)

الدار قطني ١٧٤

داود عليه السلام ٢٨ ، ٨٢ ، ٠١

٢٩٢

حسن بن موسى (محدث) ٢٦٨

الحسن البصري ٢٥ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٨٥

١٨٧ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٧٣ ، ١٩٣

٢٠٦ ، ٣٢٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٢

الحسن بن الحجاج ٢٩٦

الحسين بن طاهر بن الحسين ١٨٣

حسين القزويني ١٦١

حسين خادم الامون ١٨٢

الحسين بن اسماعيل (من المحدثين)

١١٩

الحسين بن علي ٢١٤ ، ٣٠٨

الحسين بن محمد النصيبي ٣٥٢

الحسين بن يحيى ١٨٣

الحصري ٢٣٠

ابن حصير (الوزير النظام) ٣٥٣

ابن الحصين ٢٦٨

ابو حكيم ٧١

الحلاج ١٦٠ ، ٢٣٤ ، ٣٠٨ ، ٣٣٦

حماد بن سلمة ١٢١ ، ٢٢٩

حمد بن احمد ٢٨

الحمدي ٢٢٧

دبي ابن حراس (من رجال الحديث)

٢١٨

الربيع ٣٢٨

الربيع بن خيثم ١٩ ، ٤٠ ،

ابن الرطبي ١٨٢

ابن الرومي ٢٣٧

ابو روح ٣٢٢

(ز)

الزباء ٢٣١ ، ٢٤٢

الزبير بن العوام ١٩

زرادشت ماني ٣٠٨

ابو زرعة ٣٣١

ابن الزغواني ٣٤٠

زكريا عليه السلام ٦٧ ، ٧٤ ، ٨٦

٢٧٠

الزهري (انظر محمد)

ابن الزيات ٣٤٩

زينب أم المؤمنين ٨٢

(س)

سجاح ٣٠٨

داود الطائي ٥٢ ، ١٥٢ ، ٣٣٣ ،

٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧

ابو داود ٢٦٧ ؟

ابو داود (صاحب السنن) ١٧٤

الدحاقي ٧١

دراج (محدث) ٢٦٨

ابو الدرداء ١١ ، ٢٥ ، ١١٥ ،

٢٣٤ ، ٣٠٢

أم الدرداء ٢٥

ابن أبي الدنيا ١٠٩

دلف بن أبي دلف ١١٩

ابن أبي داود (انظر احمد)

(ذ)

ذو الحويصرة ٣٦

ذو النون المصري ١٩

(ر)

رابعة العدوية ١٩ ، ٢٥ ، ٦٣ ، ٤١٣

الخليفة الراشد ١٨٢

ابن الراوندي ١٥٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٧

ابن سمعون ٣٣٣ ، ٨٦

سمية (ام عمار بن يامر) ٢٣٧

ابن سيرين (انظر محمد)

(ش)

ابن الشاش ٣٠٨

الامام الشافعي ١١ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٤٠

٦١ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٠

٣٦٦

الشبلبي ٧١ ، ٨٠ ، ٢٣٤ ، ٣٣٦

الشريف الرضي ١٦٩

شريك القاضي ٣٣٦

شعيب عليه السلام ١٩ ، ١٠١

شعيب بن حرب ١٩

شهر بن بادام ٣٠٨

شيبان الراعي ٢٣١

(ص)

صالح بن احمد بن حنبل ٣٤٣

صالح (رفيق حنبل بن اسحاق) ١٧٤

صدقة ١٩

سري السقطي ١٩ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ٣١٢

٣٦٧ ، ٣٦٠

سعد بن ابي وقاص ٣٤ ، ٤١

سعد بن زرارۃ ٥١

ابو سعيد الخدري ٢٦٨

سعيد بن جبير ٣٥٢

سعيد بن المسيب ٣١ ، ٤٠ ، ١٠١ ، ٤٠

١٠٩ ، ١٤٩ ، ١٦٦ ، ٢٩٥

سفيان بن عيينة ١١٤ ، ٢٠٦

سفيان الثوري ١٩ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٤

٣٦ ، ٤٠ ، ٨٢ ، ١٠٩ ، ١١٨

١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ٤٠

١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩

٢٣١ ، ٢٩٥ ، ٣٣١ ، ٣٥٩ ، ٣٦

سلمان الفارسي ٣٤

ابو سليمان الداراني ١٢

سليمان عليه السلام ٢٨ ، ٨٢ ، ٢١٤

٢٩٢ ، ٣٥٣

سليمان بن احمد ٢٨

سليمان بن عبد الملك ٣٣٦

ابن السماك ٨٦

٣٦٨ ، ٣٧١

أبو عاصم ٣٥٢

عامر بن عبد قيس ١٤ ، ٣٦٧

أبو عامر الراهب ٣٤٤

عباد بن كثير ٣٥٢

عباس بن عبد العظيم ١٨١

أبو العباس ابن عقدة ١٧٤

أبو العباس بن واصل المقي ١٢٩

أبو العباس الدوري ٥٨

عبد الجبار بن أبي عامر ٢٨

عبد الحميد ٢٢٠

عبد الحميد القاضي ٣٦٩

عبد الخالق بن عبد الصمد ٣٢٢

عبد الرحمن بن عيسى الفقيه ٢٢٦

عبد الرحمن بن عوف ١٩

عبد الرحمن بن محمد القزاز ١١٩ ، ١٢٩

عبد الرحمن بن ملجم ٥٤ ، ٣٥٢

أبو عبد الرحمن السلمي ٢٩٠

عبد العزيز بن أبي داود ٢١٨

عبد الله (رفيق حنبل بن اسحاق)

١٧٤

صدقة بن الحسين الناسخ ٢١١

صفية أم المؤمنين ٨٢

صدة بن أشيم ٢٢٩

صهيب ٤١

ابن صباد ٢١٤

(ط)

أبو طالب ٢٢٧

أبو طالب بن المؤيد الصوفي ٢١١

أبو طالب المكي ١٩ ، ٣٦٠

طاهر بن الحسين ١٠٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣

٢٤٧

طلحة ١٩

طلحة بن مطرف ٢٠٠

أبو طلحة ٢٩١

طلحة بن خويلد ٣٠٨

(ع)

عائشة ٥١ ، ٢٨ ، ٩٦ ، ١٠٧ ،

١٤١ ، ١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ،

٢٥٩ ، ٢٨٨ ، ٣٣١ ، ٣٦٠ ،

عبد الله بن أبي ١٦٧ ، ٣٤٤
 عبد الله بن أبي سعد ١١٩
 عبد الله بن أحمد بن حنبل ٢١٨
 عبد الله بن أحمد ٢٦٨
 عبد الله بن عباس ١٩ ، ٢٩ ، ٥٢
 ٣٥٢
 عبد الله بن عمر ١٥ ، ٣٦ ، ١٦١
 ٢٥٩ ، ٢١٧ ، ٢٠٦
 عبد الله بن محمد الاسدي ٢٦٧
 عبد الله بن المبارك ١٠٩ ، ١٦٦ ، ٢٩٥
 عبد الله بن مسعود ١٩ ، ٦٣ ، ٢٨٨
 عبد المجيد بن عبد العزيز ٢٢٠
 عبد المحسن الصوري ٢٨٥
 عبد الملك بن مروان ١٠٩
 عبد الوهاب الانطاكي ٩٤ ، ٣٣٧
 ٣٥٢
 عبد الوهاب بن المبارك ١٩
 ابو عبيدة ١٠٩ ، ٢٩١ ، ١٦٦
 ابو عبيدة الخواص ٣١٧
 عثمان بن جني ١٧٥
 عثمان بن عفان ٤٠ ، ١١٨
 عثمان النيسابوري ٢٩
 عثمان الباقلوي ٣٦٧
 ابو عثمان المغربي ٢٦٣
 ابو عثمان النيسابوري ٢٩٦
 ابن عرفة ١١٤
 عطاء الخراساني ٢٨
 عطار بن حاجب ٣٠٨
 ابن عقيل ٣١ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٩٨
 ١٠١ ، ١٢٣ ، ٣١٧
 العقيلي (انظر محمد)
 ابو العلاء المعري ١٩١ ، ٣٠٦
 ابو العلاء الهمداني ٢١٨
 علقمة ١١
 علي بن أبي طالب ١٩ ، ٢١ ، ٢٦
 ٢٨ ، ٤٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٨٢
 ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٢٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠
 ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٢
 علي بن اسماعيل الاشعري ١٢٣
 ١٥٩
 علي بن بلنق ٣٥٧

(غ)

غسان بن عباد ١٨٢

(ف)

فاطمة الزهراء ٣٣٦

فتوح بن سغرف ٣١٧

فرعون ١٣ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ، ٢٧٠

فرقد السبغي ١٩ ، ٣٦ ، ٣٤١

ابو الفضل بن ناصر (شيخ المؤلف)

٢٨٥

ابو الفضل الزهري (محدث) ١٢٩

الفضيل بن عياض ١٢ ، ٢٥ ، ٢٩

٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٦٧

فيثاغورس ٣٦٦

(ق)

القائم بأمر الله (الخليفة) ٢٠٦

قابيل ٣٤٤

قارون ١٢٣

القاسم بن مخيمرة (من رجال الحديث)

٢٦٧

علي بن الحسن ٢٦٧

علي بن الحسين الواعظ ٢٣٤

علي بن عبيد الله ٢٤٤

علي بن المديني ٢٩٣ ، ٢٢١

ابو علي الروفاري ١٢

ابن عمار ٨٦

عمار بن ياسر ٢٣٧

عمر بن الخطاب ٣١ ، ٤٠ ، ٥٤

٧١ ، ١٠١ ، ١٦٦ ، ٢١٤

٢٢٩ ، ٢٤٧ ، ٢٨٨ ، ٣٥٠

عمر بن عبد العزيز ٣١ ، ١٨٣ ، ٢٠٢

٢٤٢ ، ٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٥٠

عمر بن المهاجر ٣١

عمر بن هيرة ١٨٢

مرو بن حزم ٣٠٨

مرو بن العاص ١٦١

أبو مرو بن نجيد ٢٦٣

عيسى عليه السلام ٧١ ، ٢١٤

٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٨

ابو عيسى الحنلي ٣٥٢

عينة بن حصين ٣٠٨

ابن قتيبة (انظر محمد)

قتيبة بن مسلم ٧٧

قعدم ٣٥٢

قصير (مع الزباء) ٢٣١

قيس بن الربيع ٣١٧

قيصر ٥٤ ، ١١١ ، ٣٠٨

(ك)

كثير ٧١

كثير ١٦١

كرز بن وبرة ٣٦٧

ابن كريب ١٧٤

كسري ٥٤ ، ٣٠٨ ، ٣٣٨ ، ٣٦٨

كعب بن مالك ٣٤

كهش الكلاي ٣٠٨

(ل)

ابن لؤلؤة ٥٤

لوط عليه السلام ١٥ ، ١٠١ ، ١٢٣

ابن ليفة ٢٦٨ ، ٢٩٥

الليث بن سعد ١٩ ، ٢٩٥

(م)

المأمون ١٨٢ ، ١٨٣

مالك بن أنس ١٩ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ١٤٧

١٥٢ ، ١٦٦ ، ٢٩٥ ، ٣٤١

مالك بن دينار ١٩ ، ٢٥ ، ٢٩١

الماوردي ١٨٢

ابن المبارك (انظر عبد الله)

المبارك بن عبد الجبار ٣٥٢

المتوكل ٣٤٩

المتنبى ١٠٨ ، ١٦٩

المجدوعي ٣٦٩

محمد الامين ١٨٢

محمد التميمي ٢٤٤

ابو محمد التميمي ٢٠٦

محمد بن الحسين المعدل ١٢٩

ابو محمد ابن الحشاش ٢٢٦ ، ٣٣٧

محمد بن الحسين القراء (القاضي ابو

يعلى) ٢١٨

محمد بن سليم الخواص ١٢٩

محمد بن سيرين ١٨ ، ٣٦ ، ١٣٣

المروزي ١٩ ، ٣٦٠ ،
 مريم عليها السلام ٦٧
 مسلم بن عقبة ٢٧٥
 الامام مسلم ١٧٤
 ابو مسلم الخولاني ٤٠
 ابو مسلم الخراساني ١٦٩ ، ٢٠٤
 المستنجد بالله ١٨٢
 المسترشد بالله ١٨٢ ، ٢٧٩ ، ٣٤٩
 المستظهر بالله ٣٣٦
 مسيلة الكذاب ٢١٤ ، ٣٠٨
 المطعم بن عدي ٤١ ، ٥١ ، ١١٦
 ابو المعالي ابن شافع ٣٦٩
 ابو المعالي الجويني ٦٩ ، ٣٣٦
 معاوية بن أبي سفيان ٢٢٢
 معروف الكرخي ٢٥ ، ٩٧ ، ١٥٥
 ١٦٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦
 ٣٦٧
 المعتضد ١٠٩ ، ١٢١
 المعتصم ٢٩٣
 ابو المغيرة ٢٦٧
 المقتدي ١٩٦

٢٢٠ ، ٣٢٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٩
 محمد بن شهاب الزهري ١٠٩ ، ١٢١
 محمد بن عبد الباقي البزار ٢٨ ، ٢٣١
 محمد بن عبد البر ٤٩
 محمد بن عبد الرحمن الصيرفي ١٢٩
 محمد بن العساف العقيلي ١٧٥
 محمد بن علي الزجاجي ٢٦٧
 محمد بن علي القوهستاني ١١٩
 محمد بن عمرو العقيلي ١٩
 محمد بن عون الطائي ٢٦٧
 محمد بن عيسى ١٩
 محمد بن قتيبة ١٠١ ، ١٠٩
 محمد بن مسلمة البلخي ١١٩
 محمد بن المظفر الشامي ١٩
 محمد بن واسع ٧٧
 المختار بن ابي عبيد الثقفي ٣٠٨
 المخلص ٣٢٢
 خالد بن الحسين ٣٢٢
 ابن المديني (انظر علي)
 ابن المذهب ٢٦٨

المقتفي ١٨٢ ، ٣٥٣

ابن المقنع ٣٣٦

مكحول ١٢١

المنصور ٢٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٣٦

منصور بن عمار ٢٩٥ ، ٣٠٧

منصور بن المعتز ٤٠

ابن المنصوري ٢٢٦

ابو منصور الجواليقي ٩٤

موسى بن سليمان ٢٦٧

موسى عليه السلام ١٣ ، ١٩ ، ٣١

٤٢ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ١٩٣ ، ١٩٧

٢١٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٧٠ ،

٢٧٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٥٣

ابو موسى الاشعري ٢٦

ابن مهدي ١٩

ميسكائيل ١٠٦ ، ٣٥٣

ميسونة بنت شاقولة ٣٣٣

(ن)

النايفة الذبياني ٣٠٨

نافع (مولى عمر) ٢٥٩

النخعي ١١ (انظر ابراهيم)

ابو نعيم ٢٨

نوح عليه السلام ٦٦ ، ١١٧ ، ٢١٤

٢٨٩ ، ٢٩٢

(و)

الواثق بالله ٣٤٩

الواقدي ٣٠٨

وحشي قاتل حمزة ٥

وصيف وزير المعتصم ١٨٣

وضاح البين ٣٧٠

وهب بن منبه ٣٥٣

وهب ابن الورد ٢٩

(هـ)

هارون الرشيد ٣٠٧ ، ٣٦٩

هاروت وماروت ٤٢

ابن هيرة (انظر عمر)

هذيل بن واسع ٣٠٨

هذيل بن يعفور ٣٠٨

١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٩٣ ،

٢٢٢ ، ٢٩٢ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ،

٣٥٣

ابو بعلی العلوي ٣٤٠

يوسف عليه السلام ٢٩ ، ٦ ، ٦٧ ،

٦٨ ، ٧٢ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٩ ،

١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٩٢ ،

١٩٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٢٦ ،

٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٥٣ ،

يوسف بن احمد ١٩

يوسف بن اسباط ١٩ ، ١١٨ ،

يوسف بن عمر القواس ١١٩

القاضي ابو يوسف ٢٠٦

يوسف ٨٦

يونس عليه السلام ٣٥٣

يوزفا (ابن يعقوب عليه السلام) ٦٧

هشام ٣٢٢

ابو الميثم ٢٦٨

(ي)

يامين (ابن يعقوب عليه السلام) ١٠١

يحيى بن اكرم ١٢٩ ، ٢٠٦ ،

يحيى بن خالد البرمكي ٢٩٣

يحيى بن زكريا عليها السلام ٥٤ ،

٨٦ ، ١٩٣ ، ٢٢٠ ،

يحيى بن معاذ ٢٨٦

يحيى بن مدين ٣٣١

يحيى بن نزار ٢٧٩

يحيى البكاء ٣٨

يزيد بن معاوية ٢٧٥

يزيد الرقاشي ٤٠

ابو يزيد البسطامي ١٩ ، ٣٨ ، ٥٩ ،

١٦١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٦ ،

يعقوب عليه السلام ٦٧ ، ٧٤ ، ١٠١ ،

فهرس الأمكنة

(ط)

الطائف ٥١ ، ٣٠٨

الطور ٢١٤

(ع)

العراق ٢٤٧

(ك)

الكوفة ١٧٤

(م)

المدينة المنورة ٢٧٥

مكة المكرمة ١٩ ، ٤١ ، ٥١ ، ٨٦

٩٨ ، ١١٦ ، ٢١٣ ، ٢١٤

(ن)

نارند ٣٠٨

(ي)

اليامة ٣٠٨

اليمن ٢٦٠ ، ٣٠٨

(أ)

الاحساء ٣٣٦

(ج)

الجزيرة ١٩

(ح)

جبل حراء ١١٧

(خ)

خير ١٠٢

خراسان ١٨٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٠

(د)

دجلة ١٩ ، ٣٥٣

(ش)

الشام ٢٦٠ ، ٣٠٨

(ص)

صور ٢٨٥

فهرس الاحاديث الشريفة

وقد علم عليها الاستاذ الشيخ ناصر الالباني (وهو الموضح
اليوم في رواية الحديث في البلاد الشامية) مشيراً الى ما فيها من
الصحة او الضعف معتمداً في ذلك على حفظه وما لم يعلم عليه منها
يكون قد توقف فيه

قيدوا العلم بالكتابة . ضعيف

البر لا يبلى والاثم لا ينسى والديان لا ينام وكان دين تدان (١٢) ضعيف
لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس
بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد (١٢) ضعيف .

نية المؤمن خير من عمله (١٤) ضعيف

العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني (١٨) ضعيف
من غص بصره عن محاسن امرأة أثابه الله ايماناً يجد حلاوته في
قلبه (١٨) ضعيف .

لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان (٢٨) (٤٨) صحيح
اذا وضع العشاء وحضرت العشاء فابدؤوا بالعشاء (٢٨) صحيح
يقول الله تعالى : النظرة الى المرأة سهم مسوم من سهام الشيطان
من تركه ابتغاء مرضاتي آتيته ايماناً يجد حلاوته في قلبه (٢٩) ضعيف
الصبة تمنع الرزق (٢٩) ضعيف

إذا أملتكم فتاجروا الله بالصدقة (٢٩)

قال لكعب بن مالك : أمسك عليك بعض مالك (٣٤) صحيح

قال لسعد : لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة

يتكفون الناس (٣٤) (٤١) صحيح

كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت (٣٤) صحيح

كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد (٣٦) صحيح

لا يزال العبد في خير ما لم يستعجل بقول دعوت فلم يستجب

لي (٣٨) صحيح

ما زالت أكلة خيبر تعاودني حتى الآن قطعت أبيري (٤١) صحيح

ما نفعتي مال كمال أبي بكر (٤١) صحيح

إن الموت يذبح بين الجنة والنار (٤٩) صحيح

ما أنزل الله داء إلا وأنزل له دواء فتداوا (٥١) صحيح

قال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب : كُئِلَ من هذا فانه

أوفى لك من هذا (٥١) صحيح

يدخل الجنة سبعون ألفاً بلا حساب لا يكتون ولا يسترقون

ولا ينظرون وعلى ربهم يتوكلون (٥١) صحيح

يرفع يديه حتى تبين عفرة إبطيه وكان ساقه ربما انكشف فكأنها

جمارة وكان لا يفارقه السواك وكان يكره أن يشم منه ريح

ليست طيبة (٥٢) صحيح

وفي حديث أنس : ما شأنه الله بيضاء (٥٢) صحيح

مالكم تدخلون عليّ ؟ قلأ ؟ استاكوا (٥٢)
 أفي شك أنت يا عمر ؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولم
 الدنيا ؟ (٥٤) صحيح

لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها
 شربة ماء (٥٤) صحيح

لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت
 سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٥٥) رواه البخاري
 لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو (٦١) صحيح

لا يريد المؤمن عمره إلا خيراً (٦٦)
 أن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عز وجل
 الآفأة (٦٦)

أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب (٦٧)
 حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار (٧٠) صحيح
 تركتكم على بيضاء نقية (٧١) صحيح

ينزل الله إلى السماء الدنيا ويبسط بده لسيء الليل والنهار ويضعك
 ويغضب (٧١) صحيح

لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو (٧١) صحيح
 إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه ولا يقل قبح الله وجهك ولا
 وجهاً أشبه وجهك (٧١) صحيح

ان آخر وطاة وطنها الله بوج (٧١)
 اللهم اشد وطأتك على مضر (٧١) صحيح
 ان الله لا يعل حتى تملوا (٧١) صحيح
 الرحمة شحنة من الرحمن تتعلق بمحقوي الرحمن (٧١) صحيح
 نهى أن يبست الرجل وحده (٨٢) صحيح
 لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس (٨٢)
 من شغل ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين (٨٥) ضعيف
 نعم المال الصالح للرجل الصالح (١٠١) صحيح
 ما نفعتي مال كمال أبي بكر (١٠١) صحيح
 نهى عن اضاءة المال (١٠١) صحيح
 اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠١) صحيح
 ضاق البلد بمواشي ابراهيم ولوط عليهما السلام فافترقا (١٠١) لا اعرفه
 وهل كانت فتنة داود الا من النظر ؟ (حين اجلس الشاب الذي
 وفد عليه من وراء ظهره) (١٠١) ضعيف
 ان رجلاً كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فنهتف به هاتف
 انك ان غزوت أسرت وإن أسرت تنصرت (١٠٥)
 ما من مسلم دعا الله تعالى الا وأجابه فامّا أن يعجلها واما أن
 يؤخرها واما أن يدخرها له في الآخرة فاذا رأى يوم القيامة أن
 ما أجيب فيه قد ذهب وما لم يجب فيه قد بقي ثوابه قال ليتك لم تجب
 لي دعوة قط (١٠٥) ضعيف .

كان يعرف بحيث يريح الطيب (١٠٨) صحيح

عليكم من العمل بما تطيقون (١١٨) صحيح

انه كان لعبد المطلب مفروش في الحجر فكاث النبي ﷺ يأتيه وهو طفل فيجلس عليه فيقول عبد المطلب إن لابي هذا شأنًا (١٢٠)

من أتى الجمعة فليغتسل (١٤٦) صحيح

ان لنفسك عليك حقًا (١٥٢) صحيح

(ان أبا بكر رضي الله عنه لما حلب له الراعي في طريق الهجرة حب الماء على القدح حتى يرد اسفله ثم سقى رسول الله ﷺ وفرش له في ظل صخرة) ، صحيح (وكان يستعذب لرسول الله ﷺ الماء) صحيح (وقال ان كان عندكم ماء بات في شئ والا كرهنا) (١٥٢، ٣٤١)

صحيح . « تنبيه » : هذه ثلاثة احاديث فتفرد عن بعضها

قال لعبد الله بن عمر : صم يوماً وأفطر يوماً فقال أريد أفضل

من ذلك قال لا أفضل (١٦١) صحيح

قم ونم (١٦١) صحيح

ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فان المنبت لا ارضاً قطع

ولا ظهراً أبقي (١٧٠) ضعيف

بالتقوا عني (١٨١) صحيح

استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان (١٨٥) ضعيف

يقال الرجل : اقرأ وارق ، فنزلت عند آخر آية تقرؤها (١٩٢) صحيح

انما نفس المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرده الله عز وجل

الى جسده يوم بعثه (١٩٥) صحيح
 ان لنفسك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً فصم وأفطر ،
 وقم ونم (١٩٩) صحيح

كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت (١٩٩) صحيح
 إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٢٠٠) صحيح
 من حديث ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أيما ذنب أعظم ؟
 قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك
 من أجل أن يطعم معك قلت ثم أي ؟ قال أن تزاني حليلة جارك
 (٢٠١) صحيح

لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر من أن يزني بامرأة جاره ،
 ولأن يسرق من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت
 جاره (٢٠١) صحيح

ان الله ييبض الشيخ الزاني (٢٠١) صحيح
 من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر (٢٠٢) لا أعرفه

إني عبد الله ولن يضيعني (٢١٤)

مالي وللدنيا (٢١٤) صحيح

اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون (٢١٤) ضعيف

اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً (٢١٤) (٢٣١) صحيح

أيما امرئ مسلم انتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له
 (٢١٧) حديث موضوع

قدّم له أدمان فقال : أدمان في قدح ؟ لا حاجة لي فيه ، اكره
أن يسألني الله عن فضول الدنيا (٢١٧) لم يصحّ

أكل البطيخ بالرطب (٢١٧) صحيح

رحم الله من أظهر من نفسه الجلد (٢٢٢)

لاخير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود (٢٢٧)

ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه (٢٢٨) صحيح

يشيب ابن آدم وتشب معه خصلتان : الحرص والامل (٢٤٣) صحيح

قال لمالك بن فضالة وقد رآه أشعث الهيئة : أمالك مال ؟ قال :

بلى ، من كل المال آتاني الله عز وجل قال : فان الله عز وجل ، اذا

افعم على عبد نعمة أحب ان ترى عليه (٢٤٧) انظر (٢٠٠) صحيح

كان يتوشع عائشة ويقبلها ويصّ لسانها (٢٥٥) صحيح الا المصّ

صلاة مودّع (٢٥٨) صحيح

لبس الخاتم ثم رمى به وقال : شغلني نظري اليكم ونظري اليه

(٢٥٩) صحيح

هذا رجل يتبختر في حلة مرجلا جمته خسف به الارض فهو

يتجلجل فيها الى يوم القيامة (٢٥٩) صحيح

لبست عائشة درعاً لها فأعجبت به فقال لها : ان الله لا ينظر اليك

في حالتك هذه (٢٥٩) لا اعرفه

ولما لبس خيصة لها أعلام قال: الهتي هذه عن صلاتي (٢٥٩) صحيح
 من اكتسب مالا من مأم فوصل رجما أو تصدق به أو انفق
 في سبيل الله جمع ذلك جميعا فخذف به في جهنم (٢٦٧) ضعيف
 لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج
 الناس كأننا ما كان (٢٦٨) ضعيف

من يؤويني؟ من ينصرني؟ (٢٧٠) صحيح
 بينا رجل يتبخر في بودته خسف به (٢٨٠) صحيح
 ما منكم من ينبغي عمله، قالوا: ولا أنت؟ قال ولا أنا إلا أن
 يتفقدني الله برحمته (٢٨٨) صحيح
 لعل الله اطلع الى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم
 (٢٩٠) صحيح

اللهم أدرك معه (مع علي) الحق كيفما دار (٢٩٠)
 قال في صلاة التطوع: اجعلوا هذه في البيوت (٢٩١) صحيح
 لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر (٢٩٨) صحيح
 الاسواق تلهي وتلغى (٣٠٢) لا اعرفه
 (رأى سترا على بابه فهتكه وقال: مالي والدنيا)، (ولبس ثوبا
 له طراز فرماه وقال شغلتنى اعلامه)، صحيح (ولبس خاتما ثم رماه وقال
 نظرت اليكم ونظرت اليه) ٣١٢ صحيح «ثنيه» هذه ثلاثة احاديث
 الدعاء عبادة (٣١٣) صحيح

ما من ذنب بعد الشرك اعظم عند الله تعالى من نقطة وضعها رجل
في رحم لاتحل له (٣١٥)

امتنع من الصلاة على من عليه دين ، صحيح ، وعلى الغال وقال :
ما ينفعه صلاتي عليه (٣٢١) ضعيف

كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للغفوة (٣٢١) لا اعرفه
لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل ، قيل له : وما يستعجل ؟ قال :
يقول دعوت فلم يستجب لي (٣٢٦) صحيح

من رأي في المنام فقد رأي (٣٣٠) صحيح
ثلث طعام وثلث شراب وثلث نفس (٣٣٢) صحيح
وقال لعلي رضي الله عنه وهو مريض : أصب من هذا الطعام فهو
أوفق لك من هذا (٣٣٢) (٥١) صحيح

ما أنزل الله داء الاّ وأنزل له شفاء فتداوا (٣٣٢) صحيح
عودوا كل بدن ما اعتاد (٣٣٢) ضعيف
قرب اليه ضبّ فقال : أجدي أعافه لانه ليس بارض قومه
(٣٤١) صحيح

جاء على قوم فقال : ان كان عندكم ماء في شئ وإلا كرعة-4
(٣٤١ ، ١٥٢) صحيح

كان يأكل لحم الدجاج ، صحيح ، وكان يحب الحلوى والعسل
صحيح ، وكان اذا لم يقدر أكل ما حضر (٣٤١) صحيح المعنى
رأى رجلا من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التشف فقال

له : من أمرك بهذا ؟ (٣٤١)

لأن تترك وريثك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون
الناس (٣٤٣) صحيح

ما من شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنة حديثة الذنب قديم (٣٥٣)
لا أعرفه

يقول آدم : ذنبي ، ويقول إبراهيم وموسى : ذنبي (٣٥٣) صحيح
قال له رجل : لي أقارب أصلهم فيقطعوني . فقال فكأنما تسقم
الملك ، ولن يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك (٣٥٥) صحيح

يخسرون ركبانا ومشاة وعلى وجوههم (٣٥٨) صحيح
انكم ترون ربكم كما ترون القمر ، لانضمامون في رؤيته
(٣٦٦) صحيح

من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة
(٣٦٧) صحيح

فهرس الأشعار

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في الباقي ما يصنع الدهر
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم يحاها مجال الريح بعدك والقبر

(من بحر الطويل) فصل (٤)

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر من أي الحين تنزل

(من بحر الطويل) فصل (٤)

فتبصر ولا تشم كل برق رب برق فيه صواعق حين

واغضض الطرف تسترح من غرام تكتسي فيه ثوب ذل وشين

فبلاء الفتى موافقة النفس وبدء الهوى طموح العين

(من بحر الخفيف) فصل (٥)

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادريين على التمام

(من الوافر) فصل (٧) و (١٠٨) و (٢٢٤)

قد مات قوم وهم في الناس أحياء

(من البسيط) فصل (١٤)

القاء في الماء مكتوفاً وقال له إياك إياك انت تبتل بالماء

(من البسيط) فصل (٢١)

واحسرتي كم أداري فيك تعثري مثل الاسير بلا حبل ولا سير

ما حيلني في الهوى قد ضاع تدبيرى لما شككت جناحي قلت لي طيري
(من البسيط) فصل (٢١)

أحب شيء الى الانسان ما منعنا

(من البسيط) فصل (٢٣)

إن الليالي والايام حاملة وليس يعلم غير الله ما تلد
(من البسيط) فصل (٣١)

وخذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لم يدبر
وخف هبة لا تقبل العنا وتطوي الورود على المصدر
ومثل لنفسك أي الرميل بضمك في حلبة المخسر

(من المتقارب) فصل (٤٠) و (١٣٢)

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دوائها فشفاهها
شفاهها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هزّ القناة شفاهها
(من الطويل) فصل (٤٩)

ان كان رضاكم في سهري فسلام الله على وسني
(من المحدث) فصل (٥٤) و (٢٣٠)

عذابه فيك عذب وبعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحب
حبي من الحب أني لما نحب أحب

(من المحدث) فصل (٥٥)

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاك
(من الوافر)

فصل (٥٥)

إذا طالبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الحرق
(من المتقارب)

فصل (٥٨)

فإن تشككت فعلتها المجرّة من ضوء الصباح وعدّها بالرواحضى
(من البسيط)

فصل (٥٩)

الناس في غفلة والموت يوقظهم وما يفيقون حتى ينفد العمر
يشيعون أهاليمهم بجميعهم وينظرون الى ما فيه قد قبروا
ويرجعون الى أحلام غفلتهم كأنهم مارأوا شيئاً ولا نظروا
(من البسيط)

فصل (٦٢)

أحب حبيباً لا أعاب بحبه وأحببتُ من في هواه عيوب
(من الطويل)

فصل (٦٣)

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبه لم يسبه
(من السريع)

فصل (٦٣)

جلبت مني هذيل مخرق لائم الشر حتى يملوا
(من المديد)

فصل (٧١)

أمتوحش أنت مما جنبت فأحسن إذا شئت واستأنس لمن وال ما استطعت ومذهب
(من المتقارب)

فصل (٧٧)

احفظ لسانك لاتباع بثلاثة سنّ ومال ما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تُبلى بثلاثة
(من الكامل)
بمسوة وبمخرق ومكذب
فصل (٧٨ ، ٢٥٢)

فإن تكلمت لم أنطق بغيركم
(من البسيط)
وإن سكت قائم عقد إضماري
فصل (٨٨)

أبكي وما بدريك ما يبكي
وتقطعي حبلتي وتهجري
أبكي حذاراً أن تفارقيني

(من الرجز)
فصل (٩٨)

غسلت له طول الليل
خرج يعان غيري
فركت له طول النهار
زلق وقع في الطين

(من المواليا)
فصل (٩٨)

كم كنت بالله أقل لك
والقيح خير
لذا التواني غائله
تبين بعد قليل

(من المواليا)
فصل (٩٨)

ولم أر في عيوب الناس عيباً
(من الوافر)
كنقص القادرين على التام
فصل (٧) و (١٠٨)

فكن رجل رجله في الثرى
(من المتقارب)
وهامة همته في الثريا
فصل (١٠٨)

ليس لي مال سوى كرمي
فمعت نفسي بما رزقت
فيه أمني من العدم
وقطعت في العلا ممي

فصل (١٠٨)

بأخرى الاعادي فهو يقظان هاجع

فصل (١١٢)

وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

فصل (١١٤)

بثقلها الا كعلم الاباعر

بأوساقه أرواح مافي الفرائر

فصل (١١٤)

مالقينا في البروخ الخفاق

فارحموا وحشني وماقدالافي

فصل (١١٩)

لكان الموت راحة كل حي

ونسأل بعدها عن كل شيء

فصل (١١٩)

ومقبل عيشك لم يدبر

وتطوي الورود على المصدر

بضمتك في حلبة المخمر

فصل (٤٠ ، ١٣٢)

فكيف يكون إذا ماضي

فصل (١٣٤)

ينام باحدي مقلتيه ويتقي

(من الطويل)

كدودة القز ماتبنيه يدمها

(من البسيط)

زوامل للأخبار لا علم عندها

لعمر ك ما يدري البعيد اذا غدا

(من الطويل)

أبلغن أهلنا ولا تخف عنهم

قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا

(من الخفيف)

فلو أنا إذا متنا تركنا

ولكننا إذا متنا بعثنا

(من الوافر)

وخذلك منك على مهلة

وخف هجة لا تقبل العثار

ومثل لنفسك أي الرعيل

(من المتقارب)

ومن كان في سخطه محسناً

(من المتقارب)

ولا انشئ عزمي عن بابكم
(من السريع)
صبرت ولا والله ما بي جلادة
(من الطويل)
الا تعثرت باذيالي
فصل (١٣٧)
على الحب لكفي صبرت على الرغم
فصل (١٣٨)

ما كنت أرجوه إذ كنت ابن عشرينا

ملكته بعد أن جاوزت سبعينا

تطيف بي من بني الاتراك اغزلة
وخرّ من بنات الروم رائعة
يغفرني بأساريع منعمة
يردن إحياء ميت لا حراك به
قالوا إني نك طول الليل يسهرنا
(من البسيط)
مثل القصون على كبدان يبرينا
يحكين بالحن حور الجنة العينا
تكاد تعقد من أطرافها لنا
وكيف يحين ميتاً صار مدفونا
فما الذي تشكي قلت الثائنا
فصل (١٥٨)

لقد أتعبت نفسي في مشيبي
(من الوافر)
فكيف تحبني الحرء الكعاب
فصل (١٥٨)

ومن لم يعشق الدنيا قديماً
(من الوافر)
ولكن لاسبيل الى الوصال
فصل (١٦٠)

أهتز عند نمني وصلها طرباً
(من البسيط)
وربّ أمنية احلى من الظفر
فصل (١٦٧)

جزى الله المسير اليه خيراً
(من الوافر)
وان ترك المطايا كالمراد
فصل (١٦٧)

لا تبرد عودا أنت ربشته
لا تعطش الزرع الذي نبته
(من السريع)
حاشا لباني الجود ان يتقضا
بصوب انعامك قد روضا
فصل (١٦٧)

وما في الارض أسمى من حب
تراه باكياً في كل وقت
غيبكي ان ناوا شوقاً اليهم
فتسخن عينه عند التداني
(من الوافر)
وان وجد الهوى عذب المذاق
مخافة فرقة أو لاشتياق
ويبكي ان دنوا خوف الفراق
وتسخن عينه عند الفراق
فصل (١٦٨) ص ٣٣٣

ولكل جسم في النحول بلية
وبلاء جسمي من تفاوت همني
ص ٣٣٤

وفي الناس من يرضى بيسور عيشه
ومر كوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ماله
مدى ينتهي بي في مراد أحده
تري جسمه يكسي شفوفاً تربه
فيختار أن يكسي دروعاً تهده

(من الطويل) فصل (١٦٩)

فاكذب النفس اذا حدثتها
إن صدق النفس يزري بالامل
(من الرمل) فصل (١٧٠)

نجمٌ وعلاه بشيء من المزج
بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
فصل (١٧٠)

وعداً فخيرات الجنان عداتُ
حتى تزول بهك الاوقاتُ
جلساؤك الحساد والشبات
للحي من قبل المات بمات
في اهل ما للسرور ثبات
لم يصف للمتيقظين حياة
فصل (١٧٠)

بقاء النار تحفظ بالوعاء
ولا تمد لها طول الرجاء
وذكرها الشدائد في الرخاء
وبالتركيب منفعة الدواء
فصل (١٧٠)

ندع الذنوب فما يقول الأشيب
فصل (١٨٨)
فان الملمات فيها فنوت
فصل (١٨٨)

أفد طبعك المكدود بالهم راحة
ولكن إذا اعطيته ذاك فليكن
(من الطويل)

واذا هممت فتناج نفسك بالني
واجعل رجاءك دون بأسك جنة
واستر عن الجلساء بئك إغما
ودع التوقع للحوادث انه
فالهم ليس له ثبات مثل ما
لولا مغالطة النفوس عقولها
(من الكامل)

وقال ايضاً :

بمحفظ الجسم تبقى النفس فيه
فبالياس المض فلا تمتهها
وعدها في شدائد راء
بعد صلاحها هذا وهذا
(من الوافر)

قال الشباب لعلنا في شينا
(من الكامل)
وعشر الثمانين من خاضها
(من المتقارب)

كان الفتي يرقى من العمر سلباً الى ان يجوز الاربعين وينحط
(من الطويل) فصل (١٨٨)

راى منك ما لا يشتمى فتزندقا

(من الطويل) فصل (١٩١)

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

(من البسيط) فصل (١٩٢)

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجب

(من البسيط) فصل (٢٠٠)

حسي من الدهر ما كفاي يصون غرضي عن الهوان

مخافة ان يقول قوم فضل فلان على فلان

(من مخلع البسيط) فصل (٢٢١)

وتجلدي للشامتين أريم أني لريب الدهر لا اتضعض

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تمية لا تنفع

(من الكامل) فصل (٢٢٢)

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسسي من تفاوت همي

(من الكامل) فصل (٢٢٤)

ان كان رخاكم في سهري فلام الله على وسني

(من المحدث) فصل (٥٤) و (٢٣٠)

ما بيننا إلا نصرتم هذه السبع البواقى

حتى يطول حديثنا

بصنوف ما كنا نلاقي

(من مجزوء الكامل)

فصل (٢٣٠)

والمرء مادام ذاعين بقلبيها
يسر مقلته ماضر مهجته

في أعين الناس موقوف على الخطر
لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

(من البسيط)

فصل (٢٣٥)

انما الحب قيلة

وغز كف وعضد

انما العشق كذا

ان نكح الحب فسد

(من مجزوء الرجز)

فصل (٢٣٥)

أفقي يا فؤادي من غرامي واستمع
علقت فتاة قلبها متعلق

مقالة محزون عليك شقيق
بغيرك فاستوثقت غير وثيق
فكم بين موثوق وبين طليق

(من الطويل)

فصل (٢٤٤)

لا تضررت مودة لحبيب

فترى بعينك منه كل عجيب

أظهرت يوماً للحبيب مودة في

فأخذت من هجرانه بنصيب

(من التمام)

فصل (٢٥٢)

احذر عدوك مرة

واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق

فكان ادرى بالضررة

ص ٤٧٨ فصل (١١٢) و (١٨٥) و (٢٥٦)

تفضل على من شئت واعن بأمره فانت ولو كان الامير اميره

ولو كان سلطاناً فانت نظيره
على طمع منه فانت اسيره
فصل (٢٥٤)

والنشر مسك والعظام رميم
فصل (٢٦٣)

حديث نجد ولا خل نجاريه
فصل (٢٧٢)

ونعلم انا نجب المنونا
فصل (٢٨٧)

صفواً من الاقدار والاكدار
متطلب في الماء جذوة نار
فصل (٢٩٢) ص ٥٣٥

في مرور يوم صابر كسرة
فصل (٢٩٣)

عن الرشد في النجاة ومقاصده
ولاغرو أن يجذو الفتي حذو ولداه
فصل (٢٩٨)

وأصبحت أنبياء الناس ذكرا
على سماح ومن بالافك اغوا

وكن فاغني عن نشاء من الوري
ومن كنت محتاجاً إليه وواقفاً
(من الطويل)

ماتوا وغيب في التراب شغوصهم
(من الكامل)

ما في الديار اخو وجد نظارحه
(من البسيط)

نجب القدود ونجوى الحدود
(من المتقارب)

طبع على كدروانت تريدها
ومكلف الايام ضد طباعها
(من الكامل)

وسواء إذا انقضن يوم كسرى
« من الخفيف »

ولما تعامى الدهر وهو أبو الردى
تعامت حتى قيل انى أمو مى
« من الطويل »

اضعت بنيتنا اننى يطاف بها
فلعن الله رب الناس كلهم

اعني مسيلة الكذاب لاسقيت اصدائه من رعيث حينما كانا

« من البسيط » فصل (٣٠٨)

والمرير مادام ذاعين بقلها في عين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ماضر مهجته لامر حبا بسرور عاد بالضرر

« من البسيط » فصل (٣١٢)

يامنتي الآمال أنت كفلتي وحفظتي

وعدا الزمان علي كي يحتاجني فمنعتني

فانقاد لي متغشعا لما رآك نصرتني

وكسوتني ثوب الغنى ومن المطالب صنتني

فادا سألت أجبتني وادا سألت أجبتني

وإذا شكرتني زدتني فمنعتني ومهرتني

أو انت اجد بالمال فالاموال أنت أفدتني

« من مجزوء الكامل » فصل (٣١٣)

مافي هو ادجكم من مهجتي عوض ان مت شوقا ولا فيها لما غن

« من البسيط » فصل (٣٢٩) ص ٥٩١

لانه عن ادب الصغير ولو شكا ألم التعب

ودع الكبير لشانه لجر الكبير عن الادب

« من مجزوء الكامل » فصل (٣٣٣) ص ٥٧٨

طاول بها الليل مال النجم أم جن وما طل النجوم من الجن أم سمى

ضوء الصباح وعدّها بالروح ضعى

فصل (٣٣٣)

ولا البرق إلا أن يكون يمانياً

فصل (٣٣٤)

فلعلي أرى الديار بسبعي

فصل (٣٣٧)

فإن تشكت فعلها الهجرة من

« من البسيط »

إلا أحب السير إلا مصاعداً

« من الطويل »

فأنتي أن أرى الديار بطرفي

« من الخفيف »

فهرس الموضوعات

الارقام للفصول

(الجزء الاول)	
١٥	من حيل الشيطان
١٦	لاتأسف على ما فات
١٧	عصيان العلماء
١٨	الله يهل ولا يهل
١٩	انحراف الصوفية
٢٠	النفس والروح
٢١	بين العلم والعمل
٢٢	دواء لترقيق القلب
٢٣	المنوع مطلوب
٢٤	الغزلة
٢٥	المراد من الخلق
٢٦	حب الله
٢٧	التسليم أولى
٢٨	في الحب والزواج
٢٩	كل ذنب له عقوبة
٣٠	من دلائل الوحدةانية
١	المقدمة
٢	أثر الموعظة
٣	جواذب الدنيا
٤	لذة المعصية وتعب الطاعة
٥	التفكر في الموت
٦	الابتعاد عن الفتنة
٧	عقوبة العلماء
٨	علو الهمة
٩	أحباب الله
١٠	الاستعداد للموت
١١	الشدائد لتخصيص الذنوب
١٢	علماء الدنيا والآخرة
١٣	تصفية الاحوال بتصفية الاعمال
١٤	التكليف
١٥	قيمة الوقت

٥٢	النظافة	٣١	طبقات الغافلين
٥٣	خطأ المبالغة في اتقاء الحر والبرد	٣٢	محاورة النفس
٥٤	الصبر على القضاء	٣٣	الشواغل عن الله
٥٥	درجات الرضى بالقضاء	٣٤	في المال
٥٦	حاجة طلب العلم الى المعاش	٣٥	الشهوات مضايده
٥٧	وجوب التلطف بالبدن	٣٦	زهد السلف
٥٨	علم الورق وعلم الخرق	٣٧	جهاد النفس
٥٩	وجوب تعليل النفس لتعبد	٣٨	الدعاء
٦٠	المتكررات في مجالس الصوفية	٣٩	تهوين المصيبة
٦١	الرد على المتأولين	٤٠	الخوف
٦٢	فوائد السمع والبصر	٤١	العلم والعبادة
٦٣	في العشق	٤٢	الملائكة والشر
٦٤	بين الخوف والرجاء	٤٣	النجاة في التسليم
٦٥	اختلاف الافهام	٤٤	غفلة الخلق
٦٦	زيادة عمر المؤمن خير	٤٥	معرفة الله
٦٧	العارضون واتخاذ الاسباب	٤٦	تحذير الاخوان
٦٨	درجات قوة الايمان	٤٧	الورع
٦٩	إذا عظم العالم نفسه خفيت عليه أخطاؤه	٤٨	من حديث النفس
٧٠	إذا عملت خيراً فاحمد الله	٤٩	الرد على المشبهة
٧١	الرد على المبتدعة والمشبهة	٥٠	سر آية الرجم
		٥١	الاسباب التي تنافي التوكل

- | | | | |
|----|-------------------------|-----|-----------------------------------|
| ٧٢ | التقوى أصل السلامة | ٩٢ | لأنضيع ساعات العمر |
| ٧٣ | قوة الايمان | ٩٣ | تخليط العلماء والزهاد |
| ٧٤ | تأخر إجابة الدعاء | ٩٤ | يصف بعض شيوخه |
| ٧٥ | اللذة والمنفعة | ٩٥ | الحائق يميل ولا يميل |
| ٧٦ | المعاصي | ٩٦ | الاشتغال بالعلم مع ترقيق القلب |
| ٧٧ | الانس بالله | ٩٧ | إفاقة المحتضر |
| ٧٨ | كتان الامور | ٩٨ | المتيقظ يأخذ إشارات من كل ما يسمع |
| ٧٩ | عبرة العثرة | ٩٩ | مراقبة الله وترك الترخص |
| ٨٠ | اتباع القرآن والسنة | ١٠٠ | العقوبة بالمرصاد |
| ٨١ | لذة المعصية ساعة | ١٠١ | من ادعى بغض الدنيا فهو كاذب |
| ٨٢ | حق البدن | ١٠٢ | عظمة الخالق |
| ٨٣ | لا تغتر بحلم الله | ١٠٣ | وجوب الصبر على البلاء |
| ٨٤ | لا تستصغر الذنوب | ١٠٤ | فوائد الصبر |
| ٨٥ | وجوب التوبة | ١٠٥ | قد تتأخر الاجابة بعد الدعاء |
| ٨٦ | من عرف الله خافه | ١٠٦ | العلماء افضل من الزهاد |
| ٨٧ | اذكر وربك في زمن البلاء | ١٠٧ | الاعتدال بين الدنيا والآخرة |
| ٨٨ | صفة العارف بالله | | الجزء الثاني |
| ٨٩ | الصبر على التقوى | ١٠٨ | طلب معاني لامور |
| ٩٠ | إذا عليك بالتسليم | ١٠٩ | منفعة المال |
| ٩١ | مجاهدة النفس | ١١٠ | الفقه أفضل العنوم |

- ١١١ حفظ الفروع وتضييع الاصول
 ١١٢ لا تتق بأحد بما تعاشره
 ١١٣ على طالب العلم كسب المعاش
 ١١٤ طريق الدرس لطالب العلم
 ١١٥ تقوى الله في الخلوات
 ١١٦ الرضي بالقدر
 ١١٧ يختبر الله صبر عباده
 ١١٨ لا تقدم على عمل لا تطيقه
 ١١٩ لاخير في لذة من بعدها النار
 ١٢٠ نصائح لطالب العلم
 ١٢١ على طالب العلم أن لا يجهد نفسه
 ١٢٢ اتق الله ولا تغتر بالسلامة
 ١٢٣ الرد على أهل البدع والصوفيين
 ١٢٤ العلم والفقر
 ١٢٥ فضيلة الصبر على ما فيه من شبهة
 ١٢٦ اترك عاجل الهوى لأجل الثواب
 ١٢٧ مجاهدة المتقين
 ١٢٨ الدنيا فتح
 ١٢٩ مرارة الذنوب وعواقبها
 ١٣٠ ومن يتق الله يجعل له مخرجا
 ١٣١ عدم إجابة الدعاء واسبابه
 ١٣٢ الاستعداد للموت وقصر الأمل
 ١٣٣ حذار من المعاصي
 ١٣٤ الاستقامة ومراقبة الله تعالى
 ١٣٥ للبلايا أوقات قد تطول
 ١٣٦ احذر عاقبة المعاصي
 ١٣٧ وجوب التوبة والعمل للأخرة
 ١٣٨ من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه
 ١٣٩ تذهب اللذة ويبقى العقاب
 ١٤٠ الطاعة بامتنال الامر واجتناب
 النهي
 ١٤١ اللذات مشوبة بالنقص
 ١٤٢ نعم الله عليك كثيرة
 ١٤٣ من حاسم حول الحمى اوشك
 أن يقع فيه
 ١٤٤ سكرة الهوى
 ١٤٥ دع المباحثات فرجا آذت في الدين

- ١٤٦ وحيا لطالب العلم
 ١٤٧ من أصلح سريرة ذاع فضله
 ١٤٨ لا تجزع من تأخر إجابة الدعاء
 ١٤٩ على العالم طلب النفي
 ١٥٠ لو تأمل العاصي عظمة الخالق
 ما عصاه
 ١٥١ على العالم أن لا يذل لأرباب الدنيا
 ١٥٢ افهم مقصود الشارع واتبع الدليل
 ١٥٣ عجز الخلق عن فهم كلمة الخالق
 ١٥٤ موافقة هوى النفس ومخالفة
 ١٥٥ وجوب مزج الفقه والحديث
 بالرفائق
 ١٥٦ لا تتوخى في مخالفة الاجماع
 ١٥٧ لا تظهر أحداً بالعداوة
 ١٥٨ لذات الدنيا بمزوجة بالمنغصات
 ١٥٩ مناجاة
 ١٦٠ السعيد من ذل وسأل الله العافية
 ١٦١ انحراف الصوفية
 ١٦٢ الفلسفة والرهانية
- ١٦٣ دواء البطالين
 ١٦٤ التصنيف أنفع من التدريس
 ١٦٥ العادات والشرع
 ١٦٦ عزلة العالم
 ١٦٧ ثمرة العلم
 ١٦٨ العاشق في عذاب
 ١٦٩ علو الهمة بلاء
 ١٧٠ التلطف بالجسم
 ١٧١ درس للشباب والشيخ
 ١٧٢ الويل للفرط المهمل
 ١٧٣ محبة غير متبادلة
 ١٧٤ الاحاديث النبوية وعددها
 ١٧٥ طبيعة النفوس
 ١٧٦ علو الهمة
 ١٧٧ المؤلف ذو همة عالية
 ١٧٨ الرياء في العبادة
 ١٧٩ تأديب الولد
 ١٨٠ من الأدلة على الله
 ١٨١ تعلم الحديث خير من التنفل

- ١٨٢ من عصى الله بطاعة غيره سلطه عليه
 ١٨٣ لاتعاشر من ليس له أصل ولا شرف
 ١٨٤ الذكاء والتلطف في طلب الاغراض
 ١٨٥ استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان
 ١٨٦ طويقة الحفظ
 ١٨٧ العزلة للعالم والعايد
 ١٨٨ التزود للآخرة
 ١٨٩ النهي عن علم الكلام
 ١٩٠ لذة العلم أعظم للذات
 ١٩١ الرد على المجسمة والفلاسفة
 ١٩٢ معالي الامور تحتاج الى تعب
 ١٩٣ كمال الايمان
 ١٩٤ الرد على علماء الكلام
 ١٩٥ لا ينبغي الحزن للموت
 ١٩٦ احفظ لسانك ومذهبك
 ١٩٧ حكمة الاقدار
 ١٩٨ الصبر على المرض والموت
- ١٩٩ التلطف بالبدن بالغفلة عن الموت
 ٢٠٠ الزهد الحقيقي وحقيقة العزلة
 ٢٠١ بعض المعاصي اقبح من بعض
 ٢٠٢ من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر
 ٢٠٣ اصبر على غضب زوجتك وولدك
 ٢٠٤ إذا آذيت شخصا فلا تتق بمودته
 ٢٠٥ العاقل من استعد لما يجوز وقوعه
 ٢٠٦ النهي عن مخالطة السلاطين
 ٢٠٧ أكثر الناس على غير الجادة
 ٢٠٨ دلائل الكمال واسبابه
 ٢٠٩ التسليم للقضاء والرضا بالقدر
 ٢١٠ حاجة الكريم الى التيم بلاه
 ٢١١ بخل العلماء والمتزهدين
 ٢١٢ معرفة الحق سبحانه وطاعته
 ٢١٣ المبادرة الى التوبة والصلاح
 ٢١٤ الاقتداء بالنبي ﷺ في التسليم الى الله
 ٢١٥ من عرف النساء رضي بزوجته
 ٢١٦ تعدد الصناعات

- ٢١٧ أحاديث الزهد
 ٢١٨ مسند أحمد
 ٢١٩ هو النفس
 ٢٢٠ المبارزة بالمعاصي
 ٢٢١ جمع المال
 ٢٢٢ التجلد عند النكبات
 ٢٢٣ درجات الايمان
 ٢٢٤ تفاوت المم
 ٢٢٥ حكمة بقاء أهل الكتاب
 ٢٢٦ الاشتغال بفن واحد
 ٢٢٧ الاصنام والحجارة
 ٢٢٨ جماعة من الصالحين
 ٢٢٩ الواجب على العالم والزاهد
 ٢٣٠ الصبر والتسليم
 ٢٣١ لا تركني الى عدوك
 ٢٣٢ ربما كان المنع لطفًا من الله بك
 ٢٣٣ التعلل بالاقدار
 ٢٣٤ الرد على المتكلمين والمتصوفة
 ٢٣٥ لذات الدنيا مشوبة بنقص
- ٢٣٦ موعظة في الاستعداد للموت
 ٢٣٧ أفعال الخالق وأفعال المخلوق
 ٢٣٨ لا تعترض على الخالق
 ٢٣٩ وجوب الاستعداد للنعيم في الجنة
 ٢٤٠ الاعراض عن الله سبب المموم
 ٢٤١ الدنيا والحياة والاذى
 ٢٤٢ شروط مصاحبة السلطان
 ٢٤٣ الحرص والامل عند المسنين
 ٢٤٤ الكهل والزوجة الصغيرة
 ٢٤٥ العاقل من احتسب بما يجوز وقوعه
 ٢٤٦ معرفة ذات الله مستحيلة
 ٢٤٧ فساد أهل الزمان وخاصة المتصوفة
 ٢٤٨ كيف تعامل أعداءك وحسادك
 ٢٤٩ حكمة منع إجابة الدعاء
 ٢٥٠ أكثر الناس فاسدون
 ٢٥١ الاستعداد للجنة والرد على المتصوفة
 ٢٥٢ نصائح في الحب والبغض
 ٢٥٣ خادم السلطان كراكب البحر

- ٢٥٤ عليك بالقناعة
- الجزء الثالث
- ٢٥٥ نصائح للشباب وعلاقتهم بالنساء
- ٢٥٦ الرد على المتكلمين
- ٢٥٧ وجوب الاستعداد للآخرة
- ٢٥٨ التراخي بعد اليقظة بالمواعظ وأسبابه
- ٢٥٩ ذم لباس الحياء
- ٢٦٠ النهي عن مخالطة الناس
- ٢٦١ هداية الغافلين
- ٢٦٢ لو عرفت مقدارك ما تكبرت
- ٢٦٣ نصائح لطالب العلم الفقير
- ٢٦٤ على المرشد أن يزور القبور
- ٢٦٥ صفة أولياء الله
- ٢٦٦ أكثر الناس في غفلة عن الآخرة
- ٢٦٧ المال الحرام
- ٢٦٨ إخلاص القلب وذم الربا
- ٢٦٩ مخالطة العلماء للسلطين وأضرارها
- ٢٧٠ هجر العقل عن إدراك حكمة الخالق
- ٢٧١ الكهولة خير واعظ
- ٢٧٢ ذكر الآخرة
- ٢٧٣ البعث
- ٢٧٤ دلائل التوحيد
- ٢٧٥ الاجتهاد
- ٢٧٦ ذخائر البدن والنفس
- ٢٧٧ زهاد زماننا
- ٢٧٨ على المؤمن تأمين معاشه
- ٢٧٩ الاحتراز والايمان بالقدر
- ٢٨٠ الاكتفاء بالسير من أمور الدنيا
- ٢٨١ نصائح لطلاب العلم
- ٢٨٢ الاستشارة
- ٢٨٣ من لم يجتوز بعقله هلك بعقله
- ٢٨٤ مناجاة
- ٢٨٥ قصص عن البخلاء
- ٢٨٦ الفرق بين المعارف والاصدقاء
- ٢٨٧ المتزوج الذي يتعلق بامرأة أخرى
- ٢٨٨ التقرب الى الله تعالى
- ٢٨٩ لا تسكن الى توبتك ولو قبلت

حكمة الخالق

٣٠٧ يجب على من يعطى السلطان ان يتلطف به

٣٠٨ أخبار عن بعض من ادعوا النبوة

٣٠٩ عمر ك قصير فاغتم ساعاته

٣١٠ وجوب الاستعداد للموت

٣١١ سجود الجمادات لله

٣١٢ وجوب العزلة وذم الصوفية

٣١٣ الله غني عن طاعتنا ولا نفسنا نعمل

٣١٤ نقائص العلماء

٣١٥ أكثر الناس لا يرون الأشياء كما هي

كما هي

٣١٦ الفائدة في خلق ما يؤذي

٣١٧ كلما ازداد الايمان قويت محبة

الخالق

٣١٨ فساد أولي الامر

٣١٩ لا تحذروا العوام بما لا تحتمله عقولهم

٣٢٠ حفظ الحدود وإخلاص العمل

٣٢١ الدفن في مقبرة أحمد بن حنبل

٢٩٠ تفسير حديث

٢٩١ زهاد مراؤون

٢٩٢ الحكمة في عدم إجابة الدعاء

٢٩٣ مخالطة العلماء للسلطين وضررها

٢٩٤ أكثر الناس على غير الجادة

٢٩٥ العالم الفقير بين الثام

٢٩٦ كيف تعامل زوجة لانتحها

٢٩٧ على المؤمن أن يجمع همه ويعتزل

الناس

٢٩٨ لا تسوا الدهر فان الله هو الدهر

٢٩٩ اغتم ساعات عمر ك

٣٠٠ احفظ شرك واحترز من الناس

٣٠١ التفكير في عظمة الخالق تسيح

المتيقظين

٣٠٢ مخالطة الناس تظلم القلب

٣٠٣ وجوب الورع عن الشبهات

٣٠٤ المؤمن دائم اليقظة

٣٠٥ لا يختار الله لمحبه الا الكاملين

٣٠٦ الرد على الذين يعترضون على

٣٣٨ من العجب تعريض المرء نفسه

للهلاك

٣٣٩ وجوب كتمان السر

٣٤٠ دعوة العالم الفقير الى الصبر

٣٤١ وجوب التلطف بالبدن ليقوى

على الطاعة

٣٤٢ كمال الفطنة بكمال العقل

٤٤٣ قلل علائقك وتزود فالعبر قصير

٣٤٤ كيف تعامل صديقك وحاسدك

٣٤٥ الاقبال على الذات وضرره في

الدارين

٣٤٦ اعمل لترضي الله ولو اسخطت الناس

٣٤٧ حكمة الطعام والشراب

وجوب الاقتصاد بهما

٣٤٨ ضرر مخالطة الامراء

٣٤٩ احسن الى الناس ولا تظهر

العداوة لاحد

٣٥٠ تلاعب الدنيا بالامراء والزهاد

٣٥١ صاحب الهمة العالية في تعب دائم

٣٥٢ وصى للانسان عن نفسه مصيبة

٣٢٢ الحسد في طبيعة ابن آدم

٣٢٣ كثرة النساء مضرّة على المرء

٣٢٤ لا يرجى خير من قليل العقل

٣٢٥ يجب الاحتراز بما يجوز أن يقع

٣٢٦ اصبر على البلاء وتعبّد بالدعاء

٣٢٧ لذات الدنيا متغصّة

٣٢٨ اعمل بمقتضى عقلك

٣٢٩ العاقل من حفظ دينه بترك الحرام

٣٣٠ رؤية النبي عليه السلام في المنام

وكيفيته

٣٣١ ماذا يجب أن يدرس طالب العلم

٣٣٢ التقلل من الطعام وليس من الدين

٣٣٣ لا تضق صدرأ بقلة المال

٣٣٤ لا تحسن الظن بالاصدقاء وعلق

قلبك بافه

٣٣٥ انظر الى المقصود من العلم

٣٣٦ على الفقيه أن يأخذ من كل علم

بطرف

٣٣٧ القدماء اصحاب مهم عليّة

لكثرة مصنفاتهم

- ٣٥٣ عقوبة المذنب واقعة ولو بعد حين
 ٣٥٤ المؤلف يناجي ربه ويحاسب نفسه
 ٣٥٥ تحمل عداوة اقر بانك
 ٣٥٦ المؤمن لا يلتفت الى حاسده
 ٣٥٧ الحكمة الالهية لا تظهر دائماً
 فعليك بالتسليم
 ٣٥٨ الناس في الآخرة كالناس يوم العيد في الدنيا
 ٣٥٩ نصيحة للعلماء والزهاد
 ٣٦٠ أكثر الناس حائدون عن الشريعة
 ٣٦١ أحوال آدمي كأطوار القمر
 ودرود القز
- ٣٦٢ المذنب لا ينظر في العواقب لقلة عقله
 ٣٦٣ على العالم والزاهد القناعة بالكفاف
 ٣٦٤ التفاوت في الفهم والتفكير
 ٣٦٥ لذات الدنيا غير صافية
 ٣٦٦ الرد على المتكلمين والمعتزلة
 ٣٦٧ الزمان أشرف من أن يضيع فيما لا ينفع
 ٣٦٨ كيف يجب ان تعاشر النساء
 ٣٦٩ فائدة القناعة للعالم والزاهد
 ٣٧٠ مع كل فرحة في الدنيا ترحه
 ٣٧١ افراح الدنيا لا تصفو من الاكدار
 ٣٧٢ احفظ مالك وتوسط في الانفاق

استدراك

ذكر ابن رجب ان ابن الجوزي استفتي في رجل من الفقهاء قال :
ان عائشة قاتلت علياً ، فصارت من البغاة . فأجاب :

« هذا رجل ليس له علم بالنقل ، وقد سمع أنه قد جرى قتال ،
ولعمري أنه قد جرى قتال ، ولكن ما قصدته عائشة ولا علي ، انما
اثار الحرب سفهاء الفريقين ولولا علمنا بالسير لقلنا مثل الذي قال ،
ولقد كنت علقت على كلام المؤلف في ذيل الصفحة « ٥٣٢ » بمثل
هذا ، ولم اكن رأيت هذه الفتوى ، فلما رأيتها فرحت اذ وافقت
بتعليقي عليه ما أفنى به .

ومن فتاواه فتوى قال فيها :

« وقد رأيت من يقوم بالليل على المنارة ، فيعظ ويذكر ، أو
يقرأ سورة من القرآن بصوت مرتفع ، فيمنع الناس من نومهم ،
ويخلط على المنهجين قراءتهم ، وكل ذلك من المنكرات »

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

مؤسسة ثقافية تعمل على نشر نفايس الكتب القديمة والحديثة

دمشق - ص.ب ٩٦٢ - هاتف : ١١٠٤١

ق.س	تقدم
٢٥٠	في سبيل الاصلاح
٢٠٠	دمشق
٧٠٠	أخبار مصر
٣٠٠	من نفحات الحرم
٤٠	سلسلة حكايات من التاريخ
٢٠٠	روائع اقبال
١٥٠	الرق بيننا وبين اميركا
٦٠٠	أسواق العرب
١٥٠	ملخص ابطال القياس
	لابن حزم الاندلسي
١٠٠	مصور الدول العربية المتحدة
٢٥٠	العز بن عبد السلام
٧٥٠	صيد الخاطر ٣ أجزاء لابن الجوزي بتحقيق الطنطاوين
٨٠	نظام الحياة في الاسلام
٢٠٠	الربا
٥٠٠	الحجاب
٣٠٠	تفسير سورة النور

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع

في القاهرة : مكتبة دار العروبة

في بغداد : مكتبة المثني